حصاد القرن العشرين

الإبداعات الأدبية

٩

فؤاد شاكر



الدار المصرية اللبنانية

حصاد القرن العشرين

الإبداعات الأدبية

٩

الدار المصرية اللبنانية
16 شارع عبد الخالق ثروت - تليفون : 3910250
فاكس : 3909618 ص.ب 2022 - القاهرة
E- mail:info@almasriah.com
WWW. almasriah.com
رقم الإيداع : 20519 / 2004
الترقيم الدولي : 4 - 717 - 271 - 977
جمع وطبع : عربية للطباعة والنشر
العنوان : 7 - 10 شارع السلام - أرض اللواء - المهندسين
تليفون : 3256098 - 3251043
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى : ذو الحجة 1425 هـ - يناير 2005 م

حصاد القرن العشرين

الإبداعات الأدبية

9

فؤاد شاكر

الدار المصرية اللبنانية



تقــديــم

إبداع وإمتاع

شهـد العالم اختـلافـات كبيرة فى فنون القصة والرواية والمسرحيـة بين مطلع القرن العشرين ونهايتـه . وكان هذا أمـرا طبيعيا، نظرا لتغيُّرات كثيرة حـدثَتْ فى أسـاليب المعيشـة ، ونظم الحُكـم ، ووسـائل الاتصـال ، وتراكم الاكتشافـات العلمية، واتساع آفـاق التمدن والمعرفـة. فانعكس ذلك كله على أفكار الكُتَّاب والمبدعين والمنشئين ، وعلى تصوراتهم ومقاصدهم .

ولئن كانت القصة القصيرة بخصائصهـا، والرواية الطويلة بمعالمها، من الفنون التى عـرفتْهـا مصر والشرق العـربـى فى أوائل هذا القـرن بأنماطهـا المستَحْـدَثـة ، فإنها نمتْ وتطورتْ ، ثـم واكبتْ الجديد والمبتكَر فى عـالم متسارع الإيقاع عَجـول الملل، يبحث دائما عن التجديد وإن تَجاذَبه حنين إلى تراثه القديم ، ومَيْل إلى رؤية واقعه وأزمـاته ومشكلاته وطموحاته بنظرات عقل متفحص من جوانب متعددة، وسَبَحات خيال متقلب فى آفاق متغايرة .

وظهرت متألقـة أسماء كُتَّاب للقصة والرواية فى مصر والبلاد العـربية ، وانتشرت بين الناس مـؤلفـاتهم، وتُرجم كثير منها إلى لغـات أجنبيـة ، ونال

بعضهم جوائز وتقديرات محلية وعـالمية ، ومنها جائزة نوبل فى الأدب التى حصل عليها الأديب «نجيب محفوظ» سنة ١٩٨٨ .

وكــذلك المسرح الحديث، الذى ظهــر فى مصر لأول مـرة خــلال عصر الخديوى إسماعيل، لكنه كـان وافـدا غـريبـا أجنبيـا، ثم مـا لبث أن تعـرَّب وتمصَّر، ثم تحول إلى فن مصرى عـربى خالـص، بفضل مؤلفين ممتـازين، وفنانين مبـدعين أكْفـاء : فى الإخـراج المسرحـى ، والتمثيل ، وتنسيق المناظر (الديكور) وتصميم الملابس ، وإعداد المؤثرات والموسيقى، وتوزيع الإضاءة وتشكيل الأنوار والظلال ، والحركـة والسكون.. وغير ذلك من متطلبــات العمل المسرحى .

ومصر دائما – تاريخا ومصيرا وحظًّا وقَــدَرا – هى واسطة العِقــد بين إخــوانها وأخواتها من جيرانها وجـاراتها بالأقـاليم والدول المؤازرة ؛ وهُم بأمـانتهم وصِـدْقهم لا ينكرون عليهـا الريادة والقيـادة فى أمـور ومجالات وفنون ، ولا يبخسونها حقهـا – أخْذا وعطاء – فى الابتكار والإبداع والترقى – مــواكبــة للعصر – بما تَترك أو تُضيف ، بـلا إفــراط يوهـن أو يمسخ الشخصية ، ولا إمسـاك يُضْمِر أو يُفْضى إلى التخلف والجمود .

حول هذا كله تدور وتمضى أبواب وموضـوعات هذا الكتاب من سلسلة «حصــاد القـرن العشرين»، مع إلقـاء الضـوء على ميـادين إبداعيـة فى فنون القِصــة والرواية والمسرح والمسرحيـة، وتعـريف بنماذج من الرواد الكبـار، الذين ابتكروا وطوَّروا واجتهدوا فتألقوا ، واقتفى آثارهم قادمون مبدعون ، فى مصر وبلاد المنطقـة العربيـة ، ثم نماذج لأعلام وأعمال متميـزة من بلاد مختلفـة من العالم، الذى تشـابكت فيـه الثقافـات والابتكارات وتداخلت مع نهاية القرن، أكثـر وأسرع وأعمق – وأيضا أخطر – من أى عصر سـابق من عصور التاريخ . وليس عن تقصير أو إغفـال لم يُذكر فى الكتاب عدد أكبر من أسماء وأعمال المبـدعين من مصر والدول العربيـة ودول أخرى من العـالم، فهم كثيرون متألقون، يستحيل حَصْر أسمائهم ورصْد أعمالهم – أو بعضهـا – فى كتاب واحد مرقوم.

وتظل الأجيال دائما، تذكر بالفضل والتبجيل، أولئك الذين أسهموا - أو يُسْهمون - فى ارتقاء تلك الآداب والفنون، التى أَمتعَتْ وأَسعدَتْ، وأيقظَتْ ونبَّهت ، وسَمَتْ فهذَّبَتْ، وكانت مرآة عصرها، ووثيقة قيِّمة تعتز بها الأمم والثقافات والشعوب .

القاهرة - نوفمبر ٢٠٠٠

فؤاد شاكر



عزيز عيد : أستاذ جيل الرواد للنهضة المسرحية (وبالتالى إسهام الأدباء والكتاب) مثل يوسف وهبى ، نجيب الريحانى ، زكى طليمات ، أحمد علام ، حسين رياض ، فاطمة رشدى ، عزيزة أمير ، فردوس حسن ، علوية جميل ، وغيرهم .

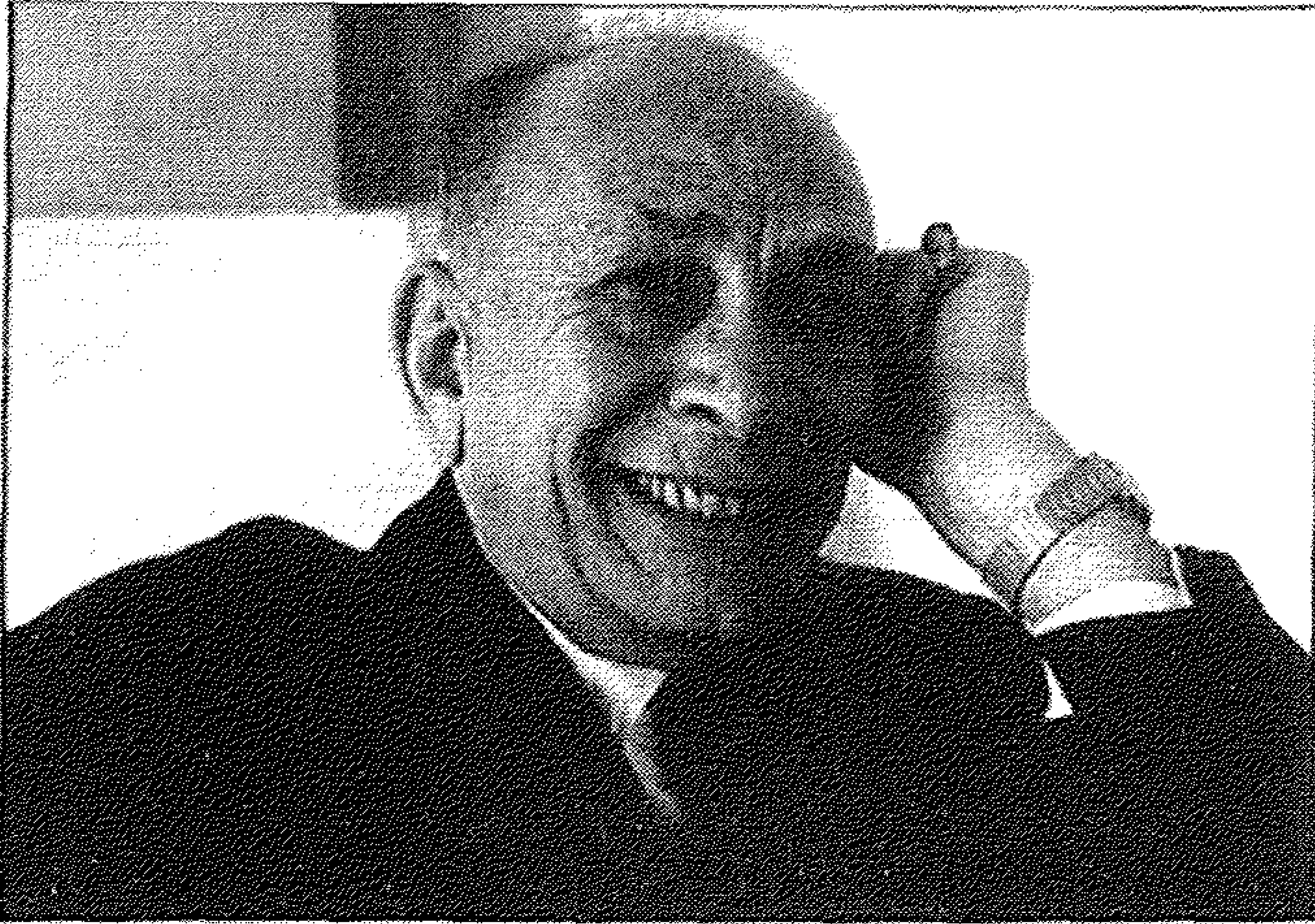


محمود المليجى وشادية

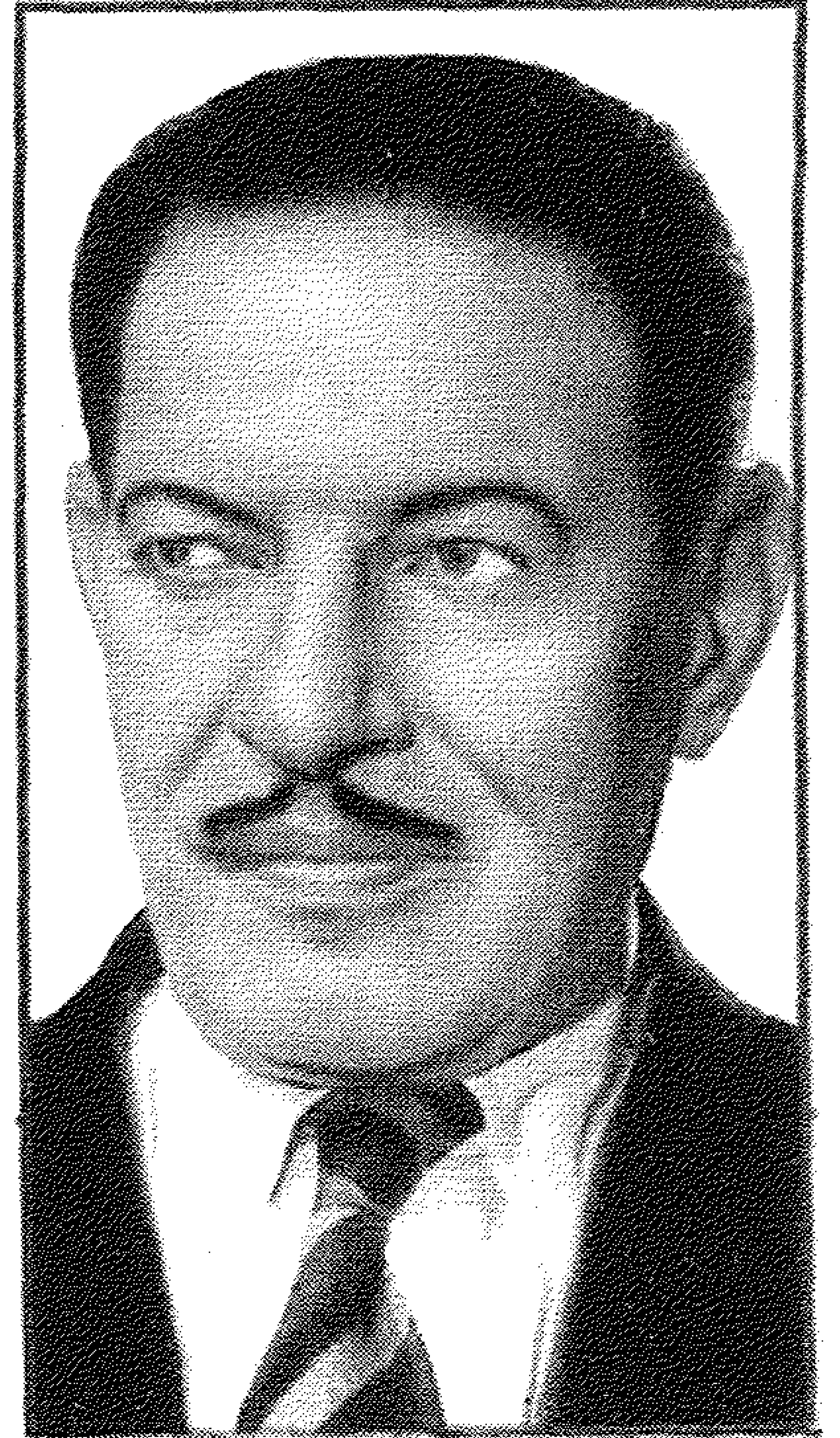


يوسف وهبى

من الرواد الأوائل للمسرح العربى



زكى طليمات



نجيب الريحانى



أحمد شوقى



بشارة واكيم



زينات صدقى وعباس فارس



حسين رياض



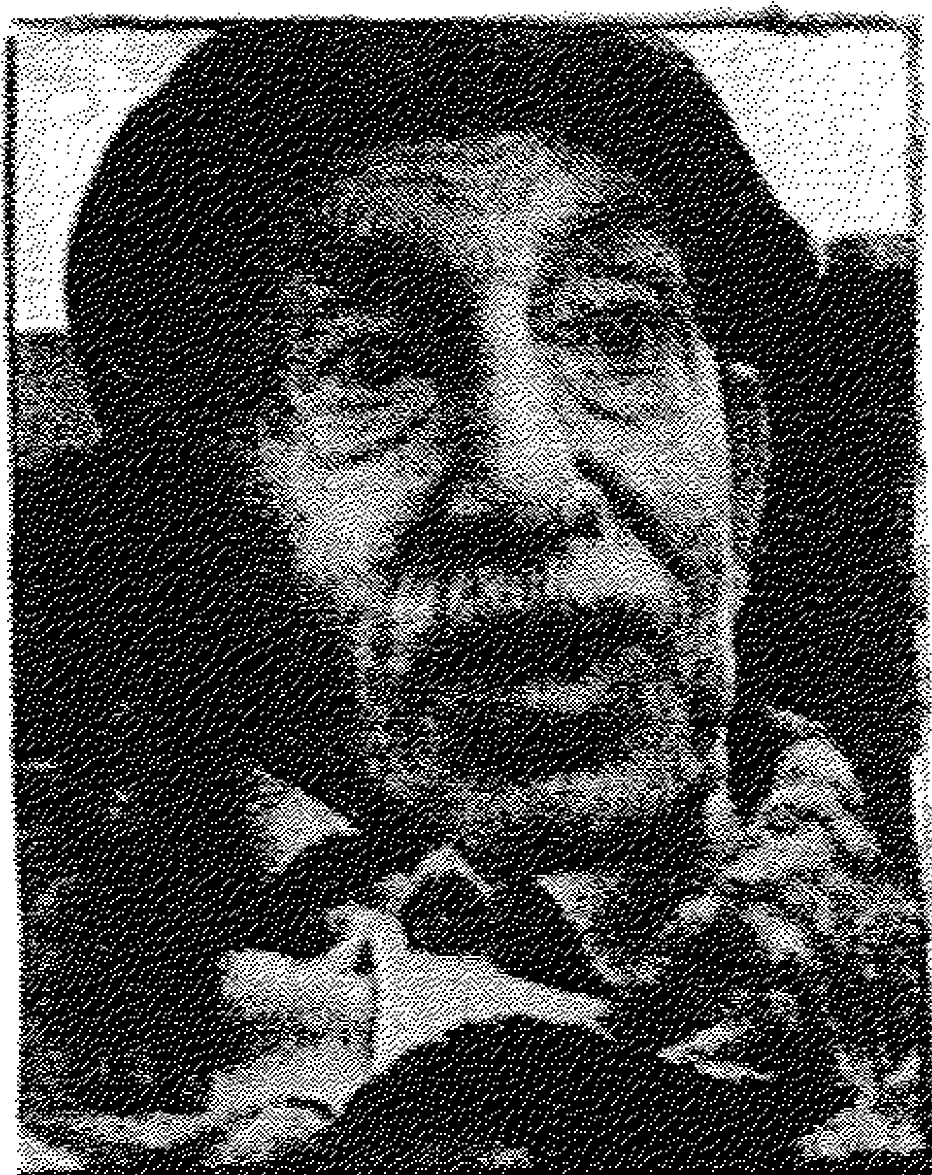
فريد شوقى



إسماعيل ياسين



على الكسار



توفيق الحكيم



حسن فائق



فاطمة رشدى



أمينة رزق



زكى رستم



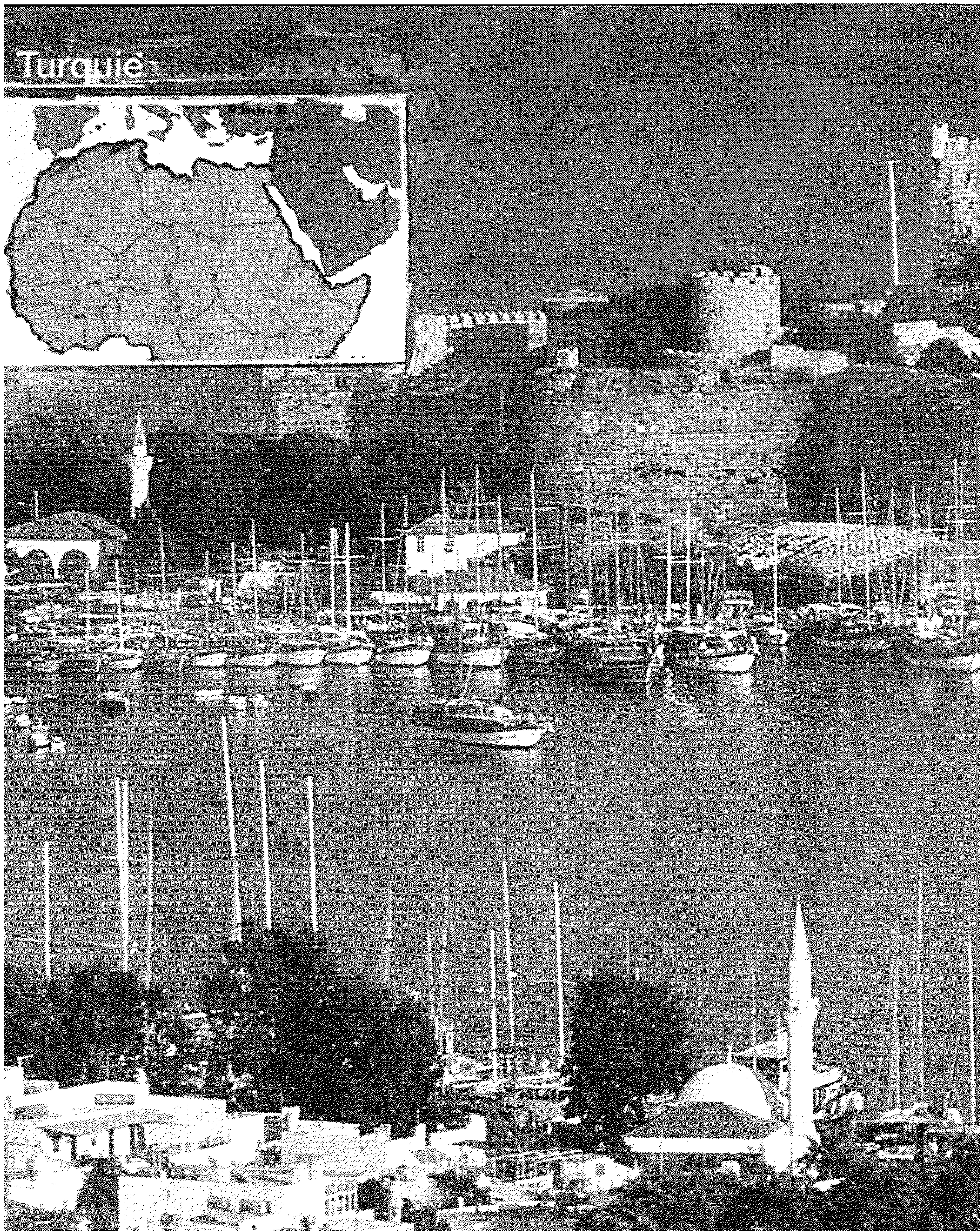
توفيق الدقن

أجواء وأنواء (*)

إن القصــة - قصيرة أو رواية طويلة - والمسرحيـــة عمل أدبى له نصيب مبتور أو موفور من الرقىّ أو الانحطاط، من التألق أو السَّفْاف، أسلوبا ولغة ومقصدا ومـوضـوعـا وحَبْكة، وخيالا وصياغـة وإبداعا وجِـدَّة . وإذا كانت القصة الروائيـة ثمرة فكر أديب أَريب مبتكِر ، فهى بلا شك تنطوى فى بعض جـوانبهـا على ملامح من البيئة التـى وُلدت فيها، والعصر الذى عـاش فيـه مُبْدعها، والأحوال الاقتصادية والاجتماعيـة والسياسية والثقافية والفكرية التى تأثر بها أو أثَّر هو فيهـا ، مهما حلَّق الخيال فى مـاض بعيد أو نحـو أُفق مصطنَع غريب ؛ ومهما لجأ إلى الإبهام والرمز، أو الإيهام بالقفز فوق الزمان والمكان . ولما كـانت القصــة - والـرواية والمسرحيـة - المصرية والعـربيـة الحديثـة لم تظهر - كما سنَرى - إلا مع طـلائع القرن العشرين، واستغـرق نموها ونضجها عددا من السنين ربما تجاوز ثلاثة عقود ، فقد يكون مناسبا مع تتبُّع حصاد هذا القــرن، إلقاء نظرة من قــريب على أجواء تلك الفترة التى تمتد حتى منتصفـه ، من حيث العوامل والظروف التى شكَّلـت تلك الأجواء ونفختْ فيها قوة مؤثِّرة، وطاقـات دافعة محركة ، ولم يكن الأديب أو الفنان أو المجتمع كله عنها بمعْزل .

قبل مطلع فجر القرن العشرين، كان الاتجاه الثقافى والفكرى العام الغالب وطنيا إســلاميا، يكاد يكون فى مَنْأى عن الثقافـات الأجنبية وأفكارها، أو على

(*) أنواء : جمع نَوْء (بفتح النون) وهـو سقـوط نجم فى السماء عن مـوقعـه فى المغـرب مع الفجـر وطلوع رقيبـــــه أو نظيره من المشرق من ساعته فى كل ثلاثة عشر يوما ما خلا الجبهة فإن لها أربعـة عشر يوما، وكـانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى السـاقط أو الطالع منها - المعجم .

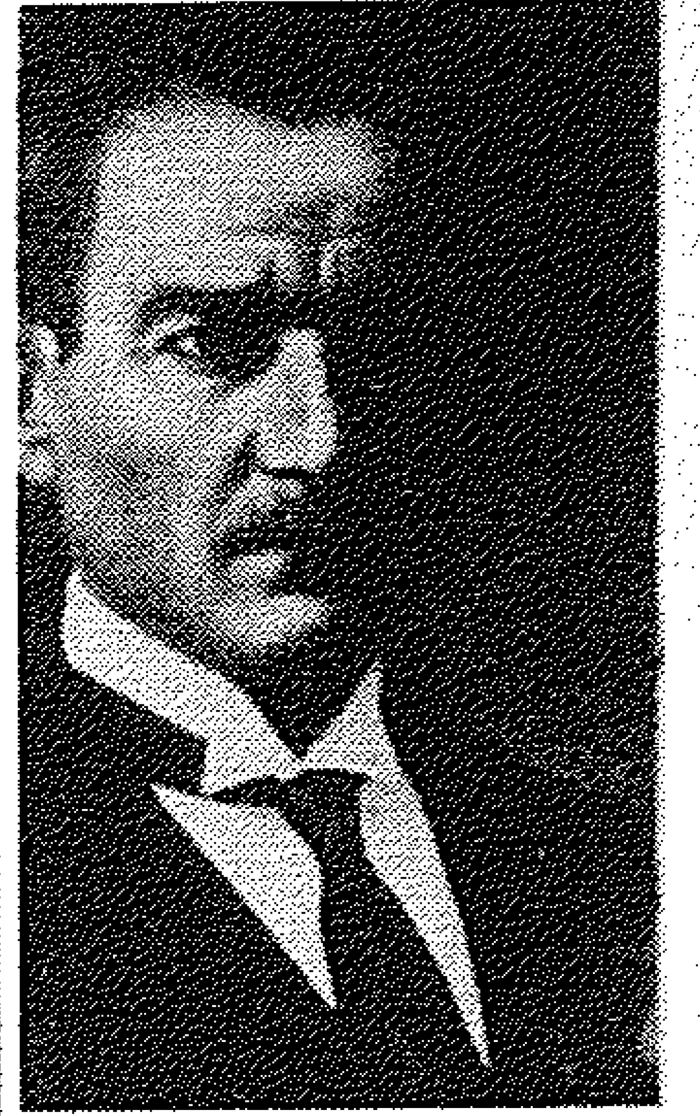


تركيا .. مقر الدولة العثمانية التى
وهَنَت فزالت .

الأقل غير عابئ بها ولا مكترث بالتعرف عليها. وكانت مصر - والدول العربية - تحت مظلة الدولة العثمانية - دولة الخلافة الإسلامية - التى ظلت تُرهقها وتَذود عنها، تتسيدها وتسد الطريق على من يتربَّص بها . وعلى الرغم من ضَعف دولة الخلافة وتفاقم أمراضها الخطيرة المزمنة - سياسيا واقتصاديا وإداريا وعسكريا وفكريا - إلا أنها كانت فى نظر الشعوب التى عاشت قرونا تحت لوائها : مركز الخلافة، ومَوئلا للسَّنَد والمَدَد ، ورمزا للرابطة التى تجمع بين المسلمين، شعوبا وقبائل وأمصارا وعواصم متنائمة.

فلما ضرب الاستعمار المتوثب ضربته، وتقاسمت بريطانيا وفرنسا - ثم إيطاليا - ميراث الدولة العثمانية إبان احتضارها ثم بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى كما سبق تفصيله فى أجزاء سابقة من هذه السلسلة، انحصرت دولة الخلافة وحوصرت فى تركيا . ثم أُزيلت الخلافة، وحُجب بل طورد بلا هوادة كل مَظْهر للإسلام فى الحياة اليومية والرسمية والسياسية التركية (دون غيره من الأديان)، وحتى الحروف العربية التى كانت تُكتب بها اللغة التركية، استبدلها الغازى مصطفى كمال أتاتورك - الثائر على الخليفة والخلافة - بحروف لاتينية، وارتدى القبعة الأوروبية، ومنع بشدة حجاب المرأة، كما منع الأذان للصلاة بالمساجد، وألغى المدارس الدينية الإسلامية والأوقاف ، ووضع دستورا فصَل فيه بقايا الدين عن الدولة، وأقام الجيش حارسا مترصدا متكفلا بتطبيق الدستور وحماية الشكل والمنهج الجديد للدولة التى كانت بالأمس منافحة عن الإسلام حاضنة للمسلمين.

وأعلنت بريطانيا - بلا مبرر أو حق - الحماية على مصر فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ وأعلنت معها انتهاء السيادة التركية عليها. وإمعانا فى فصل مصر عن تركيا وعن العالم العربى، قررت - بلا سند قانونى وإنما بقوة الاحتلال والقهر - خلْع الخديوى عباس وتولية الأمير حسين كامل عرش مصر ومنحتْه لقب «سلطان»، وأُعلنت الأحكام العرفية ووضَعت الصحف


مصطفى كمال أتاتورك


الخديوى عباس


الأمير حسين كامل



جنود الاحتلال البريطانى فى منطقة الأهرام بالجيزة.

تحت رقابتها، واستقدمت فرقا عسكرية من مستعمراتها إلى جانب جيشها القائم المحتل. فكان طبيعيا أن يضيق المصريون بالاحتلال، ويمقتون فرض الحماية، ويألمون فى أنفسهم - أو معظمهم - لزوال الخلافة الإسلامية وإن كانت واهنة غيبية رمزية. فظَل الرأى العام لفترة غير قصيرة على ولائه للخلافة معنًى ومَظْهرا وقيمة ؛ ومن جانب آخر أعرض فى سخط وازدراء عن «السلطان» المصرى الذى رضخ للاحتلال وخضع لأوامره وسيطرته، وهو احتلال لم يُخْف كيده للعروبة، وللإسلام، وللمسلمين؛ ولم يستر نواياه فى تحقيق مصالحه الاستعمارية أولا وفوق كل شىء سواها، ولو بالقوة والجبروت والإرهاب والقهر ؛ ولم يألُ جهدا فى تشويه و «خلخلة» الثقافة العربية الإسلامية الراسخة فى أذهان ونفوس ومشاعر المصريين وشعوب العروبة أجمعين (فى سياسته ومشروعاته التعليمية، وإطلاق ألسنة وأقلام عملائه فى الصحف الموالية له لافتعال موضوعات ومناقشات تثير النزاع والجدل مثل : جمود اللغة العربية، وتخلف التشريعات الدينية، والدعوة إلى التغريب وتقليده فى قشور المظاهر المعيشية والسلوكية و «التحررية»..). ووجَد من بعض ضعاف النفوس والمنتفعين من نفوذه ونقوده أبواقا

وأقلاما تنشر آفات الشقاق والعراك بين الحين والحين، أو تعلو أصواتها صاخبة فى كل مناسبة وبغير مناسبة، تزلُّفا ونفاقا وتقَرُّبا للإنجليز، ووصْفهم – بلا وازع من ضمير أو حياء – بأنهم (أى الانجليز) ذوو أمانة وعدالة وتسامح، ورعاية لمصالح المصريين وحمايتهم وتحضُّرهم. ولم يَحْفل الأدباء والمثقَّفون الوطنيون بتلك المزاعم والأكاذيب. وبذلوا جهدهم – فى ظل سلطات الغاصب المحتل وأشياعه وضغوطه – لتهيئة الرأى العام وحَفْزه على مناوئة الاحتلال ومعرفة نوايا الانجليز ومكرهم (١).

فى تلك الفترة – فى أوائل العَقد الثانى من القرن العشرين – تباينت آراء وكتابات الأدباء والشعراء والمثقفين، نتيجة للدوافع أو المنافع، أو بسبب البواعث المرتبطة بالرؤَى وفهم الوقائع، أو هى تضاربت واختلطت كرد فعل طبيعى للأحداث الكبيرة المعقدة المتلاحقة التى شهدتها تلك الفترة – محليا

---

(١) فى إيجاز شديد، نشير إلى بعض الموضوعات الرئيسية التى كتب فيها الأدباء والشعراء الوطنيون المخلصون لبلادهم وعروبتهم وأمتهم، وإن لقى بعضهم إيذاء وعَنَتا ومَضرة:

- إلغاء الخلافة الإسلامية ومحاولة فصل مصر – وبالمثل كل الدول والشعوب العربية – عن إخوانها وجيرانها.
- إجبار المصريين – بالإرهاب والسياط والقتل أحيانا – على «التطوع» لخدمة جيوش الإنجليز أثناء الحرب العالمية الأولى وتجنيد بعضهم عُنوة للقتال (فى حرب لا دخل لمصر أو العرب بها) فى أوروبا، بل ساقوهم مكرهين لقتال إخوانهم المسلمين عند قناة السويس، وفى الحجاز، والشام، والعراق، والدردنيل، وليبيا. فضلا عن نهْب الدواب والأعلاف والغلات من القرى والمدن. ومات آلاف من المصريين
- تسخير العمال المصريين – بلا أجر أو إطعام – لمد خطوط السكك الحديدية التى تتطلبها تحركات جيوش الإنجليز والحلفاء (فى مصر وخارجها)، ولنقل الذخائر والمؤن خلف خطوط القتال. مات آلاف آخرون.
- اتخاذ الإنجليز القاهرة مركزا لجاسوسيتها فى المنطقة، ولتنظيم عمليات التخريب والتدمير والاعتقال والاغتيال داخل الدول العربية والإسلامية.
- فرض الانجليز على المصريين التبرع للصليب الأحمر ولأُسر جنود الحلفاء المنكوبين ولفرسان القديس يوحنا. وصار لهذه «التبرعات» يوم مشهود فى كل سنة تقام فيه الاحتفالات التى كان يشهدها عملاء الإنجليز وأشياعهم وصنائعهم والمنافقين والمنتفعين. وجمع رجال الإدارة والسلطة الأموال قسرا وقهرا مما جعل مصر تأتى فى المرتبة الثانية عالميا سنة ١٩١٨ (بجملة ٢٢٦ ألف جنيه وهو مبلغ ضخم آنذاك) فى جمع هذه «التبرعات».
- الاعتداء الجائر على المصريين (من جنود الاحتلال وهم من الإنجليز ومن شعوب مستعمراتهم فى استراليا وأفريقيا ومالطة والهند، وكثيرا ما كانوا يتجولون سكارى ومتغطرسين فى المدن والقرى) وشيوع حوادث السلْب والنهب والغصْب والاغتصاب، وضياع حقوق المواطنين المصريين عند اللجوء إلى المحاكم أو مقاضاة الإنجليز وأتباعهم وكل الأجانب.
- السيطرة على الحكم والحكومة والقصر، وعلى ميزانية الدولة، مع إهمال التعليم والصحة ومصالح الشعب، وفرْض الأحكام العرفية، وقمع الاحتجاجات والأصوات الوطنية ...

وعالميا – وكان لها تأثير بالغ على العقول والقلوب ، ومصائر الدول والشعوب .

ومثال واضح على ذلك كله، موقف الأدباء والشعراء من التعبير عن بزوغ نجم الضابط الشاب مصطفى كمال فى تركيا وانتصاراته الباهرة على اليونانيين الذين احتلوا قطاعات ومدنا كبيرة داخل الأراضى التركية وعاثوا فيها سلْبا ونهبا واغتصابا وقتلا وإحراقا، فأجْلاهم بقيادته لجيش من الأتراك جَمَعه من الشتات، وطردهم مهزومين مدحورين (فى سنة ١٩٢٢)، فهلَّل له المصريون وكل العرب والمسلمين، ووصفوه «بالغازى»، والبطل، والفاتح . بل إن الشاعر أحمد شوقى شبهه بخالد بن الوليد – رضى الله عنه – فى قصيدة مطلعها :



نشرت هذه الصورة المرسومة لأمير الشعراء « أحمد شوقى » فى أبريل سنة ١٩٢٦ ومعها هذه الكلمات : « ابتهاج عالم الأدب بصدور (ديوان) الشوقيات » .

الله أكبر كم فى الفتح من عَجَبِ ... يا خالد التُّرك جَدِّد خالد العَربِ

وفى ختامها يوجه باسْم المصريين وكل العرب والمسلمين فى أرجاء العالم تحية إلى «خالد التُّرك» الباسل المنتصر يقول فيها :

تحيـةً أيها الغازى وتهنئة ... بآية الفتح تبقى آيةَ الحِقَبِ (٢)
وقَيِّمًا مِن ثناء لا كِفاء له ... إلا التَّعجب من أصحابك النُّجُبِ (٣)
.. أخرجْتَ للناس مِن ذُل ومن فشل ... شَعبا وراء العوالى غير مُنْشَعِبِ (٤)
.. فأرَّج الفتْح أرجاء الحجاز وكم ... قضَى الليالىَ لم يَنْعَم ولم يَطِبِ (٥)
.. هَزَّتْ «دمشق» بنى «أيوب» فانتبهوا ... يهنِّئون « بنى حِمْدان» فى «حَلَبِ» (٦)
ومُسْلمو الهند والهندوس فى جَذَل ... ومسلمو مصر والأقباط فى طَرَبِ (٧)
ممالكٌ ضَمَّها الإسلامُ فى رَحِمٍ ... وشيجةً ، وحَواها الشرق فى نَسَبِ (٨)

---

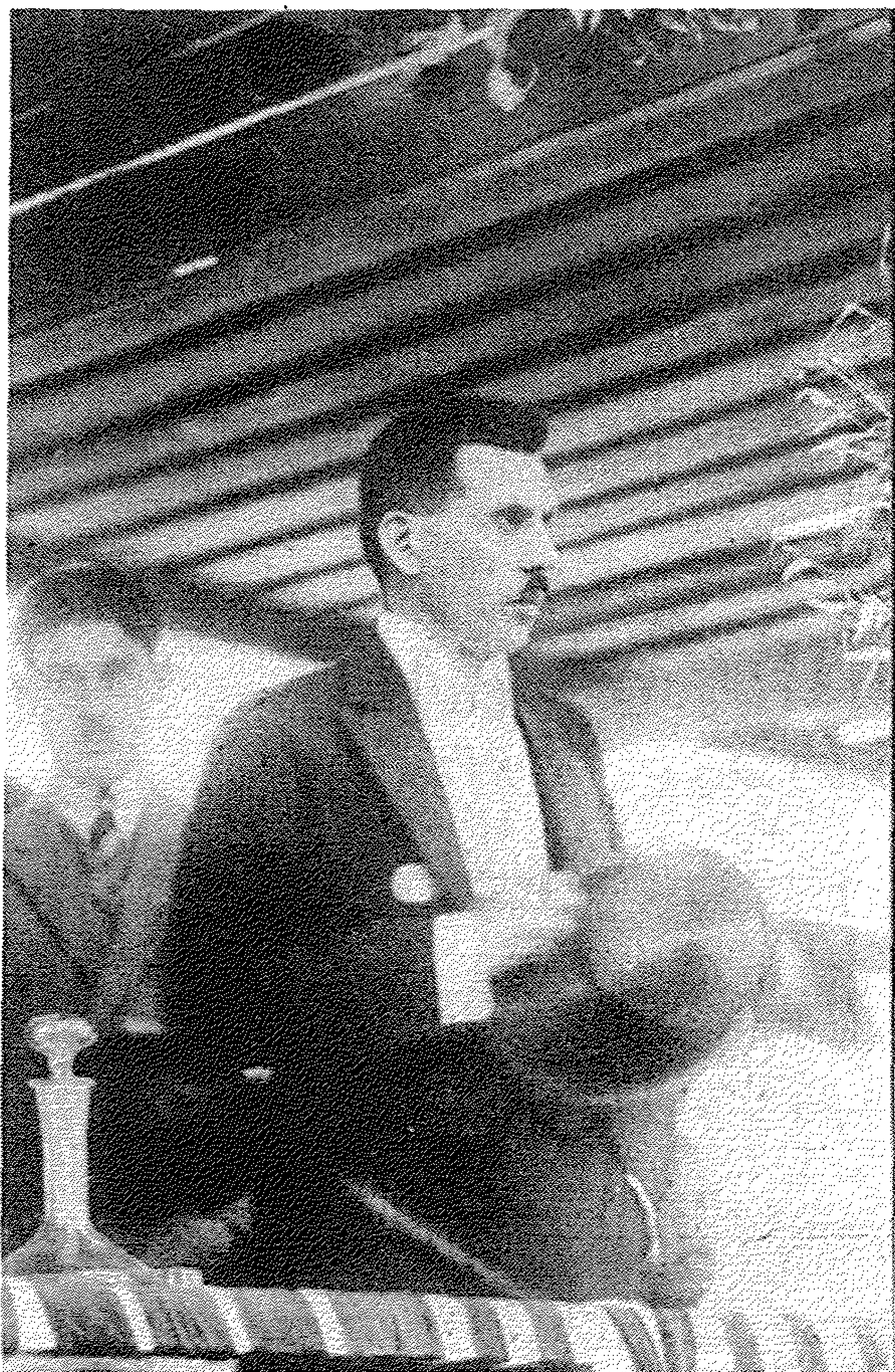
(٢) الحقب (بكسر الحاء وفتح القاف) : جمع حِقبة وهى السنين الطويلة ، أى أن هذا النصر سيبقَى معجزة خالدة .
(٣) لا كِفاء له : لا جزاء يناسبه – النجب (بضم النون المشددة) : جمع نجيب أى الكريم العظيم .
(٤) غير منشعب : متماسك متحد .
(٥) أرج (بفتح الراء المشددة) : نشر الأريج والعطر .
(٦) أيوب : إشارة إلى صلاح الدين الأيوبى المظفر .
(٧) جذل (بفتح الجيم والذال) : فرحة ابتهاج .
(٨) وشيجة : رابطة وصِلة .

ومن طريف ما كتبه الأدباء ، مقال نشرته صحيفة «اللواء» فى سبتمبر سنة ١٩٢٢ بقلم «فكرى أباظة» الصحافى الأديب وجاء فيه ساخرا من اليونانيين (ويسميهم الأروام) : «.. خير لكم أيها الأروام أن تهَجروا من اليوم ميادين الحروب إلى «براميل» المشروب (أى النبيذ)، وأن تستعيضوا عن فتح بلاد الأبطال المغاوير بفتح «الخمامير» وتربية أسمن «الخنازير»، وأن تسدُّوا نفقات الصليب الأحمر من بيع «البصل» الأحمر ، وأن تَعودوا كما كنتم «جرسونات» لا أن تعيشوا «جنرالات» بدون «آليات». أنتم أيها الأروام فى العَدْو أسرع من الخيول . فقد سابقتم الأتراك فى مسافة ٤٠٠ ميل، فوصلْتم «أزمير» قَبْلهم (أى فى الهرب منهم)، وقَفَزتم من الشاطئ الآسيوى إلى جُزر الأرخبيل.. إنكم النوابغ المبَرَّزون فى الجَرْىِ والنط والقفز .. فهنيئا لأُمكم بريطانيا بكم . فقد أثمرت التربية السكسونية فى الأجسام الرومية..»! ثم يختم مقاله بهذه التحية والنداء للأتراك : «حياكم الله أيها الأبطال، أبطال الأناضول : أنتم أبناء الموت، وبنو الكريهة (الشدة فى الحرب)، وخَوَّاضو الغَمَرات (شدائد الموت) ! أنتم بُناة الحقائق ، وأُباة الذل، وحَمَلة الصارم البتَّار . يمينا، لا تُعيدوا السيف إلى قِرابه (إلى غِمْده)، حتى تُعيدوا كل وطن مغتَصَب إلى أصحابه وطُلابه. أيها الأعداء جميعا : إن تركيا لم تَمُت ، وإن تركيا لن تموت ».


فكرى أباظة

هكذا كانت مشاعر كثيرين من أهل مصر والشرق والعروبة والإسلام التى عبَّر عنها فريق من الأدباء والشعراء والكُتاب. فماذا حدث بعد ذلك ؟ :

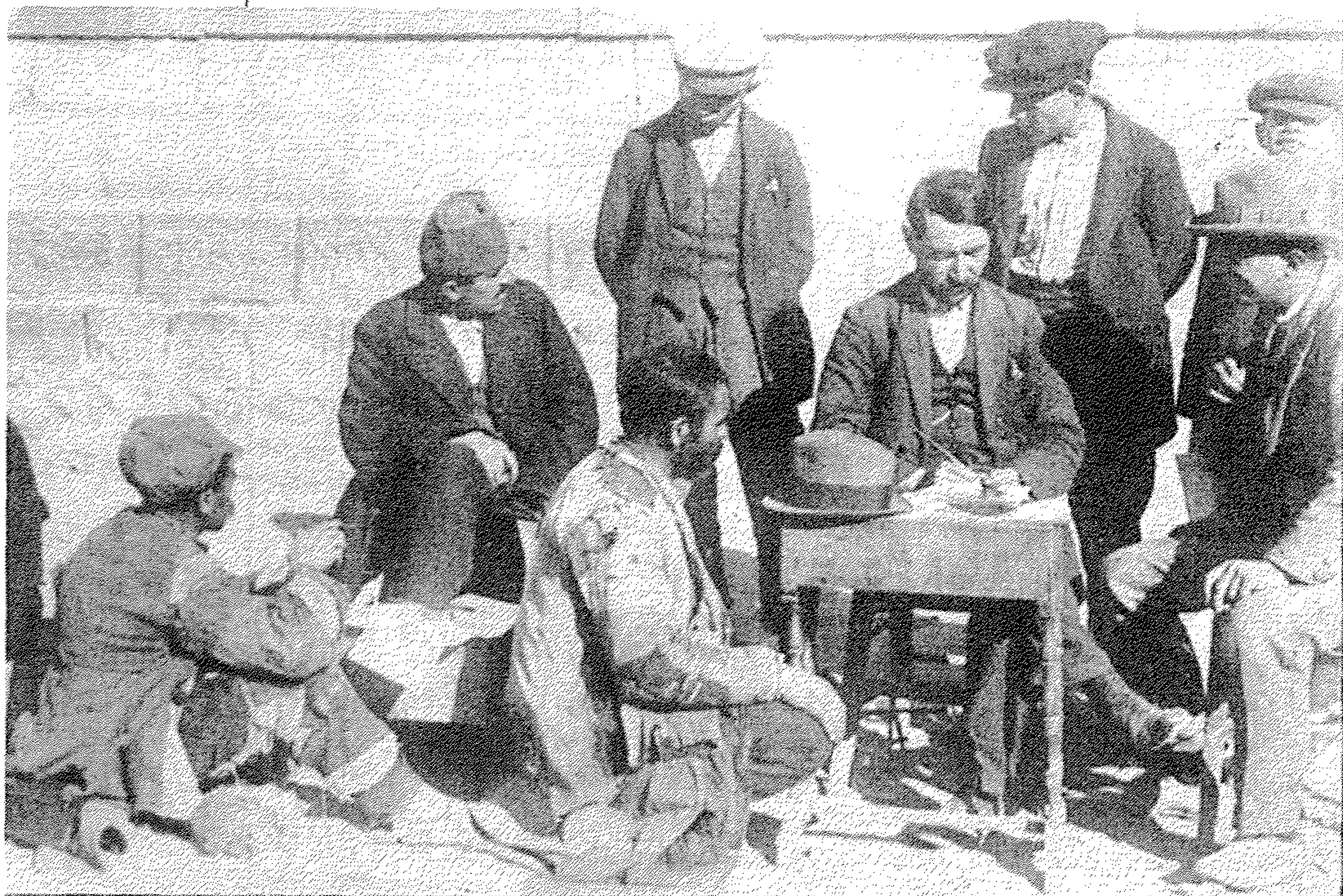
عندما كشف «الغازى» - «الفاتح البطل»، «خالد الترك» - عن فكره ومقاصده، فألغَى الخلافة واعتقل الخليفة، وأعلن الجمهورية التركية العلمانية، وأدار ظهره للعروبة وللإسلام. هنالك فقط ذُعر الناس فى بلاد الشرق من هذا التحول الفُجائى المخيب للآمال . وقال أحمد شوقى - نفسه - قصيدة غاضبة باكية حزينة يخاطب فيها «الخلافة» بعد أن أسقطها مصطفى كمال أتاتورك، ومطلعها :



فى ديسمبر ١٩٢٥ نشرت مجلة « المصــور » المصرية هاتين الصورتين مع التعليق على الأولى (يسارا) : «الغــازى مصطفـى كمال باشـا رئيس الجمهــورية (التركية) ليلة الاحتفال بعيــد الجمهورية وقد لبس الفـراك وأمسك بيــديه قبعــة الحفــلات الرسميــة .. حسب التقاليد الأوروبية والأمريكية » .

وتحت الصورة الثانية كان التعليق :

« الشعب التركى فى ملابسه الجديدة : فريق من عامة الشعب فى تركيــا بمــلابسهم الجديدة وقــد أصبح الجميع يلبسون الملابس الافرنكية والقبعات » .



عـادتْ أغـانى العُرْس رَجْع نُـواحِ ونُـعِيـتِ بـين معـالـم الأفـراحِ
كُـفِّـنْـتِ فى لـيل الزِّفـاف بثوبـهِ ودُفِنْتِ عند تَـبَـلُّج الإصبـاحِ (٩)
.. ضَـجَّتْ عليـكِ مـآذنٌ ومنـابـرٌ وبكـتْ عليـكِ ممـالكٌ ونَـواحِ
الهـند والِـهَـةٌ ، ومصر حزينـةٌ تبـكى عليـكِ بمـدْمـعٍ سحَّـاح
والشـام تسـأل ، والعراق وفارس : أَمحَا من الأرض الخلافـةَ ماحِ ؟!

ثم يهاجم شـوقى «الغازى» أتاتـورك – الذى أصبح رئيسا للجمهـورية الجديدة التركيـة – هجومـا عنيفـا ، معتـذرا عن مدحـه له بالأمس القـريب ودفاعه الشديد عنه . يقول :

أَسْـتَـغْـفِـرُ الأخلاق ، لستُ بجـاحـد مَن كنتُ أَدْفـع دونـه وأُلاحـى (١٠)
مـالِى أُطَـوِّقـه المَـلام ، وطـالمـا طوقْـتُـه المـأثـورَ من أَمْـداحى ؟
أأقـولُ من أَحيـا الجماعـة مُـلْحِـدٌ؟ وأقـول مَـن رَدَّ الحقـوق إبـاحى؟
الحـق أَوْلَى مـن ولـيِّـك حُـرْمـةً وأحـق مـنـك بنُـصرة وكفـاح
فامْـدح عـلى الحـق الرجـالَ ولُمهمـو أو خَـلِّ عنـك مواقـفَ النُّـصَّـاح
.. إن الغـرور سقَى الرئيـسَ بكأسـه كيف احتيالُكَ فى صَريع الكاس ؟!(١١)
نَـقَـل الشرائـع والعقـائـد والقُـرى والناسَ نقْل كتـائـبٍ فى السَّـاح (١٢)
تـركَـتْـه كالشبـح المـؤلَّـه أمـةٌ لم تَسْـلُ بعـدُ عبـادةَ الأشبـاح
هُم أطْلَـقُـوا يـده كقيـصَر فيـهمو حـتى تنـاول كـلَّ غـيرِ مُـبـاح
غَرَّتْـه طاعـاتُ الجُمـوع ، ودولـةٌ وجَـدَ السـواد لهـا هَـوَى المُرْتـاحِ

---

(٩) تبلُّج : إشراق ووضاءة .

(١٠) أُلاحى : من الملاحاة أى الملاعَنَة ، ومقصد شوقى : كنت ألْعن سابقا مَن يذمه ويعيبه .

(١١) كيف احتيالك : ما حيلتك وماذا تَصْنع ؟

(١٢) فى الساح : أى فى ساحات القتال .

وإذا أخذَتَ المَجْـد مـن أُمِّيـــةٍ — لم تُعْـطَ غـيرَ سرابـه اللمَّـــاحِ

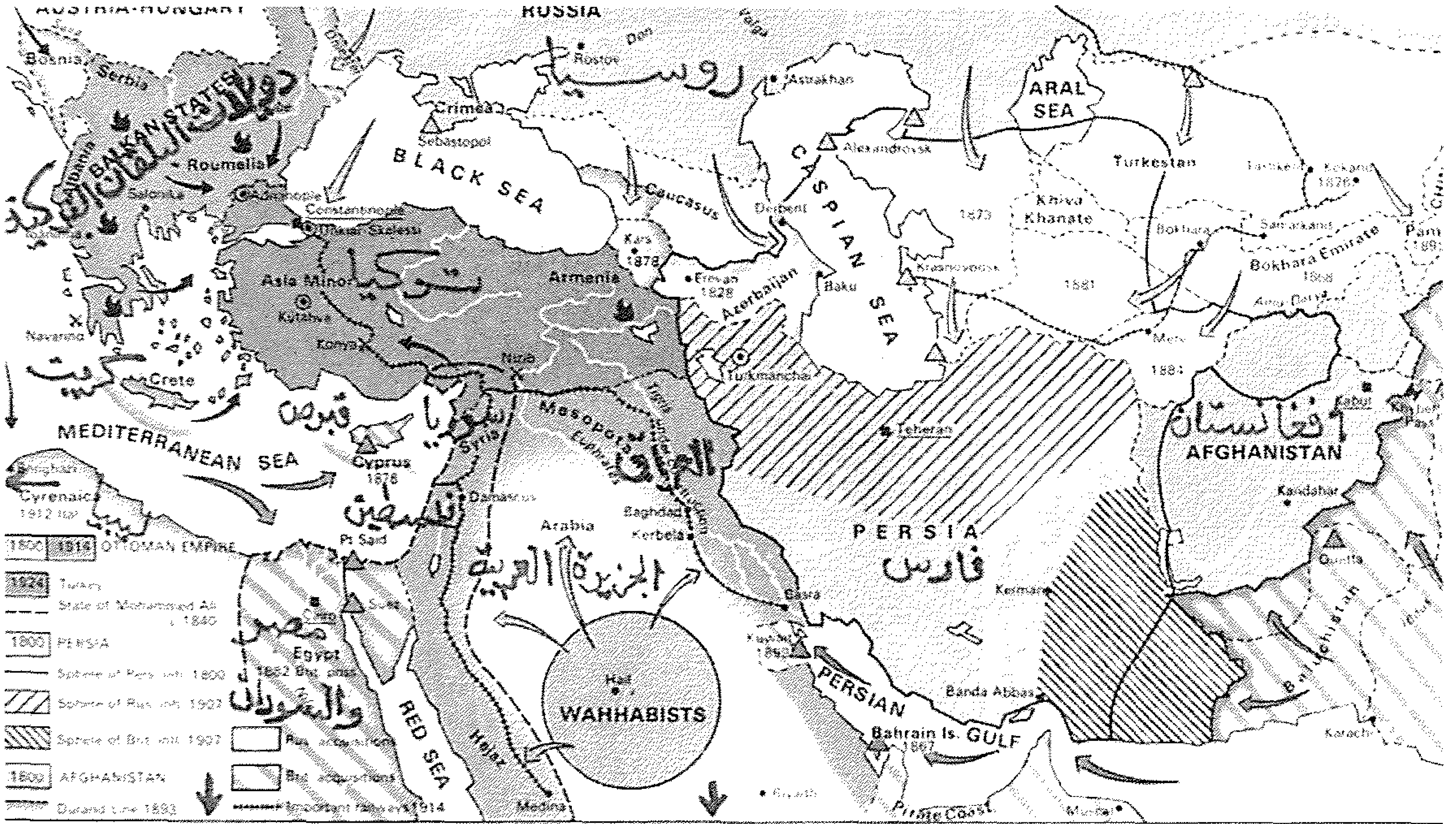
.. لا تَبْـذُلوا بُـرَدَ النـبيِّ لعـاجِــزٍ — عُــزُلٍ ، يُـدافَع دونه بالـراح[١٣]

بالأمسِ أوْهَى المسلمـين جراحـــةً — واليـوم مــدَّ لهـم يَـدَ الجـرَّاح

فَلَتَسْمَعُنَّ بـكل أرضٍ داعيــــــا — يدعو إلى «الكذاب» أو «لسَجاحِ»[١٤]

ولتَشْـهَـدُنَّ بكـل أرضٍ فـتنـــةً — فيهـا يُبَـاع الدِّيـن بيـعَ سَـماح

يُفْـتَى عـلى ذَهـب المعـزِّ وسيفـه — وهَـوى النفوس ، وحِقْدها المِلحاحِ



بعض مناطق الدولة العثمانية (التركية) سنة ١٩١٤ : (من فارس (إيران) شرقا إلى منابع النيل جنوبا وتونس غربا والنمسا – المجر شمالا) .

(١٣) بُرد (بضم البـاء) جمع بردة وهى كسـاء أو عبـاءة، ويقصـد بها شـوقى منصب الخلافـة : والعاجز الأعزل هو الأمير «حسين بن على» شريف الحجاز الذى استماله الإنجليز وأطمعوه فى تولى منصب الخلافـة إذا تحالف معهم ضـد تركيـا (الدولة العثمانيـة) فى الحرب العظمى (العالمية الأولى) وقد فعل، ثم اكتشف أنهم خدعـوه، بل استغلوه بخسَّة لتهدئة ثائرة المسلمين وتفريق كلمتهم ضـد بريطانيـا التى حـاربت سلطانهم ورمـز وحـدتهم، واكتشف أيضـا أن الإنجليز كانوا يتفاوضون سرا معه ويُمَنونه، وفى الوقت نفسه كانوا يتفاوضون ويدبرون مع فـرنسـا خطة تقسيم النفـوذ فى الشرق الأوسط من ميراث الـدولة العثمانيـة، وفى الوقت ذاته يتفقون مع اليهود وزعمائهم الصهيونيين على إعطائهم فلسطين التى أوهموا الأمير حسين أنها ستكون جزءا من مملكته الواسعة ، فصار فى عزلة مريرة لا يملك دفاعا .

(١٤) الكذاب : هو مسيْلمـة الكذاب مدَّعى النبـوة، وسجاح : امرأة ادعـتْ أيضا النبوة ، والرمـز هنا واضح يقصـد به دعاة البـاطل والمتطلعـون إلى منصب الخلافـة وكان من بينهم الملك فـؤاد فى مصر.



دعاة التغرب والفرنكة : نُشرت هذه الصورة (العليا) فى مصر – فبراير ١٩٢٦ – وتحتها هذا التعليق : « الحفلة التى أقيمت أخيرا فى سراى الجزيرة مِلك الأمراء آل لطف الله وقد دام الرقص والطرب فيها إلى قرب الفجر وخرج الجميع شاكرين ما لقوا من الحفاوة .. » . وإلى اليسار : صورة بعض المواطنين المصريين البسطاء الأجراء (غالبية الشعب) الملزمين بالتجنيد دفاعا عن الوطن وعن هؤلاء المتأوربين .

فى هذه الفترة المضطربة المائجة بالتطورات والوقائع والنكبات، سادت فى مصر والشرق تيارات عاتية عاصفة، باعَدَتْ بين الناس فى الرأى والفكر والميْل، وفى مقدمتهم كالعادة : الأدباء والكتاب والمثقفون والموجِّهون ، فضلا عن الساسة والمشتغلين بالسياسة ، وعلماء الدين . ويمكن تقسيمهم إلى ثلاثة اتجاهات أو ثلاث طوائف وفئات .

طائفة التقليديين المتجمدين ، الذين يرفضون أى إصلاح أو تجديد فى مواكبة متغيرات العصر ، حتى ولو لم يخالف هذا الإصلاح جوهر العقيدة ومبادئها وأصول شريعتها، بل حتى وإن كان فى هذا التجديد والإصلاح إحياء لنهضة الدين الحنيف وحضارته الإنسانية العملية ، وتنقيتها من تكلُّسات الجهل، وتخرُّصات الوهْم ، وتحجُّرات البِدَع . وتضم هذه الطائفة كَثْرة غالبة من علماء الدين، وزعامات الطرق الصوفية وأشياعها، ومعظم العامة من الشعب الذين هم على آثارهم مُقْتَدون . ولم يكن هؤلاء حَجَر عثْرة أو عقبة كأْداء فى سبيل النهوض والارتقاء وحسْب، وإنما كانوا مثالا خادعا ظالما على أن «الدين» هو سبب التخلف، وأن «شريعة» القرون الماضية قد عفا عليها الزمن ، وأن «التراث» القديم كله - بخيره وشروره - يجب أن يُحْرق أو يُلْقَى به فى بحار الظلمات . وهذا ما نادت به الطائفة الثانية .

إنها طائفة الذين «تغرَّبوا» أو «تفرْنجوا»، إما فى داخل البلاد بتقليد الأجانب الوافدين والمستعمر المحتلّ - والأسباب كثيرة - وإما من سفرهم وتجوالهم بالخارج لدراسة أو تجارة أو سياحة أو مصاهرة ، وغشيتْهم أضواء المدنية الغربية الحديثة وبريقها الخاطف لأبصار الأغِرَّة، الذين تخدعهم القشور أو ومْض الفَجر الكاذب . وقد رأوا فى أوروبا «تحررا» وتطورا وانطلاقا وإلحادا .فظنوا أن «الدين» قَيْد، وتراث الشرق غَيْض، وكل ما فى أوروبا - وإن كفرتْ وفَجَرَتْ وألحدَتَ - هو خير ونعيم وسبيل تُحْتَذَى. وغفلوا - أو جهلوا - أن الدين فى أوروبا - بتاريخه ومحتواه وآثاره وصراعاته ومعاركه ومفهومه، يختلف عن الدين فى الشرق ؛ وأن

«الإســلام» خاتم الرســالات هو للدنيــا كلها هدى وضيــاء ، ومحرك منشِّط للعقول والطاقات فى كل مجالات الإبداع والابتكار والإعمار والإنتاج فى النفع والخير ، ومبجِّل لكل من سبق من أنبيــاء الله ورُسله. وأمــا مَن ألْحد وكفَــر ، فــإن المبدأ الإسلامى يقــرر: ﴿**لا إكــراه فى الديــن**﴾ (١٥) ؛ ويؤكــد : ﴿ **وقل الحق مــن ربكــم فمن شاء فلْيؤمــن ومــن شــاء فلْيكفر**﴾ (١٦)؛ أو يقــول فى بساطة وسماحة وثقة : ﴿**لكم دينُكم ولى دين**﴾ (١٧). وهذا ما تميزت به الطائفة الثالثة أو أصحاب الاتجاه الثالث .

إنهم دعاة الإصلاح والتجديد والنهضة فى تعقل واعتدال . الذين أحسنوا فَهْم العقيدة ، والتزموا بروح الإسلام وأصــوله وجوهره، بتوسط خالٍ من الإفــراط أو التفــريط ، ومُنَزَّه عن التخــزُّب أو التعصب ؛ يأخـذ من صحيح التراث والتاريخ أحسنه، ويضيف من مستحـدَث الحاضر – أيًّا كان مصدره وموطنه – أقْومه وأنْفعــه . وفى ظلال ذلك، يكرِّم «الإنسان» – كل إنسان من البشَر غير مُعْتدٍ ولا أثيم – دون نظر إلى ما يعتقد أو ما لا يعتقد ، ودون تقييد عليــه أو إضرار به ، لأنه «مخلوق» من صُنــع الخالق، وقــد أشــار سبحــانه وتعالى إلى ذلك فى كتابــه المجيد فقال : ﴿**ولقد كرَّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحــر ورزقنــاهم من الطيبــات وفضلنــاهم على كثير ممن خلقنا تفضيــلا**﴾ – ســورة الإســراء / آية (٧٠) . فــإن فَعَل بعـض المنتسبين إلى الإسلام غير ذلك، أو نقيض ذلك، يكون إثمهــم على أنفسهم، ولا يؤخذ الدين الصحيح ولا المسلمون به ؛ فإن الدين الحق حاكم على الناس، وليس العكس.

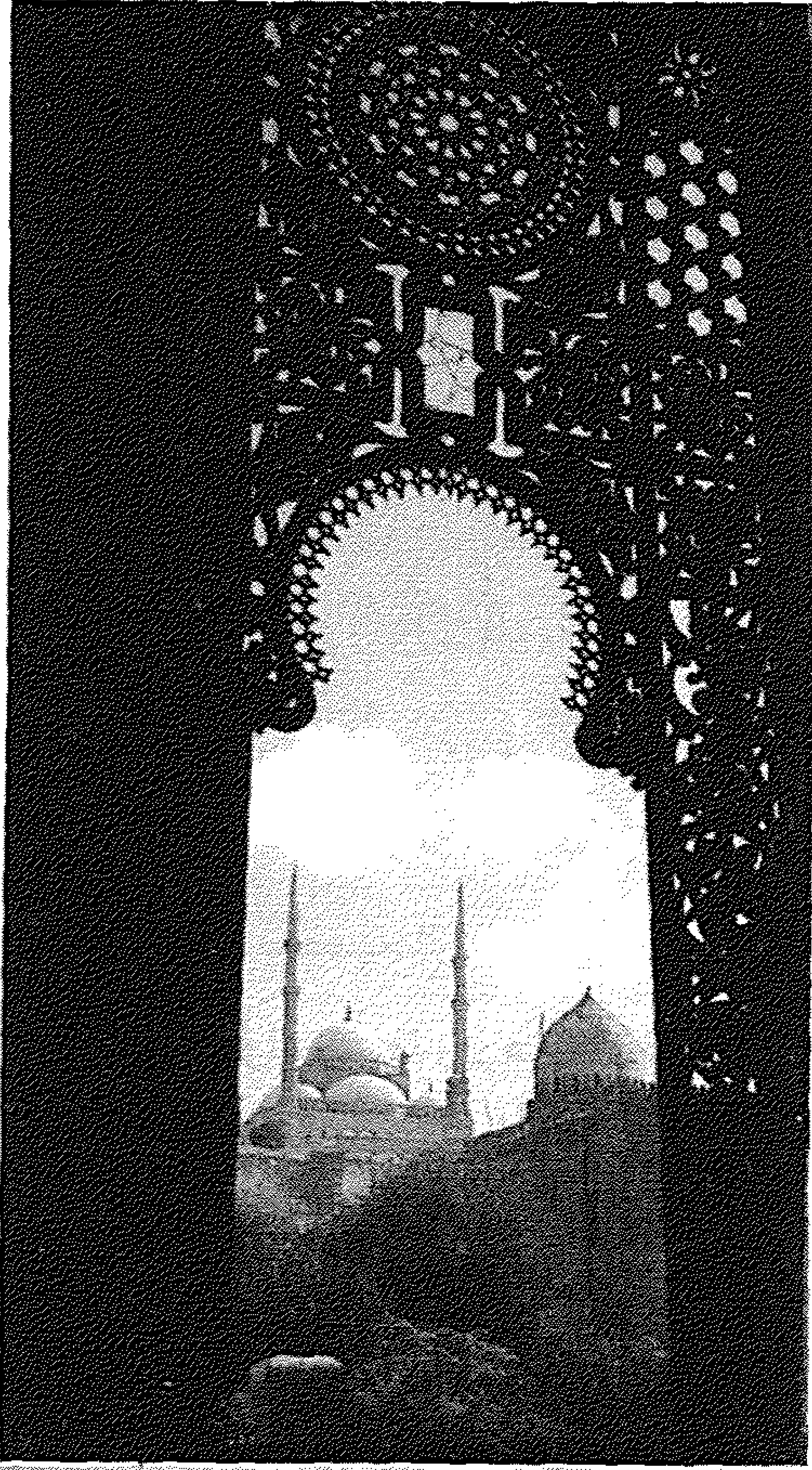
ظل هذا التباين فى الرأى، والتنازع فى أمر «الخلافة» الإســلامية متصاعدا مستمــرا يجرى على ألسنة وأقــلام الأدباء والخطبــاء والروائيين والكتَّــاب ، حتى منتصف القــرن العشرين وبعــده، وإن خفَّت حــرارته بمــرور السنين خاصة بعد إنشاء الجامعة العربية ثم منظمة الوحدة الإسلامية .

---

(١٥) سورة البقرة ـ آية ٢٥٦ .

(١٦) سورة الكهف ـ آية ٢٩ .

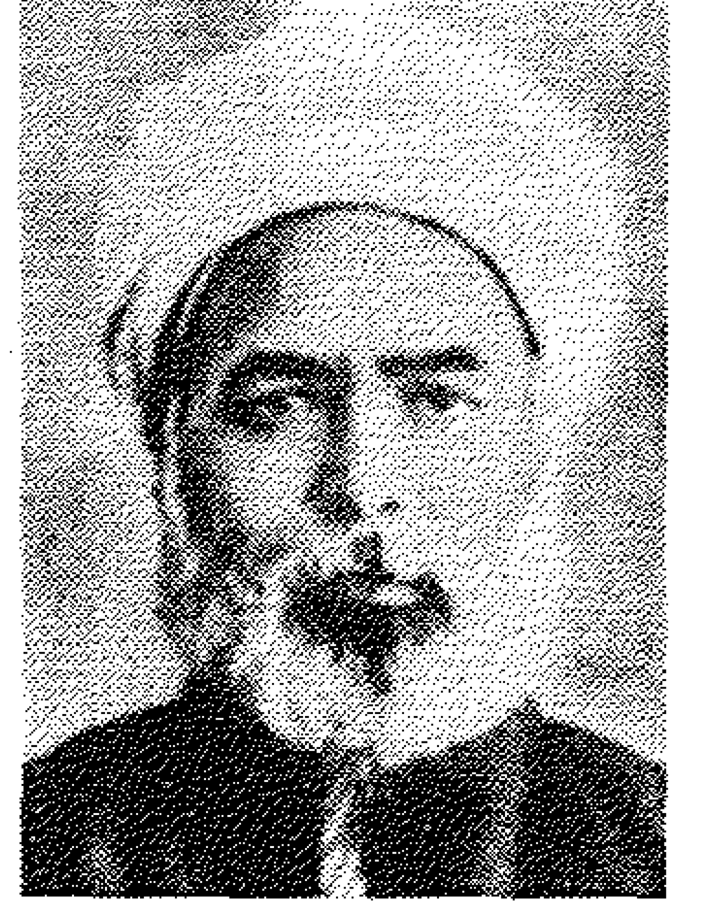
(١٧) سورة الكافرون ـ آية ٦ .

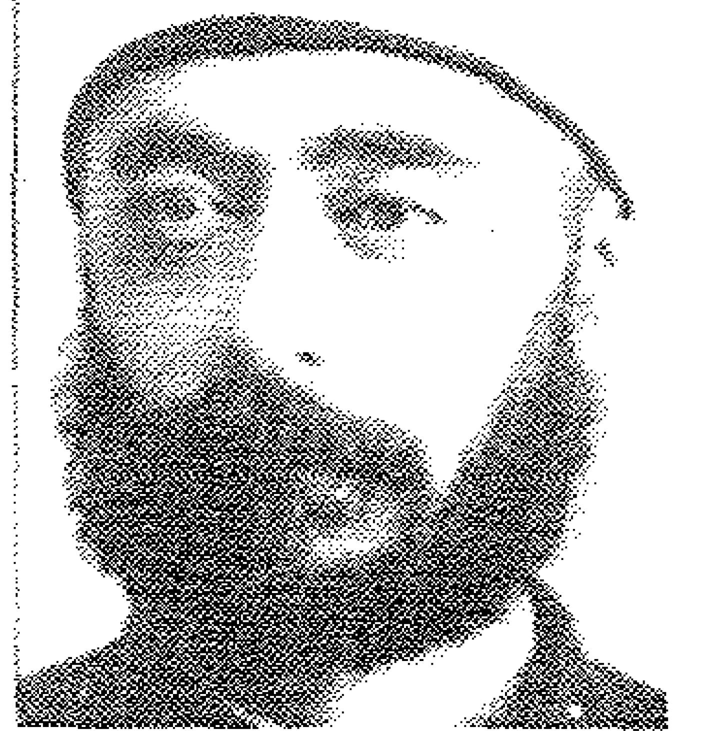


قلعة صلاح الدين ومسجد محمد على يطلان على مدينة القاهرة .. وصورة (سنة ١٩٢٣) للساحة العامة بمدينة دمشق . الأولى تحت الاحتلال البريطانى ، والثانية تحت الاحتلال الفرنسى ، وكلاهما شر بغيض مُر .

● القومية .. الصهيونية .. الجامعة الإسلامية

قبل أن يطلع فجر القرن العشرين، كانت فكرة القومية العربية تنمو وتنشط فى أرجاء الوطن العربى المتكاسل المتثائب من طول رُقاد فى ظل الدولة التركية العثمانية، التى حكمتْه وفرضت سيطرتها عليه منذ أربعة قرون. وكان الأدباء والعلماء وذوو الرأى والقادة الذين يحتضنون تلك الفكرة ويدعون إليها ، كانوا يترقبون كل فرصة سانحة لإعلان تمردهم على النفوذ العثمانى التركى والثورة عليه، خاصة فى أعقاب انكسار الأتراك فى معركة، أو وقوعهم فى أزمة . ولم يسلم هؤلاء من بطش السلطان وحكومته، ففر بعضهم إلى مصر – وكثير منهم نزحوا من الشام الأقرب موقعا إلى تركيا وجواسيسها وإرهابها وقسوتها – فوجدوا من الاحتلال البريطانى ترحيبا وتشجيعا، إذ كان الإنجليز يعملون سرا وعلانية على تعضيد كل ما يزيد تركيا وهْنا على وهْن، ومؤازرة كل خارج عليها أو ناقم مؤتَمِر بها . وبعض هؤلاء اتجه إلى فرنسا واستقر بها. فعلاقة فرنسا الوثيقة بالشام بعيدة فى الزمن منذ الحروب الصليبية . وبينما كانت بريطانيا طامعة فى مصر والعراق، كانت فرنسا شاخصة (١٨) إلى الشام والشمال الأفريقى ، وكلها من ولايات السلطان القلق المترصِّد فى استانبول .


محمد عبده


عبد الرحمن الكواكبى


حقى بك العظم

فكان فى مصر : عبد الرحمن الكواكبى الذى أصدر كتاب «طبائع الاستبداد»، والشيخ محمد رشيد رضا صاحب مجلة «المنار» وصديق الإمام محمد عبده، ورفيق العظم وحقى العظم، وغيرهم. وفى فرنسا : كتب النازحون إليها فى الصحف والمؤلَّفات وأصدروا (سنة ١٩٠٦) منشورا موجَّها إلى الدول العظمى أوضحوا فيه مقصدهم باسم العرب وهو : «إقامة إمبراطورية عربية يرأسها سلطان عربى ذو حكومة دستورية حرة، بينما تكون ولاية الحجاز مملكة مستقلة يحكمها ملك جامع بين كونه ملكا وخليفة

---

(١٨) شخَص بصَره (بفتح الخاء) فهو شاخص : فتحَ عينيه وسدَّد النظر فلا يَطرِف (بكسر الراء) .



لجميع المسلمين . وبذلك تنحل العقدة الكبرى فى الإسلام، وهى التفريق بين السلطتين المدنية والدينية ». ووجد هؤلاء أيضا من فرنسا ترحيبا وتشجيعا، وفَتحت لهم قاعة الجمعية الجغرافية ليعقدوا فيها اجتماعاتهم ومؤتمراتهم كيف ومتى شاءوا . وكان مؤتمرهم سنة ١٩١٣ كبيرا، وحضره مندوبون من مصر .

الشيخ محمد رشيد رضا (الجالس فى الوسط) وإلى يساره الأمير ميشيل لطف الله وإلى يمينه فوزى بك البكرى .

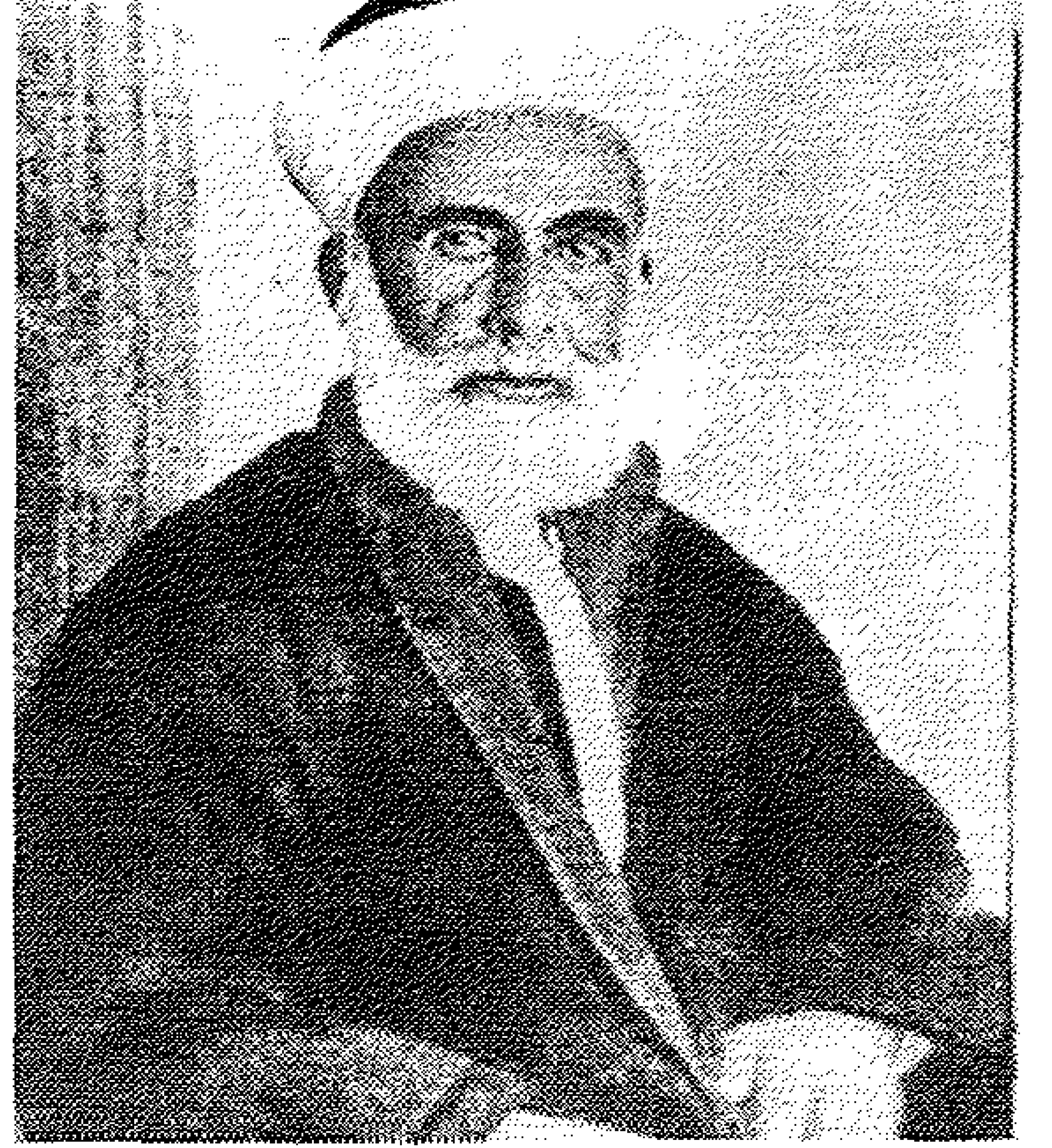
استمرت كل من فرنسا وبريطانيا فى إثارة المتاعب ضد تركيا المتهالكة . وظل آرثر مكماهون[١٩] يكثف نشاطه ومؤامراته : يداهن المتطلعين إلى تجمُّعٍ أو جامعة أو خلافة عربية إسلامية، ويمنّيهم بوعود المؤازرة والتيسير والدعْم، ويخادع الشريف حسين أمير مكة والحجاز «أبا العرب وزعيم المسلمين وأميرهم وكبير أشرافهم» لكى يجمع حوله المنشقين الناقمين على تركيا وسلطانها ، وفى دهاء مستتر يؤلِّب هؤلاء بعضهم على بعض ؛ وفى الوقت نفسه كانت بريطانيا تتفاوض سرا مع فرنسا على تقسيم مناطق السيطرة والنفوذ فى الشرق الأوسط (أو الأدنَى) والتى انتهت بمعاهدة «سايكس - بيكو»؛ وفى الوقت ذاته كانت هى بريطانيا التى تتفق - فى تكتم شديد - مع زعماء الصهيونية ونُشطاء اليهود على تنظيم الهجرات الجماعية اليهودية إلى فلسطين تمهيدا لتسليمها إليهم وإقامة دولة إسرائيلية فوق أراضيها العربية . وعلى هذا المنوال سارت خطط الإنجليز وتحقق نجاحها بإعلان الشريف حسين الثورة العربية (فى ٩ شعبان ١٣٣٥ / ١٠ يونيو ١٩١٦). وهذا مثال من «التواضع» الإنجليزى - أو هو الدهاء الخبيث



ماكماهون : الماريشال التعيس

(١٩) ممثل بريطانيا فى مصر ومدبِّر خطط مؤامراتها وجاسوسيتها فى الشرق العربى .

– الذى يوضح أسلوبهم فى الوصول إلى تحقيق الأهداف .



الأمير المخـــدوع : الشريف حسين

فى رسالة بتـاريخ ١١ شوال سنة ١٣٣٣ / ٣٠ أغسطس ١٩١٥ (والتأريخ الهجـرى فى الرسالة الإنجليـزية مقدَّم على التأريخ الميــلادى!)، كتب السير (مــا كما هون) مخاطبــا الشريف حسين بقـوله : «.. فنحن نؤكـد لكم أقـوال فخامـة اللورد كتشنـر التى وصلتْ سيـــادتكم ، وهى التى كـــان مـوضحـا بها رغبتنا فى استقـلال بلاد العـرب وسكانها، مع استصــوابنا للخلافــة العربيــة عند إعــلانها. وإنَّا نصرح هنا مرة أخـرى أن جلالة ملك بـريطانيا العظمى يرحب باسترداد الخلافة على يـد عربى صميم من فروع تلك الدوحة النبوية المباركة».

وفى رسالة أخرى تتعلق بحدود الدولة العربية – المزعومة – فى المستقبل، يفيض (مــا كما هون) فى إطراء ومنافقـــة الشريف حسـين (ردا على خطاب للأمير بتاريخ ١٤ ربيع الآخر سنة ١٣٣٤) فيقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

إلى ســاحة ذلك المقـام الرفيع ذى الحسب الطاهر والنسب الفاخـر ، قِبلة الإســلام والمسلمين ، معـدن الشرف، وطيـد المحتـد ، ســلالة مَهبط الوحى المحمـدى، الشريف ابن الشريف، صاحب الدولة، السيـد الشريف حسين بن علىّ أمير مكة المعظم، زاده الله رفعة وعُلا . آمين .

بعـد ما يليق بمقــام الأمير الخطير من التجِلَّة والاحترام، وتقديم خــالص التحيــة والسلام، وشرح عـوامل الأُلفــة وحُسن التفـاهم والمودَّة المزوجــة بالمحبــة القلبية، أرفع إلى دولة الأمير المعظم أننا تلقَّينا...»! وفى الخاتم يقـول بكلام معســول : «.. أَبُث دولـة الشريف ، ذا الحسب المنيف، والأمير الجليل، كامل تحيتى، وخــالص مودَّتى، وأُعرب عـن محبتى له ولجميع أفراد أسرته

الكريمة، راجيا من ذى الجلال أن يوفقنا جميعا لما فيه خير العالم ومصالح الشعوب. فبيده مفاتيح الأمر والغيب يحركها كيف يشاء . نسأله تعالى حُسن الختام والسلام ».

وفى كتابه «أعمدة الحكمة السبعة-Seven Pillars of Wisdom » يقول لورانس[٢٠]: «كنت أبحث عن حرارة الحماس التى تضرم نار الثورة فى الصحراء العربية . وأخذتُ أفكر فى سوريا طوال الطريق.. وفى الحج، وأتساءل : هل تتغلب القومية ذات يوم على النزعة الدينية ؟ وهل ينتصر الاعتقاد الوطنى على العقيدة الدينية ؟ وبمعنى أوضح : هل تَحُل المُثل العليا السياسية مكان الوحى والإلهام، وتَستبدل سوريا مثلها الأعلى الدينى بمثلها الأعلى الوطنى ؟...».

وكان موقف بريطانيا من سوريا غيره فى العراق، غيرهما فى مصر . فسوريا لم تكن فى نظر الإنجليز مماثلة للعراق من حيث النواحى الاستراتيجية والاقتصادية والمستقبلية. وكان تقديرهم : أن العراق يطل على الخليج العربى ذى الأهمية الكبيرة فى السياسة البريطانية ؛ وهو أيضا يقع فى منطقة متوسطة متاخمة لتركيا وإيران وأفغانستان المتاخمة بدورها للهند دُرة المستعمرات البريطانية، وهى منطقة تثير شهية روسيا وتطمع فى احتوائها – أو على الأقل جزء كبير منها – للتوسع والوصول إلى البحار

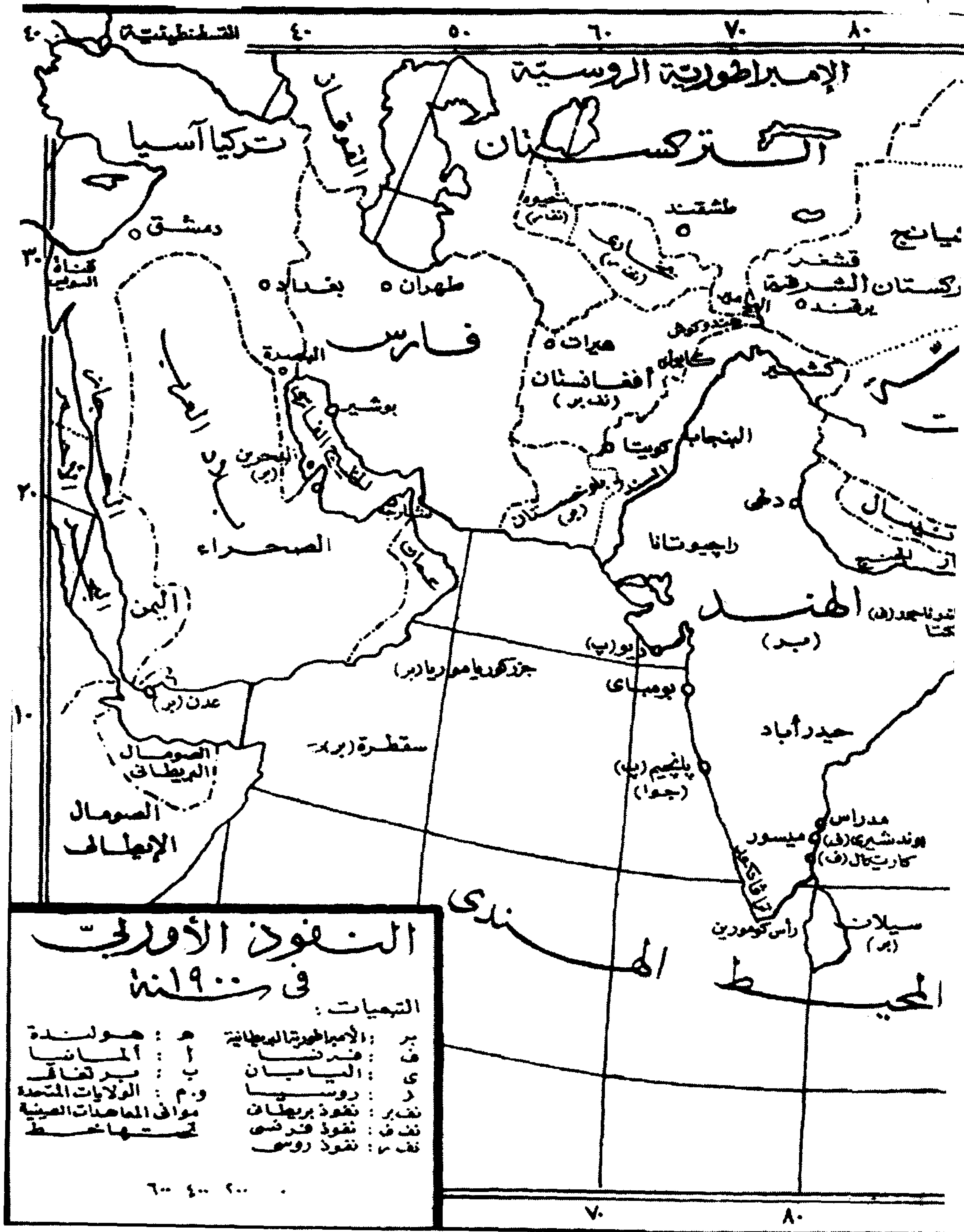


(٢٠) توماس إدوارد لورانس : تخرج من أكسفورد ، والتحق بفريق بريطانى للتنقيب عن الآثار فى الشرق الأوسط والاستيلاء على بعضها . لما اشتعلت الحرب العالمية الأولى عمل بالمخابرات البريطانية كخبير بشئون العرب . وعندما أعلن أمراء البيت الهاشمى بزعامة « الشريف حسين » الثورة على الدولة العثمانية (١٩١٦) أصبح لورانس ضابط الاتصال بالثوار ومنظما للقوات العربية ومخططا لعملياتها الحربية ، وكان على اتصال بالقائد الاستعمارى البريطانى « اللنبى » . فى أكتوبر ١٩١٨ كان لورانس بقواته مع الأمير فيصل فى الاستيلاء على دمشق قبيل استسلام تركيا . ثم التحق بسلاح الطيران الملكى البريطانى (١٩٢٢) ومات فى حادثة دراجة نارية (موتوسيكل) سنة ١٩٣٥ .

الدفيئة ؛ كما أن العراق – وهذا هو الأخطر – بدأ يظهـر فيه مخزون كبير من البترول، دعـامـة وسـلاح المستقبل الاقتصـادى العـالمى. ومن هنا، كـانت سياسة بريطانيا فى سوريا تتسم بالتودُّد واللين. بينما كانت فى العراق تميل إلى الغلظة والعنف [٢١]. ثم تركـت سـوريا ولبنان لفـرنسـا، واحتفظت بوجـودها المسيطر على العـراق، وبسلطتهـا القـابضـة على فلسطين حتى سلمتها لليهود. أما فى مصر، فكان الاحتلال البريطانى قائما قاعدا لا يريد أن يَبْرح، واعتبرها بعض السـاسـة الإنجليـز – ومنهم تشرشل – مستعمـرة بريطانيـة، على الـرغم من الوعـود الخادعـة الكاذبـة بالجلاء وعـدم فصل السودان عن مصر . وكانت تلك قاعدة السياسة البريطانية. يقول لورانس فى كتابه : «.. إن مجلس الوزراء (البريطانى) دفع العـرب إلى أن يقاتلوا فى صفنا لقاء وعود معينة، وعـود بأن يحكموا أنفسهم فى المستقبل. ولم يكن هناك بد من أن أدخل فى المؤامرة وأصبح أحد أعضائها. فأكدْتُ للعرب ما بُذل لهم من الوعـود عن مكافأتهم على مـا يبذلون مـن عوْن . وفى خـلال السنتين اللتين رافقْتُهم فيهـا بين نيران الحرب (العالمية الأولى) تمتْ ثقتهم بـى، وتمت تبعا لذلك ثقتهم بحكومتـى، فـاعتقـدوا أنها لابد أن تكون مخلصـة مثلى .. وقـد أنجزوا ما أنجزوا من عمل مثمر بدافع من هذه الآمال.. وقد غامرتُ بنفسى فى هذه المؤامرة الخادعة لأنى كنت واثقا أن مساعدة العرب لازمة وضرورية لإحـراز ذلك النصر فى الشرق، رخيصـا وسريعـا. وقـد فضلتُ أن نكون منتصرين وناكثين بالعهـد على أن نكون خـاسرين مهـزومين». ومع ذلك، استقبلتْ مصر بكـرم وترحـاب كثيرا مـن الأدباء والشعـراء والكتـاب والمناضلين والوافـديـن من الشـام والعـراق وكل أرجـاء العـالم العـربى والإسـلامى، فكتبـوا فى الصحف والمجـلات المصرية، وأصـدروا كُتبهم

---

(٢١) استخـدمت بريطانيا كل وسـائل الدهاء والإرهاب والعنف للقضـاء على ثورة العراق ضـدهم التى بدأت فى يونيو ١٩٢٠ واستمـرت نحو خمسة أشهـر دامية وكانت حصيلتها نحـو ثمانية آلاف قتيل وجريح .



النفوذ الأوربي
في سنة ١٩٠٠
التعميات :
بر : الامبراطورية البريطانية
ف : فرنسا
ى : اليابان
ر : روسيا
نف بر : نفوذ بريطانى
نف ف : نفوذ فرنسى
نف ر : نفوذ روسى
هـ : هولندة
أ : ألمانيا
ب : برتغال
و.م : الولايات المتحدة
موانى المعاهدات الصينية
تحتها خط
٠ ٢٠٠ ٤٠٠ ٦٠٠
الإمبراطورية الروسية
التركستان
تركيا آسيا
القسطنطينية
دمشق
قناة السويس
بغداد
طهران
فارس
البصرة
بوشير
البحرين (بر)
الخليج الفارسي
الصحراء
اليمن
عدن (بر)
الصومال البريطاني
الصومال الإيطالي
سقطرة (بر)
جزر كوريا موريا (بر)
عمان
طشقند
خيوة
هيرات
أفغانستان (نف بر)
كابول
كويتا
البنجاب
بلوخستان (بر)
كشمير
دلهي
راجبوتانا
الهند (بر)
بومباى
ديو (ب)
حيدر أباد
بانجيم (ب) (جوا)
مدراس
بوندشيرى (ف)
ميسور
كاريكال (ف)
رأس كومورين
سيلان (بر)
المحيط الهندى
قشغر
يرقند
نيبال
٤٠
٥٠
٦٠
٧٠
٨٠
٣٠
٢٠
١٠

ومطبوعاتهم مع إخوانهم المصريين، بقدر ما يسَّرَتْه ظروف الاحتلال القائم، فأسهموا بنصيب فى النهضة الأدبية والثقافية والفكرية (٢٢) .

فنشطت الحركـات والاتجاهات الأدبيـة، ومن أبرز وأخطر أسلحتهـا الصحف والكتب والمطبوعات، ومن خـلالها بدأ يتكون ويقوى الرأى العام فى مجال الآداب والفنون، بعـد أن شَبَّ واشتد فى ميـادين السياسـة والنضـال. فكان طبيعيـا أن يكون بعض تلـك السـاحـات الفنيـة والأدبيـة ملتقًى لآراء متبـاينة وأفكار ، ظلت تعلو وتهبط، تنشط وتَفْتر ، تتضـافـر وتتنافر عَـدد سنين. ولم يَغب عن تلك السـاحـات والميادين الفكرية أبدا صـوت الدعوة إلى التجـديد والتحـديث من جـانب، وإلى الترشيـد والمحـافظة على المواريث من جـانـب آخـر. ولم يكن هؤلاء ولا هـؤلاء على قلب رجل واحـد – بـالنسبـة للتجـديد أو المحـافظة – فى الرؤية أو الفكرة أو فى رسم معـالم الطريق . هل تكون طريقا قومية محلية ؟ (مصرية، سورية، عراقية، مغربية...؟ وإذا كانت مصرية : هل تصير فـرعـونيـة، عـربيـة، إسـلاميـة..؟)؛ أم تكون سماتها وقَسَماتها غربية خالصة ؟ أم شرقية خالصة ؟ أم شرقية غربية مُدَجَّنة؟ وإذا كانت قـومية عربية، هل تقتصر على جـامعة عربيـة ضيقة، أم تتسع لتصبح جامعة إسلامية شاملة ؟


الشيخ محمد رضا الشبيبى

فمن بغداد، يخاطب الشاعر العراقى «رضا الشَّبيبى» شباب العرب قائلا:

أَنْـتُـمُ جيـلٌ خُلـقوا ... لعصـورٍ مُقْـبِلاتٍ جُدُدِ

كوِّنوا الوحدة لا تَفْسخهـا ... نَزعـات الرأى والمعتَـقَـدِ

أنَا بايعـتُ عـلى أن لا أرَى ... فُرْقة ، هاكُم على ذاكُمْ يـدى

وعندمـا يزور الزعيم التـونسـى «عبـد العـزيز الثعـالبى» بغـداد (سنة ١٩٢٥) يخاطبه «الرصافى» بقوله :

---

(٢٢) على سبيل المثال : الزعيم السورى «عبد الرحمن شهبندر»، والشاعر العراقى «الكاظمى»، ومن شعـراء العـراق أيضـا : «معـروف الـرصـافى»، و «جميل صـدقـى الزهـاوى» ، و « خليل مطـران » مـن لبنان ، وغيرهم كثيرون .



جمهور فى مصر ينصت إلى كلمات الخطباء وقصائد الشعراء فى سكون وصمت فى أوائل العشرينيات .

أتونُسُ إن فى بغداد قوما | تَرِفُّ قلوبُهم لكِ بالودادِ
ويَجْمعهم وإياكِ انتساب | إلى مَن خُصَّ مَنْطقهم بضاد
ودِينٌ أَوْضحتْ للناس قَبلا | نَواصِعُ آيِهِ سُبُلَ الرَّشاد
فنحنُ على الحقيقةِ أهْل قُرْبىَ | وإنْ قضَت السياسةُ بالبِعاد
وما ضَرَّ العبادَ إذا تدانتْ | أواصرُ من لسانٍ واعتقادِ
وإن المسلمين على التآخى | وإنْ أَغْرَى الأجانبُ بالتعادى

ولم يفُتْ «خليل مطران»[٢٣] أن يشير فى رفق إلى تلك الأمانى والمعانى فى قصيدته التى ألقاها سنة ١٩٢٧ فى حفل تكريم أحمد شوقى بالقاهرة ومبايعته أميرا للشعراء العرب ، قال :

(٢٣) يلقَّب بشاعر القطرين : لبنان التى وُلد بها سنة ١٨٧١، ومصر التى هاجر إليها سنة ١٩٠٢ هربا من بطش الدولة العثمانية لاشتراكه فى النضال الوطنى للاستقلال فأقام بمصر إلى أن مات سنة ١٩٤٩ .

يـا باعـث المجد القديـم بشِعـره ومجـددَ العربيـة العَرْبـــاءِ

..اليوم عيدُك، وهُو عيد شامـل للضـاد فى مُتبـايـن الأَرجـــاء

فى «مصر» يُنْشِدُ من بَنِيها مُنشدٌ وصَداه فى «البحرين» و«الزوراء»

عيد بـه اتحدتْ قلوب شعوبهـا ولـقـد تكـون كثـيرةَ الأهـــواء

كم رِيمَ تجديـدٌ لغابِـر مَجدهـا فجـنَـى عليـه تشعُّـــبُ الآراءِ

ويدق شاعر النيل «حافظ إبراهيم» على الأوتار ذاتها بإيقاع قد لا يختلف كثيرا، وذلك فى قصيدته التى ألقاها فى الحفل نفسه فقال مخاطبا «شوقى» :

أمـيرَ القـوافى قــد أتيــتُ مبـايعــا وهذى وفود الشِّعر قـد بايعَـتْ معى

فَغَنِّ رُبوع «النيل» واعطـفْ بنظـرةٍ على سكنى «النهرين» واصْدَحْ وأَبدِعِ

ولا تَنْس «نَجدا» إنها منْـبت الهَـوَى ومَـرْعَـى المَهَـا من سارحاتٍ ورُتَّـعِ

وحَـيِّ ذُرا «لبنان» واجْعـل «لتونسٍ» نصيبـا من السلَـوْى وقَسِّـم ووزِّع

ففى الشعر حَـثٌّ للطامحين إلى العُلَى وفى الشعـر زهـدُ الناسـك المتـوَرِّع

فكان رد «شوقى» على المتحدثين فى ذاك الحفل قصيدةً جاء فيها :

.. قد قضَـى الله أنْ يؤلفنا الجر حُ وأن نلتـقى على أشجانِـهْ

كلـما أَنَّ «بالعـراق» جريـحٌ لمَسَ الشرق جَنْبه فى «عُمانهْ»

.. نحن فى الفكر بالبلاد سواء كُلـنـا مُشْفـق على أوطـانـهْ

لكن النزعـات القوميـة أخذت تعلو وتشتـد، وتمادت فى المطالبة بتجـزئة «الشرق»، أو «الوطن العربى» الجامع الشامل إلى دول مستقلة لكل منها ميْله واتجاهه وارتبـاطه، وأسلـوب تحرره ونهضتـه وإصـلاحـه. ولم يَخْفَ أن الدول الكبرى (الأوروبيـة الاستعمارية القـديمة أو دول التطلعـات العظمى الجديدة مثل روسيـا وأمريكا) كـانت تحبِّذ هذا الاتجاه وتشجع تلك الميـول والنزعـات القومية المحليـة، وتحاول بشتى الطرق والأساليب الماكـرة إثارة



محمد أفندى حافظ إبراهيم

المنافسـات والعصبيـات، وربما حـوَّلتْهـا إلى أحقـاد ومخاوف وشـواغل ومنازعات ، لأن ذلك يحقق - وقد تحقق - نتائج كثيرة ، منها : تفتيت التكتل العـربى الإسـلامى المنشود وإضعـاف قـواه ؛ ولجوء كل وحـدة سياسيـة صغيرة واهنة فيه إلى طلب «العون» من دولة كبيرة (وربما تطلب أيضا شكلا من أشكال التحـالف أو الحماية غير المعلَنَة)؛ وإتاحـةِ فـرص وفيرة لإعـداد أجيـال تنسلخ شيئا فشيئا عن تراثها وتـاريخها ومـاضيها ونمط حيـاتها فتتحـول إلى فكر جـديد ، ونظرة فى الحيـاة تضمـن الاقتناع الذاتى والتعلق المتواصل باتباع تعاليم «السيد» الكبير وما يَرى أو يَهوى ويرتَضى، حتى فى طعامه وشرابه، ولباسه وزينة نسائه، وفى أعياده واحتفالاته، وتمجيد أبطاله وزعمائه، أدبائه وعلمائه، وإن قالوا «عبثا»، أو ابتكروا أذًى وأَنكالا ونُكْرا .

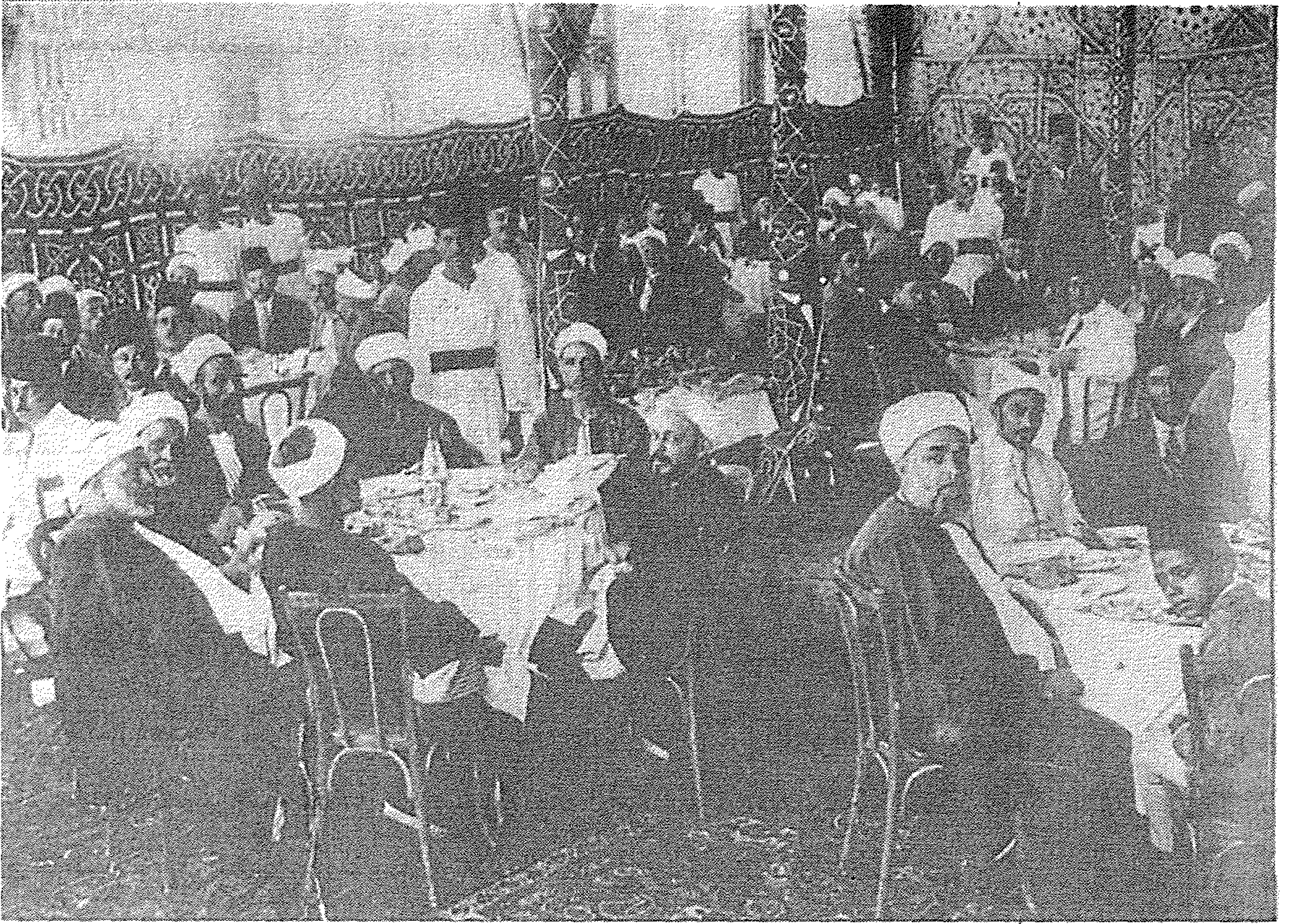
وداخل هذه الأجواء المتكاثفة بـالاتجاهات والتيارات والأهواء والنزعات المتبـاينة المتصارعـة، كـانت «الصهيـونية» العـالميـة تنشط وتجدُّ وتسعى وتقتحم لتحقق إنشـاء دولتهـا فى قلب العـالم العـربى، بمسـاعـدة الدول «الكبرى» فى الشرق والغرب، حتى تم لها مـا أرادت، فكانت الولايات المتحدة الأمريكية أول المعترفين بقيام تلك الدولة الغاصبة المُقْحَمة فور إعلانها (مايو ١٩٤٨) ثم أعقبهـا بعـد دقـائق الاتحاد السـوفييتى فى الاعتراف بها دولة مستقلة (على الأراضى العـربيـة الفلسطينيـة) ثـم تولت أمـريكا حمايتهـا والدفاع عنها وإمدادها بالمال والسلاح (٢٤) .

وهذه أمثلة من بعض ما نُشر لأدباء وكُتاب وشعراء، فى أجواء وظلال تلك الفترة المضطربة بالنصف الأول من القرن العشرين.

فى عـام ١٩٢٦، ألقى «مـرقص سميكـة باشـا» محاضرة فى الجامعـة الأمريكيـة بالقاهرة، جـاء فيها : «مضى على مصر أكثـر من ألفين وثلاثمائة سنة منذ ما فقـدت استقلالها بانتهاء حكم الفـراعنة. ومن ذلك العهد ، وهذه البلاد - بسبب مركزها الجغرافى الممتاز ، وما خصها الله به من المناخ الجميل

---

(٢٤) سبق تفصيل ذلك فى الجزءين الأول الثانى من « السياسة والدبلوماسية فى القرن العشرين» وهما من أجزاء هذه السلسلة .



فى مايو ١٩٢٦ استقبلت القاهرة وفودا من كل أرجاء العالم الإسلامى (من جميع البلدان والقارات) لبحث موضوع استعادة منصب الخلافة الإسلامية كرمز لتجمع والتقاء الشعوب الإسلامية ، ورأس المؤتمر الشيخ أبو الفضل الجيزاوى شيخ الأزهر .

والتربة الخصبة والثروة الهائلة – مطمح نظر الفاتحين من أحباش ويونان وفُرس وروممان وعرب وأتراك وإفرنج ... وبهذه المناسبة أحب أن أذكر أن لفظ قبطى معناها مصرى ، وهى محُرفة من اللفظة «إِجِبْتُوس»، ولذلك فجميعكم أقباط . بعضكم أقباط مسلمون، والبعض الآخر مسيحيون، وكلكم متناسلون من المصريين القدماء ».

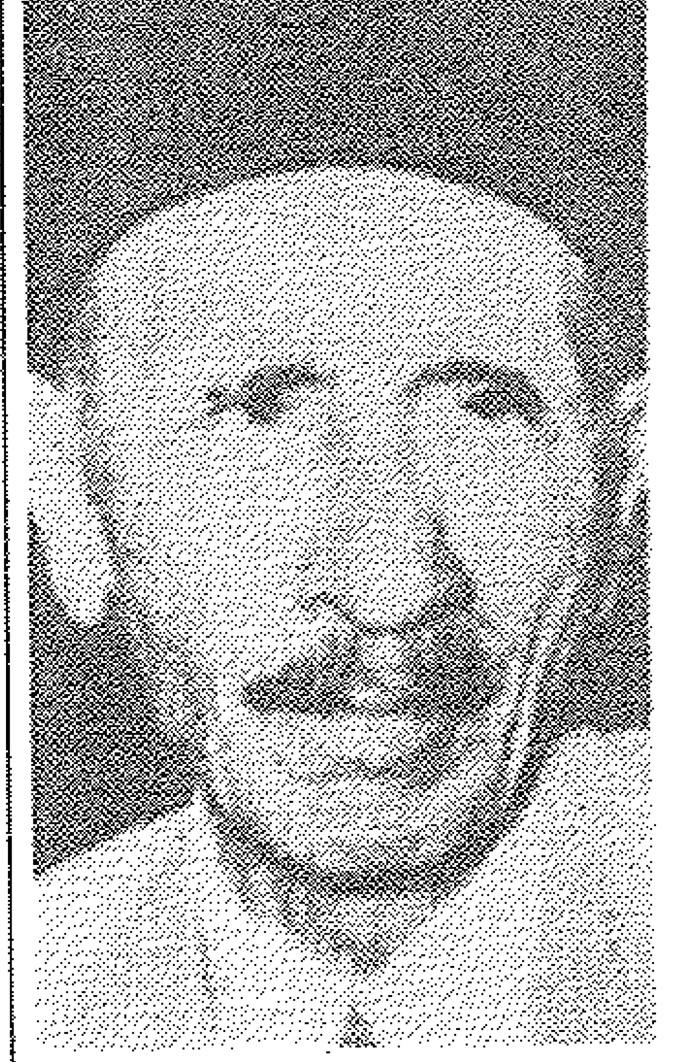
ونشرت مجلة «السياسة الأسبوعية» فى ١٧ ديسمبر ١٩٢٧ مقالا لرئيس تحريرها د. «محمد حسين هيكل» (باشا) دعا فيها إلى تأسيس النهضة المصرية الحديثة على قاعدة «بعث المجد الفرعونى القديم.. بالبحث عن موضع الاتصال بين مصر القديمة ومصر الحديثة فى ميادين الأدب وكتب العقائد وطقوس العبادة . ولقد فتح الغربيون أمامنا الباب واسعا فى هذا المضمار ..».

قال مـرقص سميكة باشا .. « كلنا نسـل المصريين الفراعنة » . ورأى محمد حسين هيكـل باشا .. «بعث المجد الفرعونى القديم » .



د. محمد حسين هيكل

وفى ٧ يناير ١٩٢٨ كتب د. هيكل فى «السياسة الأسبوعية» أيضا مؤيدا : «تكوين فن مصرى النزعة، صريح فى مصريته.. نَطمع فى أن نُقِره مذهبا عالميا نُعارض به المذاهب الذائعة الآن فى أوروبا وأمريكا ..».


لطفى السيد

ثم أعقب ذلك بأيام، أن نَشَرت المجلة تحت عنوان : «دعوة إلى خَلْق الأدب القومى» بيانا بتوقيع جماعة من «شباب الأدباء» من بينهم : محمد زكى عبد القادر ، محمد الأسمر ، محمد أمين حسونة ... وفيه دعوة إلى استحداث أدب محلى يتميز بالطابع المصرى، وتكوين مدرسة أدبية جديدة . وأوضح «محمد زكى عبد القادر» أهداف تلك الدعوة قائلا : «الأدب المصرى الذى نعنيه إنما هو أدب محلى يصور الحياة المصرية والقومية المصرية وحدهما، فلا نعنى به أدبا شرقيا كما أُبْهِم على بعض الكُتاب الأفاضل، فلا يتناول حياة الشرق العربى أو البلاد الشقيقة المجاورة ». وأشار التوضيح إلى أن هذا الأدب الجديد : «يصور الروح المصرية فى القصة والفكاهة والمسرح، ويكون له طابع متميز عما للآداب الغربية والشرقية الأخرى ». وزاد «محمد أمين حسونة» الأمر وضوحا فى مقال بالسياسة الأسبوعية (١٩ يوليو ١٩٣٠) تحت عنوان : «فى سبيل الدعوة إلى الأدب القومى» فقال : «.. ضرورة خَلق أدب قومى يكون مستقلا عن آداب الشعوب الشرقية الأخرى الناطقة بالضاد، معَبِّرا عن نفسيتنا وشعورنا ».

وكان هذا تعبيرا عن رأى «حزب الأمة»، إذ كان «أحمد لطفى السيد» (باشا) يردد دائما قوله عن فكرة «الجامعة الإسلامية» أو «الجامعة العربية»: «إن السعى لتأليف تحالف من هذا النوع وهْم من الأوهام » (٢٥). وكان من رأيه أن الداعين إلى تلك الجامعة «يضيعون الوقت فى خيال عقيم وأحلام بعيدة التحقيق»، بينما هو يدعو إلى أن : «مهمة كل بلد من البلاد العربية تنحصر فى تقوية نفسه والنهضة بأبنائه فى حدود العصبيات الإقليمية».

(٢٥) مجلة الهلال - ديسمبر ١٩٣٨ .

أما «محمد عبد الله عنان»، فهو يكتب فى مجلة «السياسة الأسبوعية» فى أكثر من مقال، ويتناول الموضوع ليس فقط بالتوضيح والتنقيح، وإنما أيضا بالتحليل والتدليل، والرد على المعارضين المستنكرين، ومن ذلك قوله:[٢٦] «.. لكن فهم القومية على هذا النحو الأَثيل (أى الأصيل) لا يروق لبعض المفكرين من إخواننا فى البلاد العربية. فهم يأخذون على مصر أنها تَغْلو فى مصريتها، ويقولون إنها بذلك تَخْرج من حظيرة الأمم [٢٧] العربية، مع أنها ليست إلا واحدة منها، فى حين أن هذه الأمم [٢٧] تتوق كلها إلى الالتفاف من الوجهة العامة حول لواء واحد، لتكون فى ميدان النضال السياسى والفكرى كتلة موحَّدة من بعض الوجوه . فانسلاخ مصر من هذا الإجماع بدعوى أنها فرعونية أو مصرية يُضْعف هذا الإجماع، ويُضعف نهضة الأمم العربية فى سبيل حريتها السياسية وتقدمها الفكرى والاجتماعى . ويُعَبر البعض عن هذا الاندماج فى الفكرة العربية بـ «الجامعة العربية» التى أصبحت الدعوة إليها ظاهرة بارزة فى الحياة العامة بفلسطين، وسوريا، والعراق... ولقد صَرحنا برأينا أكثر من مرَّة فى شأن فكرة الجامعة العربية . فهى – على ما يصورها الغُلاة من دعاتها – فى نظرنا أُمْنية خيالية لا تقوم على أسس أو تقديرات عملية . وقد تكون مَثَلا أعلى يَرجع بالأذهان إلى عصور المجد التى جمعت بين الأمم العربية تحت خلافة أو سلطة إسلامية واحدة . فلها بذلك روعتها وجمالها . ولكنها مع ذلك سراب تبدده الحقائق والظروف الواقعة . بل إن التعلق بها ضار فى نظرنا بجهود الأمم العربية، بما قد يبثُّه إليها من الوهْن المترتب على إغفال الحقائق، والانصراف عن تقدير الظروف الخاصة»...


محمد عبد الله عنان

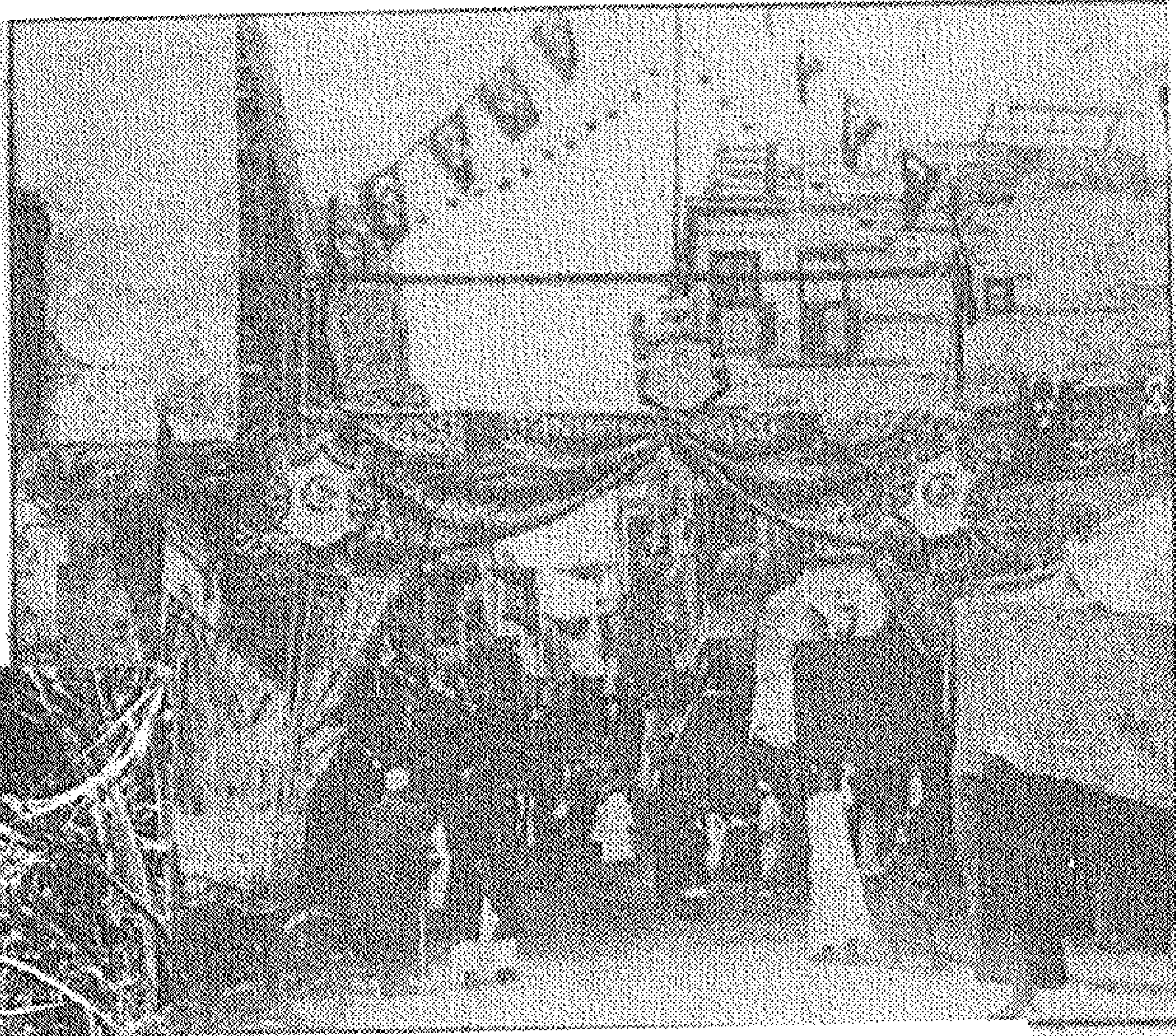
ثم يمضى الكاتب فى نظرته الشعوبية أو القومية المفرطة فيقول : «.. فلما جاء الفتح الإسلامى، كانت ولاية رومانية، ولكنها كانت كتلة قومية كبيرة،

(٢٦) السياسة وملحقها الأدبى – أكتوبر ١٩٣٢ . واختار لمقالاته عناوين مثل : «القومية المصرية»، «المصرية تراث قومى أثيل لمصر وليست فكرة ولا دعوة جديدة » – وأَثِيل بمعنى : أَصيل راسخ.

(٢٧) يلاحظ استخدامه كلمة «أمم» للإيحاء بأنها مجموعة أمم وليست أمة واحدة .

صور مصرية من أوائل القرن ٢٠


فى العمل اليدوى بالمدينة


فى حى بولاق بالقاهرة


فى الحقل بالقرية

فورثت من «غزاتها» الجدد الإسلام واللغة العربية، ولكنها حافظتْ على خواصها القومية، ونشأت فى ظل الإسلام أمة مصرية مسلمة، عربية لا بخواصها الجنسية أو القومية، ولكن فقط باللغة التى تنطق بها ... لم تكن مصر أمة عربية قط، وإنما كانت إلى جانب شقيقاتها العربيات تحتفظ دائما بمصريتها القومية العميقة، بل كانت فوق ذلك تطبع الحياة العامة لهذه الشقيقات فى كثير من الأحيان بألوان مصرية عميقة تبدو بارزة فى بعض مراحل تاريخها ... إن المُثل القومية العليا يجب أن تسمو فى نظرنا عن كل جَدل أو مجاملة أو اعتبار » .

ويأتى مجلجلا صوت من لبنان ، من خلال مقال للسياسى الأديب «شكيب أرسلان»، منددًا بسياسة الغرب الذى لا يغْفل عن إضعاف العرب والمسلمين، والحيلولة دون تماسكهم وتوحدهم، وبث الشقاق والنزاع بينهم، وقتل المجاهدين الصالحين من أبنائهم، ليثير الفزع ويُثَبِّت سلطانه وسطوته . ثم يقول : «إن الشرق أجمع سيتنَبَّه من رقْدته، ويَنهض من كَبْوَته؛ وكما شهد القرن التاسع عشر استقلال أمريكا بأسْرِها ، فسوف تَشْهد بقية القرن العشرين استقلال آسية ، ولا تَمضى الثمانون سنة الباقية من هذا القرن (العشرين) حتى يَلِى الإسلام بلاده، ويبلغ من نعمة الاستقلال مراده... وإن نهوض الشرق (أى العرب) هو الشرط الأول فى سُؤْدد الإسلام، وراحة الأنام، وحقْن الدماء الحرام، وحفظ موازنة (توازن) العالم واستواء الأقسام. وما دام الغربيون يروْن الشرق لجيوشهم مجالا، فالحروب بين الدول قائمة متتابعة إلى قيام الساعة، والاختراعات التى تفتخر بها المدنية مَصْروفة إلى استئصال البشَر . وناهيك عن مدنية بهذه الشناعة، **[وما دامت جمعية الأمم (عُصبة الأمم) بحر بلا ماء، وما وُجِدَتْ إلا لتُلْبِس الاعتداء حُلَّة قانونية، وتسوِّغ الفتوحات بغير الأسماء، فإنه لا يُطيعها إلا ضعيف عاجز، ولا تستطيع أن تحكُم على قوىٍّ متجاوِز ... فكيف يُعْطَى الحق (للمتفرقين المتنازعين) بالثرثرة والحق أَبْلج (وضَّاء مشْرق)، وكيف يستقيم الظل والعُود أَعْوج ؟!»]**.

خريطة سوريا ولبنان

منطقة الانتداب الفرنسي المقسمة الى دويلات ... جبل الدروز و ... يكثر



الأمير شكيب أرسلان

دولة العلويين

دولة جبل دروز

فلسطين

لبنان موطن « شكيب أرسلان » وكان مع سوريا تحت الاحتلال الفرنسي بعد الحرب العظمى . (نُشرت هذه الخريطة بالصحف المصرية سنة ١٩٢٦) .

ويشترك من مصر «مكرم عبيد» (باشا) فى ساحة المواجهات الفكرية – الحادة أحيانا – وذلك فى أبريل سنة ١٩٣٩، وكان آنذاك السكرتير العام للوفد المصرى ، ومن أبرز الأقباط المحامين السياسيين المرموقين ذوى الشأن عند المسلمين والأقباط . كتب فى مجلة «الهلال» يقول :

«.. سافرتُ فى رحلة صيفية إلى سوريا، وتفضل إخوانى السوريون فى الشام ولبنان وفلسطين فشملونى بترحيبهم وتكريمهم، فوقفْتُ يومئذٍ وتحدثْتُ عن الوحدة العربية،وقلت : «المصريون عرب»، وأبديْتُ رأيى فى هذه النظرية التى يؤيدها التاريخ ...


مكرم عبيد باشا

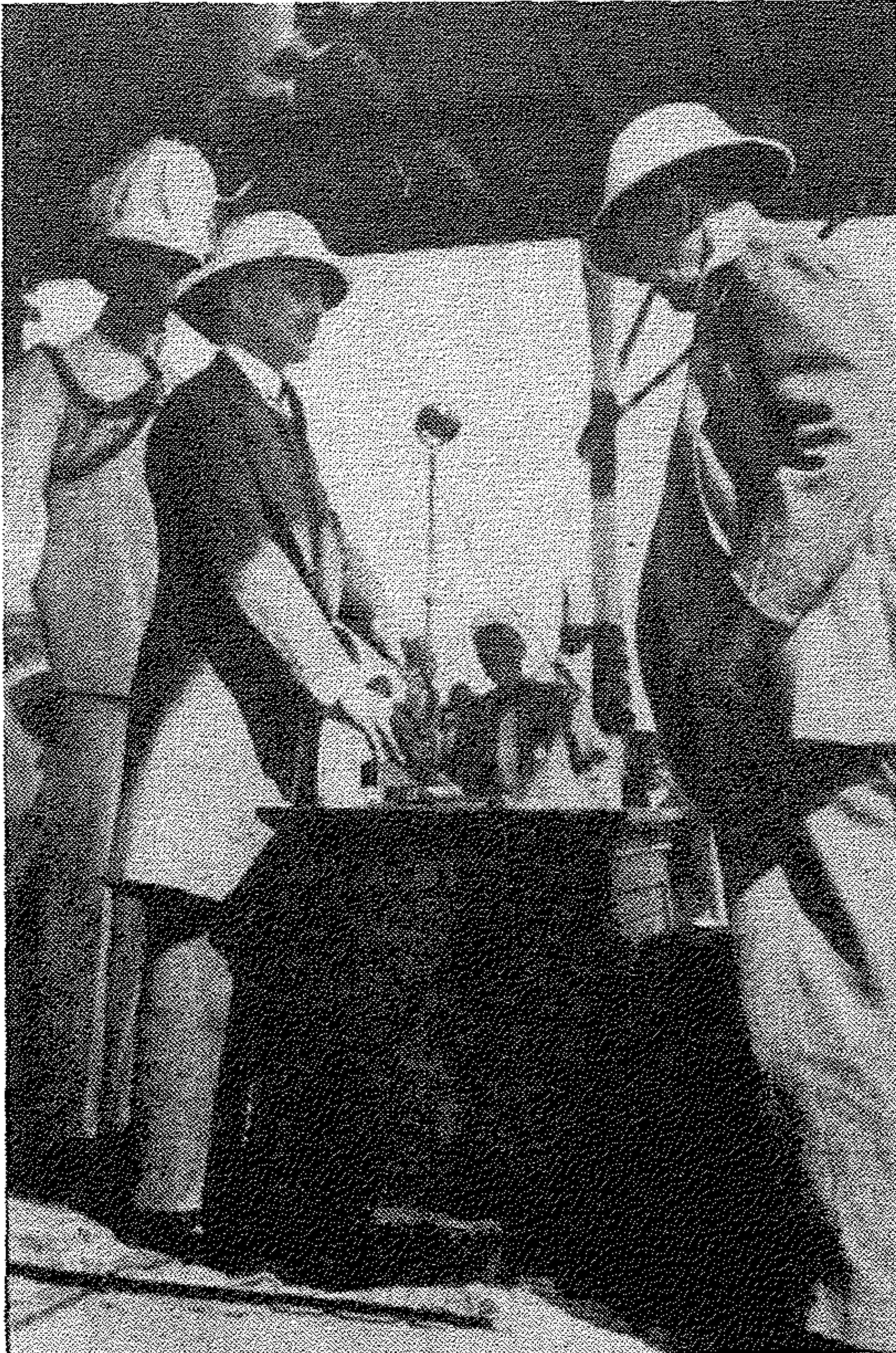
« إن المقصود بقولى : «المصريون عرب» هو الوشائج والصلات التى لا تفصمها الحدود الجغرافية، ولم تنلْ منها الأطماع السياسية منالا، على الرغم من وسائلها التى تتذرَّع بها إلى قطع العلاقات بين الأقطار العربية، والعمل على قتْل الروح العربية بين أبنائها، والسعى للتفرقة، واضطهاد العاملين لتحقيق الوحدة العربية التى لا ريب فى أنها أعظم الأركان التى يجب أن تقوم عليها النهضة الحديثة فى الشرق العربى. فالشرق العربى فى حاجة إلى التضامن أمام التيار الأوروبى الجارف، وأبناء العروبة فى حاجة إلى أن يؤْمنوا بعروبتهم، بما فيها من عناصر قوية استطاعت أن تبنى حضارة زاهرة، وأن تُخضع لها البلاد الأجنبية حقبة طويلة من الزمان .

«نحن عرب . ويجب أن نذكر فى هذا العصر دائما أننا عرب قد وحَّدت بيننا الآلام والآمال، ووثقتْ روابطنا الكوارث والأشجان، وصَهَرَتْنا المظالم وخُطوب الزمان، فأحدثت منا أقواما متشابهة متماثلة فى كل ناحية من نواحى الحياة .

«نحن عرب فى هذا الجهاد القائم فى كل قطر من أقطار العروبة لاستكمال الحرية، وإحياء مجد الحضارة العربية، وترقية شئون العامة، وقيادة الشباب إلى المُثل العليا، وتربية شعوبنا تربية صالحة تنزع عنها خمول الأعوام الماضية، وتدفعها إلى التماس الخير لها، وتوقظها من سُباتها،

وتُشْعرها بكرامتها، وتُنير أمامها السبيل، فترى الحياة العصرية على حقيقتها، وتعرف ما ينفعها وما يضرها، فتأخذ منها ما يساعدها على بناء حياة جديدة مؤسسة على مجد الماضى وما يمتاز به من قوة روحية وإيمان سماوى، ومرفوعة الأركان بخير ما أنتجه العصر الحاضر من رُقى علمى وإنتاج صناعى.

« نعم، «نحن عرب» من هذه الناحية، ومن ناحية تاريخ الحضارة العربية فى مصر، وامتداد أصلنا القديم إلى الأصل السامى الذى هاجر إلى بلادنا من الجزيرة العربية... فالوحدة العربية حقيقة قائمة، هى موجودة، لكنها فى حاجة إلى تنظيم... وأنا أرى هذا التنظيم قد بدأ فى السنوات الأخيرة، فإن العمل لتوحيد الثقافة، وتبادل المتاجر والمنافع، وعقْد المؤتمرات وتبادل الآراء، كل ذلك يؤدى إلى توحيد الجهود وإلى التضامن العربى العام، القوىِّ الأركان، المتين البناء...».



ممثل الاحتلال والاستعمار البريطانى فى مصر اللورد «جورج لويد» - إلى اليسار فى الصورة - يفتتح خزان مِكْوار (كرئيس دولة!) الذى أقيم بأموال المصريين والسودانيين لرى مزارع القطن الشاسعة المساحة التى كان يحتكرها الإنجليز لمصانعهم بإنجلترا، وذلك بعد أن أفلحوا فى عزل السودان المصرى إداريا وسياسيا عن مصر. (يناير ١٩٢٦).


د. محمدحسين هيكل

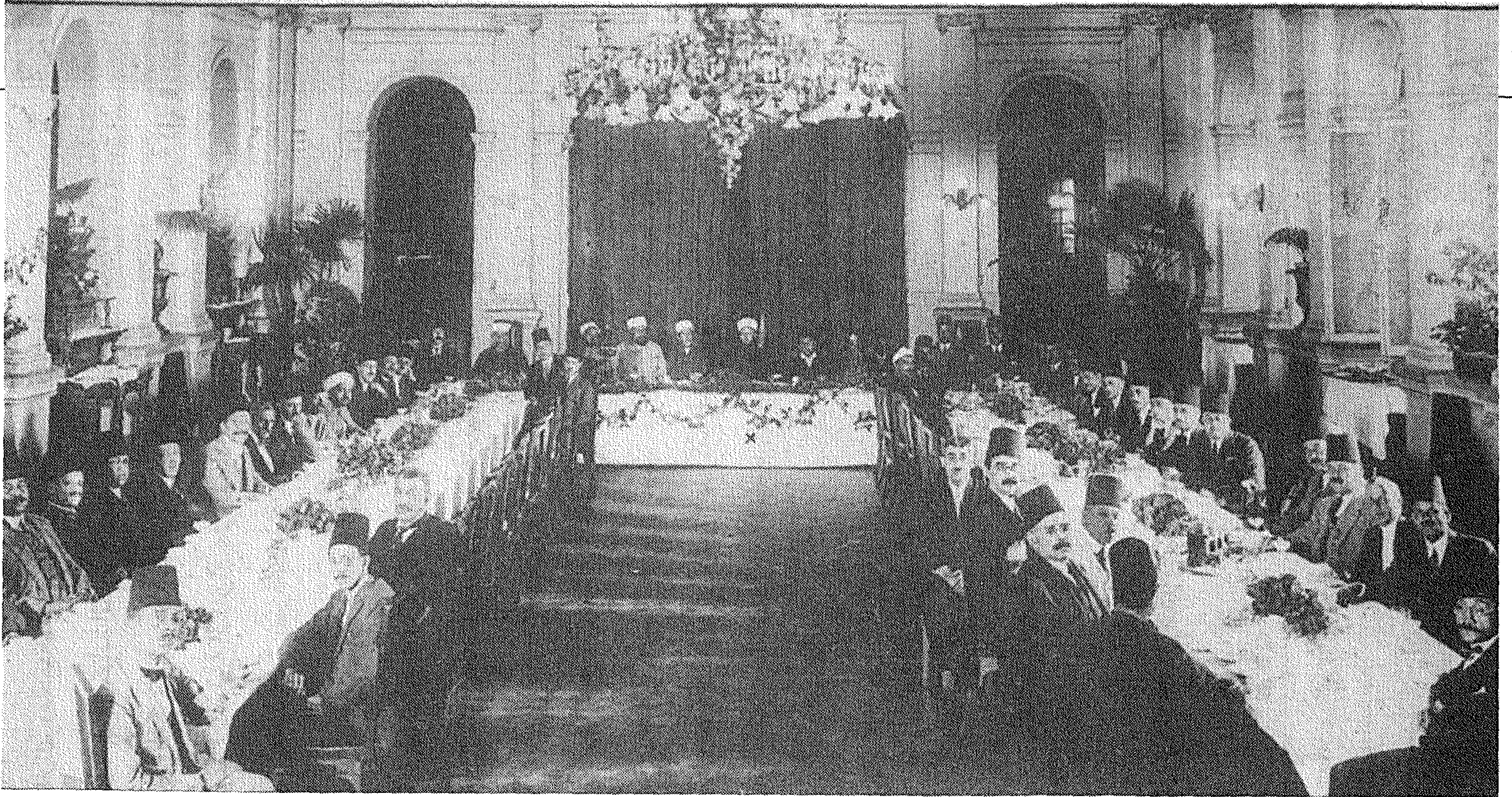
ولما أصدر د. «محمد حسين هيكل» كتابه «فى منزل الوحى» [٢٨] ظهر فى مقدمته (ومن قبل فى كتابه الكبير «حياة محمد») مدى التحول فى تفكيره، واتجاهه نحو «الفكرة الإسلامية» التى تهدم تماما دعوته السابقة إلى «تأسيس النهضة المصرية الحديثة على قاعدة بعث المجد الفرعونى القديم». فهو يقول وكأنه يعتذر عن نظرة خاطئة مضتْ، وتقدير من قَبل غير سليم :

«.. كيف نستطيع أن ننقل ثقافة الغرب الروحية لننهض بهذا الشرق، وبيننا وبين الغرب فى التاريخ وفى الثقافة الروحية هذا التفاوت العظيم ؟ لا مفر إذن من أن نلتمس فى تاريخنا وفى ثقافتنا وفى أعماق قلوبنا وفى أطواء ماضينا هذه الحياة الروحية، نُحيى بها ما فتر وخمد من قرائحنا وجمد من قلوبنا. هذا كلام واضح بيِّن . ومن عجب أن يخفَى هذا على أصحابى فلا يروْنه، وأن يكون خفاؤه سبب تَثْريبهم علىّ . ولكن لا عجب، فقد خَفِى هذا الكلام عنى سنوات . كما لا يزال خفيا على كثير منهم، وقد حاولتُ أن أنقل لأبناء لُغتى ثقافة العرب المعنوية وحياتهم الروحية لنتخذهما جميعا هدى ونبراسا. لكننى أدركتُ بعد لَأْى، أننى أضع البَذْر فى غير مَنْبته، فإذا الأرض تهضمه ثم لا تتمخض عنه ولا تبعث الحياة فيه. وانقلبْتُ ألتمسُ من تاريخنا البعيد فى عهد الفراعين مَوْئلا لوحْى هذا العصر يُنشئ فيه نشأة جديدة، فإذا الزمن، وإذا الركود العقلى قد قَطَعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يَصلح بذْرا لنهضة جديدة . ورَوَّأْتُ [٢٩] فرأيْتُ أن تاريخنا الإسلامى هو وحده البَذْر الذى يُنْبت ويُثمر، ففيه حياة تُحرك النفوس، وتجعلها تهتز وتَرْبو. ولأبناء هذا الجيل فى الشرق نفوس قوية خصبة، تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتِى ثمرها بعد حين .

---

(٢٨) صدر سنة ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٦م بعد عام واحد من صدور كتابه «حياة محمد»، وهما بداية سلسلة قيمة كتبها عن العصر الأول للإسلام تُعتبر نهجا جديدا فى التاريخ الإسلامى بأسلوب أدبى رفيع المستوى، وتحليل موضوعى جيد التناول والمنْحَى ، وهذه السلسلة أفضل أعماله التى تذكره بها الأجيال الواعية الجادة لزمن طويل قادم .

(٢٩) أى تروَّيت وتريَّثت .



احتفال المصريين بفضيلة مفتى القدس

من مظاهر احتفاء مصر بأبناء وزعماء وقادة العالم العربى الإسلامى واهتمامها بأحوالهم وقضاياهم ، هذا الحفل الذى أقيم بفندق شبرد (القديم) بالقاهرة سنة ١٩٣٦ ترحيبا بالحاج « أمين الحسينى » مفتى القدس ورئيس المجلس الإسلامى بفلسطين ، وتدارسا للقضية الفلسطينية .

« والفكرة الإسلامية المبنية على التوحيد فى الإيمان بالله تنزع فى ظلال حرية الفكر إلى وحدة إنسانية، وحدة أساسها الإخاء والمحبة . فالمؤمنون فى مشارق الأرض ومغاربها إخوة متحابون بنور الله بينهم ، وهم لذلك أمة واحدة . تحيتها السلام، وغايتها السلام. وهذه الفكرة الإسلامية تخالف ما يدعو إليه عالمنا الحاضر من تقديس القوميات، وتصوير الأمم وحدات متنافسة، بحكم أسباب الدمار بينها فيما تتنافس عليه. ولقد تأثرنا معشر شعوب الشرق بهذه الفكرة القومية، واندفعْنا ننفخ فيها روح القوة، نحسب أنَّا نستطيع أن نقف بها فى وجه الغرب الذى طغَى علينا وأذلنا. وخُيل إلينا فى سذاجتنا أنَّا قادرون بها وحدها على أن نعيد مجد آبائنا وأن نسترد ما غَصب الغرب من حريتنا وما أَهْدر بذلك من كرامتنا الإسلامية. ولقد أنسانا بريق حضارة الغرب ما تنطوى عليه هذه الفكرة القومية من جراثيم فتاكة بالحضارة التى تقوم على أساسها وحدها. وزادنا ما خَيم علينا من سُجُف الجهل (ظُلماته) إمعانا فى النسيان. على أن التوحيد الذى أضاء بنوره أرواح آبائنا قد أوْرَثنا من فضل الله سلامة فى الفطرة، هدتْنا إلى تصوُّر الخطر فيما يدعو الغرب إليه، وإلى أن أُمة لا يتصل حاضرها بماضيها خليقة بأن تضل السبيل، وإلى أن الأمة التى لا ماضى لها لا مستقبل لها. ومن ثَم كانت الهُوَّة التى ازدادت عمقا بين سواد الأمم فى الشرق، والدعوة إلى إغفال ماضينا والتوجه إلى الغرب بكل وجودنا. وكان النفور من جانب السواد عن الأخذ بحياة الغرب المعنوية، مع حرصه على نقل علومه وصناعاته. والحياة المعنوية هى قِوام الوجود الإنسانى للأفراد والشعوب. لذلك لم يكن لنا مفر من العودة إلى تاريخنا نلتمس فيه مقومات الحياة المعنوية، لنَخرج من جمودنا المذل، ولنَتَّقىَ الخطر الذى دفعتْ الفكرة القومية الغرب إليه، فأدامت فيه الخصومة ، بسبب الحياة المادية التى جَعلها الغرب إلٰهه»[٣٠].


محمد على علوبة باشا

(٣٠) وفى مجلة السياسة الأسبوعية كتب «د. عبد الرزاق السنهورى» يحذِّر الشعوب الشرقية من الاستجابة لفكرة القوميات وتركها تنمو وتستفحل حتى تصبح بعد حين من الزمن متنافرة متحاسدة (أكتوبر ١٩٣٢).
وهاجم « محمد على علوبة باشا» - فى حفل أقيم لتكريمه بدمشق - فكرة الفرعونية وأثنَى على السوريين وإخلاصهم للعروبة ولفكرة الرابطة بين الأمم العربية .

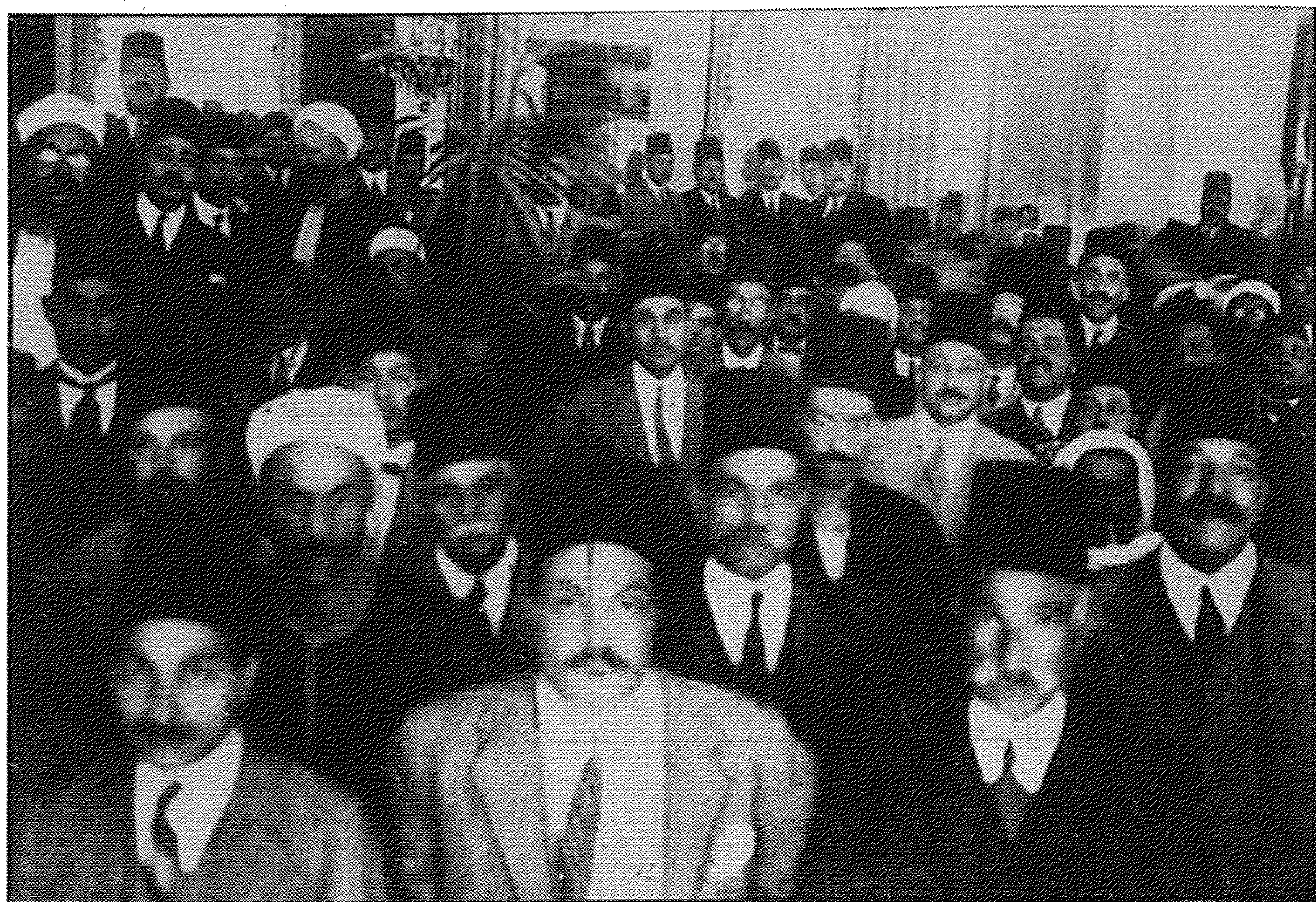
ومضت الدعوة إلى الجامعة العربيـة، تَنمو وتَنْشط وتَقْوى وتنتشر، حتى صارت حقيقة واقعة بقيام منظمـة «الجامعة العربية» فى ٢٢ مارس ١٩٤٥، واشترك فى توقيع ميثـاقهـا يومذاك سبع دول عـربيـة هى : مصر، والمملكة العـربيـة السعـودية، وسـوريا، ولبنان، وشرق الأردن، والعـراق، واليمن. وتحقق أمل كثيرين من السيـاسيين والمفكرين والأدباء والمثقفين والأفـراد العـاديين الذين عبَّر عنهم الشـاعـر «أحمد محرم» بقصيـدة (سنة ١٩٤٣) مطلعها :

أُمـمُ العروبـةِ جـاء يومـك فاعمـلى ... وإلى مكـانـك فـانـهضى وتقَـدمى
لك فى فـم الأحـداث دعـوة صـارخٍ ... يَنْـفى القـرار عـن الشعـوب النُّـوَّمِ
فدَعى المصاجعَ وانْفُضى عنكِ الكَرى ... وخُـذى السبـيل إلى المقـام الأعظـم
ضُمى القُـوى وتَجَـمَّـعى فى وحـدةٍ ... عربيـة تحـمى اللـواء وتَحْـتـمى

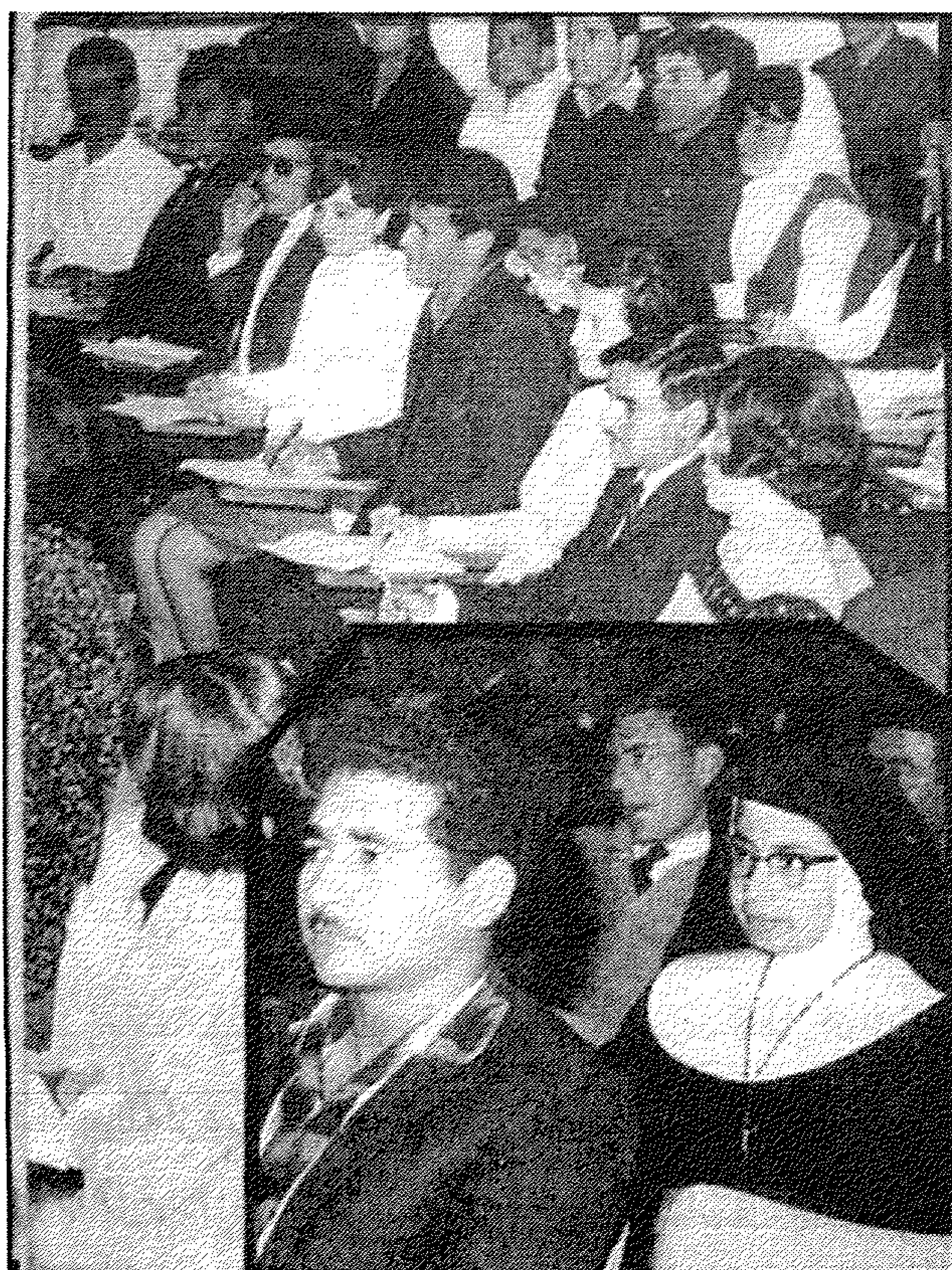
كان أمـرا طبيعيا - أو إن شئْت واقعيا - أن يحتـدم الجدال والعراك على صفحات الصحف والكتب والمطبوعات الأدبيـة والسياسية ، حول «الجامعة العربية» و «الوحدة العربية الإسـلامية» وما يترتب على ذلك من موضوعات تتعلق باللغة، والآداب، والفنون، والمعرفة، والثقـافة، وأيضا أساليب المعيشة وشئون الحياة ومظاهر المجتمع ؛ أو باختصار : بين التجديد والمحافَظَة، بين القديم والحديـث . وليس لنا أن نستظهر البواعـث والمآرب، أو دوافع الميول والضغـائن ، ولكـن يكفى الرجـوع إلى الأقـوال المسجَّلة ، والمواقف المعْلَنة، والكتابات المنشورة ، وهذه نماذج من بعضـها ..

التسامح فى وادى الجهل السعيد

تعلقـًا بمبـدأ «حـرية الفكر» نشرت مجلة الهلال المصرية فى عـدد شـوال ١٣٤٤ هـ/ مايو ١٩٢٦م قصة رمزية بعنوان : «التسـامح» مهَّدت لها المجلة بمقدمـة تفسيرية جاء فيهـا : «ما أحْـوجنا إلى التسامح والتسـاهل... وهذه القصة الرمزية التى نقـدمها للقراء اليوم قد جُعِلت مقـدمة لكتاب نفيس عن



أمم العــروبة جــاء يومــك فــاعملى وإلى مكــانك فــانهضى وتقــدمى



التسامح. ونـودُّ لو أن أنصار القديم عنـدنا يطالعونها ويُنْعمـون النظر فيها ليروا كيف ارتقى الإنســان، وكيف وصل إلى مـا هو عليه الآن بفضل حـرية الفكر » .

تتحـدث القصـة عن شعب كـان يعيش فى «وادى الجهل السعيـد»، أسلم نفسه واستسلم لقيادة عدد من «الكبار العارفين» العاكفين على تلاوة «كتاب قـديم» كتبه قَبل ألف عـام «شعب مجهول». وقـد أضفَى تقادم الكتـاب على صفحـاته نوعا من «القـداسة»، حتـى صار من يشك فيـه أو يعارضـه يثير سخط الناس فيصمونه بالكفر والزندقة . والناس فى «وادى الجهل السعيد» منطوون على أنفسهم لا يعـــرفــون شيئا عن العـــالم الخارجى، بل إنهم يحسبون حياتهم سعيدة آمنة، وإن كانوا يعيشون فى ظلام عند سفح هضبة تحجب عنهم أنوار الشمس . فلما تجرَّأ أحــدهم – وهو الراوى فى القصـة – على تسلُّق الهضبـة وطاف وراءها فى النـور ثم عـاد دامىَ القـدمين منهـوك القُوَى ، قدَّمه «الكبار العـارفون» للمحاكمة لجرأته على الخروج من الوادى، وألزموه بـالصمت وهو مقيَّدٌ بالأصفـاد فى ساحة كبيرة للقضـاء، لكنه أدار ظهـره «للكبـار العـارفين» واتجه إلى الجماهير المحتشدة ليخـاطبهـا بقـوله صائحا : «هذا إفك . إن الآلهة تحب الشجعان . فكـان الكبار العارفون يأتون إلىّ ويقرأون لى من الكتب المقدسة ويقولون : إن كل شىء فى السماء والأرض مرسوم بالنامـوس، وإن هذا الوادى بنَص الناموس لنا، نملكه ونعيش فيه ، لنا حيوانه وزهره وسَمَكه، بها ما شئنا، أما الجبال فللآلهة، وما وراء الجبال يجب أن يبقَى مجهــولا حتى آخــر الزمـان...». ثـم يصيح فيـه «الكبـــار العــارفــون»: هذه زندقــة ورجْـس. وتردد الجماهير كلماتهم، ثم يتناولون أحجارا ثقيلة يرجمونه بها حتى يقتلوه .

وتمضى القصـة الرمـزية فتـذكُر وقـوع أزمـات ونكبـات لأهل الوادى وجفاف وقحـط ، و «الكبار العارفـون» يخادعون الناس بأن المحنـة سوف تنقشع كما وعـدتْهم بذلك الكتب المقــدسـة، وبعـد أن هلك نصف السكان،



« فى وادى الجهل السعيد »

تشجع البـاقـون وهبُّـوا ثائـرين، وأطاحـوا «بالكبـار العـارفين» وبكتبهم المقدسـة، وفى غمرة انتصـارهم تذكروا رائـدهم المقتول أو المرجـوم، فنقلوا رُفاته إلى بناية فاخرة شامخة كانت سكنا «للكبار العارفين».

إلى أين يتجه الإسلام ؟

نشطت فى تلك الفترة تيـارات وجماعـات فى الشرق البعيـد (غيرالعـربى) والغرب القريب ، تكتب وتؤلف وتنشر باستفـاضة– فى الصحف الأجنبية – وتُصدر المطبـوعات ، ثم يُترجم بعضها إلى العربيـة ليطالعه أبناؤها . وتحت مظلة الاستشراق وعبـاءة المستشرقين اكتسبت أفكـار وآراء ودعـوات المناهضين للتراث العـربى والإسلامى – وأحيـانا كان الهجـوم على الأديان

كلها – اكتسبت إيقاعا جديدا وقوة دافعة ، باسم البحث العلمى والدراسة الموضوعية والفكر الحديث المستنير . ويصلح مثالا على ذلك كتاب : « إلى أين يتوجه الإسلام ؟ » (Whither Islam?) ، اشترك فى تأليفه مجموعة من المستشرقين الباحثين من جنسيات مختلفة بإشراف وتقديم المستشرق الإنجليزى المعروف « جِيب » الذى تولى نشره سنة ١٩٣٢[٣١] . وقد تولى الرد عليه وتفنيد ما جاء به والتعليق عليها د. «محمد حسين» أستاذ الأدب الحديث بجامعة الإسكندرية[٣٢]. وهذه بعض «الآراء» ونتائج «البحوث والدراسات» التى تضَمَّنها الكتاب الاستشراقى :

* إن الموازين الدينية والتعاليم الأخلاقية فى الإسلام آخذة فى التحول، وهذا التحول يتجه نحو الاقتراب من الموازين الغربية فى الأخلاق. وفى كل البلاد الإسلامية – باستثناء شبه الجزيرة العربية وأفغانستان وبعض أجزاء من وسط أفريقيا – تسعى حركات مختلفة القوة والاتساع إلى تأويل وتنقيح التعاليم الإسلامية، وقد اتجهت مدرسة «الشيخ محمد عبده» بكل فروعها إلى تحقيق هذا الهدف ، ويجب على المسيحية الغربية أن تشجع هذا الإصلاح الإسلامى .

* هل يستطيع الإسلام استعادة وحدته الداخلية فى ظلال التجزئة السياسية القائمة وتحت تأثير الآراء العصرية والعلوم الغربية ؟ وعندئذٍ : هل سيكون عدوا خصيما للغرب أم حليفا صديقا ؟ وهل هو فى سبيله إلى التفتت إلى وحدات قومية تعكس كل منها التأثيرات الأوروبية بطريقتها الخاصة وبأسلوبها المستقل ؟ وهل يحدث فى مصر ما حدث فى تركيا من قطع كل صلة بالماضى الإسلامى واستخدام الحروف اللاتينية فى الكتابة بدلا من العربية ؟

---

(٣١) H. A. R. Gibb ، وكان يعمل مستشارا بوزارة الخارجية البريطانية، وكان أيضا عضوا فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وهذا يدعو إلى العجب!

(٣٢) فى كتابه : الاتجاهات الوطنية فى الأدب الحديث (١٣٧٥ هـ / ١٩٥٦ م) .



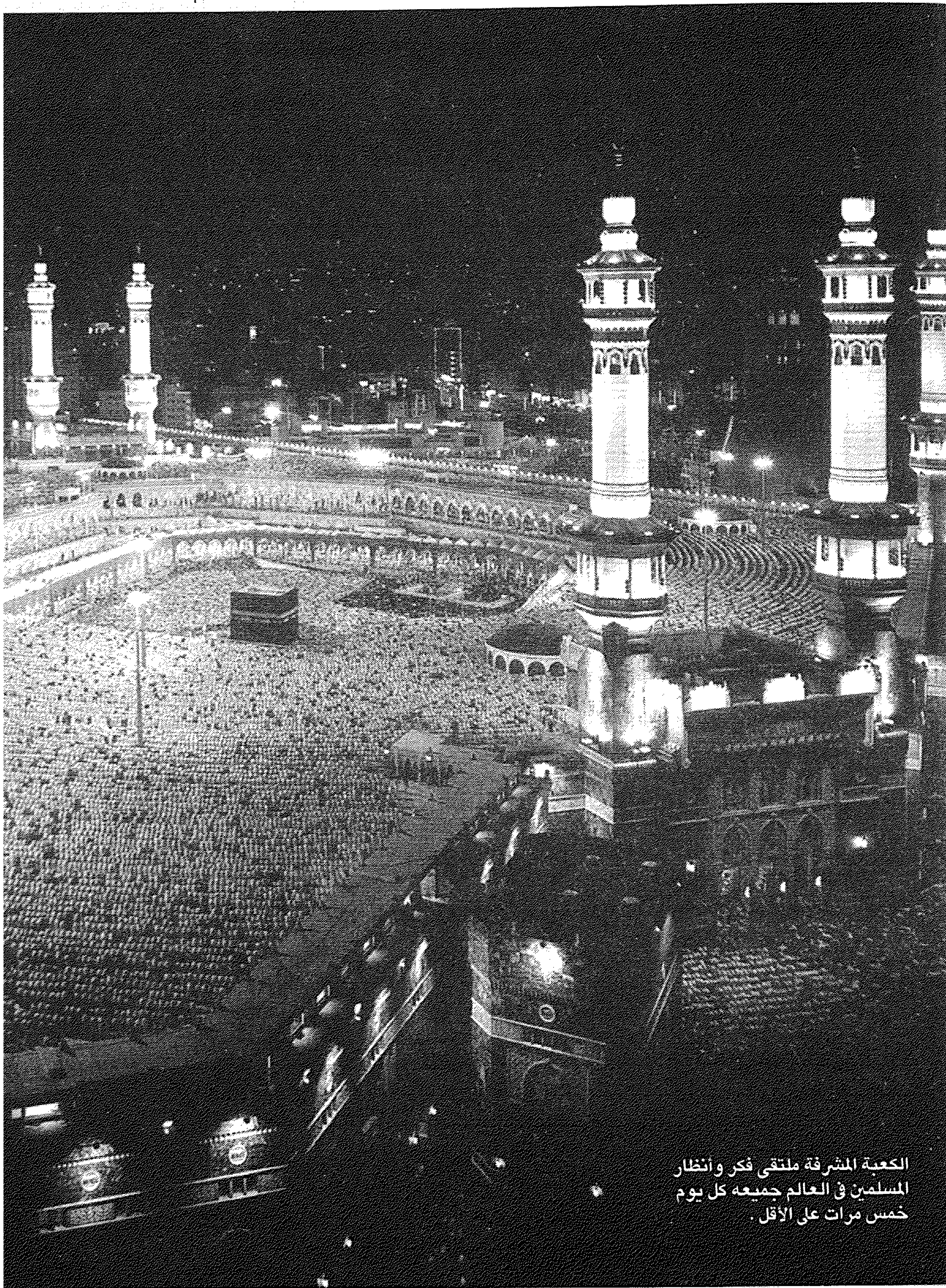
* هل ستكون الميول المشتركة بين الشعوب الإسلامية حية نابضة ؟ أم أن الآراء والأفكار الجديدة ستُفلح فى تشتيت العالم الإسلامى وتحطيم وحدته ؟

* إن «التغريب» (اتباع منهج وأسلوب الغرب) فى المظاهر الخارجية (كالملْبس والمأكل والمَظْهر) أمر ثانوى سطحى، والأهم من ذلك التأثير على الثقافة والتعليم، وعلى الصحافة خاصة التى هى من أقوى الأدوات الأوروبية وأعظمها نفوذا فى العالم الإسلامى، ومن أشد العوامل تأثيرا فى تكوين رأى عام .

* يشهد الواقع بأن الإسلام كعقيدة لم يفقد إلا قليلا من قوَّته وسلطانه ؛ ولكنه كقوة مسيطرة على الحياة الاجتماعية فقدْ فقدَ مكانته، ودائرة نفوذه تضيق شيئا فشيئا حتى انحصرتْ فى طقوس محدودة . وقد تم معظم هذا التطور تدريجيا من غير وعى أو انتباه من المسلمين، والذين أدركوا هذا التطور فئة ضئيلة من المثقفين .

* إن النجاح الكامل لهذا التطور يتوقف - إلى حد بعيد - على الزعماء والقادة فى العالم الإسلامى، وعلى الشباب منهم خاصة. إن تركيا قد انقلبتْ إلى بلد غربى كأعنف ما يكون الانقلاب. أما فى شبه الجزيرة العربية فإن التغريب لم يضع قدمه بعد . وفى شمال أفريقيا بدأت حركة التغريب ، وهى ماضية فى طريقها وإن كان أثرها أبرز فى تونس . أما فى مصر فهى تتطور بوضوح فى هدوء بعيدا عن العُنف . أما العراق وسوريا فهى تتبع خطوات مصر ، بينما تتبع فى إيران خطوات تركيا .

* إن الوحدة الإسلامية قد انتهت من الناحية القانونية الرسمية. ومع أن الثقافات القومية قد أخذتْ مكانها فى المدارس، والفوارق الاجتماعية والفكرية أصبحت أكثر وضوحا، ومع أن الثقافة الدينية قد أصبحت محصورة فى عدد قليل محدود، إلا أن المعاهد الدينية التقليدية لا تزال قائمة، ولا يزال حُفاظ القرآن ودارسوه كما كانوا، ولم يضعف سحْر آيات القرآن وتأثيره على تفكير المسلمين .



الكعبة المشرفة ملتقى فكر وأنظار المسلمين في العالم جميعه كل يوم خمس مرات على الأقل.

* إن الحركات الإسلامية تتطور بسرعة تدعو إلى الدهشة وتنفجر فجأة، ولا ينقصها إلا الزعامة، لا ينقصها إلا ظهور «صلاح الدين» الجديد .

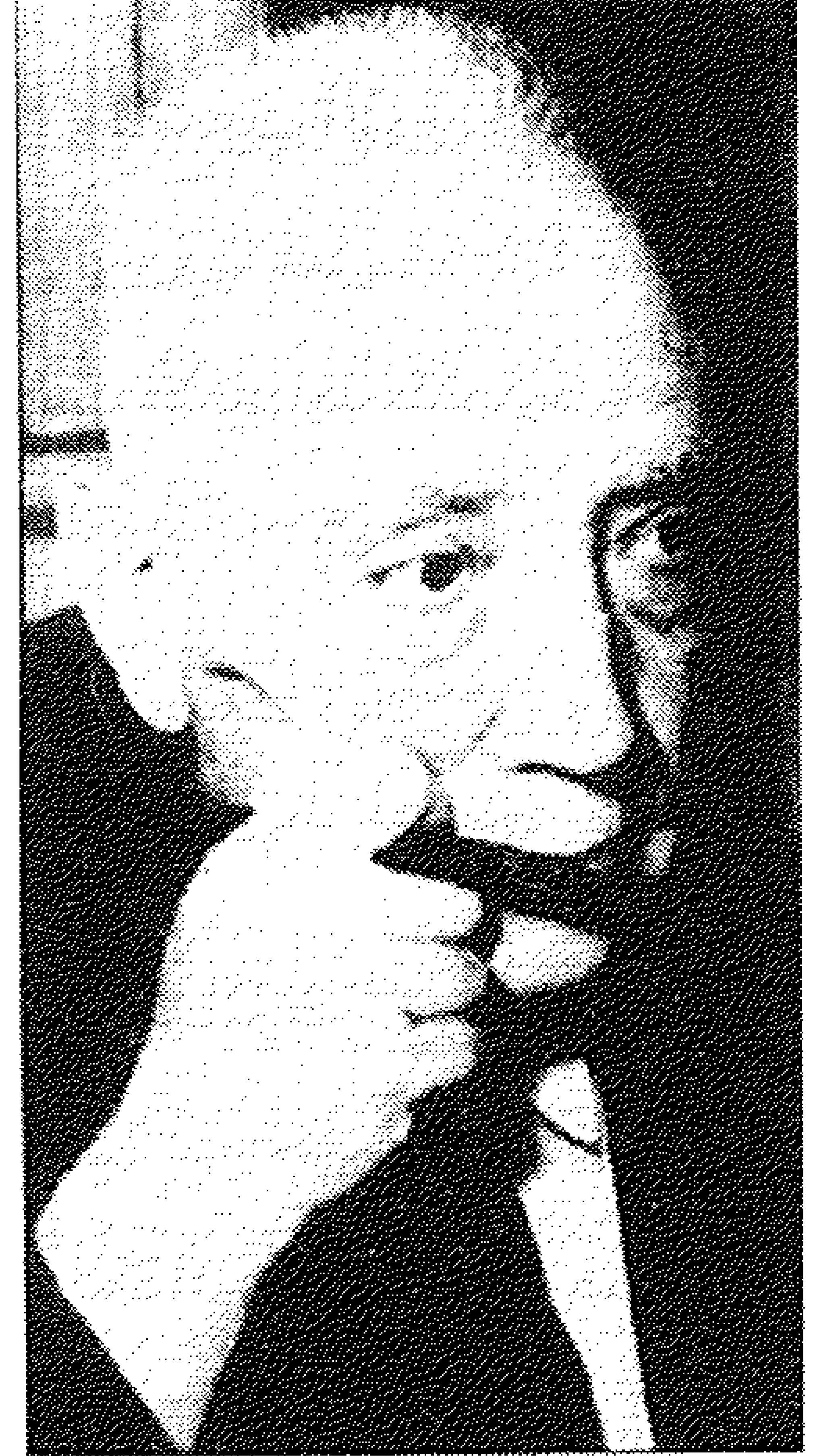
اليوم والغد : سلامة موسى

نُشر هذا الكتاب (اليوم والغد) سنة ١٩٢٧ بهدف واضح تضمنتْه بداية المقدمة إذ يقول المؤلف : «كلما ازددتُ خبرة وتجربة وثقافة، توضحتْ أمامى أغراضى فى الأدب كما أزاوله. فهى تتلخص فى أنه يجب علينا أن نخرج من آسيا وأن نلتحق بأوروبا. فإنى كلما زادت معرفتى بالشرق، زادت كراهيتى له، وشعورى بأنه غريب عنى. وكلما زادت معرفتى بأوروبا، زاد حُبى لها وتعلُّقى بها، وزاد شعورى بأنها منِّى وأنا منها. هذا هو مذهبى الذى أعمل له طول حياتى سرا وجهرة . فأنا كافر بالشرق، مؤْمن بالغرب»(٣٣).

ثم يَسْرد فى تلك المقدمة – دون انتظار لعرْض موضوع الكتاب – ما «يريد» أن يمحوه من عقول أهل الشرق ومن حياتهم وضمائرهم ومشاعرهم ثم ما يريد بعد ذلك منهم . يريد مثلا : «حرية المرأة كما يفهمها الأوروبى...»، «أن يكون الأدب أوروبيا ٩٩٪، قائما على المعنى والقصد لا على اللفظ كما كان الحال عند العرب»، «وأن تُقْتَلعَ من الأدب آثار العبودية والذل والتوكل على الآلهة التى هى من طبائع الشرق»...، «وأن تكون ثقافتنا أوروبية لكى نغرس فى أنفسنا حُب الحرية والتفكير الجرىء»، «وأن يكون التعليم تعليما أوروبيا لا سلطان للدين عليه، ولادخول له فيه»، «وأن تكون الحكومة ديموقراطية برلمانية كما هى فى

(٣٣) يلزم توضيح مقصد الكاتب من استخدام بعض الكلمات التى تُوارى معانٍ يستهدفها ولم «يَجْهر بها» ثقة بفطنة القارئ . فمثلا : الخروج من آسيا يعنى الخروج من تراث وثقافة وعقيدة العرب والإسلام السائدة فى المنطقة القادمة من الجزيرة العربية الآسيوية . وكلمة الشرق تعنى الشرق العربى . وهكذا فى ألفاظ تالية ليست خافية. لكن الكتاب وما يحويه يدل على أمريْن جوهريين : أولهما – المناخ الذى كان سائدا فى تلك الفترة الزمنية فى مصر ، الذى أتاح له أن يكتب ما شاء وأن يعبِّر عن آرائه «جهرة» ولم يَلْق إرهابا أو قتلا أو خروج مظاهرات ساخطة صاخبة ترعد وتتوعد وتدعو إلى «الجهاد» والاستشهاد . وإنما فى «تسامح» رد عليه كتَّاب بمؤلفات ومقالات.

أوروبا»[٣٤] ، «وأن يعـاقَب بالسجن كل من يحاول جَعْلهـا مثل حكومـة هارون الرشيد أو المأمـون، أو أوتوقراطية دينية»، «وأن يعاقَب بالسجن كل من يتزوج أكثر من امرأة، ويُمنع الطلاق إلا بحكم محكمة »...



رسالة بخط يد « سلامة موسى » إلى وزير بوزارة « محمد محمود باشا » بتاريخ ٢٢ أغسطس ١٩٢٩ يستحثه فيها على الترخيص له بإصدار جريدة يومية ويقول : « لكى أخدم الحكومة فى الدعوة لها بين الأقباط .. » ! ثم يضيف : «والآن مشروع المعاهدة (مع الإنجليز) أمام الأمة أظن أنه من مصلحة الوطن أن يكون الأقباط فى صف الداعين إليها ... ثم إنى أعتقد أن مصلحة الأمة كلها تقتضى قبول المعاهدة .. » !!

يمضى المؤلف «فى حرية وتفكير جرىء» يعرض بالتفصيل على صفحات الكتـاب أفكاره وتصوراتـه وهجماته على ما يستفـزه اليـوم وصُولا إلى مـا يتمناه للغد . ومن ذلك قوله بالنص :

« - إن الخديوى إسماعيل جعلنـا نلبس الملابس الأوروبيـة، ووزَّع بين أعيـان البـلاد فتيـات مـن الشركس لكى يتحسن اللون ويقـارب البَشرة الأوروبية .

(٣٤) عـرفت مصر ومارست النظام البرلمانى الأوروبى منذ عهد الخديوى إسماعيل فى أواخر القرن التـاسع عشر الميـلادى : فى سنة ١٨٦٦ أنشئ مجلس شـورى النواب من ٧٥ عضـوا منتَخَبين، واكتملت سلطتـه بتقـرير مبدأ المسئوليـة الـوزارية أمـامـه سنة ١٨٧٩، وهو أسـاس النظام الدستـورى الحديث ، ثم كان البرلمان المصرى بمجلسيـه (النواب والشيـوخ) بعد الاستقـلال وإعلان الدستور .

– آن الأوان لكى نعتاد عادات الأوروبيين ونلبس لباسهم ونأكل طعامهم ونصطنع أساليبهم فى الحكومة والعائلة والاجتماع والصناعة والزراعة .

– إننا كنا تابعين للدولة الرومانية الشرقية عندما انفصلت عن الدولة الرومانية الغربية. فقد عشْنا نحو ألف سنة ونحن جزء من الدولة الرومانية... ثم نحن فى هيئة الوجه أوروبيون... والشعب الأول الذى سكن مصر لا يختلف الْبَتَّة عن الشعب الذى كان يسكن أوروبا قبل ٤٠٠٠ سنة... وبين المصرية القديمة والإنجليزية الراهنة مئات الألفاظ المشتركة لفظا ومعنى .

– حقيقة الأزهر أنه جامعة أوروبية –!!– أسسها رجل أوروبى هو جوهر « الصقلِّى » (أى أنه من صقلية) .

– إن هذا الاعتقاد بأننا شرقيون قد بات عندنا كالمرض . ولهذا المرض مضاعفات . فنحن لا نَكره الغربيين فقط ، ونتأفف من طغيان حضارتهم فقط، بل يقوم بذهننا أنه يجب أن نكون على ولاء للثقافة العربية . فندرس كُتب العرب، ونحفظ عباراتهم عن ظهر قلب، كما يفعل أدباؤنا المساكين أمثال المازنى والرافعى، وندرس ابن الرومى، ونبحث عن أصل المتنبى، ونبحث فى علىّ ومعاوية ونفاضل بينهما، ونتعصب للجاحظ، وليس علينا للعرب أى ولاء، وإدمان الدرس لثقافتهم مضْيعة للشباب وبَعْثرة قواهم... يجب أن نذْكر أن إدمان الدرس للعرب يشتت الأدب المصرى ويجعله مائعا لا لون له .

– إننا فى حاجة إلى رابطة غربية، كأن نؤلف جمعية مصرية يكون أعضاؤها من السويسريين والإنجليز والنرويجيين وغيرهم. نَقْعد معهم، ونستفيد من شِرعة إصلاحية نُفذت فى بلادهم يشرحونها لنا فننتفع بذلك، أو فلسفة جديدة ظهرتْ يعرفِّوننا شيئا عنها، أو آلة جديدة اختُرِعت نتفاوض معهم فى استعمالها عندنا. مثل هؤلاء الناس النظاف الأذكياء نستطيع أن نؤلف رابطة معهم. ولكن ما الفائدة من تأليف رابطة مع (العربى أو المسلم) الهندى أو الجاوى ؟ (وهذا نص كلماته) .



الخديوى إسماعيل



الملكة حتشبسوت



الملكة المصرية : كليوباترا

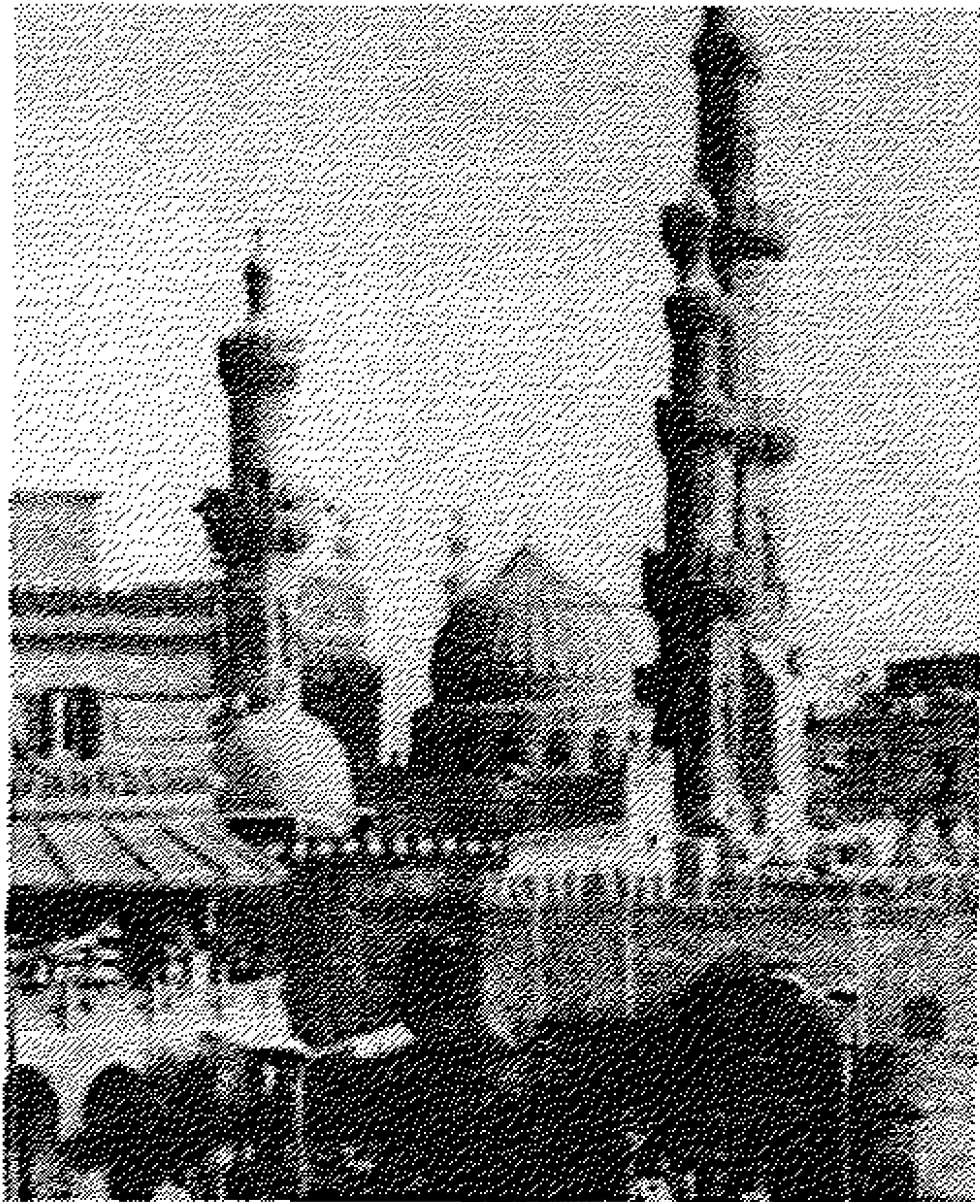
– نحن فى حاجة إلى ثقافة حرة أبعد ما تكون عن الأديان .

– يرجع الفضل إلى لطفى السيد إذ أخذ يُفْشى المبادئ الأوروبية بيننا عن العائلة، وحرية المرأة، واللغة، والأدب، والسياسة .

– يجب أن نرتبط بأوروبا، وأن يكون رابطنا بها قويا، نتزوج من أبنائها وبناتها، ونأخذ عنها كل ما يجّد فيها من اختراعات أو اكتشافات، وننظر للحياة نظرها... ونجعل أدبنا يجرى وفْق أدبها بعيدا عن منهج العرب، ونجعل فلسفتنا وفق فلسفتها، ونؤلف عائلاتنا على غرار عائلاتها... كما يجب أن نسمح لهم بالتوظف فى الحكومة والانتخاب للبرلمان (!).

– إن اصطناع القبعة أكبر ما يقرب بيننا وبين الأجانب ويجعلنا أمة واحدة . فالقُبعة هى رمز الحضارة، يلبسها كل رجل متحضر .

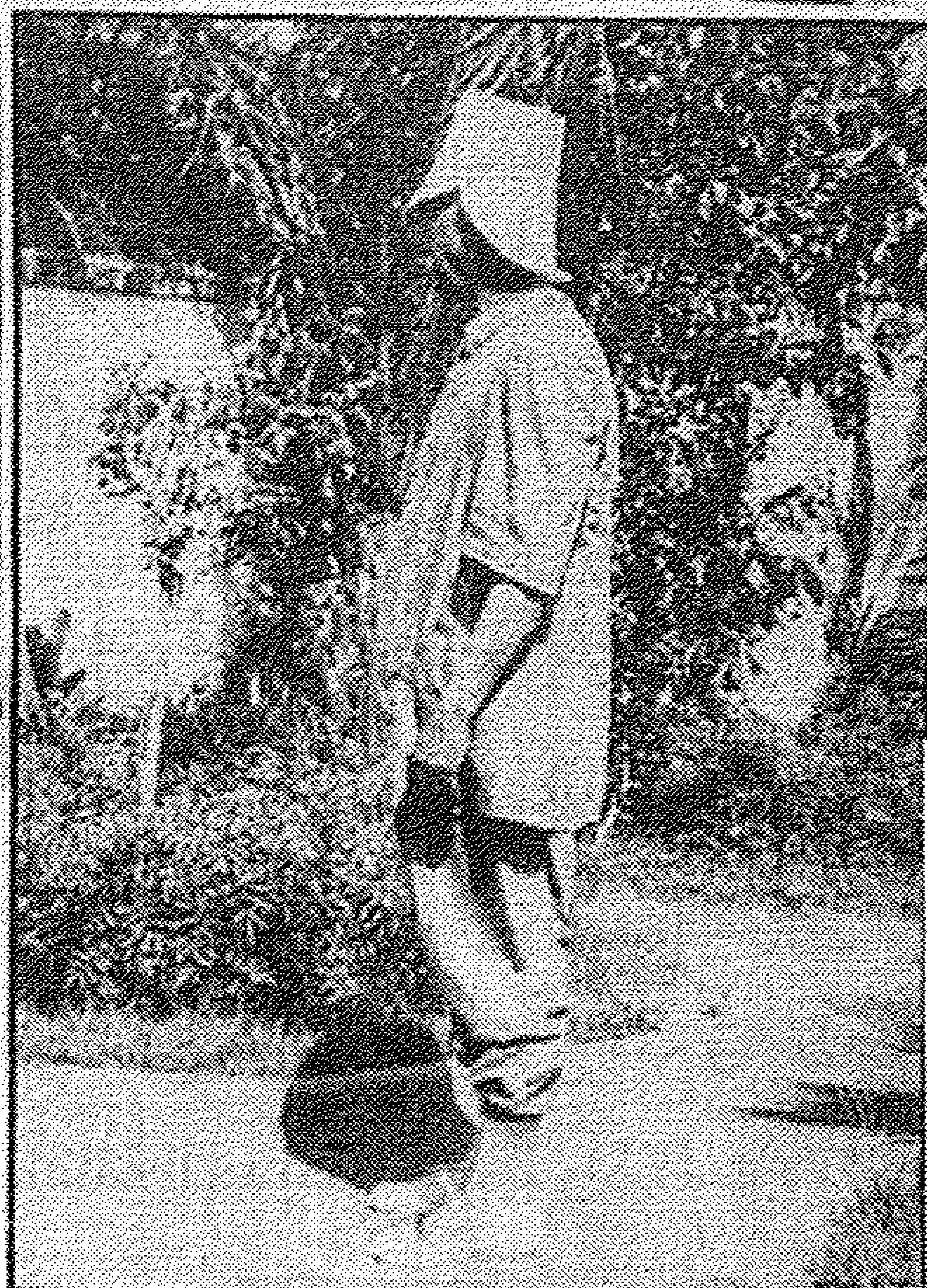
– شبابنا قد سئم سخافة أدبائنا. وصار يطلب من الأدب شيئا جديدا مغذيا غير الكلام عن العرب بلُغة العرب. وشبابنا أيضا يوشك أن يلبس القبعة ، لأنه يجد هوانا من الشذوذ فى العالم المتمدين . وهو أيضا قد أبصر أننا إذا أخلصنا النية مع الإنجليز، قد نتفق معهم إذا ضمنَّا لهم مصالحهم(!). وهم فى الوقت نفسه إذا أخلصوا النية لنا فإننا نقضى على مراكز الرجعية فى مصر وننتهى منها. فَلْنولِّ وجهنا شطر أوروبا.



هل «الأزهر» حقا جامعة أوروبية كما قال سلامة موسى؟!

– إن وزارة الأوقاف والمحاكم الشرعية تؤخر تقدم البلاد. ولنا جامعة تبثُّ بيننا ثقافة العالم المتمدن، ولكن كلية الجامع الأزهر تقف إلى جانبها تبثُّ بيننا ثقافة القرون المظلمة. ولنا أفندية قد تفرنجوا، لهم بيوت نظيفة، ويقرأون كتبا سليمة، ولكن إلى جانبهم شيوخا لا يزالون يلبسون الجبب والقفاطين ولا يتورعون من التوضؤ على قوارع الطريق فى الأرياف.

– تعليم العربية فى مصر لا يزال فى أيدى الشيوخ الذين يَنْقعون أدمغتهم نقعا فى الثقافة العربية، أى ثقافة القرون المظلمة. فلا رجاء لنا بإصلاح التعليم حتى نمنع هؤلاء الشيوخ منه ونسلِّمه للأفندية الذين ساروا شوطا بعيدا فى الثقافة الحديثة .



أثارت دعوة سلامة موسى وغيره إلى استبدال الطربوش بالقبعة كغطاء للرأس ، جدلا غوغائيا – أحيانا كان فكاهيا – في الصحف والمجلات ، وقد نشرت إحداها تحت عنوان « هل من سبيل إلى حل مشكلة لباس الرأس ؟ » مع الصورتين أعلاه .

ومجلة أخرى نشرت هذه الصورة لأحمد شفيق باشا مقترحا غطاء بديلا للرأس كما فعل !

– إن الرابطة الدينيــة وقاحة (هكذا بالنص!). فإننــا أبناء القرن العشرين أكبر من أن نعتمد على الدين جامعة تربطنا .

– إن الدين خُرافة . وفكرة «الله» بدعة بشرية متطورة ...».

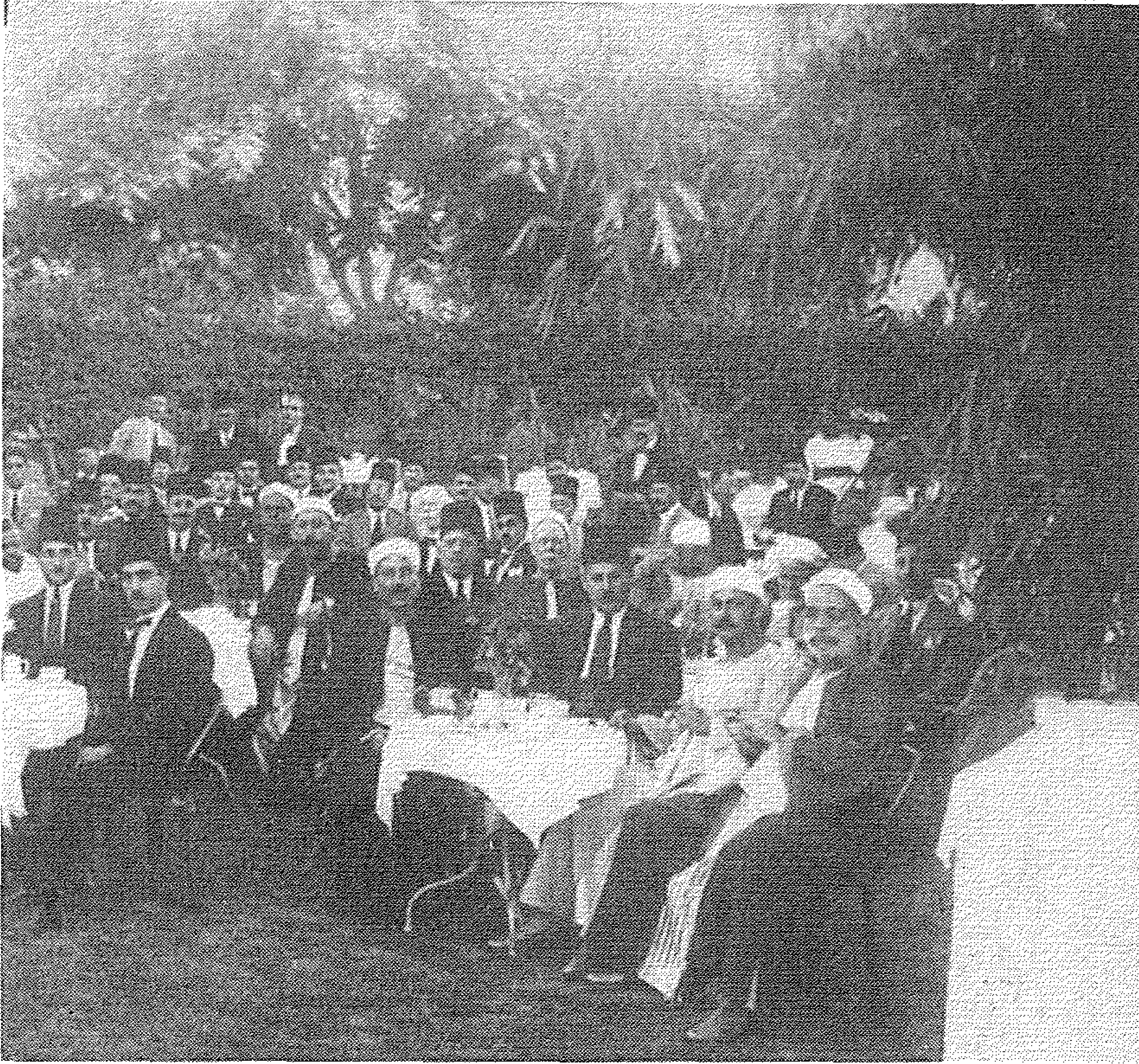
تلك مقتطفات أوردناها بالنص من كتابه بقصد اكتمال العناصر الرئيسية التى شكَّلت مناخ الثقــافــة – والأدب خاصــة – فى النصف الأول من القــرن العشرين، ومــاترتب عليها من بعــد ذلك، دون نقد أو ردٍّ ولا تفنيــد، إذ تكفَّل بهذا كُتــاب وأدباء وعلماء كثيرون سيأتى ذكْــر بعضهم؛ ودون حــرج من عَرْض تلك المقتطفــات كنماذج، إذ قال «الشيوخ» العلماء العقلاء رواد ثقــافة القرون «المستنيرة» : ناقل الكُفر ليس بكافر .

مستقبل الثقافة فى مصر : طه حسين

وُقِّعَتْ بقاعــة «لوكارنو» التاريخية بوزارة الخارجيــة البريطانية فى لندن «معاهدة تحالف وصداقة» بين مصر وبريطانيا فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦، وهى التى عُــرفت باسم «معــاهدة سنة ١٩٣٦»(٣٥). ووافق البرلمان المصرى بمجلسيــه عليها فى نوفمبر التــالى . وهى معاهدة وصَفهــا النحاس (باشــا) آنذاك بأنها «وثيقـــة الشرف والاستقــلال»، بينما وصفهــا آخـــرون بأنها : «تتعــارض مع استقــلال مصر .. وإن الجانب الذى وقَّعهــا يحتمل بلا مــراء تبعة قبــولها وإثم توقيعها.. فأســاسها باطل والرضــا بها باطل، وهى قطْعا وليدة الغصب والإكراه»، هكذا كتب المؤرخ عبــد الرحمن الرافعى. وأشــار فى كتــابه «فى أعقاب الثــورة المصرية – جـــ٣» إلى تعليق «فوشيل» أحــد أقطاب القــانون الدولى فى كتاب [القــانون الدولى العام]: أعلنتْ إنجلترا حمايتهــا على مصر فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤، ولكن الحركــة الاستقلالية التى قــامت فى مصر عقب ذلك اضطَرت الدولــة الحاميــة (بريطانيــا) إلى إرضــاء بعض الأمــانى

(٣٥) وقَّعهــا عن مصر وفــد المفــاوضــة برئــاســة مصطفى النحــاس (رئيس الوزراء) وعضــوية : إسماعيل صدقى، عبــد الفتاح يحيى، واصف بطرس غــالى، د. أحمد ماهر ، على الشمسى، عثمان محرم، محمــد حلمى عيسى، مكرم عبيد ، حــافظ عفيفى. محمود فهمى النقــراشى ، أحمد سيف النصر .

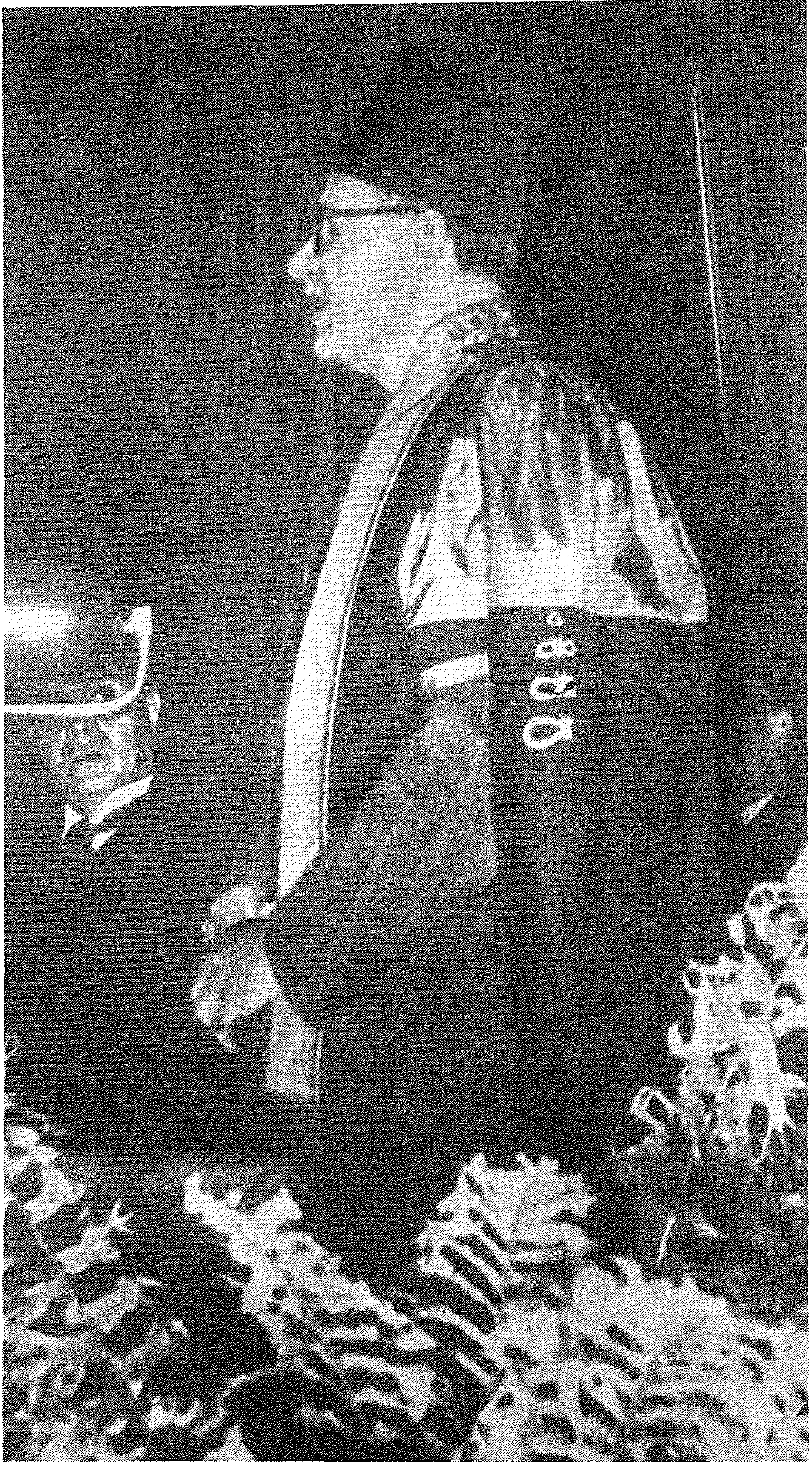
صورة من حفل شاى أقامه « فتح الله بركات باشا » وزير الزراعة آنذاك وحضره « دولة الرئيس سعد زغلول باشا » بمناسبة انتهاء الدورة البرلمانية . وفى حديقة قصر الوزير بالزمالك - بالقاهرة - التقى جنبا إلى جنب «أفندية قد تفرنجوا » وإلى جوارهم شيوخ يلبسون «الجبب والقفاطين » مما أثار حفيظة وغضب « سلامة موسى » على الرغم من أنهم - كما يبدو - أشراف نظاف يحسنون السلوك فى أعلى المستويات !



القومية، وسيكون من نتائج ذلك تغيير الحماية بنظام من نوع آخر (وهو ما تضمنتْه المعاهدة) يقرر استقلال مصر فى الوقت الذى يخوِّل فيه إنجلترا - بواسطة معاهدة تحالف - المزايا والضمانات التى كانت الحماية تحققها»(٣٦).

كثرت أحاديث الناس - فى أعقاب إبرام المعاهدة - عن رُؤَى المستقبل وما يجب أن يُعَد له بعد تلك التطورات السياسية . وأدلَى الأدباء والمفكرون والكتاب بآرائهم وتصوراتهم وتطلعاتهم، من خلال الصحف والكتب والمحاضرات والمطبوعات، وكان من بين هؤلاء دكتور طه حسين، وهو ذو رأى ومكانة ومنصب أو عدة مناصب تجعل له كلمة مؤثِّرة مسموعة بين الناس، وداخل الجامعة (كان عميدا لكلية الآداب بالجامعة)، وعند جماعات

(٣٦) أعلن مصطفى النحاس (رئيس الوزراء) فى ٨ أكتوبر ١٩٥١ أمام البرلمان سياسة حكومته، كما أعلن إلغاء معاهدة ١٩٣٦.



د. « طه حسين » .. ومستقبل الثقافة في مصر .

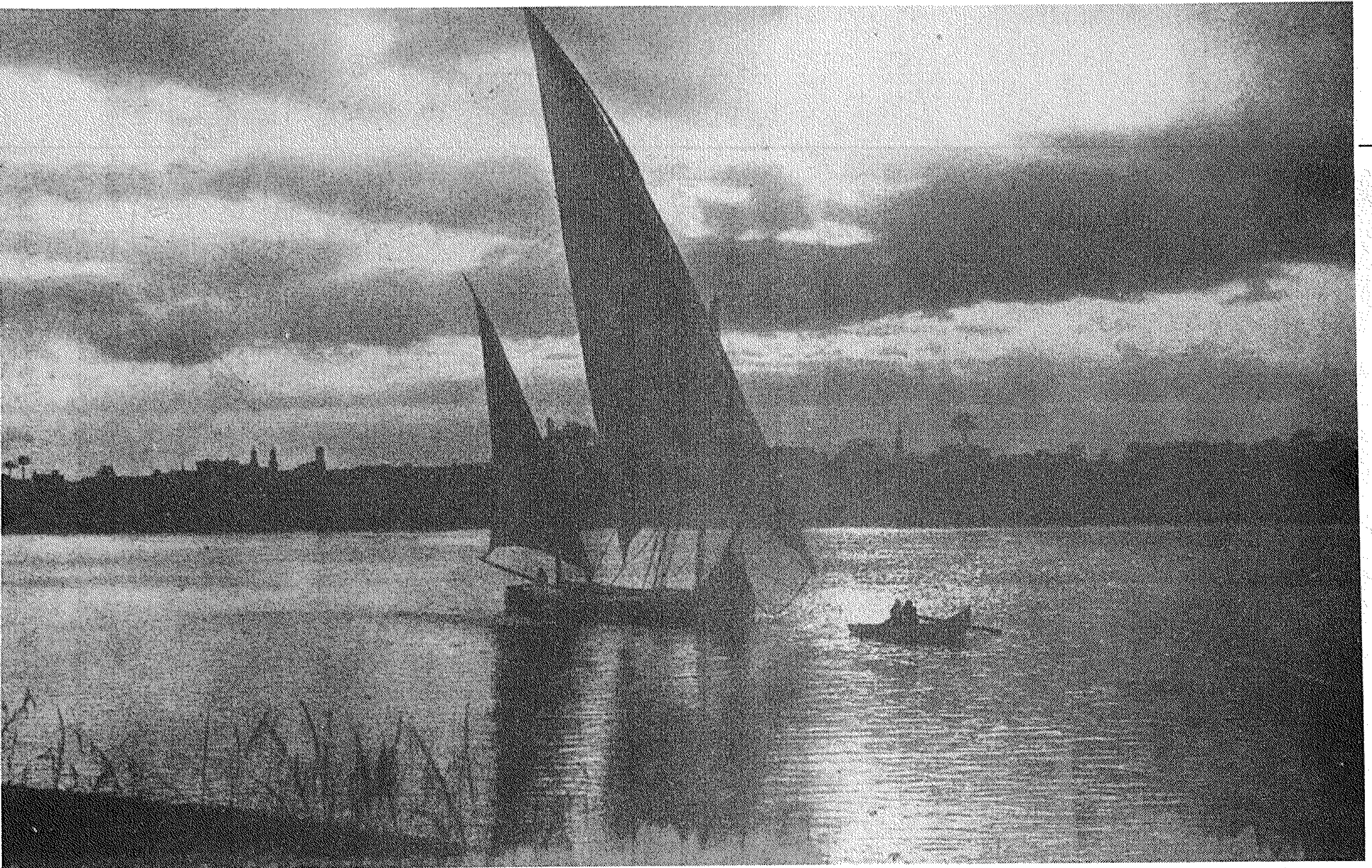
المثقفين والقارئين فى مصر والبلاد العربية (٣٧).

صــدر فى عام ١٩٣٨ كتــاب «مستقبل الثقافــة فى مصر» من تأليف د. طه حسين، وقال فى مقـدمته إنه «يرســم للناس سبيل النهضة التعليميــة فى عهد نهضتهــا واستقــلالها». ولا يقتصر موضــوع الكتــاب على الجانب التعليمى النــاهض وحســب، وإنما يتسع ليشمــل – كما يـدل عنوانــه – على مجالات الأدب والثقافة عــامة فى إطار «رؤية» المؤلف أو تَخَيُّله، وبناء على الأصول أو القــواعد التــى أقام عليهــا فكره وتوقُّعــه، وعلى رأيه بأن التعليم هو ركيــزة تثبيت ونشر الثقافة .

وهو فكر واضح منـذ البـداية فى المقــدمــة، إذ هو يبتغى سبيـل نهضــة «واضحة بَيِّنَــة ليس فيها عِوج ولا التــواء، وهـى : أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم، لنكون لهم أندادا، ولنكون لهم شركــاء فى الحضــارة، خيرها وشرها، حُلوها ومُرها، وما يُحَب منها وما يُكره، وما يُحْمد منها وما يُعاب». فالحياة الأوروبية كــالحضارة الأوروبية فيها خير كثير ومنافع للناس، وإن لم تُعجب بعض الذين يعيبونها ويتلمسون لها الآثام. إنها حضــارة راقية بلا شك. ولا حُجة صــائبة فى رفضها خوفا على العــروبة والإسلام، وذلك لأن : «هذه الحضــارة الإسلاميــة الرائعــة لم يأت بها المسلمون من بلاد العــرب، وإنما أتوا ببعضـها من هذه البــلاد، وبعضـها من مجوس الفُــرس، وببعضـها الآخر مــن نصارى الروم. وقد احتمــل المسلمون راضين أو كارهين زنــدقة الزنادقـــة ومجون الماجنين. قــاومــوا ذلك فى الحدود المعقـــولة، ولكنهم لم يرفضوا الحضــارة الأجنبية التى أنتجت تلك الحضــارة وهذا المجون ».

ويشير المؤلف إلى الســؤال الـذى سبق طَرْحــه، وكثـــر تداوله بين بعض المثقفين فى تلك الفترة وهو : «أمصر من الشرق أم من الغرب ؟». ثم يحاول أن يفسر – أو يبرر – رأيه الذى يميل إلى أن يباعد بين مصر وعروبتها منذ عصر الفراعنة، وينتهى إلى القول : «.. أن العقل المصرى منذ عصوره الأولى عقل إن

(٣٧) من بين المناصب التى شغلهــا د. طــه حسين : مـدير عــام الثقــافــة بوزارة المعــارف (التربيــة والتعليم)، ومديرجامعة الإسكندرية، ثم كــان وزيرا للمعارف وهو قد بدأ تعليمه بالأزهر ، ثم فى فرنسا وتزوج فرنسية .



صورة مغيب الشمس وانعكاس أشعتها على مياه النيل . وكانت موضع إعجاب الفنيين الذين شاهدوها
« أمصر : من الشرق أنتِ أم من الغرب ؟! » سؤال أرَّق د. طه حسين ! والصورة من سنة ١٩٢٥ لشاب مصرى من هواة التصوير : « أحمد أفندى صادق » الموظف بوزارة الأوقاف .

تأثر بشىء فإنما يتأثر بالبحر الأبيض المتوسط، وإن تبادَلَ المنافع على اختلافها فإنما يتبادلها مع شعوب البحر الأبيض المتوسط». ثم يضيف بعد شروح ومقارنات : «وإذًا ، فالعقل المصرى القديم ليس عقلا شرقيا، إذا فُهِم من الشرق الصين واليابان والهند وما يتصل بها من الأقطار.. فإذا لم يكن بُد من أن نلتمس أسرة للعقل المصرى ونُقِره فيها، فهى أسرة الشعوب التى عاشت حول بحر الروم... فأما المصريون أنفسهم فيروْن أنهم شرقيون. وهم لا يفهمون من الشرق معناه الجغرافى اليسير وحده، بل معناه العقلى والثقافى... وقد استطعتُ أن أفْهم كثيرا من الغلط، وأفسر كثيرا من الوهم، ولكنى لم أستطع قط ، ولن أستطيع فى يوم من الأيام، أن أفهم هذا الخطأ الشنيع أو أسيغ هذا الوهم الغريب ».

وهو لاينفك بين الحين والحين أن يؤكد «أَوْرَبة» مصر تاريخيا، وحضاريا، وتجاريا، وسياسيا، وعقليا، بمثل قوله : «كانت مصر دائما جزءا من أوروبا، فى كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية على اختلاف فروعها وألوانها». بل إنه من السخرية والعبث – فى رأيه – أن يدعو أحد إلى مخالفة هذا الاتجاه، أو يدعو إلى العودة بمصر إلى حياة القدماء فى العصور المختلفة . يقول : «وإنى لأتخيل داعيا يدعو المصريين إلى أن يعودوا إلى حياتهم القديمة التى ورثوها عن آبائهم فى عهد الفراعنة أو فى عهد اليونان والرومان أو فى عصرها الإسلامى، أتخيل هذا الداعى وأسأل نفسى : أتراه يجد مَن يسمع له؟ فلا أرى إلا جوابا واحدا يتمثل أمامى، بل يَصدر من أعماق نفسى، وهو أن هذا الداعى إن وُجِد لم يَلْق من المصريين إلا مَن يسخر منه ويهزأ به ».

ويضيف د. طه إلى شروحه وأسانيده مبررا قانونيا دوليا «تفرضه جَبْرا» الالتزامات الدولية فى معاهدة «الاستقلال» – كما يسميها – وهى معاهدة سنة ١٩٣٦ مع بريطانيا، إذ يقول : «التزْمنا أمام أوروبا أن نذهب مذهبها فى الحكم، ونسير سيرتها فى الإدارة، ونسلك طريقها فى التشريع. التزمنا هذا كله أمام أوروبا. وهل كان إمضاء معاهدة الاستقلال ومعاهدة إلغاء الامتيازات إلا التزاما صريحا قاطعا أمام العالم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوروبيين فى الحكم والإدارة والتشريع ؟ فلو هممنا الآن أن نعود أَدْراجنا



من المؤكد أن د. طه حسين سمع عن جبروت واستعلاء وغطرسة الاحتلال البريطانى (الأوروبى) فى مصر واحتقاره وإذلاله للمصريين ، وفى هذه الصورة مثـال : فى ديسمبر ١٩٢٥ أقيمت مباراة لكرة القدم بين منتخب مصر ومنتخب يوغوسلافيا على أرض النادى الأهلى (فازت مصر ٤ - ٢) وتصور المقصورة المندوب السامى البريطانى - جورج لويد - وقد جلس فى كبرياء واضح وباطن حذائه نحو وجه محمود عزمى باشا مندوب ملك مصر (بالزى العسكرى) ويبدو من نظرته الاستياء ...



... وسمع الدكتور العميد أيضا - ومعه دعاة الأوربة والتغريب - عن بطش وجبروت الاستعمار (الأوروبى) الإيطالى فى ليبيا (طرابلس) كما يبدو فى هذه الصورة لزيارة « موسولينى » (إلى اليمين بقفاز أبيض) لمدينة طرابلس وإرغام زعماء القبائل على استقباله فوق جيادهم وإظهار الترحيب به غداة محاولة اغتياله فى روما ...

وأن نُحْيى النظُم العتيقـة لما وجدنا إلى ذلك سبيلا، ولَـوَجدنا أمامنـا عقابا لا تُجْتاز ولا تُذَلَّل، عقـابا نقيمها نحن لأننا حِراص على التقـدم والرقى، وعقابا تقِيمها أوروبا لأننا عاهدناها على أن نسـايرها ونجاريها فى طريق الحضارة الحديثة».

ثم يخطو خطوة أبعد وأجرأ حين يقـرر أن : «وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أسـاسا للوحدة السيـاسية، ولا قـواما لتكوين الدول». ويتحسس لذلك سندا من التاريخ فيقول : «إن المسلمين قـد أقاموا سياستهم على المنافع العملية، وعَدَلوا عن إقـامتها على الوحدة الدينية واللغـوية والجنسية أيضا، قبل أن ينقضى القرن الثـانى للهجرة حين كانت الـدولة الأموية فى الأندلس تخاصم الدولة العباسيـة فى العراق... وقد فطنوا منذ عهـد بعيد إلى أصل من أصول الحياة الحديثة، وهى أن السياسة شىء والدين شىء آخر، وأن نظام الحكم وتكوين الدول إنما يقومـان على المنافع العملية قبل أن يقـوما على أى شىء آخر».

ثم يتحـدث عن إصـلاح التعليم والمعلم فى جميـع المراحل وفى الأزهر، ملتزما برأيه الأساسى وهو ربطه بالتعليم الأوروبى وبالأساليب الأوروبية – حتى فى علوم اللغة ومناهج الأزهر – ويقول : «ولكن أزمة الأزهر الشريف متصلة منذ عهد (الخديوى) إسماعيل أو قبله، ولم تنتـه وما أظنها ستنتهى اليوم أو غـدا. ولكنها ستستمر صراعـا بين القديم والحديث حتى تنتهى إلى مستقر لها فى يوم من الأيام»(٣٨).

---

(٣٨) لا يتسع المجـال هنا – وقد يبتعـد قليلا عن الجانب الأدبى المقصـود فى هذا الباب – أن تُضـاف بعض آراء وأفكار د. طه حسين من كتـابه «فى الشعر الجاهلى» الذى صـدر سنة ١٩٢٦ وأحدث ضجـة كبرى فى مصر والعالم العربى والإسلامى فى الصحف وفى الجامعات والمنتديات، وانتقل الهجوم الساخط عليه إلى البرلمان المصرى وإلى السلطات القضائيـة، واشتدت المطالبة بإبعاد د. طه حسين عن التدريس بالجامعة صيانة لعقول الطلاب الذين كان يحاضرهم من الكتاب. وقد اضطر إزاء ذلك كله أن يحذف أبوابا من الكتـاب (الذى صـودر ومَنعت السلطة توزيعـه بحكم القضاء)، فصدر بعد الحذف باسم : «فى الأدب الجاهلى». وكان فى الكتاب عبارات مثيرة مثل :

* نعم ! يجب حين نستقبـل البحث عن الأدب العـربـى وتاريخه أن ننسى قـوميتنـا وكل مشخصاتنا، وأن ننسى ديننا وكل ما يتصل به، وأن ننسى ما يضـاد هذه القومية وما يضاد هذا الدين. يجب ألا نتقيد بشىء ولا نُذعن لشىء.
=



... وبلّغ دعاة الأوربة أيضا ما فعل الإنجليز من نكبات فى فلسطين (ستتفاقم وتستمر حتى نهاية القرن وبعده) قبل وبعد تسليمها للصهاينة اليهود . فكان الإنجليز (الأوروبيون) هم السادة والساسة ، ويبدو ذلك فى الصورة أثناء زيارة المندوب السامى الفرنسى فى سوريا ولبنان لكنيسة القيامة بالقدس (فى المقدمة) ومن حوله القادة الاستعماريون البريطانيون الذين تباحثوا معه فى أمور التنسيق الاستعمارى بالمنطقة العربية ...

... وفى سوريا كان الجنرالات والجنود الفرنسيون (الأوروبيون) يمارسون القهر والقتل والإرهاب والنهب بعد هزيمة تركيا فى الحرب العظمى وتقسيم مناطق النفوذ فى الشرق الأوسط بين دول أوروبا الاستعمارية ...

■ مدافعة وإقناع

كـان لابد من التصدى لتلك الموجـة الوافدة المتصـاعدة بعـد أن وضحتْ معـالمها ، وسقطت أقنعتهـا ، وكشفتْ عن سـاقيْهـا أو ركيزتيْهـا : الدعـوة الصريحة إلى الأوْرَبة والتغريب فى كل شىء ودون التقيد أو الإذعان لشىء ؛ والدعوة الجريئة إلى الانسلاخ من العـروبة وتوابعها : من الأدب ، والتراث ، والتاريخ ، واللغة و.. الدين .

كتب كثيرون ، وانْبرى للدفاع كثيرون ، وتـراوح صوت الكلمات وصرير الأقلام بين الحِدَّة الثائرة الفزِعة ، وحِلم الإقناع الشفيق الرصين . فمنهم من رفض الجديد أو التجديد جملة وتفصيلا ، ومنهم من أجـاز التجديد فى أمور والمحـافظة على أمور ، ومنهـم من ترفَّق فى الملامة والنقـد ، ومنهم مَن غـالَى فقـذَفَ المسرفين فى التجديـد بالإسفاف والتجـديف والمروق والكُفـر . وهذه بعض الأمثلة الموجزة :


الأستاذ توفيق دياب

* فى جـريدة « السياسـة الأسبـوعية » ـ يـونيو ١٩٢٦ ـ كتب « محمـد توفيق دياب » ناقـدا لمظاهر اجتماعية وسلوكيـة وافدة من أوروبا والغـرب وأخـذت تنتشر حثيثا فى بعض الأوسـاط وفيها إغـواء للشباب . وفى مقـالة تسـاءل الكاتب : « .. لست أكتب هـذه الكلمـة على سبيل الوعظ والإرشـاد ، وإنما أريد أن أسـأل الشرقيين عامة والمصريين منهم بخاصـة : هل يريدون أن

= * للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل. وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا. ولكن ورود هذين الاسمين فى التوارة وفى القرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى فضلا عن هذه القصة التى تُحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها. ونحن مضطرون إلى أن نرى فى هذه القصـة نوعـا من الحيلة فى إثبـات الصلة بين العـرب واليهـود من جهـة، والإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى .

* إن قرابة إبراهيم وإسماعيل للعرب ليست إلا أسطورة لقيت رواجا عند القرشيين لأنها تدعم مركـزهم.. وإذن فليس هناك ما يمنع قريشا من أن تقبل هذه الأسطورة التى تفيـد أن الكعبة من تأسيس إسماعيل وإبراهيم، كما قبلتْ روما قبل ذلك، ولأسبـاب مشابهة، أسطورة أخرى صنعها اليـونان تثبت أن روما متصلة بإينيـاس بن بريام صاحب طروادة. أمـر هذه القصة إذن واضح . فهى حـديثـة العهـد، ظهـرت قبيل الإسـلام، واستغلهـا الإسـلام لسبب دينى ، وقبلتْها مكة لسبب دينى وسياسى أيضا ...

يحتفظوا كما كان أسلافهم يحتفظون بذلك المبدأ القديم الذى نسميه صيانة الأعراض أو طهارة الآداب أو العفاف أو ما إلى ذلك من معان قد اشتهر الشرق بالتشدد فى تقديسها ؟ أم هل يرون رأيا جديدا هو أن آباءنا قد غَلَوْا فى ذلك غُلوا شديدا ، وأن الأمثل والأقرب إلى دواعى الفطرة هو التهاون قليلا قليلا فى أمر هذا الشىء الذى يسمونه « العِرْض » ، وأن المرأة خُلقت للرجل والرجل خُلق للمرأة ، وأن هذه القيود العتيقة التى تقْصر الرجل على زوجته والزوج على بعلها فى كل وجوه المتاع البدنى - والمخاصرة (يقصد : الرقص الأوروبى) (٣٩) من أخص أنواع المتاع البدنى قيود بالية يجب القضاء عليها، مُماشاة للروح الاشتراكية حتى فى هذا ؟ ... » .

وبأسلوبه المميَّز الفَكِه ، كتب « فكرى أباظة - المحامى » فى بابه الثابت بمجلة « المصور » فى ٣٠ أكتوبر ١٩٢٥ « العدد ٥٥ » يرد على رسالة قارئة بعثتْ تسأله : « أقرأ باستمرار مقالاتك الاجتماعية فى المصور فأجد فيها كثيرا من التناقض وبالأخص فى المسائل النسائية ، فأنت تارة سُفورى وتارة حجابى ، وحينا محافظ عتيق ، وأحيانا عصرى متمدين . فهل الأستاذ مضطرب الذهن بسبب الحر ؟ أم بسبب الأزمة (السياسية) ؟ أم هو ضعيف الذاكرة .. ؟ أم أنت فى الاجتماعيات « بوشِّين » (أى بوجْهين) تحاول أن تُرضى هؤلاء وأولئك؟ ... » . فكتب يقول : « أمّا أنى [محافظ عتيق] فهذا ما أنفيه نفيا باتا وبكل شدة . واتهامى بهذه التهمة يا آنسة أمر خطر جدا على مستقبلى ... وأما أنى [عصرى متمدين] فليس على إطلاقه ، وليس كما تفهم بعض الآنسات والسيدات ممن يذهبن إلى أن السفور المطْلَق


الأستاذ فكرى أباظة

(٣٩) يصف الكاتب هذه المخاصرة بقوله : « .. يخاصر أحدهم المرأة (وقد تكون غريبة عنه) الناعمة الحسناء بيسراه ، وأصابع يمناه تضغط أنامل يسراها ، وصدْره على نهدها ، وعيناه تناجيان عينيها ، وشذى عطرها يُسْكره ، وبخار لهيبه يحرقها ، والساق تلتف بالساق حينا وتجاوزها حينا ، والقدَّان يميسان ذات اليمين ويموجان ذات الشمال ، كل ذلك ودقات « الجازباند » (الموسيقى) هائجة تثير أكمن الغرائز وتفور بها كما يفور التَّنُّور (الموقد أو الفرن) ، والأضواء تسطع تارة لتبهر الأبصار ، وتَقِل تارة لتوحى للمتخاصريْن أشجان الظلام ، وصاحبنا لحم ودم ، وصاحبتنا لحم ودم ، ثم تزعم هى ويزعم هو أنهما يفعلان ذلك طلبا للرياضة البدنية الطاهرة .. » .

... وكيف – بالله ! – يمكن « أوربة » و« تغريب » هذا الشعب المصرى العربى الأصيل النزيه – على الرغم من كل ما ذاق وعانى واحتمل من ويلات المستعمرين الأوروبيين – الذى صنع بنفسه ثورة ١٩١٩ ضد الاحتلال المذل ، وصاغ معها زعماءه مثل هؤلاء الأربعة الذين نفاهم الإنجليز إلى مالطة :



من اليمين : حمد الباسل باشا ، محمد محمود باشا ، إسماعيل صدقى باشا ، سعد زغلول باشا !

قد آن أوانه – وممن يَحْكُمن المنزل حُكم الجبابرة المستبدين – وممن يجلسْن فى [الألواج] (بالسينيما والمسرح) أكثــر حــرية من الرجــال – وممن لا يلاحظْن أية غرابة فى الرقص مع [الخواجات] فى المنتـديات العامة أمام أبناء جنسهن المصريين ـ وممن يُرِدْن احتلال مـراكز الرجـال كأن تكون الواحدة منهن شيخة الجامع الأزهر – أو مُفْتية الديار المصرية – أو حكمدارة مديرية – أو مستشـارة فى المحـاكم الأهليــة – أو قُنصلة فى مملكة أجنبيــة ؟! ولولا مضايقــة نُون النسوة لى فى الإنشاء والنحـو لذكرتُ ألف مَثَل ومثل ... لست من هؤلاء ياآنسة . ولئن قضى القضاء والقدر وأصبحت من هؤلاء ، فلكِ علىّ عهد الله وميثاقه أن أنعكس ، وأن أتبرقع أنا بالحجاب ؟!! » .


المنفلوطى
بريشة : الفنان جمال قطب

وينظر الأديب الأريب « مصطفى لطفى المنفلوطى » فى هذا الصراع الدائر بين المحـافظة والتجـديد ؛ فيتحـدث عن المدنيـة الغـربية فى مقـدمـة كتـابه «النظرات » قــائلا : « .. فرأيتُ حسنــاتها وسيئاتها ، وفضائلهــا ، ورذائلها ، وعرفتُ ما يجب أن يَأخذ منها الآخذ ، وما يَترك التارك ، فكان همى أن أَحْمل الناس من أمــرها على مــا أَحمل عليـه نفسى ، وأن أَنْقم مـن هؤلاء العجـزة الضعفــاء تهالكهم لها ، واستهتــارهم بها ، وسقــوطهم بين يــدى رذائلهــا ومخازيها ، وإلحادها وزندقتها ، وشُحهــا وقسوتها ، وشَرَهها وحـرصـها ، وتبذُّلها وتَهتكها ... حتى أصبح السيد فى منزله يستحى الحياء كله من خادم غرفته الأوروبية أن تطَّلع منه جهلا ببعـض عاداتها وعادات قومها ، حتى فى لبس الرداء وخَلْع الحذاء أكثـر مما يستحـى من الله ومن الناس أن يهجمـوا منه على أرذل الرذائل وأكبر الكبــائـر . وحتى أصبـح طريق المشْرق وتاريخ علمائه وأدبائـه وفلاسفته وشعـرائه صورة من أقبح الصـور وأسمجها فى نظر كثير من الشرقيين ... » .


عبد الوهاب عزام

وكتب« عبد الوهاب عزام » فى جريدة السيــاسة (أكتوبر ١٩٣٣) يقول : « .. أضل الشرقيون أنفسهم ، فإذا هم أجســاد تنبض بقلوب الغرب وتفكر بعقـوله ؛ وإذا هم مستسلمـون لكل مــا تطْلع به أوروبا ، منقــادون لكل مــا

تأمرهـم بـه ، متهافتـون على كـل مـا اتصـل بها . ثم إذا هم أذلاء مقلِّدون ، يحقِّرون أنفسهم وآباءهم وميراث حضـارتهم وتاريخهم ... والخلاصة ، أن الشرقيين يتلقُّـون عن الغـربيين أفكارهم وعقـائـدهم كما يـأخـذون منهم منسـوجات القطـن والصوف ، ومصنوعـات الحديد والنحـاس ، وأصناف الأحـذية » . ثم يختم مقـاله بهذا التـوجيـه أو النصْح : « إذا أحسنا التفكير ، عرفنا فَرق مابين الصناعات والأخـلاق والعادات ؛ ولم يلتبس علينا ما نأخذ عن أوروبا من العلوم الطبيعية ونتائجها ، ومـا نتجنب من أخلاقها وعاداتها وآدابها . فإنه لافرق بين الحسـاب والهندسة والكيميـاء فى الشرق والغرب ، ولكن شتان ما بينهما فى العقـائد والخُلق وسنن الاجتماع وما يتصل بذلك . فإن لكل أمة من أخـلاقها وآدابها ثوبا حـاكتْه القرون وعملتْ فيـه الأجيال ، فليس يصلح لغيرها ، ولا يصلح لها غيره .. » .


مصطفى صادق الرافعي.
دخل فى معركة مع طه حسين تحت راية القرآن

ويتناول « مصطفى صادق الرافعى » الموضـوع من زاوية أجلّ وأخطر ، فقـد سئل فى استطلاع نظمتْه فى القـاهرة مجلة « الهلال » ـ نوفمبر ١٩٢٢ ـ عن « نهضـة الأقطار الشرقيـة » فأجـاب : « إن من عجـائب الدنيـا أن قمـة الحضارة الرفيعـة هى بعينها مبدأ سقـوط الأمم . وهذا عندنا هو السر فى أن الدين الإسلامى يكره لأهله أنواع الترف والزينة والاسترخاء ... وما سقطتْ الدولة الرومـانيـة ولا الدولة العـربية إلا بكأس ، وامـرأة ، ووَتَر ، وخيـال شعرىٌّ يفتنُّ فى هذه الثلاثة ويزيِّنها ...

« إن أول الأدلة على استقلالنا أن ننسلخ من عـادات القوم (الأوروبيين) فإن هذا يؤدى بلا ريب إلى إبطال صفـة التقليـد فينا ، ويحملنا على أن نتخـذ لأنفسنا ما يلائم طبائعنا وينمى أخـلاقنا الخاصة بنا ، ويُطلق لنا الحرية فى الاستقلال الشخصى . ولقـد كنا سادة الدنيا من قبل أن كـانت هذه العادات الغربية التى رأينا منها ومن أثرها فينا ما أفسد رجولة رجالنا وأنوثة نسائنا على السواء . وما هؤلاء الشبان المساكين الذين يَدْعُون إلى بعض هذه العادات

ويعملون على بثِّها فى طبقات الأمة إلا كالذى يحسب أن أوروبا يمكن أن تَدخُل تحت طربوشه . ولقد غفلْنا عن أننا ندعو الأوروبيين إلى أنفسنا وإلى التسلط على بلادنا بانتحالنا عاداتهم الاجتماعية ، .. وهل نسى الشرقيون أن لاحُجةللغرب فى استعبادهم إلا أنه يريد تمدينهم ؟» (٤٠) .

واتخذ أمير الشعراء« أحمد شوقى » موقفا وسَطا : يدعو إلى التجديد بحكمة وضَبْط ، ويؤازر المحافظة بفطنة تُجنِّب الجنوح والمسخ . فيقول فى قصيدة له :

مِصْرٌ تُجدد مجدها ... بنسائها المتجدداتِ
النافراتِ من الجمو ... دِ كأنه شَبح المماتِ
لمَّا حَضَنَّ لنا القضيـ ... ـة كُن خير الحاضنات(٤١)
غذَّيْنها فى مَهدها ... بلِبانهِنَّ الطاهراتِ
.. يَنْفُثْن فى الفتيْان من ... رُوح الشجاعة والثبات
ويَرَيْن حتى فى الكَرى ... قُبَلَ الرجال محرَّماتِ

هذا من حيث الإشارة إلى التجديد والنهضة وأثرهما على نصف المجتمع ـ المرأة ـ وعلى نشاط الحركات النسائية الناشئة ، النافرة من « الجمود كأنه شبح الممات » . لكنه لايُطلْق الأمور بلا ضوابط أو محاذير . فهو يتحدث عن نساء « متجددات ، طاهرات » نافرات من التبذُّل ومقاربة المحرمات . ومطلع قصيدته هذه يحدد نوعية هؤلاء النسوة اللاتى يُثْنى عليهن :

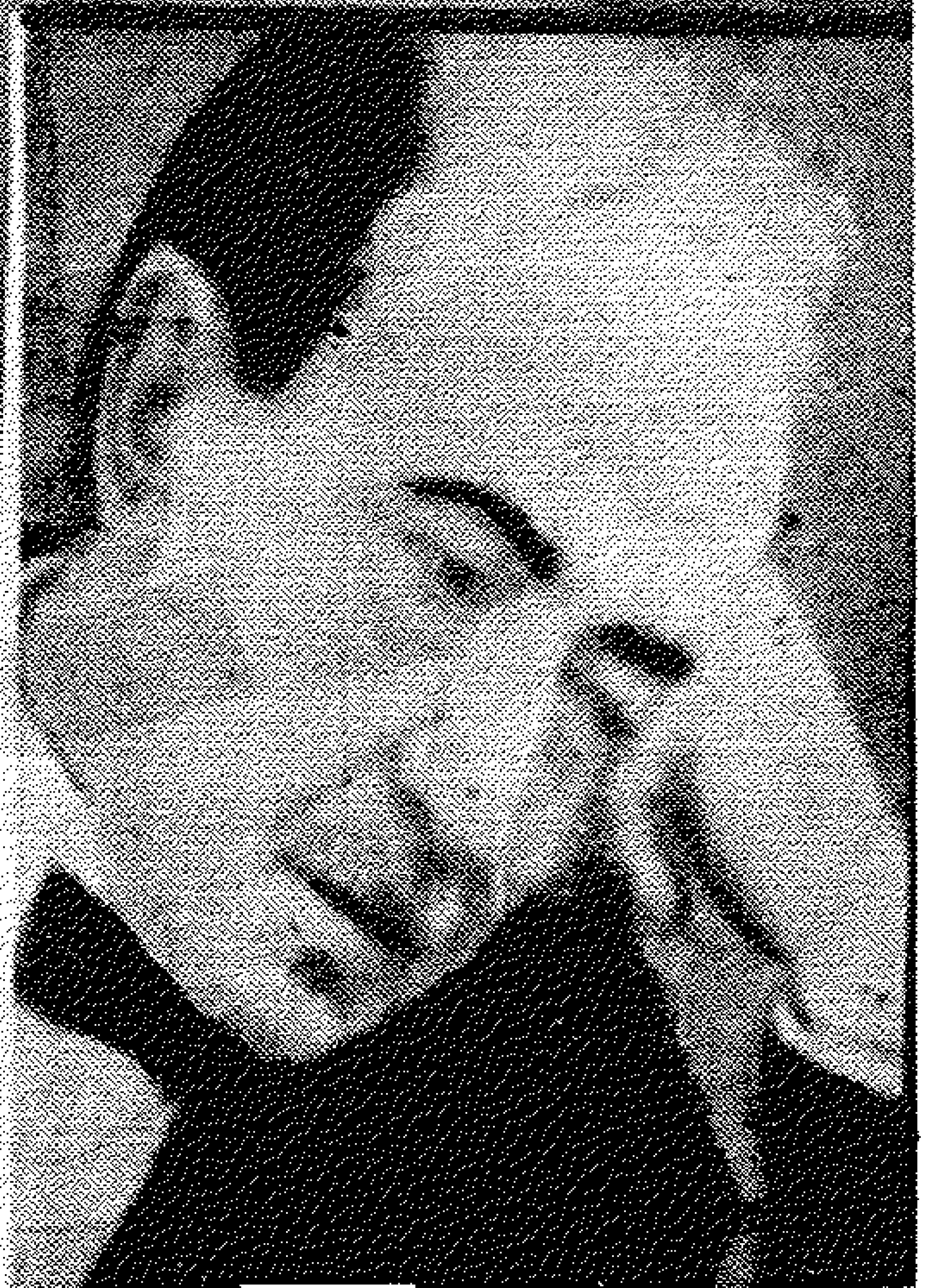
قُم حىِّ هذى النيِّراتِ ... حىِّ الحسانَ الخيِّراتِ

---

(٤٠) رد « مصطفى الرافعى » بشدة وإفاضة على د. « طه حسين » وآرائه وأفكاره التى ضمَّنها كتابيه «مستقبل الثقافة فى مصر » و « فى الشعر الجاهلى » وذلك فى كتاب الرافعى : « تحت راية القرآن » ، وكتابه: «المعركة بين القديم والجديد » .

(٤١) القضية هى الاستقلال وإزالة الاحتلال البريطانى ، وقد شاركْن فى ثورة سنة ١٩١٩ الشعبية بمظاهرات نسائية وتقديم مذكرات وطنية لقناصل الدول فى مصر .

المرأة المصرية فى أوائل القرن .



أحمد شوقى

واخفـضْ جبينَـك هَيبـــــــــةً   للخُـــــرَّدِ المُتَخفِّـــــزَّات (٤٢)
زَيْـنِ المقـــــاصِرِ والحِجـــــا   لِ ، وزَيْن محراب الصـــلاةِ (٤٣)
هــذا مَقـــــــام الأُمَّهـــــــا   تِ ، فهل قَـــدَرْتَ الأُمهـــــات ؟

ولا يكتفى شوقى بهذا القدْر من الوصف والتبجيل والتحذير والإشادة ، فيضيف توضيحا لرأيه فى التجديد المبتَغَى بالمجتمع كله من خلال «الأُمهات، النيِّـرات ، الحسان ، الخيِّرات » ، فيلفت النظر وينصح:


هدى شعراوى

خُـــــذ بـالكتــــــاب ، وبالحديث وسيرة السَّلـف الثِّقـــــاتِ(٤٤)
وارْجِـعْ إلى سَنَـن الخليقـــــــةِ واتَّبـع نُظـم الحيـــــــاة
هــذا رســــــولُ اللـه : لم   يُنْقِـص حقـــــوق المؤمنـات
العِلـم كـــــان شريعــــــةً   لنســـــائـه المتفقِّهــــاتِ
رُضْنَ التجـــــارة ، والسيـــــا   ســــة ، والشئون الأُخْـــريات
ولقـــــــد عَلَـتْ ببناتــه   لُجَحُ العلـوم الزاخـــرات (٤٥)
كــــــانـت « سُكَيْنَـةُ » تملأ   الـدنيـــــا ، وتَهْزَأُ بالـرُّواة (٤٦)
رَوَتْ الحديـــــث وفَسَّرَتْ   آىَ الكتـــــاب البينـاتِ
وحضـــــــارةُ الإســــــلام تَنْـطِقُ عـن مكـان المسلماتِ..

وفى مايو سنة ١٩٢٨ ألقى « أحمد شوقى » قصيدة أخرى فى حفل نسائى كبير أقيم بدار التمثيل العربى برياسة السيدة « هدى شعراوى » ، وقد أفصح فى تلك القصيدة عن اختلافه فى الرأى مع « قاسم أمين » (٤٧) حول

(٤٢) الخريدة : عذراء مصون ـ متحفزة : ذات خَفَر (بفتح الخاء والفاء ؛ أى حياء) .
(٤٣) زين : زينة ، فهى ليست مبتَذَلة ولا محتَقَرة أو مهملة – المقاصر : جمع مقصورة وهى الغرفة الآمنة أو الدار الواسعة الحصينة أو المكان المحترم المُصان ـ الحجال : جمع حجْل (بفتح وكسر الحاء) أى الخَلْخال.
(٤٤) الكتاب : القرآن الكريم ـ الحديث : النبوى والسُّنة ـ الثقات : الصالحون الموثوق بهم .
(٤٥) لجج : جمع لُجة (بضم اللام) أى موجة البحر المرتفعة الدافقة ـ الزاخرات : العالية الوفيرة.
(٤٦) سُكينة : حفيدة النبى محمدﷺبنت الحسين بن الإمام على رضى الله عنه وكانت عالمة .
(٤٧) رحل قاسم أمين عن الدنيا سنة ١٩٠٨ واشتهر بلقب « محرر المرأة » .

زنوبة العالمة ، من مخدع أحمد
عبد الجواد إلى بيت ابنه في الثلاثية

امرأة من « ثلاثية » نجيب محفوظ القصصية .



قاسم أمين

شئون المرأة فى المجتمع المتمدين، مقررا أن الخلاف فى الرأى لا يُفسد صداقة، ولا يُثْمر عداوة . قال فى مطلع القصيدة :

قُلْ للرجـــــال : طغَى الأسيرْ طيرُ الحِجـــال متى يطيرْ؟ (٤٨)
أَوْهَى جناحيـــه الحديدُ ، وحَــزَّ ســـاقَيْـــه الحريـرْ
ذهَبَ الحِجـــابُ بصبرِهِ وأطـال حَيْرَتَـه السُّفــــــور
هـــل هُيِّئَــتْ دَرَجُ السما ءِ لـــه ، وهــل نُــص الأثير ؟ (٤٩)
وسَما لمنــزلــهِ مـــن الــد نيـــا ، ومنـزلُـه خطيرْ ؟
ومتـى تُســـاس بـه الـريـا ضُ كما تُســاس به الوُكـــور ؟
.. إنَّ السماء جـــديـرةٌ بـالطير ، وهْـوَ بها جــديـر
هى سَرْجُــه المشْــدود وهْو على أَعِنَّتِهـــا أميرْ
حُـــريــةٌ خُلِـق الإنـا ثُ لها ، كما خُلـق الـذكـــورْ

ثم يخاطب « قاسم أمين » وهو فى مثواه منذ سنين :

ياقـــاسمُ انظُـر : كيف ســا رَ الفكْـر وانتقلَ الشعـــور ؟
جـــابَتْ قضيتُـك البـــلا دَ ، كـــأنها مَثَـــلٌ يسيرْ
مـــــا النـاسُ إلا أوَّلٌ يَمْضـى فيَخْلُفــه الأخيرْ
الفكْـــرُ بينهما على بُعـــد المزار هـو السفير
.. فى ذِمــــة الفُضْلى « هُـدى » جيـــلٌ إلى هـــادٍ فقير
أَقبَلْـن يسـأَلْـنَ الحضـــا رَةَ مـــا يُفيـد ومـــا يُضير
مـــا السُّبْـلُ بَيِّنَـةٌ ، ولا كـــلُّ « الهُداةِ » بها بَصيرْ
مـــا فى كتـــابكَ طَفْـــرَةٌ تُنْعَـى عليـكَ ، ولا غـــرور

---

(٤٨) يشير إلى « المرأة » بكلمتى : الأسير ، وطيرُ الحجال ، والحجـال : الخلخال(بفتح الخاء) يُلبس فى القَدم .
(٤٩) نُص (بضم النون) : رُفع ونُصب وهُيِّئ له .

.. و« نبوية » ، لوحة زيتية للفنان « محمود سعيد » أحد رواد فن التصوير (الرسم) الكبار فى القرن العشرين (١٨٩٧ – ١٩٦٤) .



مصرية من سيناء ..

.. مـــا بالكتـــاب ولا الحديـــــــــث إذا ذكَـــــــــــــرْتَهما نَكير

حتـى لَنَسْـأَلُ : هـل تَغَـــــــا رُ على العقـــائـــــد ، أم تُغيرْ ؟

.. لقـــــد اختلفْنا ، والمعُـــــا شِرُ قـــد يخالفُـــــه العَشير

فى الـــرأى ؛ ثـم أهـــابَ بـــى وبــــك المُنَـــادِمُ والسَّمير

فى الـرأى تَضْطَغِـنُ العُقـــــو لُ وليس تَضْطغن الصُّـــدورْ (٥٠)

ويبدو من قصيدة شوقى أن المجتمع المصرى ـ والعربى آنذاك معه ـ كان فى صراع ونزاع وكأنه فى أزمة فكرية أخلاقيـة سلوكية ، تتراشق فيها الآراء والاتجاهات والميـول ، وتتقـاذف الاتهامـات والمطارحـات والتسفيهـات أو الموافقات . والكل يبحث عن « هادٍ » إلى أفضل سبيل ، ولكن كما قال شوقى : « ولا كل الهُداة بها بصير » . وكـان طبيعيـا ومحتَّما أن ينعكس ذلك كله على الآداب والفنون .

■ مسيرة الأدب

تأثر النشـاط الأدبى ـ والفنى أيضـا ـ بتلك الأجواء والأنواء . وهذا أمـر طبيعى لا غرابة فيـه ولا مَحيد عنه . فـالأديب ـ كاتبا أو مُبـدعا أو مـؤلفا أو ناظما ـ لايستطيع أن يعيش ويفكـر ويُنتج وهو فى معـزل عما يدور حـــوله ويجرى أمامه ، ومـا يملأ الأجواء التى تحيط به ويتنفسها راضيـا أم كارها متأففا ؛ وإن استطاع اتقاء سَمومها أو اجتَنَاب أذاها (٥١) .

وكـان مجال نشْر الآداب والفنون فى تلك الفترة التى امتـدت إلى منتصف القرن العشرين ، مجالا رَحْبـا متعدد المسالك والوجـوه : الصحف والمجلات وهى متنوعة بالعشرات ، يومية وأسبـوعية وشهرية ودورية ، وهناك أيضا الكُتب والمطبوعات ، والإذاعة المسموعـة (بدأت أهلية ثم صارت حكومية) ، والمسرح ، والسينيما ، وفصول الدراسـة ومدرجـات الجامعة ، قبل أن يأتى

---

(٥٠) من الضِّغْن أو الضغينة : أى الكراهية والحقد .

(٥١) رياح سَموم (بفتح السين) : شديدة الحرارة مؤذية .



من الحجـاب ..



.. والمسرح .

.. إلى السينما ..

(شــادية وعماد حمدى) .

التليفـزيون (فى النصف الثـانى من القـرن) بـإبهاره وسطْوته وسلطانه .

كـانت أصـوات المجددين تعلو ثم تعلـو وتختلط وتتكاثر ، يريدون هدْم القديم ، أو إزاحته عن العقول كَـى تخلو لهم الساحة ، ويمجِّدون الأوروبيين ومـذاهبهم الأدبيــة والفنيــة ، ويَبْتغـون عندهم الـوسيلة والحداثة . فيهُب المحـافظون ثائرين سـاخطين ، يحذِّرون حينا فى رفق ، ويسفِّهون أحيـانا فى نَزَق . وتشتد اللجاجة والمُلاحاة ، ثم تَفرض الحياة قوانينها العُلْوية القاهرة: هدوء بعـد فَـوَران ، وخمود عقب بركـان ، وتَسْطع الشمس بضَحْـوة عصر جديد ، يـأخذ من القديم ويَـدَع ، ويُضيف من الحديث بلا جَزَع . فـالشجرة الراسخة الوارفـة قد تُهَزُّ أو تهتز ، لكنهـا ثابتة لا تَسقط ، أوراقهـا قد تَذْبل وتجف ، لكنها تُـورِق من جديد وتُثْمـر ، وفى الشجرة الواحدة تعمـل قوانين الحياة المبدِعة عملها : فلا تتشابه أبدا تمام المشابهة ورقتان ، ولا تتطابق أبدا تمام المطابقة ثمرتان . وسبحان الخالق المُعْجِز ، له فى خَلْقه شئون وفُتُون .

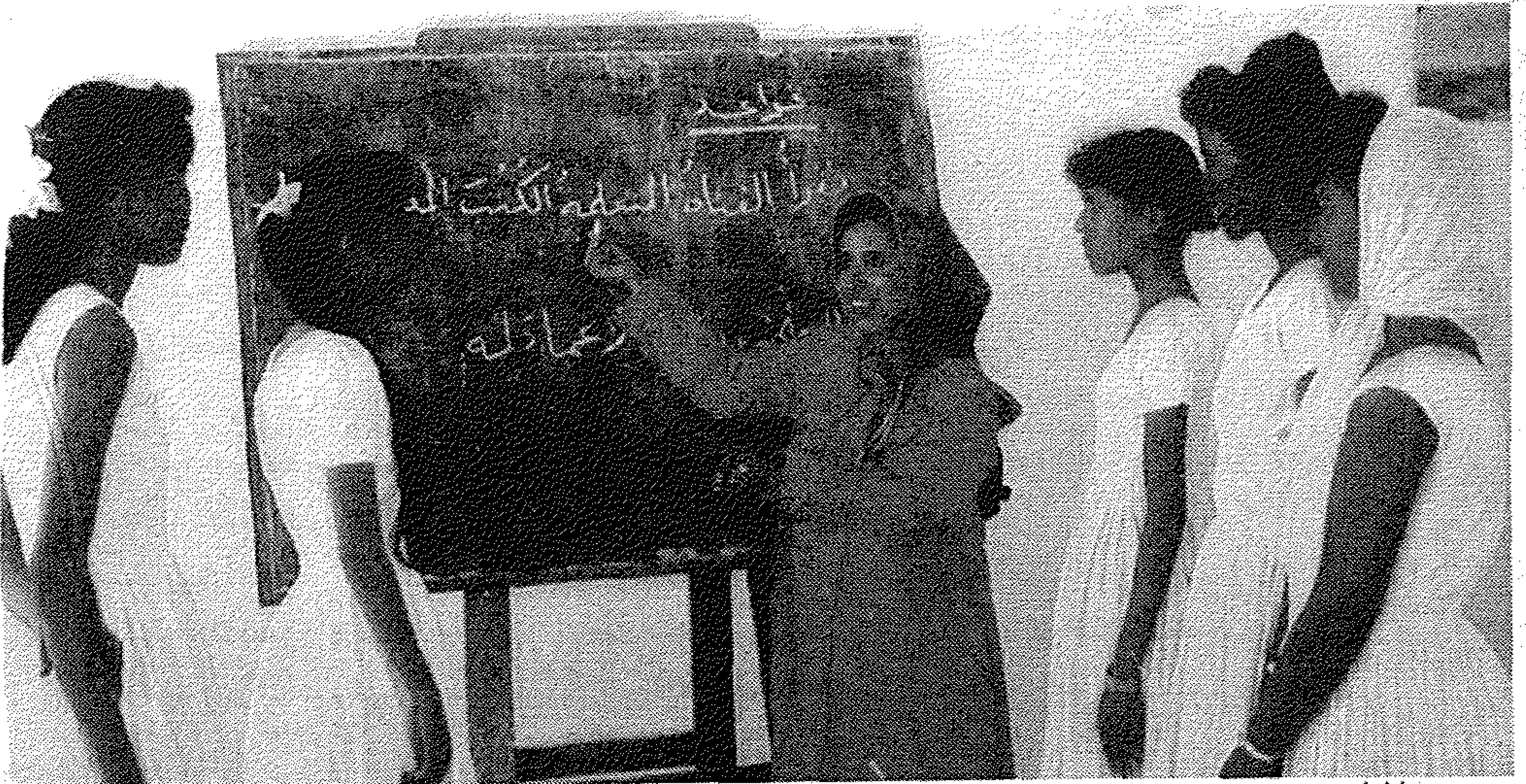

جبران خليل مطران

ثم ما كاد تيار النهضة الأدبية يهدأ قليلا ويفيض سائغا بما يحمل ، حتى انْبَرى نفـر من الأدباء فى المنطقـة « العـربية » بهجـوم مبـاغت على : « اللغـة العـربية » ، هكذا بالتحـديد والنص وليس على بعض الأسـاليب أو المضـامين والأشكال . فمثـلا : يبشِّر « جبران خليل جبران » بمذهب جـديد يُعلن عنه فى مقـال بمجلة « الهلال » (رمضـــان ١٣٥١ / يناير ١٩٣٣) ، تحت عنوان : «لكم لغتكم ولى لغتى ».(٥٢) يقول :

«.. لكم من اللغة العـربية ما شئتم، ولى منها مـا يوافق أفكارى وعواطفى

(٥٢) أخطـأ الكـاتب فى القيــاس على الآية القـرآنيــة الكريمـة : ﴿ لكم دينكـم ولى ديـن﴾. فـالآية الحكيمة تفصـل تمامـا بين إيمان وكفر ، بين حـق مُبِين وباطــل ضليل، وهما لا يجتمعان معا أبدا فيكون شيء من هـذا مـع شيء مـن ذاك فى نطـاق واحــد أو نسيج واحد . أمـا أن تكـون اللغة العربيــة نفسها ، بحروفها وكلماتها – أو بعض كلماتها – وهجائها ونطقهـا وكتابتها، هى اللغــة المشتركـة بين «لغتكم، ولغتى» كما أراد الكاتب، فليس هذا بجـديد، ولا مـدعاة فيـه للتعسف بـالفصل بين قــديم وحــــديث. وحتـى لو تَرك «الفصيح» و«البليـغ» و«المرصع» و«المنمق» كما يقـول فى مقاله واختـار «المستـوحش» و «المتوجع» وخـرج على قـواعد النحـو والصرف.. فهو بذلك يهدم ولا يبنى وحسْب. وأية لهجة عاميـة فى البلاد العربية هل تُنسب إلى غير العربية ؟!

في المُكَلاّ (عاصمة حضر موت جنوب الجزيرة العربية) ، يتعلم الصغار والكبار قواعد اللغة العربية وبلاغتها ، مثل كل أبناء الأمة العربية من الخليج إلى المحيط . إنها وسيلة ووشيجة للإخاء والصفاء والألفة .



... لكم منهـا جثث محنطة باردة جـامدة، تحسبـونها الكل بالكل، ولى منهـا أجساد لا قيمة لها بذاتها، بل كل قيمتهـا بالروح التى تحل فيها ... لكم منها قواعدها الحاتمة ، وقوانينها اليابسـة المحدودة، ولى منها نغمة أحوِّل رنَّاتها ونبراتها وقـراراتها إلى مـا تثبتـه رنَّة فى الفكر، ونبرة فى الميل، وقـرار فى الحاسة... لكم منها «الفصيح» و «البليغ»... ولى منهـا ما يُتَمتمه المستوحش وكله فصيح، ومـا يغَص بـه المتـوجِّع وكلـه بليغ . لكم منهـا «الترصيع» و«التنزيل» و «التنميق» وكـل مـا ْوراء هذه البهلوانيـات من التلفيق ... لكم منها مـا قاله سيبـويْه وأبو الأسود وابن عقيل ومن جـاء قبلهم وبعدهم من المُضْجِرين المُمِلِّين... لكم أن تلتقطوا ما يتناثـر خِرقا من أثواب لغتكم. ولى أن أُمـزق كل عتيـق بالٍ... لكم أن تحفظوا مـا يُبْتَر من أعضـائهـا المعتَلَّة، وأن تحتفظوا به فى متـاحف عقـولكم. ولى أن أحـرق بالنار كل عضـو ميت وكل مفصول مشلول. لكم لغتكم عجـوزا مقْعَدة. ولى لغتى صبية غارقـة فى بحر من أحلام شبابها ...»(٥٣).

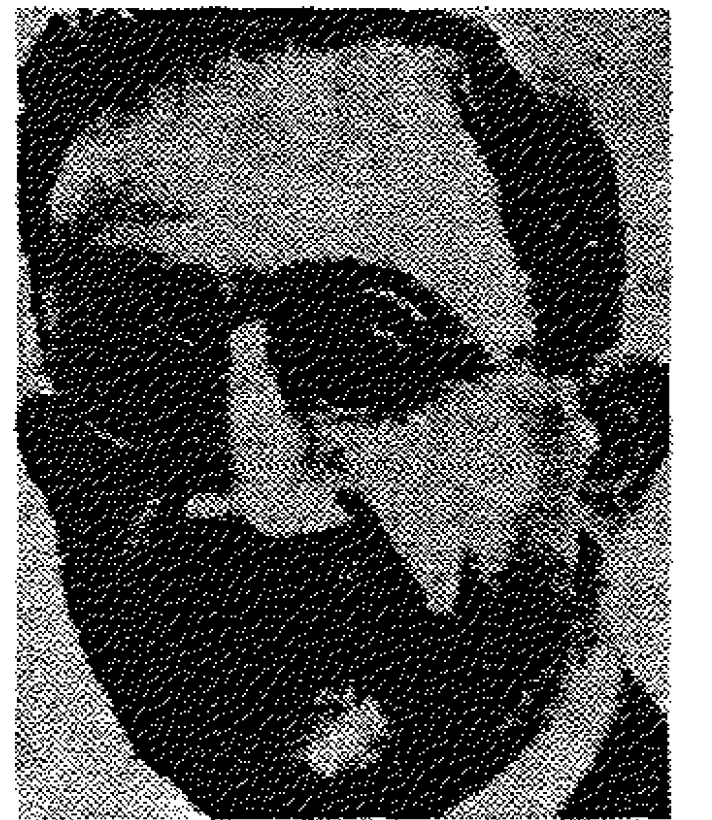
فجـاءه الرد – فى مجلة «الهلال» أيضـا – مـن «إدوارد مـرقص» عضـو المجمع العلمى العربى بدمشق، وفيه يقول :

« إن استجـابـة الأدباء لما يحيط بهم من ظـروف، لا تدعـو للَـوْمهم أو اتهامهم بالعُجْمـة والعقـوق. ولكن الحقيق باللوم هو مَن لا يكتفى بالمسحـة الجديدة الخفيفة، بل يَنْبرى معتـذرا بروح العصر، محتَجا بذوق أبناء العصر – ويا ليت مَبـدأه لم يأت عليه ظُهـر ولا عَصْر !– للعبث بحق اللغة، وقـواعد اللغـة، وبيان اللغـة، غير عارف لها حُـرمة، ولا حـافظ معها وُدًّا ولا عَهـدا، مُـوردًا غـوامض تشبيهـات ومجازات لا يفهمهـا إنْس ولا جن. لأنها أشبـه الأشياء بهذيان مَحموم وخَلْط مجنون. ويصيح بنا رافعـا رأسه عُجْبا وتِيها

(٥٣) كأنما «المذهب» الجديد : مـا هو إلا غـرق فى بحـر من أحـلام – أو أوهام – الشبـاب، عن طريق «الحرق بالنار» و التمـزيق والاستيحاش والتـوجع والأنات والنبرات والقرارات. ثم ، مـا هى تلك «الروح» التى يريـد إحلالها فى اللغة بعد تَرك أجسادهـا المحنطـة البـاردة الجـامدة التى لا قيمة لها ؟ ما معنـى هذا الكلام الذى يعبِّر عن «أفكار وعواطف» ؟ وهل ما قاله الأقدمون من قبل ومن بعد سيبويـه وأبى الأسود الدؤلى وابن عقيل ، كان خاليا مـن الفكر والعاطفة ؟! وهل يُعقل أو يقبل أن يصنع كل فرد «لغته» على هواه؟ومن يخاطب إذن؟!

قـائلا : [خُـذوه من يدى خيالا راقيـا، بل نعمـة سابغـة، تُزيِّن أدبكم، وتُنير أذهانكم، ولم يتمتع بمثلها أجدادكم]. فيستقبله أنصاره - وهم أجهل منه - بتصفيق الاستحسـان وهتاف الإعجـاب. ثم يَعْرض على عيـوننا وأسماعنا عبارات مفككة الأَوْصـال، متناكرة مُفـرداتها وجُملها، وقد قَلَبَتْ (لقـواعد) الصَّرْف ظَهْـر المِجَنِّ، وسَخِـرت بأوضاع اللغـة، حتى باستعمال البـاء ومِن وعَن، فيهزُّ حِـزب الركاكة رأسـه عُجْبا، ويصرخ بِمِلْء شِـدْقيه : [هكذا هكذا وإلَّا فلا ..!]...». ثـم يختم مقاله بهذا التحـذير : «.. وإذا كان حـزب الجمود والتقييد يشُلُّ اللغة العـربية عضوا عضوا ثم يَقْضى عليهـا بالموت بعد مُهْلة من الزمان، فإن حزب الإطْلاق - وهو حزب الفوضى التى يحسبها تجددا - بمثـابة السكتة القلبيـة لها، يقتلها لسـاعتهـا، إذا مَكَّنه منها سـائر أبنائهـا، والعِياذ بالله».

ومن دمشق أيضـا بَعَث الأديب السـورى «سـامى الكيـالى» إلى مجلة «السياسة الأسبوعية» المصرية نقـدا لأولئك الذين «يريدون اللغة العربية بلا قـواعـد ثابتـة، وأن يكونـوا أحـرارا فى أن يَنْحتـوا لها من مَلَكَاتهم قـواعـد متحركة... وإن أَدَبهم يستمد مـادته من فضاء الخيال السخيف، الذى يَقْذف القارئ فى بحـار من الوهم لا حـد لها ... وتشبيهاتهم ممجوجـة مثل : الموت البنفسجى، وضوء القمر الطَّرى، والصخرة المدمْـدِمة، والزهرة الفيلسوفة، ووَعَظْتُ على هَيْكل نَفْسى، وخطَبْـتُ على جماهير قلبى، واضطراب الشيطان فى نسيج عنكبوتِه...»!


خليل مطران

ويَعْتب «خليل مطران» بلسـان اللغـة العـربيـة على أهلهـا الذين يُنكرون فضلها أو يستخفُّون بها فيقول :

سَمِعْتُ بـأُذْنِ قلبى صـوتَ عَتْبٍ ... لـه رَقْـراقُ دَمـع مُسْتَهَـلِّ
تقـول لأهلهـا الفُصْحَى : أَعَـدْلٌ ... بـربِّكـمُ اغْترابـى بين أهلى ؟
ألسـتُ أنـا التى بـدمْعـى ورُوحـى ... غَـذَتْ منهـمْ وأَنْمَتْ كـلَّ طفلِ ؟
أنا العـربيـةُ المشهـودُ فَضلى ... أأغْـدُو اليـوم، والمغمـورُ فَضلى ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

قول معروف ومغفرة
خير من صدقة يتبعها
أذى والله غني حليم

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال
من كان يؤمن بالله واليوم الآخر
فليقل خيرا أو ليصمت ومن كان
يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم
جاره ومن كان يؤمن بالله
واليوم الآخر فليكرم ضيفه
رواه البخاري ومسلم

« الحرف العربى » – بشهادة المؤرخين – أجمل حروف الدنيا ، ثم هو حرف اختزالى يوفر الوقت والمساحة (مثلا : كلمة « محمد » هى فى الإنجليزية وغيرها Mohammad أى ضِعْف الحروف العربية) ...

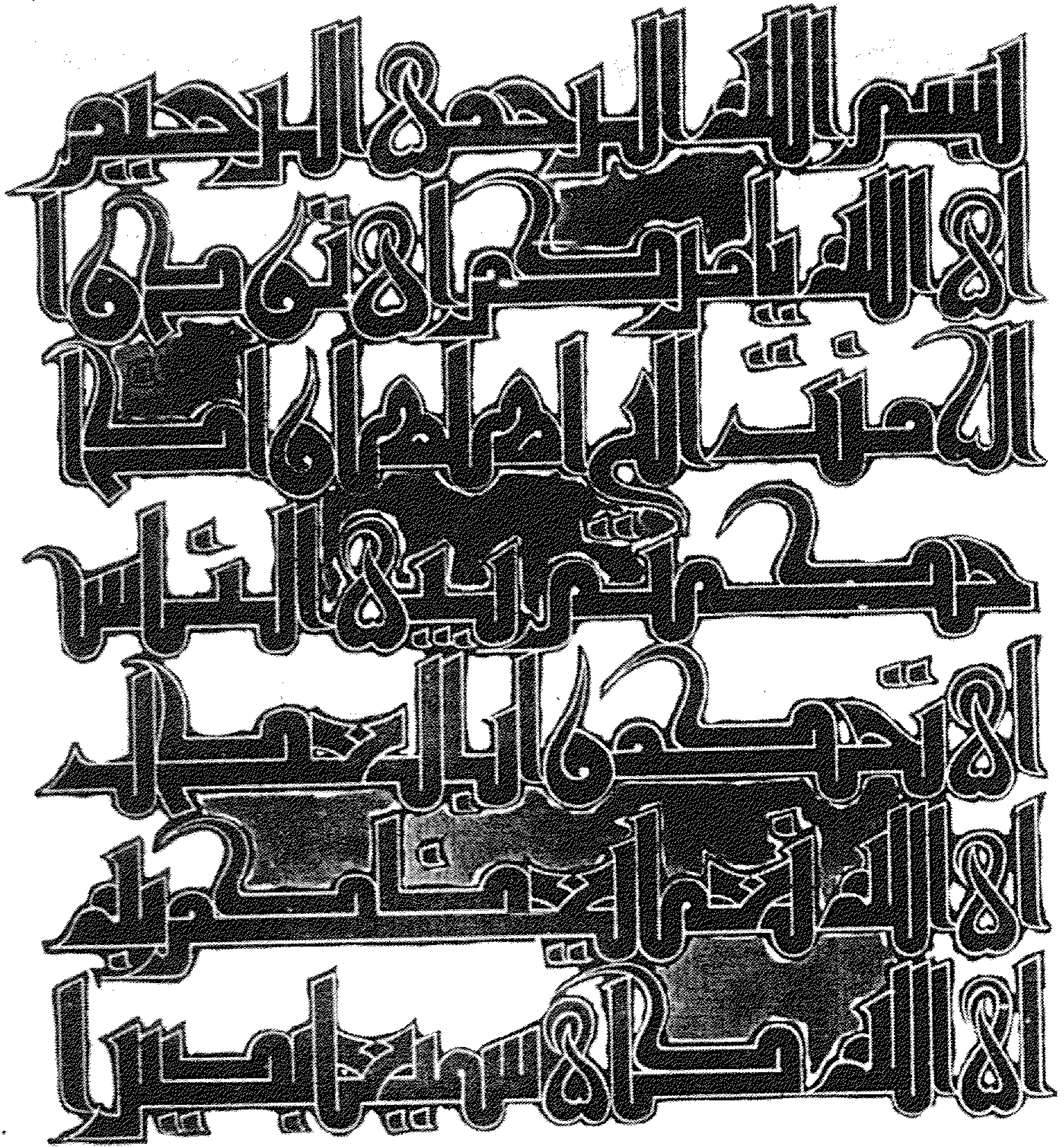
إذا مــا القـوم بـاللغـة استخفُّــوا فضــاعتْ، ما مصير القـوم؟ قُلْ لى!
ومــا دعْـــوَى اتحادٍ فى بلادٍ ؟ ومــا دَعْــوَى ذِمــار مستقِلِّ
فســادُ القــولِ فيــه دليلُ عَجْــزٍ فهل معـــه يكون صَـــلاح فِعْلِ ؟
بُنَيَّــــاتِ الحِمَـى أَنْتُـنَّ نَسْلى فـإن تُنْكِـرْنَنـى أتَكُـنَّ نَسْلى ؟
.. وفى القــرآنِ وإعجــازٌ تَجَلَّتْ جِـــلاىَ بنـورهِ أَسْنَـى تَجَلِّ
.. إذا مــا كــان فى كَلِمِى صِعــابٌ فـــلا تَأْخُـــذْ كَثِيرى بـالأقَلِّ
وهل لُغَـــةٌ قـديما أو حـــديثــا تُعَـــدُّ بوفْـــرةِ الحَسَناتِ مِثْلى ؟
فيــا أُمَّ اللغــاتِ عَـــداكِ مِنا عُقــوقُ مَســاءةٍ وعُقــوق جَهلِ
لكِ العَـــوْدُ الحميـدُ فأنـتِ شمسٌ ولم يَحْجُبْ شُعــاعَـكِ غيرُ ظِلِّ ..

ومشى «حــافظ إبراهيم» خطوات مع ركْب الســاخـرين من القــديم، الساخطين على «جلاميد» اللغة(٥٤)، وكأنها لغة هشة لا تَصْمـد لجديد وافد، أو هى حَصَــان صَلْدة لا يَمْسَسْهــا طـريف مستَحْـدَث. يقـول من قصيـدة أنشدها فى حفل لتكريم « أحمد شوقى » مطلعها :

بلابلَ وادى النيل بالمشرقِ اسْجَعى بشِعْـــر أميرِ الـدولَتيْنِ ورَجِّعى (٥٥)
مَـلأْنا طِباق الأرضِ وجْـدا ولَوْعَـةً بهِنْدٍ ودَعْـــدٍ والرَّبـابِ وبَوْزَعِ (٥٦)
ومَلَّتْ بناتُ الشِّعــر منا مــواقفًــا بسِقْطِ اللِّوَى، والرقْمَتيْنِ ، ولَعْلَعِ(٥٧)
وأقـوامُنا فى الشرق قـد طال نَوْمُهُمْ ومــا كــان نَوْمُ الشِّعــر بالمتــوقَّع
تَغَيَّرت الدنيــا وقـــد كــان أهْلُهــا يَرَوْن مُتُــون العِيسِ أَلْيَن مَضْجعِ(٥٨)

---

(٥٤) الجَلْمَد (بفتح الجيم وسكون اللام وفتح الميم) والجُلْمود (بضم الجيم) : الصخر .
(٥٥) اسجعى : غرِّدى – أمير الدولتين : الشعر والنثر – رجِّعى : ردِّدى الدعاء أو الغِناء .
(٥٦) هند ، ودعد ، و... أسماء نساء عربيات .
(٥٧) سقط اللوى / الرقمتين / لعلع : أسماء مواقع عربية جاء ذكرها فى الشعر القديم .
(٥٨) متون العيس : ظهور الإبل .



... ومن الناحية الجمالية : فالإجماع على تفوُّق الخط العربى واتخاذه مركز الصدارة بين خطوط العالم .. وهو أكثر مسايرة للزمن من الحرف اللاتينى وأولى منه بالبقاء » . من كتاب [« عَلَّم بالقلم » – روح الخط العربى] للفنان أستاذ الخطوط العربية بلبنان « كامل البابا » ، واللوحات الخطية الثلاث لفنان الخطوط «أحمد مصطفى » ، وهى فى الأصل ملونة ، ومذهبة .

وكـــان بَرِيـد العِلْم عِيرًا وأَنْيُقًـــا ... متَى يُعْيِها الإِيجافُ فى البيدِ تَظْلَع(٥٩)

فأصبح لا يرضَـى البُخـارَ مَطِيَّـــةً ... ولا السِّلْكَ فى تيـــاره المتـــدفِّعِ

وقـد كـان كلُّ الأمــر تَسْـدِيدُ نَبْلَةٍ ... فأصبح بعض الأمـر تَصْويب مِـدْفع

---

(٥٩) بريـد العلم : رُسـل ووسـائل نقل العلـم – عـيرا : قوافـل – أَنْيُقـا : جمع ناقـة – الإيجـاف : الإسراع – البِيد : الصحارى المهلكة – تظلع : تتعثر وتعرج فى المشى ..

عَرَفْنا مَدَى الشىء القديم فهل مَدًى لشىء جديد حاضرِ النفْع مُمْتِعِ
لدَىَ كلِّ شَعب فى الحوادثِ عُدَّةٌ وعُدَّتُنا نَدْبُ التُّراثِ المُضَيَّعِ
فيا ضَيْعةَ الأقْلام إنْ لم نَقُمْ بها دِعامةَ رُكْنِ المَشْرق المتَزَعْزِعِ ..

والمُلفتِ للنظر ، أن بعض الأدباء والكُتاب الذين كانوا من قبل مبهورين بالغرب، أو ناقمين على تراث الشرق، أو معارضين لفكرة الجامعة العربية والوحدة الإسلامية، رجعوا عن ذلك وكتبوا عكْس ما أعلنوا أو قالوا، على غرار ما نظم شوقى فى أتاتورك، وما كتب محمد حسين هيكل فى مقدمة كتابيه : «حياة محمد» و «فى منزل الوحى» .

ومثال على ذلك ما كتبه «محمد عبد الله عنان» فى مقال بالملحق الأدبى لجريدة «السياسة الأسبوعية» فى فبراير ١٩٣٣ وجاء فيه (٦٠):

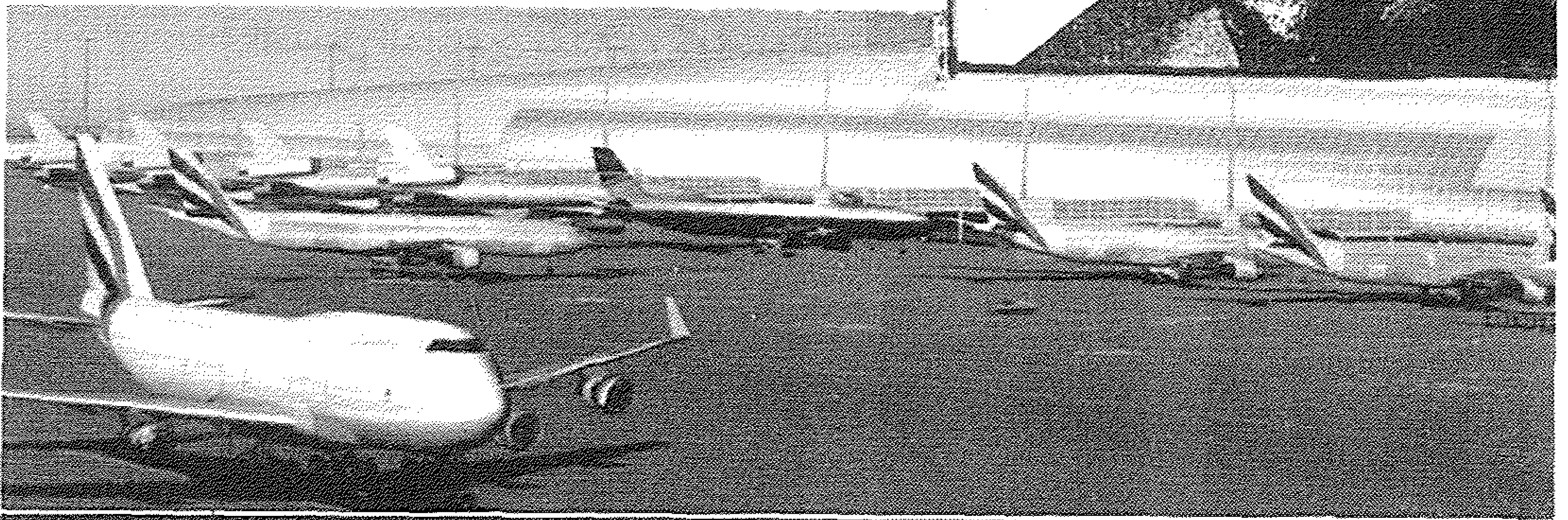
«شغف فريق من كُتابنا الأحداث بالكتابة فى الأدب الغربى وأطواره ومناحيه، شغفا يملك عليهم كل شىء. وترى لهم فى كل يوم حديثا عن «الدرامة» و «الرومانتسزْم» و «المذهب الواقعى» أو عن برناردشو، وأوسكار وايلد ، وترجنيف، ودسْتويْفسكى، وإبْسن . وهكذا فى سلسلة حافلة لا تنتهى من موضوعات الأدب الغربى وأقطابه ، فى كل عصر وأمة .. وهؤلاء الذين يُطْريهم رنين الأسماء الغربية والموضوعات الغربية ، ويَقفون أوقاتهم على دَرْسها وتناولها ، هُم أقل الناس تزودا بآداب اللغة التى يخرجون بها مباحثهم ، ويزعمون أنهم يحاولون إحياءها وتجديدها .. وهُم أكثر الناس جهلا بما يَمُوج به تراث العربية من كنوز البيان والأدب ، وبما يَغَصُّ به ثَبْتُ كُتابها ومفكريها من الأساتذة ، فى كثير من فنون التفكير والأدب ، وفيها أسماء أَوْفر رنينا وأحق بالدرس من كثير ممن يَشْغف اليوم كُتابنا الفِتْيان بدَرْس شخصياتهم واستيعاب آثارهم .. » . ثم يشير الكاتب

---

(٦٠) سبقت الإشارة إلى ما كتبه محمد عبد الله عنان عن فكرة الجامعة العربية «إنها فى نظرنا أُمنية خيالية لاتقوم على أسس أو تقديرات عملية...». وهى «سراب تبدده الحقائق والظروف الواقعة. بل إن التعلق بها ضار فى نظرنا بجهود الأمم العربية بما قد يبثه إليها من الوهن....».



شاعر النيل : حافظ إبراهيم

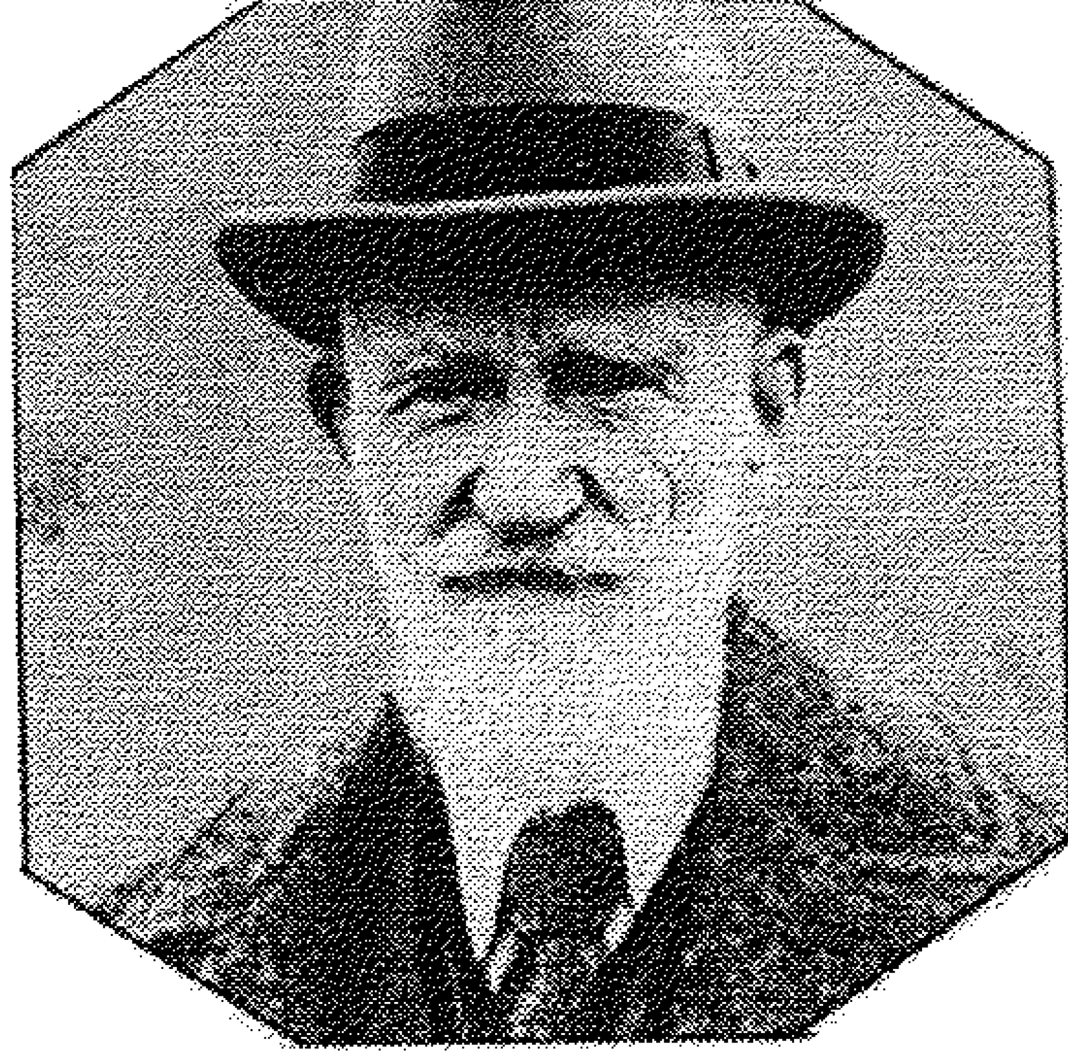


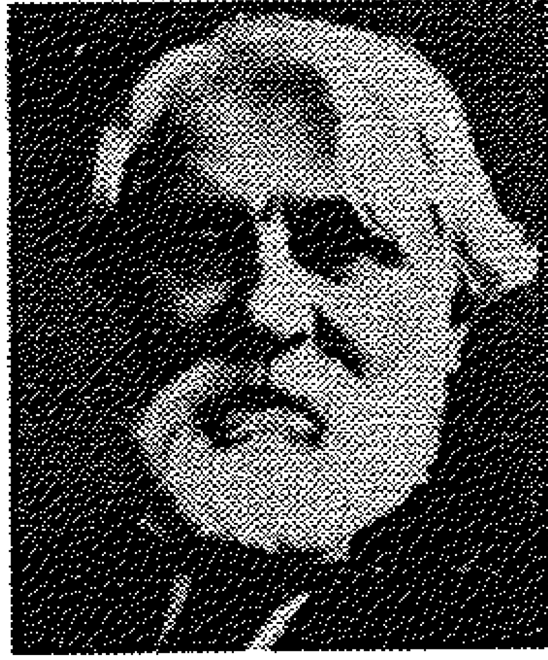


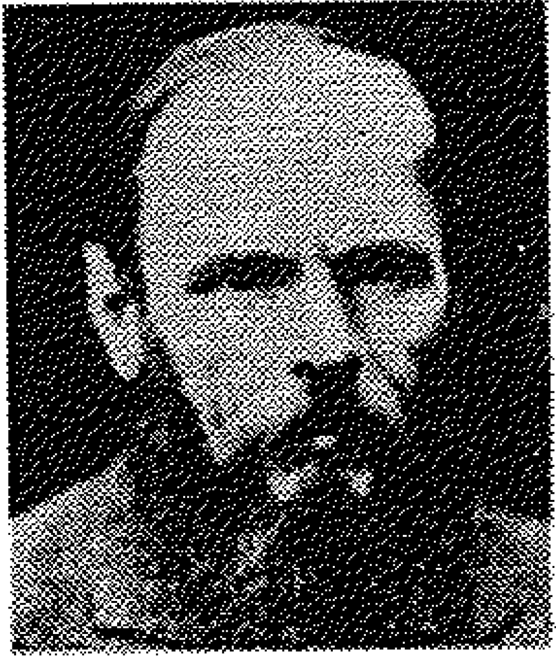
تَغيرتْ الدنيا وقد كان أهلُها　　　يَرَوْنَ مُتون العِيس ألْيَنَ مَضْجعِ

صراحـــة إلى أن أصحـــاب هذا الاتجاه الجديد إنما يريـدون فصل مصر عن ماضيهـا وعن عروبتهـا المجيدة « وصَبْغ تاريخ هذا العصر بصِبغـة معينة ، يُوحَى بها اليـوم إلى أقـلام مصريـة وغـربيـة ، وتُفْـرَض اليـوم على طلبـة المدارس».

فى تلك الأجواء والأنواء ، عكف الكتاب والأدباء على كتابة القصة الحديثة ، والرواية الطويلة ، والمسرحيـــة المستَجَـدَّة ؛ وفيهم رواد وأقطاب ، لم يهابوا الصعـاب ، بدأوا بـلا وَجَل ، ثم دَأبَوا على مَهَل ، فشقُّـوا الطـريق ، ومهـدوا السبيل للمبدعين بعدهم ، كما سوف نرى .


برنارد شو


تُرْجْنيف


دُسْتويِفسكى

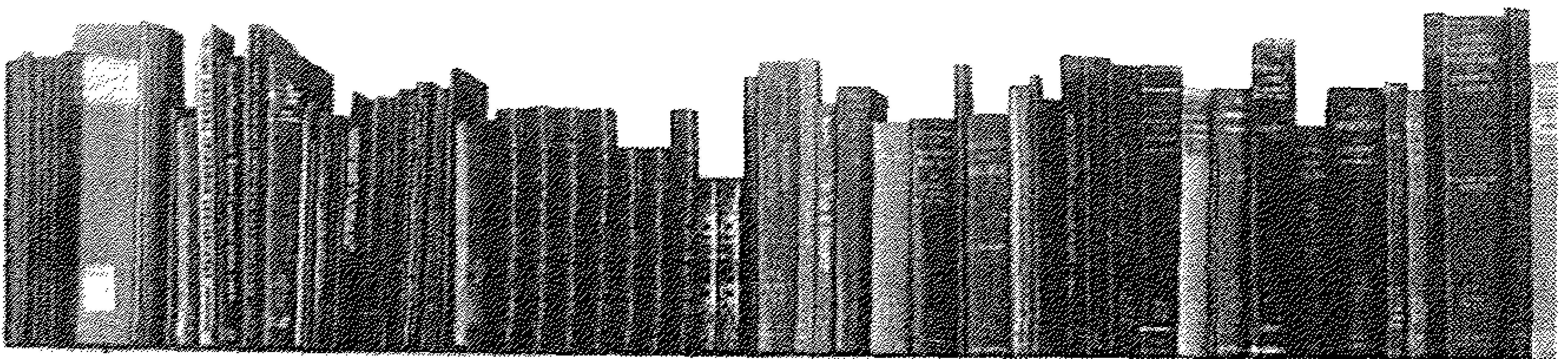

أوسكار وايلد

فن التصوُّر الروائى

أشار الجزء الأول من هذه السلسلة ـ وهو بعنوان : « مطْلع الفَجْر » ـ إشارة موجزة إلى « فنون الأدب » فى أوائل القرن العشرين محليا ـ مصريا وعربيا ـ وعالميا .

والقصة ، أو الرواية ، صيغة فنية أدبية ، وليدة الخيال ، والشعور ، والانفعال ، والتفاعل مع حدث ، أو فكر ، أو واقع ؛ بل هى تحاول محاكاة الواقع ، وتُوهم بأن ما تتخيله وتَصْنعه ، هو واقع حى ، أو جزء من واقع طبيعى محسوس ملموس ، فى بيئة معينة ، ومجتمع قائم . فهل هى ضَرب من الخداع والكذب ؟ مجرد سؤال ! وقد ينفى عنها هذا الإثم أو الجُرم، أن مَن يستمع إليها ، أو يقرأها فى كتاب ، أو يشاهدها ممثَّلة فى عمل تليفزيونى أو مسرحى أو سينيمائى ، يعلم جيدا أنها مؤلَّفة ، مصطَنَعة ، من وَحْى الخيال ، ونَسْج الموهبة ، ومهارة الصياغة ، ومستوى الرؤية أو الفكر . ولفن الشعر ـ وكذلك لتراث الأساطير ـ فى هذا المجال سَبْق وفضل .

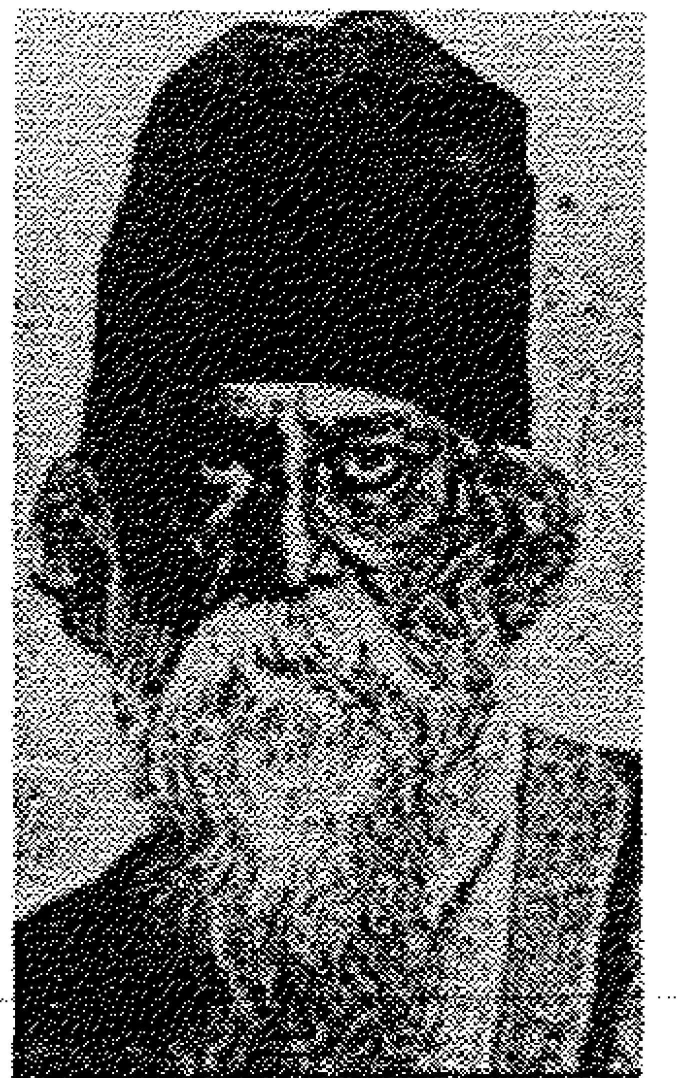
ولما كانت القصة ـ أو الرواية ـ مرتبطة بالواقع : مُضاهاة أو مُعاداة ، منطقية أو غير منطقية ، فهى ثمرة مجتمع، ومرآة عصر ، ووعاء فكر . ومن هنا ، تأثرت الرواية منذ طلائع القرن العشرين بالإنجازات والتغيرات والابتكارات الكثيرة والمتنوعة التى طرأت على المجتمعات والشعوب والدول : سياسيا ، واقتصاديا ، وعلميا ، وفكريا ، وفنيا .. وكانت هذه التغيرات



سريعة متلاحقة فى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية ، وأقل منها وأبطأ فى روسيا واليابان والصين . أما بقية دول العالم ، فكانت فى معظمها تحت تأثير شعوريْن أو عاطفتيْن متلازمتين ، ظَهَرتا بوضوح فى أعمال الروائيين المبدعين الكبار بدرجات متقاربة أو متفاوتة : الشعور بالنفور والتمرد على الأنماط التقليدية (الكلاسيكية) ، إما لأنها أصبحت قديمة لاتلائم روح العصر ومتغيراته ، وإما لأنها مرتبطة بالدول الاستعمارية التى بدأت تضعف وتتمزق وتتصارع وتشتجر (وتنزلق إلى حربين طاحنتين عالميتين). والشعور الثانى : « التجريب » ، أو المحاولات الجادة الذكية ـ الناجحة أو الفاشلة ـ لابتكار أساليب جديدة فى الكتابة والصياغة والشكل والمحتوى (أو المضمون) كنوع من التحدى السياسى والفكرى والفنى لعنصرية الغرب وحرصه ـ بطرائق شتى ـ على السيادة والسيطرة . أما فى روسيا ، فقد أعقبت الثورة الشيوعية سنوات من الحرية النسبية فى التأليف والابتكار والإبداع ، ثم أُحكمتْ الرقابة والسيطرة الصارمة من بداية الثلاثينيات ، حتى إن رواية « دكتور زيفاجو » وهى أعظم أعمال « **بوريس باسترناك** » – ١٨٩٠ / ١٩٦٠ – لم تظهر داخل روسيا إلى أن زال الاتحاد السوفييتى واستمرت مطاردة نوابغ من الروائيين والمفكرين فكان مصير معظمهم النفى أو الاعتقال والسجن . وفى دول أخرى كثيرة ، تنوعت اتجاهات الكتَّاب والروائيين بين مُغَرِّب ومُشَرِّق ، بين مَن يقتفى أثر المؤلفين الغربيين ، ومَن يتْبع مسار الشرقيين الاشتراكيين ، وغير هؤلاء وهؤلاء مَن اختط لنفسه أو لقلمه طريقا ـ ولو ضيقا ـ مستقلا عُرف به وتميز . وهذه أمثلة ..


محمد إقبال


جيمس جويس


طاغور

● فى الهند

– محمد إقبال (١٨٧٣ ـ ١٩٣٨)[١] .

---

(١) إقبال ، وطاغور ، وجويس .. وردَتْ جوانب من سيرة حياتهم وأعمالهم فى الجزء الخاص من هذه السلسلة بعنوان : « رجال صاغوا القرن العشرين » .


بوريس باسترناك

- رابينْدرانات طاغور (١٨٦١ ـ ١٩٤١) ، الحائز على جائزة نوبل سنة ١٩١٣ .

● فى أيرلندا

- جيمس جويس (١٨٨٢ ـ ١٩٤١)

● فى كولومبيا

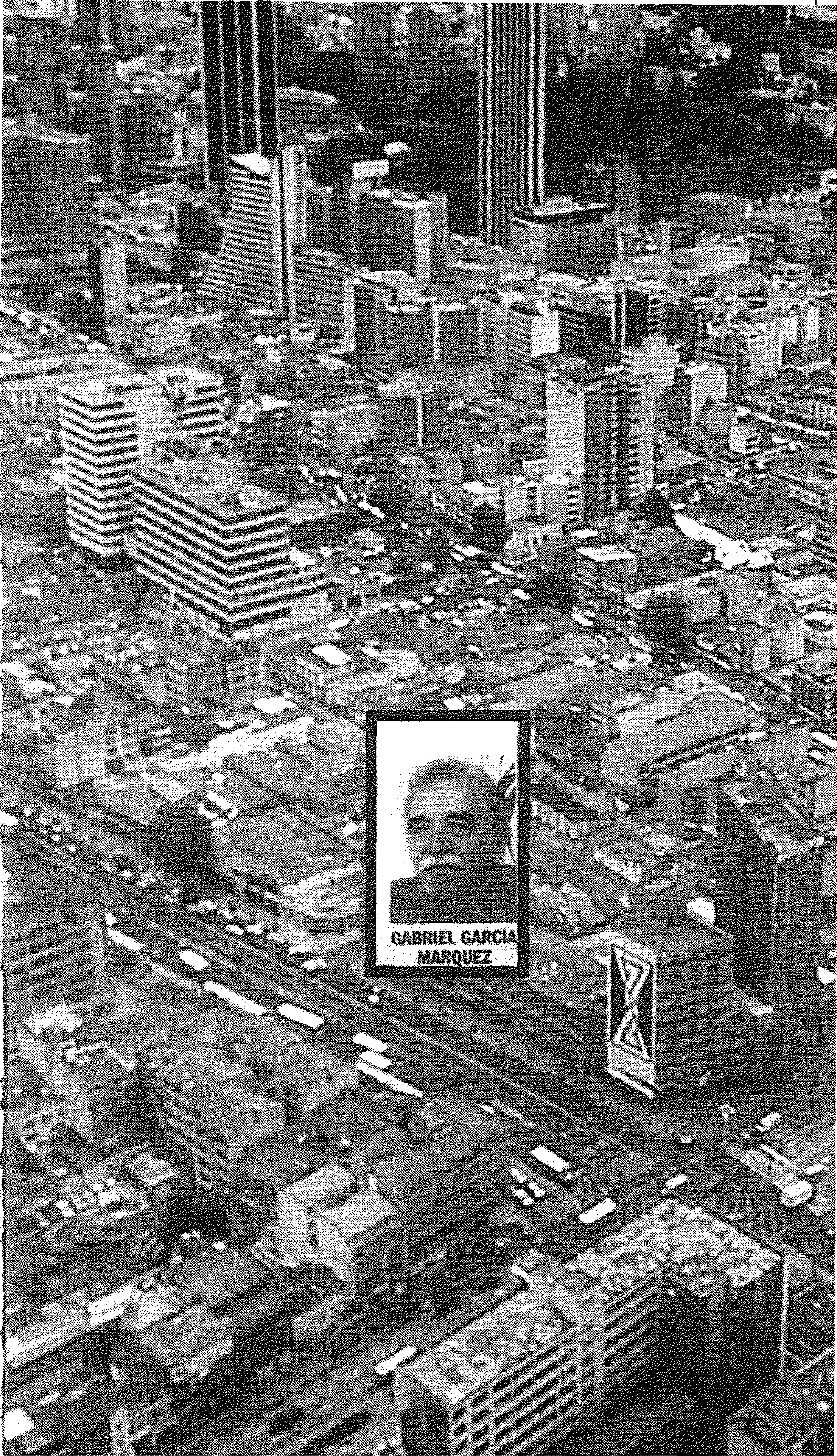
- جابْرِيِل جارْسيا ماركيز (ولد سنة ١٩٢٨) : روائى كبير ، من أشهر الكتَّاب والمبدعين المبجَّلين فى أمريكا اللاتينية . واقعى الاتجاه ، وأعماله نابعة من بلده وموطنه وتعالج مشكلات أمريكا اللاتينية بأسرها ، وفيها إشراقات روحية لطيفة مؤثِّرة ، تحمل نبض وأصالة شعبه . حصل على جائزة نوبل فى الأدب سنة ١٩٨٢ .

● فى نيجيريا

- **أموس توتولا** : (ولد سنة ١٩٢٠) ، روائى نيجيرى محدود التعليم لكنه يملك موهبة إبداعية مشعَّة ناضجة ، وقدرة نشطة على التخيل والإنتاج، بأسلوب جديد جذاب ، يستخدم فيه مصطلحات وتعبيرات شيقة تتركز فيها الأفكار التى يريد طَرْحها ، وتَعصم من السرد والإطناب الممل . كما أنه يتطرق بحساسية مرهَفة إلى الأساطير الغامضة المورثة ويُدخلها فى نسيج رواياته ، مع شيء من معتقدات وموروثات شَعبه ، وبهذا المزيج يستخرج حُججا قوية تستنهض بواعث فى الإنسان الغافل ـ ولو كان أميا جاهلا ـ تدفعه إلى إدراك قيمته فى الحياة وقدرته على الارتقاء بنفسه ومجتمعه .

- **وول سُوينْكا** : حصل على جائزة نوبل فى الأدب سننة ١٩٨٦.

- **شينوا أَشِبى** : (ولد سنة ١٩٣٠) ، روائى نيجيرى يختلف فى الأسلوب والاتجاه عن مُواطنه « توتولا » . فهو متمسك بالواقعية ، مع إضفاء سمات من الحياة القَبَلية الخالصة على تصوُّراته ومشاهد رواياته .



صــــورة الأديب الـــروائـــــى «جـــابربيـل جارسيا ماركيز» تتـوسط لقطة من الجو لمدينـــــة «بوجـــوتـا» عـــاصمـــة بلده كولومبيا (أمريكا الجنوبية) .

● فى جنوب أفريقيا

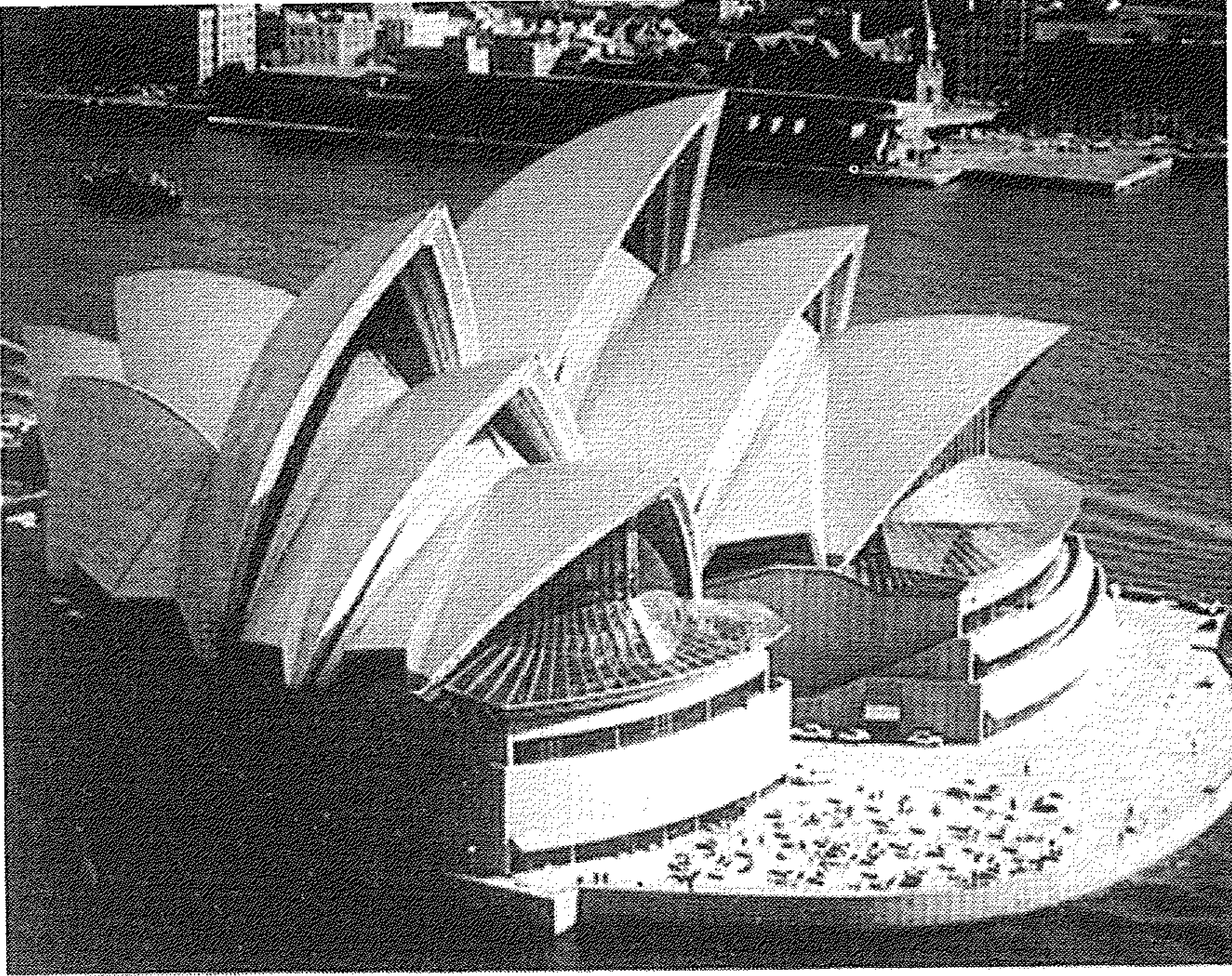
ــ أثول فوجارد : (ولد سنة ١٩٣٢) ، روائى مسرحى تصدى بجرأة لتشريعات التمييز العنصرى ونادَى بعدم قانونيتها ، كما تضمنت أعماله الدرامية نقدا صارخا فاضحا لتحريم العلاقات والروابط بين السود والبيض فى بلده ، بأسلوب بعيد عن الدعائية والغوغائية ، فمنعت السلطات الرسمية نشر رواياته ، وضايقتْه حتى اضطر إلى مغادرة جنوب أفريقيا (وهو فى الواقع نصف أفريقى فى المنشأ) وعاش بالمنفَى .

● فى استراليا

ــ باتريك وايت : (وُلد سنة ١٩١٢) أول روائى استرالى يحصل على جائزة نوبل (سنة ١٩٧٣) . وعلى الرغم من أن قصصه ورواياته تحمل طابعا استراليا صِرْفا تَضرب جذوره فى البيئة المحلية ، إلا أنها تَتَّسم بالخيال الحديث . وهو بارع فى معالجة أعمق الأفكار والمشاعر الدفينة فى باطن شخوصه ـ بالإفصاح عنها مباشرة أو بالتلميح والرمز ـ وطرْحها فى السياق وكأنها تبدو طبيعية تماما وواقعية موضوعية . وقد يرى البعض أن أسلوبه معقَّد مُبْهَم ، لكنه مُثمر . وأعماله تحمل مضمونا وجوديا ودعوة مطْلقة إلى الصدق مع النفس ، والاستمساك الكامل بالأمانة والصمود والاعتماد على الذات . وقد يكون أبطال ـ وبطلات ـ رواياته غير أسوياء ذهنيا وعقليا ، وأحيانا يكونون خطرين ، ودائما غير عقلانيين أو منطقيين ، لكنهم ينتصرون على المحَن والأزمات بفضل صمودهم وشجاعتهم .

هذه بعض نماذج من بلاد وقارات مختلفة ، لروائيين رواد ، كان لهم دور بارز فى تطوير فن الرواية أو القصة فى بيئتهم المحلية وخارجها لتلائم متغيرات العصر .

فإذا انتقلنا إلى دول أخرى ذات ثقل ثقافى عالمى ، فـلابد من الوقوف قليلا فى باريس ، وبرلين ، ومـدريد ، ولندن ، ومـوسكو ، ونيـويورك ، على سبيل المثـال لا الحَصْر ، وبقدر مـا تتسع « رحلتنا » مع ملامح الصـور والمتغيرات الأدبية الروائيـة فى القرن العشرين ، ثم نختتم جـولتنا فى موطننا وبين أهلنا وشعبنا فى المنطقة العربية .

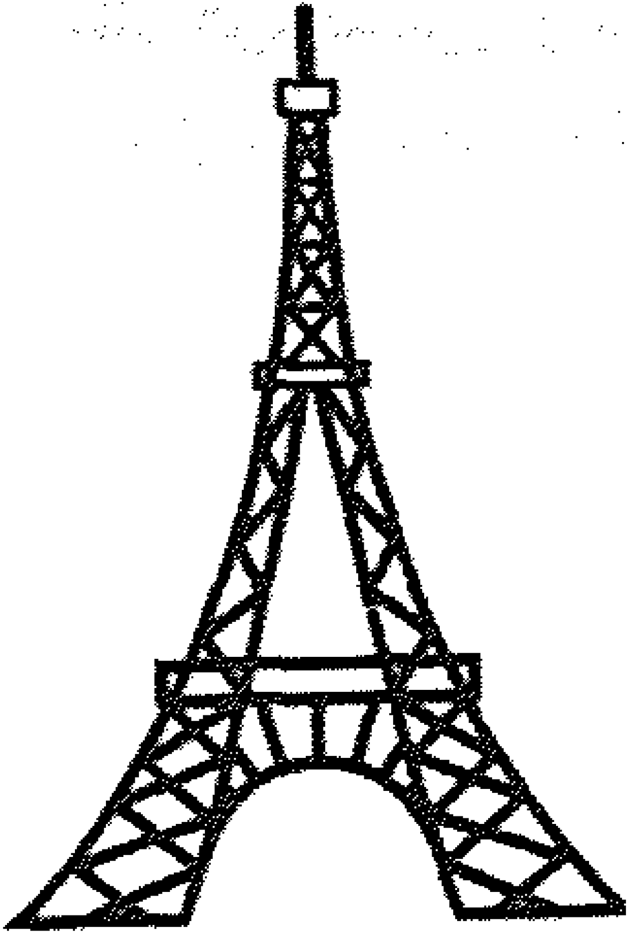


دار الأوبرا فى سيدنى باستراليا وبها المسرح الكبير وهى من تصميم المهندس المعمارى : « جورن أتْزون » .

▲ SYDNEY OPERA HOUSE, 1973

● فى فرنسا

لم تكن مائة عـام كافية لكى تستقر الرواية الفـرنسية وتهدأ وتحدد آخر ملامحهـا بعد قرن كـامل ـ طوال القرن العشرين ـ من التجربة والتجـزئة ، والتحرير والتطوير ، فى الشكل ، والمضمون ، والصيـاغة والأسلوب ، وتَعدد المذاهب وتَشابك المدارس والاتجاهات . ويبدو أنها لن تهدأ بالا أو تُقِر نهائيا قرارا ؛ وكيف ؛ والمتغيرات فى كل جوانب الحياة والمجتمع تتسارع وتتلاحق ، والبواعث تتقلب وتتضارب ، وإغراءات الأمس تنطفئ عـاجلا جَذْوتها اليوم



Paris

ثم تَذْوِى لتَخمـد فى الغـد . والنفس تَمل ولا تَشبـع ، وتَستحث ينابيع الفكر صـارخة : هل من مزيد ؟

فى أوائل القرن ، حتـى مابعد الحرب العـالمية الأولى ، تأثر كُتـاب الرواية بالاتجاه العام السـائد بين الفنانين التشكيليين ، وهو : الخروج على القـواعد التقليـدية لكتابة الرواية . ومـا البديل ؟ حـاول الكُتاب الإجـابة ـ بأعمالهم الإبداعية ـ عن هذا السؤال . ولا يزال السـؤال مطروحا . فهل تعود التقليدية (الكلاسيكيـة) لتنتصر فى النهـايـة ، سـواء فى مجال فن الرواية أم فى مجال فنون أخرى كالتصوير (الرسم) والنحت والشعر والمسرح ؟

ظهـرت بوادر التطور الروائى فى أعمال « **بروسْت** »(٢)، والتى جـاءت مواكبـة لمحاولات « **جويس** » ، و « **كافكا** »(٣)، و « **فولْكنر** »(٤) وغيرهم . وقـد أعلن هؤلاء « المجـدِّدون » رفضهم للـرواية التقليـدية التى تَكَلَّسَت أو تَحَجَّـرت فنيـا وجماليـا داخل أنماط ثابتـة عقيمـة تعتمـد على الوصف ، والتحليل ، والسَّرْد ، والحكايـة عن شخص (بطل) أو شخصيـات (أبطال يعيشـون فى واقـع من صُنع المؤلف يحدد للقـارئ بنـاءه ومعـالمه، ويحرِّك الشخصيات داخله كما يشاء وعلى هواه ، مراعيا ـ كالمؤرخ ـ التتابع الزمنى، والإيقاع المتسلسل للأحـداث . وقد اعتاد القـارئ على هذا النمط ؛ فهو يطالع الرواية مسترخيا ، ويقطع بها الوقت لاهيا متسليـا ، من غير حاجة إلى تفكير أو تفسير ، ولا مشاركة من جانبه تَفْحص هذا العالم الخيالى المصطنَع .

---

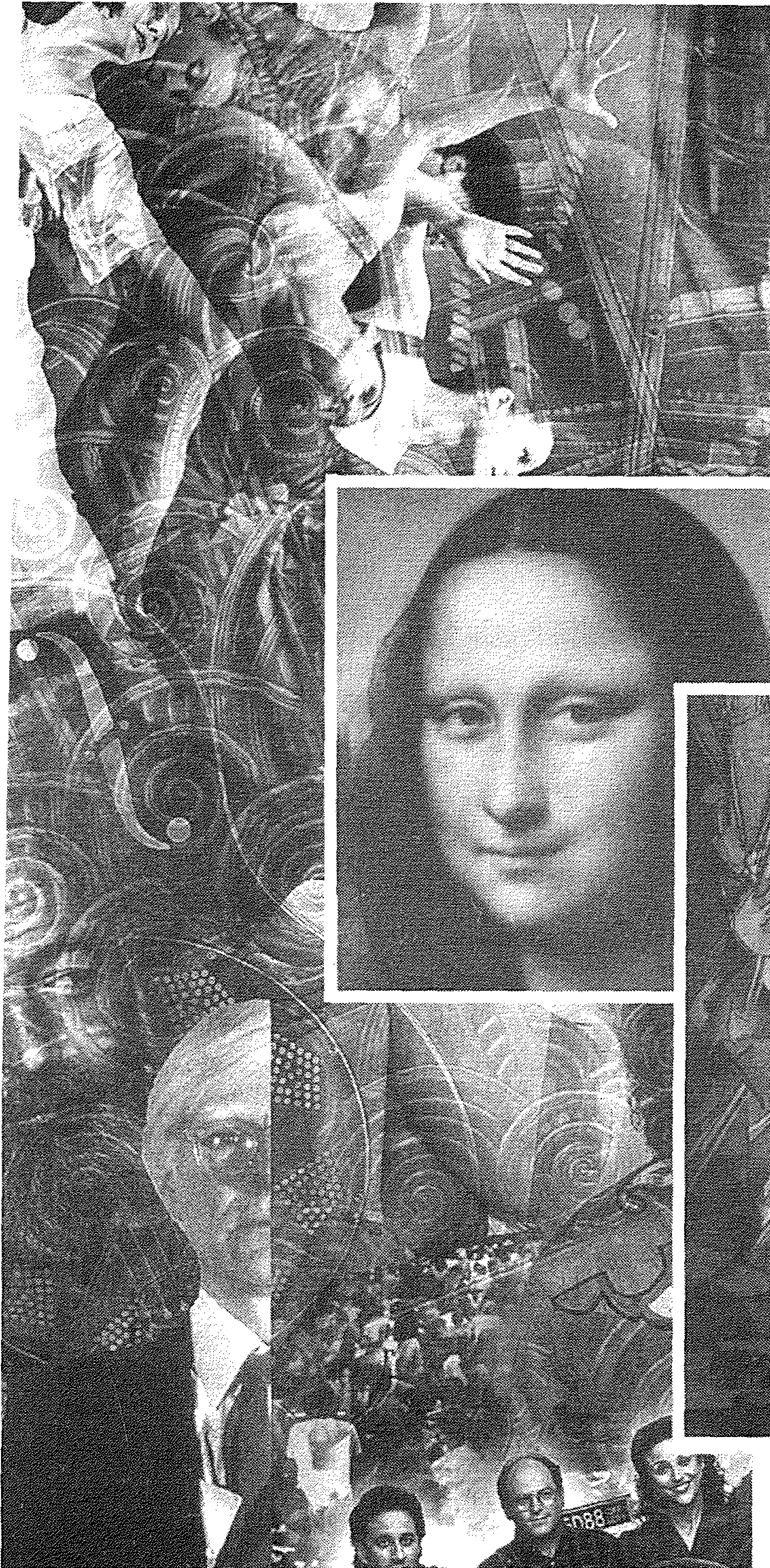
(٢) Marcel Proust : (١٨٧١ ـ ١٩٢٢) ، كـاتب روائى فرنسى وُلد فى باريس . روايتـه « فى البحث عن الزمن الضائع ـ A la Recherche du Temps Perdu » التى نشرت لأول مـرة سنة ١٩١٣ ، كان لها تأثير كبير على المسار الأدبى الفرنسى والعالمى لعدة عقود ، وفيها دعوة إلى وجوب دفع الحركة الأدبيـة للخروج من حالة العقم الإبداعى (شكلا ومضمـونا) السائدة محليا وعـالميا ، بالانطلاق نحو آفاق تتطلـع منها النفس الإنسانية إلى مشهد الخلود الذى هـو أيضا مقصد الفن ومجاله .

(٣) Franz Kafka : روائى وكـاتب تشيكى باللغـة الألمانيـة وُلد فى براج (١٨٨٣ - ١٩٢٤) من رواياتـه المشهورة « المحكمة » ـ « القلعة » وغيرهما ، وفيها تعبير عن يأس الإنسان إزاء عبث ولا عقلانية الوجود ، فى زعمه .

(٤) William Faulkner : (١٨٩٧ ـ ١٩٦٢) ، كاتـب روائى أعماله ذات طابـع نفسى أو رمزى فى إطار الحياة بالجنوب من الولايات المتحدة . حصل على جائزة نوبل فى الأدب سنة ١٩٤٩ .

تأثر الروائيون فى بداية القرن بالمدارس والمذاهب الفنية الحديثة خاصة فى التصوير (الرسم) واختلطت الابتكارات والمستحدثات فى طفرات وتقلبات غريبة متلاحقة .

وفى الوسط تبدو صورة الجوكوندا (الموناليزا) تحفة ليوناردو فينشى مثالية فى الكلاسيكية الوقورة المبهرة يقابلها فى أقصى اليمين لوحة الفنان الفرنسى « مارسيل دوشامب » - توفى ١٩٦٨ - رسمها سنة ١٩١٢ بأسلوب المذهب التكعيبى السوريالى بعنوان : «عارية تنزل السلم » !



عند « بـروسْت » ـ وعند الـرواد المجـــددين ـ تختلط ذاتيــــة المؤلف بمـوضـوعيـة الرواية والأحـداث ؛ وتختلط فيهـا المشاعـر والانطبـاعـات بتفاعـلات الموقف والتطورات ؛ ويمتزج البناء الدرامى بالواقع الأسطورى ؛ ولكل شىء فيـه معنًى ومَغْـزى ؛ ولكل حَـدَث تعبير وتفسير ، أو تعبير مُبهم التفسير ، وعلى القارئ أن يتابع مُنْتَبِهـا ، ويعايش مفكرا ، ويتكشَّف مفسرا ؛ فـلا يُغْنى الإعجـاب عن الإغراب ، ولا الإطناب عن الاقتضـاب . فـالجوانب متعددة متشـابكة ، والمشاعـر خبيئة محرِّكة ، وأحـاديث النفس (المونولوج الداخلى) تتـواكب بين صَخب وهَمْس . وأيـن الزمن ؟ لايتقيـد السرْد بنطاق زمن . فليس لزاما أن يُفضى مـاضٍ إلى حاضر ، ولا حاضر إلى مستقبل . إنها رُؤَى فنان إنسـان ، فى عـالم خـاص ثرى بالمشـاهد والألوان ، فى مسـارات وحوارات ، تُشْبِـه أحيانا لغزا أو متـاهة ، وعلى القارئ أن يحل ويحلِّل ، وأن يَعى مغزى الرمـوز ويفسر ، فيصير مشاركـا وليس مجرد متفرج . وأفضل مثـال على ذلك ، رواية « بروست » : « فى البحث عن الزمن الضـائع » ، وهى مجمـوعة قصصيـة جيـدة متميـزة ، توصَف فى التأريخ الأدبى بأنها « أول رواية عرفتْها الحضـارة الغربية منذ عصر نهضتها ، تتخذ إيقاعات [داخلية] نابعـــة من داخل الفنان ذاته ، لاتصـف العـالم الواقعى أو الخيـــالى ، وإنما تدرس، وتحلل، وتنقد الرؤَى والصور والـرموز التى يكوِّنها المرء عن العالم وما فيه ومَن فيه» . فالرؤَى تختلف من شخص إلى آخر ، والرموز تختلف ، والنظر يختلف ، والـوعى يختلف ، وإدراك الجمال يختلف ، والإحســـاس بالحياة ذاتها يختلف .. ويقول بروست : « هناك فرق كبير جدا بين الانطباع الحقيقى الذى يتركـه الشىء (مـاديا أو عـاطفيـا أو جماليـا) فى ذاكـرتنا ، والانطباع الزائف الذى نُخْرجه نحن عنـدما نحاول تصويره إراديا » . ومن هنا ، أمسك الروائيـون من بعد « بـروست » بالخيط الجديد الذى أبْدع فَتْله وغَـزْله ، وراحوا « يجربون » اللعب به ، أو القفـز من فـوقه ، فى مبـاراة مع الزمـــان والمكان داخل ساحات الرواية ، رافضين ـ مثله ـ الأنماط التقليدية

للقصة التى تَرْوِى وتَسْرد ، وتعرض صورا تحسبها من الواقع ، وهى قد تشوِّة الواقع ، ويتقبلها القارئ بسيطة كما هى ، ساذجة لاهية ، قُطوفها غير دانِيَة .



الأديب الروائى الفرنسى : «مارسيل بروست» (١٨٧١ - ١٩٢٢) .



«البحث عن الزمن الضائع» هى واحدة من الأعمال الأدبية الكبرى

ثم كانت الحرب العالمية الثانية . والحرب الشاملة - خاصة فى العصر الحديث - مأساة المآسى ومِحْنة المحن وذِروة الخراب والدمار : للنفوس والجيوش والديار والأفكار . وكانت تلك الحرب العالمية الثانية أشد وطْأة على الفرنسيين وأعظم فَتْكا - ماديا ونفسيا - من الحرب العظمى (الأولى). إذ فى الأولى : انتصرت فرنسا على ألمانيا ثم طغَتْ عليها وبَغَت بمعاهدة «السلام» فى فرساى ، التى هى فى واقع الأمر معاهدة إذلال لألمانيا واستسلام . فكان لابد من ابتعاث هتلر - أىّ هتلر - ليرد الصاع صاعيْن ، ويَصْفع مَن ضَرَب الخد الألمانى الأيمن بضَرَبات موجعات على خَدَّيْه الأيمن والأيسر . وهكذا فعل «أدولف هتلر» بفرنسا مع بداية الحرب العالمية الثانية : زَحَف نحوها ، وفى أقل من أسبوعين احتلها ، وبسلطاته العسكرية وفِرق الجستابو أهانها شَعْبا وأذلها ، لكنه كان كريما وفيا للحضارة والتاريخ ، إذ لم يخرِّب مدنا ولم يدمر كنوز حضارة ورموز مَجْد وتاريخ (وما أكثرها فى فرنسا) ، قياسا إلى ما فعلتْه فرنسا - وحلفاؤها الأمريكان والبريطان والروس - حين اجتاحوا ألمانيا فى نهاية تلك الحرب ، وعاثوا فيها فسادا وتخريبا وتدميرا فى اكتساح عامد لايُبقى ولا يَذَر ، ثم انتهى بمعاهدة «انتقام» فى صيغة استسلام .

كـانت سنوات الحرب الثـانيـة (٤٠ ـ ١٩٤٥) فترة خمود وركـود فى الآداب الفـرنسيـة والفنون . ولاذ معظـم الكتّـاب والروائيين بـالذهول أو الصمت ، وانضم بعضهم إلى فِرق المقاومة المسلحـة . فلما انقشعت ظلمات الحرب ، أفـاق المتغـافلون ، وتكلم الصـامتـون فكان من بينهم : **جـان بول سارتر** [٥] ، **وألبير كامو** (Camus والبعض يكتب اسمه : كامى ، ونُطق حـرف « u » فى الفرنسية أقرب إلى الضمة فى العربية منه إلى الكَسرة ، وقد سبق الحديث عنه بشـىء من التفصيل فى الجزء الخاص من هذه السلسلة عن « رجال صاغوا القرن العشرين ») .



٣٠ يناير ١٩٣٣ : رئيس ألمانيـا المارشـال العجـوز «هيندنبرج » يصـافح « أدولف هتلر » لفـوزه بمنصـب المستشـارية (رياسـة الـوزارة) .

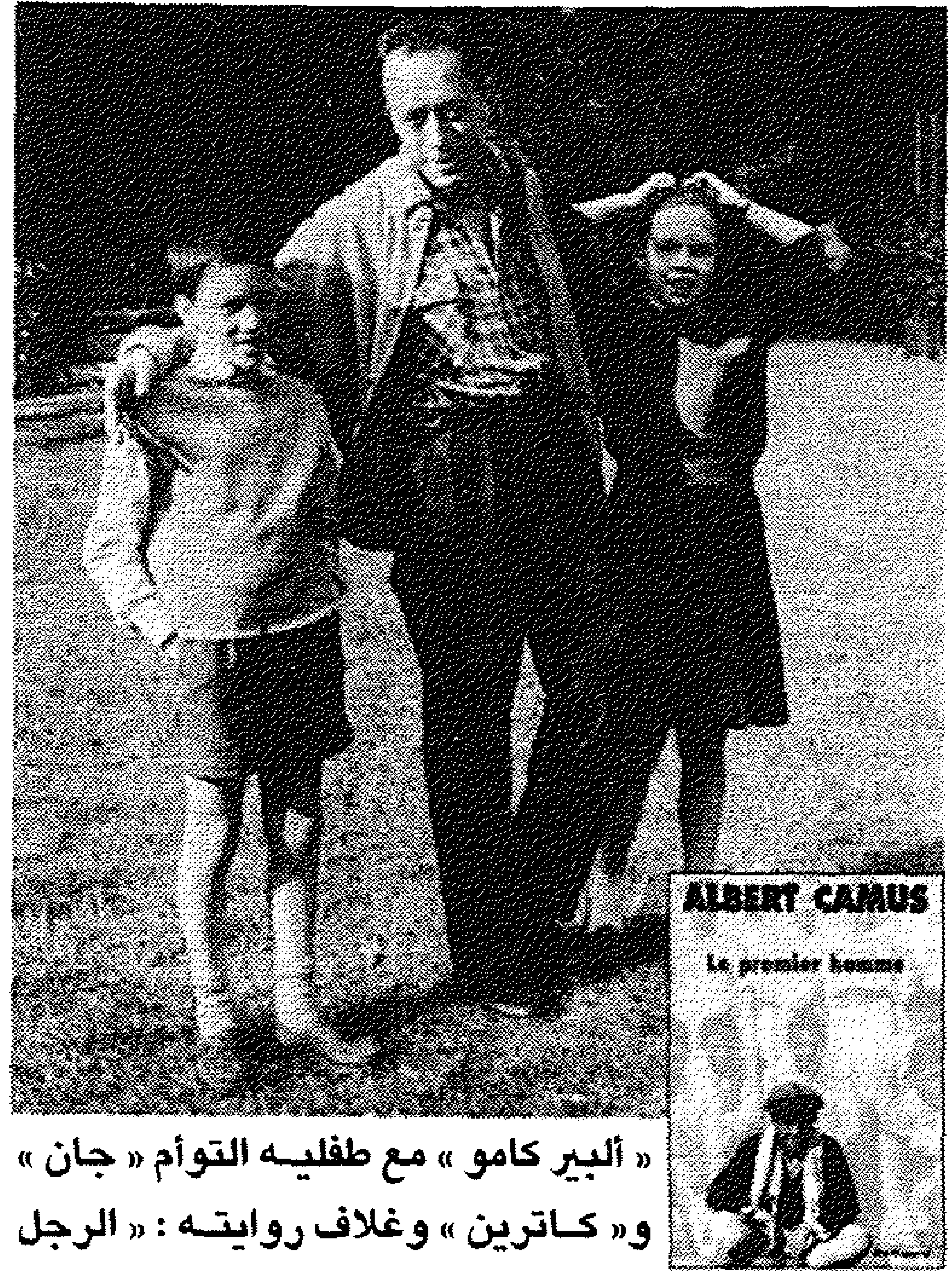
دَفَعت الحرب ومآسيهـا ومخلفاتها إلى التفكير فى قلق وحيرة حـول مصير الإنسـان ، وعـلاقـاته بالكون ، وبالكائنات ، وبالأحياء والأموات والأشياء . إنه الإنسان المأسـاوى فى مـواجهـة الوعى ، والصمـت ؛ والمعقـول واللامعقـول ، الصـواب والزيف ؛ الحق الحقير والوهم المثير والبطش الكاذب . فهل للحيـاة إذَنْ من معنى ؟ وهل للوجـود من قيمـة ؟ وهـل العـالَم تحكمـه عقـول تبغى الصلاح والإصلاح المتقـدم سُمـوا وعُلوا لا انحـدارا وانحطاطا ؟

لقد انفصلت الرواية نهائيا عن ماضيها التقليدى الذى كان يروى حكاية ، أو يزِّين قصة ، يبتعث فيها شخصيات ينفخ واهما فيها الروح ، ويحركها فى مشاهد يصطنع بها المواقف لتُفْرز من خلالها الأحداث . أما الرواية الجديدة، فهى تدور حول الإنسان . ومصير الإنسـان ، وما يعشعش فى ذهن الإنسان

---

(٥) J. P. Sartre : كـاتب فيلسوف فـرنسى (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠) صاحـب مذهـب الوجدانيـة ولـه عـدد مـن المؤلفات والروايات المشهورة توضح أفكاره ومذهبه مثل : « الوجود (أو : الكائن) والعدم ـ L'Etre et le Néant» ، « نقد العقل الجدلى ـ Critque de la Raison Dialectique ـ ١٩٦٠ » ، «الغثيان ـ La Nausée ـ ١٩٣٨ » ـ مُنح جائزة نوبل فى الأدب سنة ١٩٦٤ لكنه رفضها .

وضميره ووعيه ودخيلة نَفْسه . وفى الرواية الجديدة ، يختلط الماضى بالحاضر والمستقبل فى سياق واحد من السَّرْد . فمأساة الإنسان إذن دائمة وليست وقتية أو مؤقتة. وإذا كان الإنسان يتغير بتغير الزمن عليه ، فهو إذَنْ يُؤْخَذ ويُعْرف بمجموع أوقاته ولحظاته بلا تحليل أو تقسيم وتجزئة ؛ ويُنظر إليه بنظرة كلية جامعة شاملة .



« ألبير كامو » مع طفليه التوأم « جان » و« كاترين » وغلاف روايته : « الرجل الأول » .

ويركِّز **سارتر** على أهمية العلاقة بين وعْى المؤلف ووعْى القارئ ، ووعى الشخصيات المرويَّة التى تربط هذا بذاك . والوعى عند سارتر يتمثل فى الحرية : حرية المؤلف فى البناء والعَرْض ، وحرية شخصيات الرواية فى السلوك والتعبير ، وحرية القارئ فى القبول والرفض . ولئن كان سارتر يصور برواياته ويرسم صورة قاتمة قاسية لحال الإنسان ، فإنه لايدفع إلى اليأس ، أو الوقوف عند حافة اليأس ، وإنما لينبِّه الوعى ، ويَجْلُو البصيرة ، لكى يعرف المرء نفْسه فى كل لحظة ، بحرية كاملة . ولا يتأتَّى ذلك إلا بمعرفة طبيعة الأشياء والكائنات : « الجوهر » – (L' essence) ، أو «الوجود » –(L'existence) .

فى سنة ١٩٤٢ ظهرتْ رواية « الغريب ـ L'Etranger » **لألبير كامو** . إنها ليست مجرد حكاية تَسرد وقائع وأحداثا وأفعال أشخاص فى إطارات محددة. إنها تدليل على فلسفة « العبث » . ووراء كل صورة أو مشهد فيها فكرة ، ولكل شخصية بها تعبير عن رمز مجسَّد يخفى وراءه كثيرا يُقال . والشخصية الرئيسية فى هذه الرواية ، هى شخصية « الغريب » واسمه « مورسو » . وهو إنسان بسيط ، موظف صغير بمدينة الجزائر ، يحيا حياة

عادية ، أقرب إلى التفاهة والرتابة والسلبيـة ، لا يَأْبه فيها بما يهز المشاعر أو يثير : لاموت أمـه ، ولا علاقتـه بمارى ، ولا دفء صداقة ، وكـأنه لا يعرف الفرح أو الغضب أو الأحـزان والندم ، وبلا طموح . ومع ذلك ، فحيـاته هذه تحمل قيمة أسـاسية فى نظر المؤلف : لأنها حياة خـالية من المعنى .. ليس لها هدف مقصود ، ولا رصيـد أفكار موروثة أو مُسبقـة ، وإنما هى سلسلة من الآراء التافهة ، والأحاسيس البدائيـة ، والأعمال اليومية المكرورة . ولذا فهو «متحـرر» من قيـود الرفض ، والتغيير ، أو حتـى استبـدال هذا الواقع الممل الرتيب . فيتخذه « كامو » رمزا للكشف عن الحقيقة ، حقيقة الواقع « العبثى» الذى يحيط به ويعيش فيـه ، ويُعَـرِّى زَيْف وعُنف وقسـوة رمـوز حيـة فى المجتمع ، ومنهم القاضى ، والقس ، والمحامى ، والطبيب . .



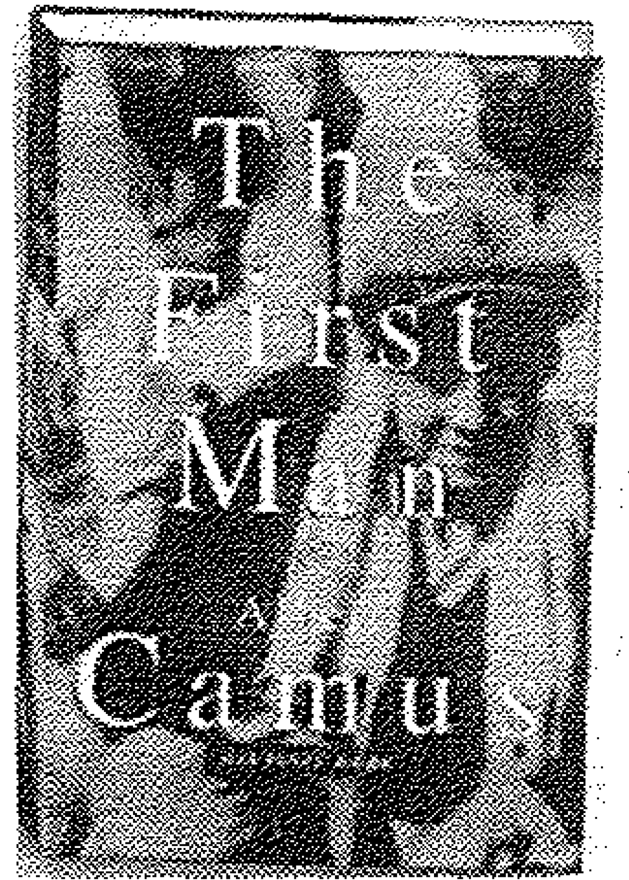
يركز « سـارتر » على أهمية العَـلاقَة بين وعْى المؤلف ، ووعى القارئ ، ووعى الشخصيـات المرويَّة التى تربط هذا بذاك ، لكى يعرف المرء نفسه بحرية كاملة .. من معرفة « الجوهر » أو « الوجود » .

إن « مـورسو » إنسـان « غريب » حقـا ، بكل صفاته وسلوكـه ، ولأنه ـ لبساطتـه أو لـسذاجته ـ لا يكترث للمبـادئ والقواعـد التى تسود المجتمع ـ وإن كانت عبثية زائفة ـ ولا يُخضع نفسه لها (من غير تمرد أو ثورة) ؛ ولا يتقبل باستسلام أكـاذيب شائعة أو يُبـالى بآراء مضللة . وحين يَرى القُضاة أن هذا المواطن « الغـريب » يجهل ـ أو يتجـاهل ـ القيم التقليـدية والمبـادئ الأسـاسية لمجتمعهم ويشعـرون أنه بغرابته هذه يتهددهـم وسوف يعريهم ويكشف حقـائقهم ، يحكمون عليـه بالإعـدام ، دَرْءا للخطر عن أنفسهم أولا قبل أن يكون عِقابا على جريمـة كبرى فى تقديرهم : أنه يجهل قيمة حب الأم . فعندمـا سأله محاميـه : « هل كنـت تحب والدتك ؟ » ، حـار جـوابا واكتفى بالقـول : « مما لاشك فيه أننى كنـت أحب أمى . لكن هذا لا يَعنى شيئا . فكل المخلوقـات الطبيعية تتمنى مـوت مَن تُحب ، بقدْر يقل أو يكثـر » . فقاطعـه المحـامى الذى بدا عليـه الارتبـاك . وأخيرا . . فى اللحظات الخاتمة لحيـاته ، عندمـا يُسـاق إلى المقصلـة لتنفيـذ حكـم الإعـدام ، تتكشـف لـه ومْضة « الحقيقة » فجأة فى مواجهة الموت ، الذى هو الحقيقة اليقينية الوحيدة ـ غير العابثـة ـ فى هذه الحياة الـدنيا . وعندئـذٍ يصحو ، ينتبه ، يفيـق : فينفجر فى داخله الأمل ، ويشعر برغبـة عارمـة فى التمرد ، ويَغْمره إحسـاس « غريب » طارئ بحب الحياة . ثلاثة مشاعر لم تظهر ولم تتوهج ولم يذق حلاوتها إلا كبريق متألق فى سـاحة الإعـدام .. فى ساحة الموت ، ورمـوز المجتمع وحُماة قـواعده ومبـادئه وقـوانينه يحيطون به ويرقبونه . فـالأمل يجعله فى لحظة يسـائل نفسه : هل يهرب . . وكيف ؟ هل يقفـز السور ؟ هل يُغير القـانون ؟ وينقطع خيط الأمل عندما يتقدم نحوه القسيس ـ وهو عند كـامو أحد رموز القُوى المعـادية للحرية فى المجتمع المتسلط العـابث الفاسـد العقيم ـ يَعْرض عليه نوعا من أمل مختلـف : الخضوع الأخير وطلب الصفح والمغفرة . وهنا تنطلق صيحـة التمـرد على لسـان مـورسـو فيسُبّ القس ويشتم الخداع والمداهنة ؛ وفجأة يسكت : فقد تفتحت بصيرته فى تلك اللحظة ـ بعد أن طاش



Janvier 60
Albert Camus.

مات « كامو » فى يناير ١٩٦٠



غلاف رواية « كامو » : [الرجل الأول] مترجمة إلى الإنجليزية .



الجزائر تنمو بين الجديد والقديم : ولاتزال تحكى رواية « الغريب » وفلسفة «العبث » التى يجسدها على نحو ما رآه « ألبير كامو » .

الأمل واختنق التمرد ـ على عبث عالم يوشك أن يفارقه ويتحرر منه ولم يعد عضوا مشاركا فيه . وكلما اقتربت خطواته من شبح الموت القائم منتصبا أمامه (متمثلا فى المقصلة) ، زادت بصيرته نفاذا وحِدَّة ، وتكشفَتْ له الحقيقة واضحة بشدة : كل الأشياء تتساوى ، وكل القواعد تتهاوَى ، وكل الإيقاعات تتلاشى ؛ فيدرك عن يقين ، أنه لم يَكُ مُذْنبا أمام قُضاته . . ولم يَكُ تافها بين أقرانه . . وما كان غريبا عن عَيْن الحقيقة . الإنسان الغريب ليس هو الغريب ، واللامعقول غير مُذْنب إن صح القول .

فى روايته الشهيرة التالية : « الطاعون ـ La Peste ـ ١٩٤٧ » ، تدور الأحداث فى مدينة وهران الجزائرية أيضا ، عندما دَهَمها مرض الطاعون ، الذى يمثِّل هَجْمة الشر الأسود القاتل ، فيغَيِّر ملامح الحياة ومشاعر البشر ، وينشر الآلام فى كل مكان : آلام المرض ، وآلام الفراق (بموت الأهل والأحبة)، وآلام العَجْز ، وآلام اليأس . . ومن بين كل هذه الآلام ـ وغيرها كثير ـ يبرز الإنسان الواعى البصير « تارو » ، الذى يؤمن بفلسفة « العبث »

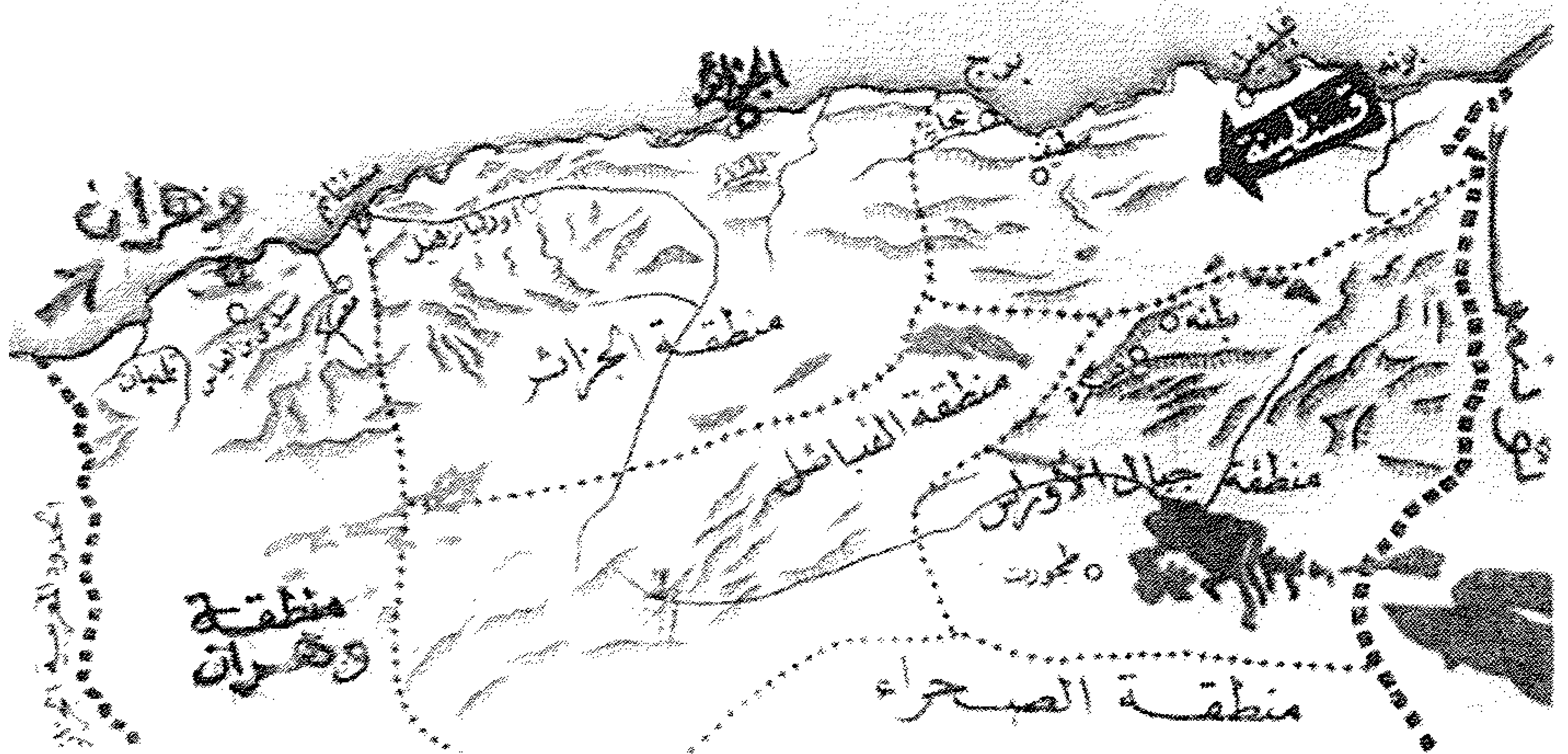
و « اللامعقـول » ، فيصير « غريبـا » فى المدينة . وفى تقـديره أنه لا العقل ولا القلب يبرران أعمال الشر . لكن الأب « بانلو » يُحْسن الحديث عن الشر ، فتلك وظيفته ومرتكز كَسْبه ومكانته . فيُلقى موعظتين : يُفسِّرُ فى الأولى الوباء بأنه عقاب من الرب وعذاب ، و « السعيد » مـن عجَّـل بالإيـمان والتوبة ، واغتنم « الفُرصـة » المتاحة . وبذا يدخـل الشر موقَّرا فى نظام الكون وقوانين الحياة ، ويصير عقـلانيا له تبرير ومعنى . وفى الموعظـة الثانيـة يتغير يقينه الإيمانى السـابق ، بعـد أن وقف ساعـة وبعض سـاعـة عند رأس طفل صغير برىء أصيب بهذا المرض الفتـاك ، وشـاهده القس لحظة بلحظة والآلام تعتصره ، والمرض ينهشه ، ومقـاومته الضعيفـة تنهار وتتـلاشى ، فيتلوى ، ويلهث ، ويرتجف ، ويبكى ، ويصْرخ ، ويتغير لونه ، ثم تميل رأسه ، وتتقلص ساقاه، ثم يسكن بـالموت جسمـه النحيل ، الذى اتخذ شكل مصلـوب ممدد فـوق السرير، فى منظر مـروِّع مفزِّع بشع . ولذا تحوَّل القـس فى موعظتـه الثانيـة بعض التحـول عن رأيه الأول فى الشر : إنه لم يزل موجـودا فى نظام الكون ، لكن العقل لا يجد له تبريـرا مُقْنعـا . فلْيُقْبل كما هو ، وبالتـالى ، لن يَخْضع الإيمان للعقل ، بل يُؤخَذ طواعية وتسليما وإن رفَضَه العقل .

أمـا الطبيب « ريـو » فهـو يخالف الأب « بانلـو » فى الرأى والنظرة إلى الإنسان ومحيطه ، لاختلاف الوظيفتين ومسعى الرجُلين : إنه يعالج الجسم لا الروح ، ومن واجبه تخفيف آلام البـدن ، وجَلْب الشفاء إن استطاع ، حتى ولو كان الشفـاء يطيل معاناة المرء فى حياة تتسـم بالشقاء والوباء والعبث . إنه حب متـواضع للإنسان والإشفـاق عليه ، فى نطاق العمل المكلَّف بأدائـه ، والمهمة التى اؤتُمن عليها .

فى الرواية شخصية « تارو » ذلك الشـاب ـ ابن وكيل النيابة ـ الذى يريد مُخْلصـا وبحماس شـديد أن يَلْغى عقـوبة الإعـدام وقطْع الرءوس ، تلك العقـوبة التى كثيرا مـا يطالب أبوه بتطبيقهـا على متَّهمين . فيتفـرغ الشـاب النشيط لتلك المهمـة ، لكنه يخطئ الأسلوب والطريق ، فيبيح القتْل لكى يَمْنع



هُنا : أقام فى الجزائر كتّاب وروائيون فرنسيون كبار ، من أمثال : كامو ، جى دو موباسان ، تيوفيل جوتييه ، ألكسندر دوما (دوماس) .



– فى زعمه – القتْل ، فيـزيد عدد الضحـايا ، ثم يهَجْر العمل السيـاسى تاركا للآخرين صُنع التاريخ ، وينضم عامـلا بفرق الإنقاذ من الطاعون ، ممرضا ومساعدا لطبيب.

إن الطاعون الذى يدمر الأجسـاد يقابله ـ عند كامو ـ طاعـون آخر يفسد الروح ؛ من مظاهره : الكذب ، والرياء ، والنفاق ، والحقد ، والغرور . . يحمله كل إنسـان فى داخله ، ولا يكـاد يَسْلم منه أحـد .

ومن خلال « تارو » يتكلم كامو فيقول :

« أشعـر بالخجل منذ وقت طويـل ، لدرجـة الموت ، لأننى كنت أنا أيضـا قـاتلا ، ولو من بعيـد ، وبحُسن نِيـة . . . نعم ، ظَللتُ خجِـلا ، وأدركتُ أننا جميعا مصابون بالطاعون . ففقـدْتُ راحة البال ، وحتى اليوم لا أزال أبحث عنها ، محاولا أن أفْهم الجميع ، ولا أعادى أحدا من الناس . كل ما أعْرفه ، هو أن أعمل ما يجب علىَّ أن أعمله للتخلص من الطاعون . وهذا هو سبيل تحقيق الأمل فى السـلام ، وإلى تخفيف آلام الإنسـان وإنقـاذه ، أو الموت فى هدوء وكـرامة . . . أَعْلم يقينا أن كـلا منا يحمل الطاعـون فى نفسـه ، وما من أحـد يَسْلم منه . فعلى المرء أن يراقب دائما نفسه ، ولا ينْقل إلى الآخرين ـ ساهيا فى لحظة ـ ميكروب العـدوىَ إليهم ، وهذا أمر طبيعى . أمـا ما تبقّى ، كـالصحة والنزاهة والنقـاء والشرف . . . فهـو يَنْتج عن الإرادة . ينبغى ألاَّ تتـوقف الإرادة أبدا . . . وإنى على يقين من أنه لا قيمـة لى فى هذا العـالم بذاته ، وأننى حكَمْتُ على نفسى بالنفْـى تمامـا منذ اللحظة التى امتنعْتُ فيهـا عن القتل . سيصنع الآخـرون التـاريخ . لاشأن لى بهم . وأعْلَـم كـذلك أننى لا أستطيع الحُكم على الآخرين . . . الآن ، يُرْضينى أن أكـون أنا ، فقد تعلمتُ التواضـع . أقول فقط : إن على الأرض ضحـايا وكوارث ، وعلى المرء أن يرفض مـواكبة الكارثة كلما أمكنه ذلك . ربما بدا الأمر بسيـطا ، ولست أدرى إن كـان حقا كذلك . . . لطالما سمعـتُ أفكـارا كـادت تصيبنـى بالـدوار وأدارت رؤوسـا أخـرى ودفـعتْها إلى الموافقة عـلى القتْل . . . ثم أدركتُ أن شقاء البشر مَبْعثه عـدم استخدام لغـة واضحـة ، فلجـأتُ إلى وضوح الكلام ، والأفعـال ، لكى أسلك الطريق القويم . . . » .

اتجه المجددون المتمردون على الأنماط التقليدية الروائية ، نحو محاولات تجريبيـة لتغيير الشكل والمضمون فى الروايـة . وجاء بعض تلك المحـاولات فَجّـا أو مبهما أو معقَّـدا غير جـذاب . لكن كـاتبـا روائيـا مثل « **فـرانسـوا موريـاك**» . (١٨٨٥ ـ ١٩٧٠) نجح فى تقديم قصص وروايات نالت إعجابا



«فرانسـوا مورياك » فى استرخاء ومطالعة .





« أشعر بالخجل منذ وقت طويل .. لأنني كنت أيضا قاتلا ، ولو من بعيد .. وأدركت أننا جميعا مصابون بالطاعون ، ففقدتُ راحة البال.. » من رواية «الطاعون».

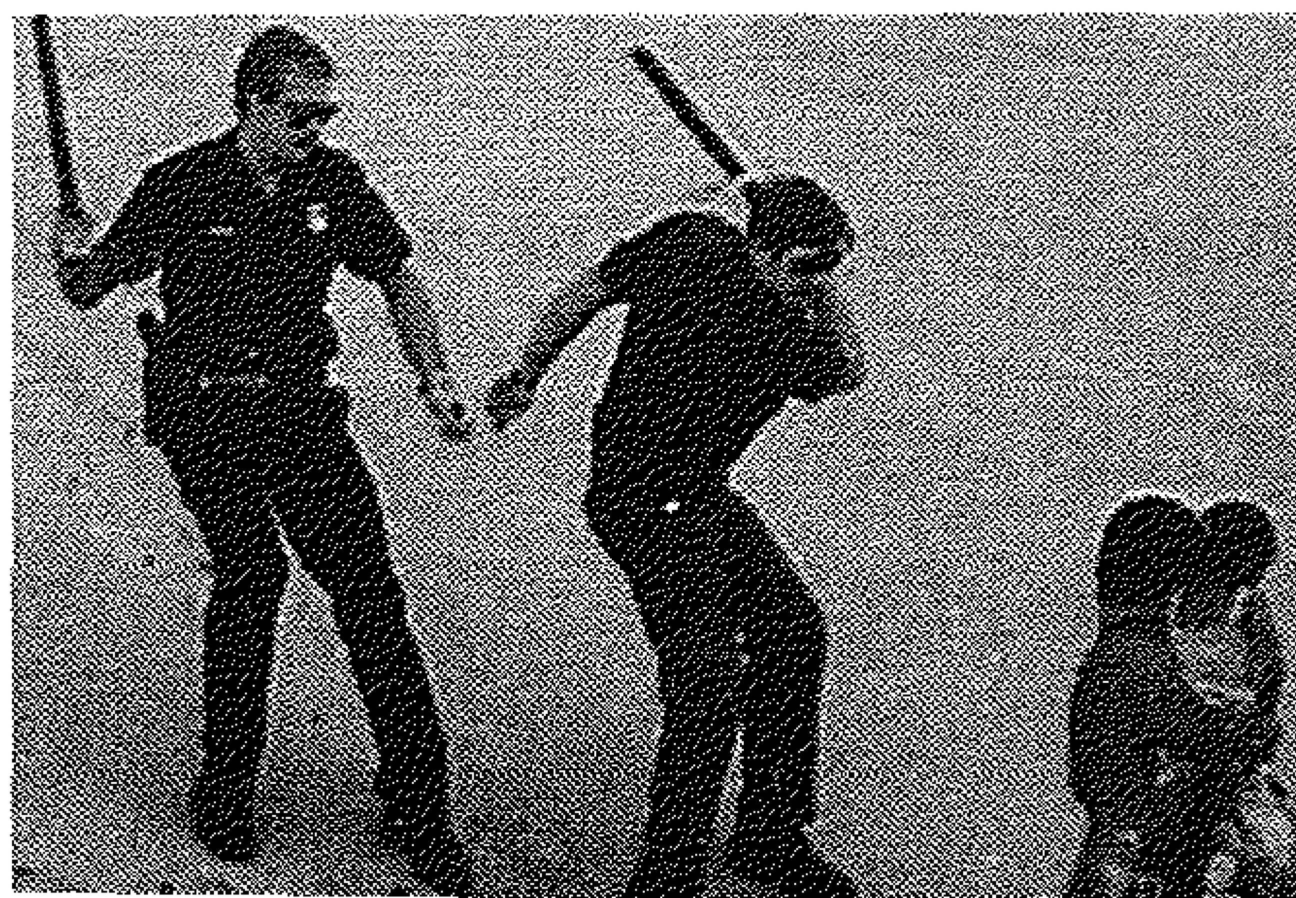
وشهرة، تتسم بالتماسك البنائى وتُعتبر بحق ، شكلا وموضوعا ، أنماطا جديدة . ولقد كان « مورياك » يدين بالكاثوليكية الرومانية ، لكن التساؤلات التى طرحتْها رواياته تبدو « وجودية » بالمعنى السارْترى ، إذ إنها تهاجم الحلول التقليدية الدينية لمشكلة الشيطان والشر . وفى صميم كل رواية من رواياته ، أو عمل من أعماله ، يضع مورياك مرتكزا روحيا تصطدم به قضايا ومشكلات تتعلق بالرذيلة ، والصفْح ، والنجاة .

من أعظم وأشهر رواياته : « قُبلة للأبرص (أو المجذوم) » ـ ١٩٢٢ ، «صحراء الحب » ـ ١٩٤٩ ، « شِراك الأفعى » ـ ١٩٣٢ ، « طريق البحر » ـ

« الطاعــــون » الإسرائيلى الإرهــابــى الـــوحشـــى فى فلسطين ..



.. والجنود الأمريكيون ينتشرون لإخضاع العالم ..



.. وطاعـون العنف داخـل أمـريكا ذاتها !

١٩٣٩ ، « الفقير إلى الحب » ـ ١٩٤٥ . وقد مُنح موريك جائزة نوبل سنة ١٩٥٢ .



Mars 51
André Gide.
أندريه جيد

ومعاصره « **أندريه جيد** » ـ (١٨٦٩ ـ ١٩٥١) حصل أيضا على جائزة نوبل فى الأدب سنة ١٩٤٧ . وهو من الأدباء الأعلام فى المذهب الرمزى . ولقد سافر لزيارة شمال أفريقيا ، وأثمرت اتصالاته عن قرب بالثقافة العربية فى مناطق المغرب العربى ، أثمرت تحرره من قيود وأعراف العصر الفيكتورى . ولم يجد حرجا فى الإعلان عن شذوذه وانحرافاته الجنسية .

● فى ألمانيا

استهل القرن العشرون فى ألمانيا برواية ذات شأن لأديب ذى شأن ؛ هى «أُسرة بودنْروك » ، وهو : « **توماس مانْ** »(٦) . وقد تسارع انتشار تلك الرواية بالملايين فى طبعات متلاحقة على نحو غير مألوف . وفيها تلخيص لأفكاره وتأملاته عن الفن فى عصره ، والثقافة ، والحياة فى مُجملها ، والخوف المتشائم من انحدار مستوى الثقافة من جديد فى بلده ، مثلما حدث فى أواخر القرن السابق ، وفى بلاد كثيرة . ويَخْلص « توماس مان » من تأملاته إلى اتساع الفجوة المتزايد بين الفن والحياة المعاصرة ؛ بين نظرة الفنان القلقة المرتابة ـ العدائية أحيانا ـ التى لا تكُف أبدا عن التجميل والتصحيح والتطوير ، وبين قيم المجتمع ومعاييره ، التى وضعتْها وفرضتْها ورسَّختْها على هواها الطبقة « العليا » ذات الثراء والقوة والنفوذ ، لتوفر لها الأمن والراحة والاستمتاع بالترف الذى يناسبها ويُرضيها وإن غَلَب عليه وعليها الانحراف والشذوذ والتناقض . ومن هنا تنشأ حيرة الفنان وضَعفه أحيانا ـ أو عَجْزه ـ عن تهدئة أو مقاومة هذا التيار الجارف ،

---

(٦) Thomas Mann : (١٨٧٥ ـ ١٩٥٤) وُلد فى « لوبيك » لعائلة ثرية عريقة ، عاش فترة فى ميونخ ، ثم ترك ألمانيا فى فترة الحكم النازى متنقلا بين سويسرا وأمريكا ثم عاد إلى سويسرا ومات بها . مُنح جائزة نوبل فى الأدب سنة ١٩٢٩ . يتميز أسلوبه بالطرافة ، والنقد الساخر ، والفكاهة الأدبية الراقية، وتعبيرات رقيقة ذكية .

لكنه لايفقد الأمل فى أجيال قادمة تكون أقْدر على النجاح والإصلاح ، فترتقى الثقافة وتصح ، وتضيق الفجوة المباعدة بين الفن والحياة ، وربما تتلاشى وتنمحى . هذا هو الأساس الفكرى الذى بنى عليه « توماس مان » معظم أعماله الأدبية الروائية مثل : « موت فى مدينة البندقية » ، و« الجبل السحرى»، و « حكايات (النبى) يعقوب »[٧] ، و « دكتور فاوستوس » وهى رواية سياسية خالصة ، و « المختار » ، و « اعترافات المحتال فيلكس كرُول»، و «يوسف الصغير » ، و «يوسف فى مصر » ، و « البجعة السوداء » . . . وقد فاز بجائزة نوبل فى الأدب سنة ١٩٢٩ .

ويضيف « **هينريش مان** » [٨] – الشقيق الأكبر لتوماس – مجموعة قيمة من الروايات : « التابع » ، و « الفقير » ، و « الملاك الأزرق » ، و« هنرى الرابع ملك فرنسا » . . . وهو يميل إلى الواقعية المصطبغة بالرومانسية ، فى أسلوب طريف لا يخلو من نقد لاذع لعيوب المجتمع ، مبتعدا عن التأملات الفلسفية والتعقيدات الرمزية ، مُتخذا من الفن الروائى مجالا للدعوة إلى حرية الفرد والمجتمع ، وإلى العدالة الاجتماعية ، وترسيخ القيم الأخلاقية والفضائل الإنسانية .

وهو كاتب اجتماعى مُجيد رشيد . فبالإضافة إلى رواياته الهادفة ، كتب رسائل ومقالات نالت شهرة واستحسانا من الجماهير ، انتقد فيها بشدة النظام الاجتماعى الضاغط المسيطر تحت حكم الإمبراطور ويلهلم الثانى .

واشترك « **ألفـرِدْ دُوبلين** (أو : دُويْبْلين) »[٩] فى النهوض بالرواية الألمانيةوتطويرها . وترتكز أعماله على دعامتين قويَّتَيْن ثابتتين ، ومنها

---

(٧) نشرت فى الولايات المتحدة بعنوان « يوسف وإخوته » .

(٨) Heinrich Mann : (١٨٧١ ـ ١٩٥٠) .

(٩) Alfred Döblin : (١٨٧٨ ـ ١٩٥٧) ، وُلد فى ألمانيا ، وتألق كاتبا وروائيا ، وهو أكبر روائى ألمانى موهبة وشهرة من بين المناصرين للحركة « التعبيرية » . درس الطب فى جامعة برلين وفريبورج ، وتخصص فى الطب النفسى . بسبب يهوديته ونزعته الاشتراكية المتطرفة ، ترك ألمانيا فى سنة ١٩٣٣ مع امتلاك النازيين للسلطة ، وأقام فى الولايات المتحدة حيث اعتنق الديانة الكاثوليكية الرومانية (١٩٤١)، ثم انتقل إلى باريس للإقامة بها فى أوائل الخمسينيات ، ومات فى ألمانيا الغربية .



« اعترافات المحتال فيلكس كـــرول » للروائـى الألمانى : « تومـاس مان » .

تنطلق آراؤه وأفكاره : باعـث قـوى يحضُّــه على الكشف عن دهاء ونفــاق حضــارة زائفة سائدة تندفع نحو تدمير نفسها بنفسها ؛ وباعث أشد وأقوى – فى مرتبـة العقيـدة الدينيـة المتوهجـة – يحفزه إلى إمداد المجتمع بوسائل للخلاص والنجـاة ، وإنقاذ الإنســانية المعـذَّبة . فكانت رواياته الكبرى تدور حـول هذيـن المحـورين ، مثل : « قفـزات وانْـج– لُونْ الثـلاث »– ١٩١٥ ، وتجرى أحـداثهـا فى الصـين ، حيث تصف انتفـاضة تفجَّـرت ضـد السلطة التعسفيــة للدولة وإرهابها القــاهر . وفى سنة ١٩٢٠ ، صـــدرت له رواية تاريخية بعنـوان : « والنشتَين » ، وبعد أربع سنوات قـدَّم رواية : « جبال ، بحار ، وعمالقـة » وفيها هجاء قـاسٍ وسخرية لاذعـة من المدينة الفاضلة أو المثالية الاجتماعية المزعومة المتوهَّمة ؛ ومن القوة التكنولوجية المتعاظمة التى تهدد البشرية بكارثة محقَّقة ، وهى قوة غليظة القلب لاترقُّ ولا ترحم .

ربما كانت أفضل أعماله الروائية « التعبيرية » هي قصة : « ميدان الكسندر ببرلين » ـ ١٩٢٩ . وفيها تصوير قوى مدهش لمأساة الحالة الإنسانية عندما يتفكك النظام الاجتماعى أو يهترئ . وتوصف روايته : «المتاهة البابلونية » ـ ١٩٣٤ ، بأنها التحفة الأدبية التى بلغت بها السوريالية الألمانية ذِرْوتها . ورواية تاريخية أخرى أقل قيمة بعنوان : «رجال بلا رحمة » ـ ١٩٣٥ . ولا شك فى أن دراسة « دوبلين » للطب النفسى وممارسته العملية للتعامل مع هذا النوع من المرض والعلاج ، كان له تأثير كبير مباشر على إبداعاته الفنية الروائية وكتاباته ، تماما مثل آرائه وأفكاره وممارساته السياسية ، وأيضا الإيمانية التى أوشكت مع مرور الزمن أن تقترب من نزعة صوفية .





وفى روايات « دوبلين » دعوة إلى إنقاذ البشرية المعذَّبة من السلطة التعسفية وإرهابها القاهر .



FRANZ KAFKA

كافكا (١٨٨٣ - ١٩٢٤)

وقبل أن نترك هؤلاء الثلاثة الكبار ، رواد التجديد القصصى والروائى الألمانى فى القرن العشرين : توماس وهينريش مان ، وألفرِدْ دوبْلين ، (وهناك آخرون غيرهم) ، نشير إلى إسهام كل منهم ، بأسلوبه المبتَكَر وموهبته الفذة ومقدرته الإبداعية ، فى كشف محنة العصر الذى عاشوا فيه ، فى الثقافة والسياسة والأخلاق والاجتماع ، وقد حاول كل منهم أن « يعالج » الأمور السائدة والأمراض المتفشية بقدر ما يستطيع ، وهذا أحد أدوار الفن الأدبى والروائى الجاد الرصين من رسالته ، ويكفى فى أقل القليل أنه يكشف وينبِّه ، ويبشِّر ، ويبتعث الأمل .

يُضاف إلى رصيد الأدب الروائى الألمانى فى القرن العشرين إنتاج كاتب مشهور ، على الرغم من أنه وُلد فى براج (تشيكو سلوفاكيا سابقا) سنة ١٨٨٣ ، ومات بالقرب من فيينا (النمسا) سنة ١٩٢٤ ، لكنه كان فى المنشأ من مقاطعة بوهيميا ويكتب بالألمانية . إنه : « **فرانز** (أو : فرانتس) **كافْكا**»[١٠].

لم يكن كافكا متحمسا لنشر قصصه القصيرة ورواياته الطويلة فى أثناء حياته . وأفضل أعماله (الروايات الكبرى الأربع) كاد يدمَّر تدميرا كاملا فلا يَظْهر للوجود بناء على وصيته . وهى : « المحاكمة » ، « القلعة » ، « أمريكا » ، ومجموعة قصص « سور الصين العظيم » . فقد تركها مخطوطات غير مرتبة الصفحات ولا الفصول ، وغير كاملة . فلما اشتد عليه المرض أوصى صديقه الحميم منذ الشباب « ماكس برود » أن يحرقها . لكن « ماكس » لم ينفذ هذه الوصية ، ونشر تلك الأعمال بعد موت كافكا بين سنوات ١٩٢٥ و١٩٣١ ، فكانت ثروة أدبية وذات نفع كبير للأدباء والقراء . وله عدد آخر من القصص والموضوعات النثرية والرسائل نُشرت بين سنة ١٩٠٩

(١٠) من عائلة يهودية ، عاش طفولته تعيسا لقسوة والده واستبداده بالأسرة ، فكان فرانز يميل إلى العزلة والتأمل ، درس الحقوق ، واشتغل بالتأمين ، وكانت علاقاته الاجتماعية محدودة ، واستمر لسنوات طويلة يعانى من مرض السل الذى عجَّل بوفاته . كان متمردا على السلطة ومؤسساتها ، وأعلن أنه اشتراكى لادينى . وبسبب يهوديته كان المجتمع الألمانى يقْصيه عنه .

و ١٩٢٤ ، أو بعد رحيلـه عن الدنيا ، منهـا : « القضية » ، « أمام القـانون » ، «التحوُّل » ، « فى المستعمـرة العقابية » ، « طبيـب أرياف » ، و « فنان جائع » وهى مجمـوعة مـن أربع قصص صَدرت سنة ١٩٢٤ قبيـل وفاته ، وفيهـا يتضح أسلوب كـافكا فى مرحلتـه الأخيرة المتميـزة بالاقتضاب ـ إلى درجـة الغموض الشـديد أحيانا والإلغاز ـ والتألـق معا . وكانت هذه طبيعـة كافكا وقـدرته المبهـرة على الجمع بين النقيضين بمهـارة وسـلاسـة : الكوميـديا بالتراجيـديا (الملهاة بالمأسـاة) ، الحصـافة بالسـذاجة ، الأفكار الفلسفيـة بالآراء البسيطة السطحيـة ، الواقع بالخيال وبما فـوق الواقع . وهو بدوره يتناول قضايا ومشكلات الإنسـان المعاصر ، وما يحيط به ويُكَبِّله ويمـزقه : كـالخوف ، والإحباط ، والجُبن ، واليأس . ويتصـدى فى مـوضوعـاته لآثار وأخطار القوة ، والسلطة ، والنفوذ ، وقصور المعرفة ، وحيوية الضمير .

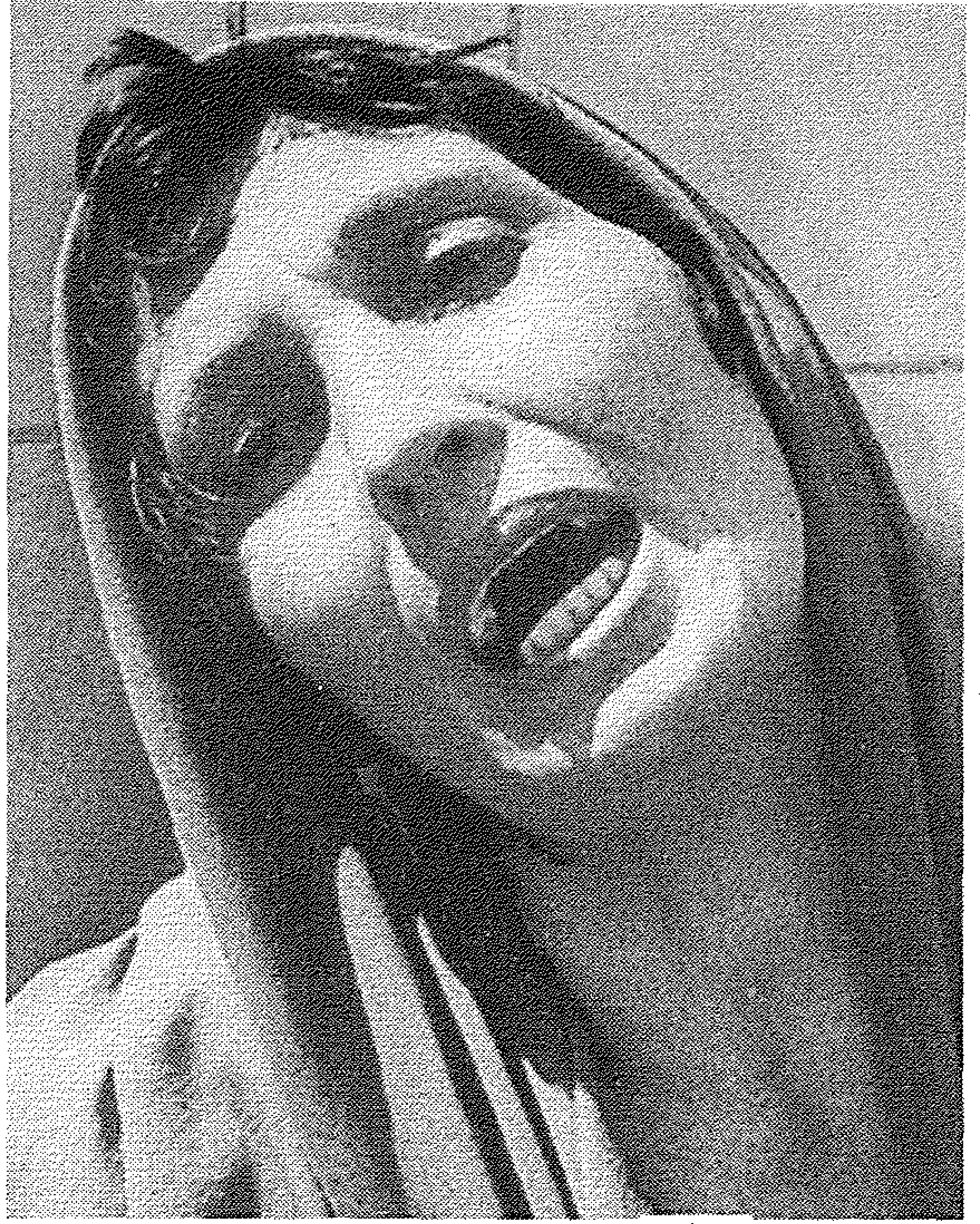
وقبل مغـادرة ألمانيا وأدبائهـا الروائيين الرواد ـ وهم كثيرون ـ لاينبغى إغفال اسم : « **هِرْمان هِسْ** » (أو : هِسَّهْ) [١١] الحائز على جـائزة نوبل فى الأدب سنة ١٩٤٦ . أراد له أبوه أن يـدرس اللاهوت ثم ينصرف إلى التبشير . لكن الفتى أعـرض عن ذلك ، وترك الدراسـة المدرسيـة نفـورا من قيـودها وصرامتها ، وآثَر أن يعلم نفسه بنفسه . فقـرأ كثيرا فاغتبط ، وجَرَّب الكتابة فـاحْترف . شجعـه على ذلك إقـدامه على التكسـب من عمل يده أولا ، ثم من إعمال فكره وقلمه بعـد ذلك . وعلى غرار الرواد الآخرين ، كـان « الإنسان » محور تفكيره ومجال تأليفـة وكتـاباته . لكنه هنا : الإنسـان السـوىُّ الذكىُّ الموهوب ، الذى يتصادم ـ مضطرا ـ مع ظروف الحياة المعاصرة ، فى قسوتها

---

(١١) Hermann Hesse : (١٨٧٧ ـ ١٩٦٢) ، روائى ألمانى وشـاعـر ، كـان ضجرا منذ الصغـر بالتعليم التقليـدى ، وعبَّر عن ذلك فى إحدى رواياته : « تحت العَجَلة » . تدرب صبيـا فى مصنع ثم فى مكتبـة لبيع المطبـوعـات ، ثم تفـرغ للكتابة مـن سنة ١٩٠٤ . زار الهند التى تركت تأثيرا كبيرا على فكره ووجدانه وتأملاته الروحية . عاش فى سنوات الحرب العالمية الأولى فى سويسرا المحـايدة ، وفيها كتب مُنَددا بالعسكريـة والقوميـة ، وأصدر جـريدة عن أسرى الحرب الألمان والمعتقلين ، وصـار مـواطنا سـويسريا فى سنـة ١٩٢٣ . وقـادته الظروف إلى دراسـة التحليل النفسى ، وظهـر ذلك فى رواياته . وكان يشغله على الـدوام موضـوع الازدواجية المتناقضـة فى الطبيعة البشرية .



ارتكزت آراء وأفكار الروائى الألمانى « ألفرد دوبلين » على الكشف عن دهاء ونفاق حضارة الغرب السائدة الزائفة ، المندفعة نحو تدمير نفسها بنفسها . كما سخر من القوة التكنولوجية المتعاظمة التى تهدد البشرية بكارثة محققة .



ورعونتهـــا وانحـــدارها نحـو كوارث مهلكة . ويقول صراحـــة : « إننى مؤمن بالإنسانية ، ولاشـىء غير الإنسانية » . وتُعتبر روايتـــه : « لعبـــة الكُريات الزجاجيـة » من أعظم ما كُتب فى تاريخ الرواية الإنسانيـة . وفيهـا معالجـة صافية لمفاهيم الثقافة ، والعلم ، والفن ، والصناعـة ، وتطلعـات البَشَر إلى حياة هادئة هانئة سعيـدة . وفى روايته أيضا دعـوة إلى الجمـع بين فـروع الثقافة المختلفة .

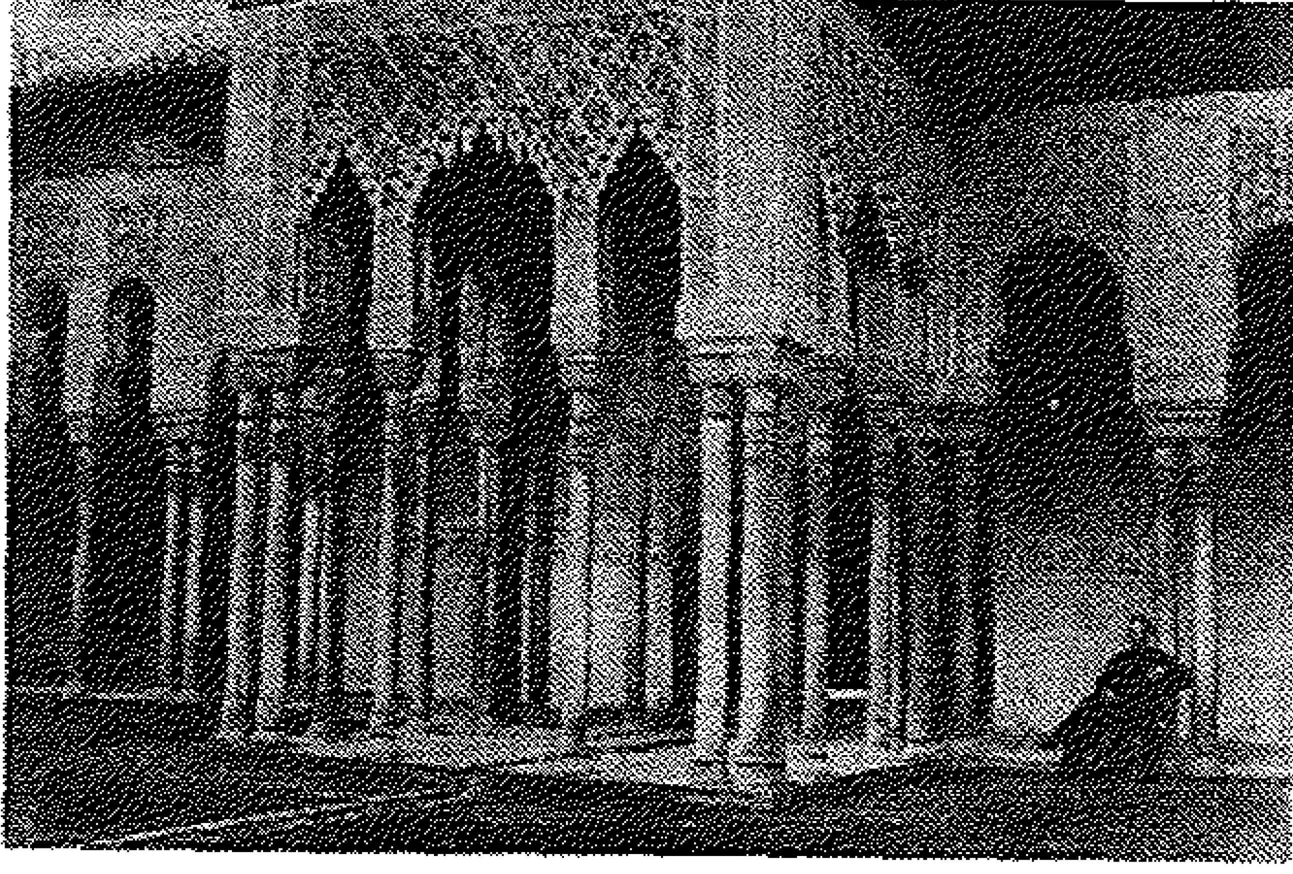
« مأسـاة الإنسان المعاصر » فى معظم قصص وروايـات الأدبـاء الألمـان ، والأسـبان ، وغــيرهم، ومظاهــرها أو نتائجها :

● طُغيـان الأنانية والبَغْى ..

● فى أسبانيا

بدأ القرن العشرون فى أسبانيا والكتـاب والروائيون من أصحاب الاتجاه أو المذهب الواقعى والرومـانسى يحتلـون مكانا فى فنون الأدب ، ومكانة بين الناس . ومن الطبيعى ألاَّ تنفصل أسبـانيا عن بقيـة دول القارة الأوروبيـة ، التى كـانت لاتـزال تعيش فى ظلال هـذين المذهبين مع طلائـع الاتجاهات والمحاولات التجـديدية الوليدة . لكـن مشكلة أسبانيا – مـن حيث الانتشار والعالمية ـ أنها على مايبدو تُؤْثر العزلة ؛ أو ربما لاتُحْسن الحديث عن نفسها (بالدعـاية الخارجيـة) ؛ أو لعله تقصير أو قصر نظر المعنيين والمهتمين بالثقافـة – والآداب خاصـة – خارج أسبـانيا ، فـلا يتابعـون كما ينبغى ما يجرى ويجـدُّ داخلها ؛ وليس مستَبْعَدا أن يكـون السبب كامنا فى « تحاسد » الثقافـات ، وتنافر الأعـراق ، ورواسب صراعات دمـوية سياسيـة ودينية سابقة . وفى أسبانيا – كما سيأتى – لا مَناص من الإشارة عند الضرورة إلى آثار الثقـافة العربيـة الإسلاميـة التى هى جزء أصيل ثرى وضَّـاء فى تاريخ

أسبانيا ، ولا تزال بعض سماتها ومعالمهـا باقية ناضجة نابضة ـ على الرغم من محاولات الإنكـار والإيهام والطمس ـ خـــاصـــــة فى الفنون والآداب والتعبيرات والكلمات .



Grenade. L'Alhambra, 1870 ■

غرناطـــة – قصـــر الحمراء

يأتـى « أونـــا مُونـــو »[١٢] فى مقدمـــــة الأعــلام البـارزيـن البـارعين المؤثِّرين فى فنـون الأدب والشعـر والروايـة والقصـة المسرحيـة والمقـالة والنقد . وتَظهر فلسفتـه المكتملة الناضجـة فى أحـــد أعماله البـاكـــرة : «المعنى المأســـــاوى للحيــاة فى الرجـــال والجماهير » ـ ١٩١٣ ، وفيـه تركيـز على التأثير النفسى لـلاستثـارة ، والجَزَع الذى يدفع الإنسان إلى الاستغراق الكامل فى الحياة والتشَبُّث بها .

وإنتاج « أونامونو » غزير مستنير . والجانب القصصى الروائى منه فيه شرح نفسىٌّ ضافٍ وتوصيف بلاغىّ وافٍ لمعاناة الشخصيـات التى يبتدعها ومتاعبهـا المروِّعة إلى درجـة الاحتضار ؛ وعلى ألسنتهـا أطلق أفكاره وآراءه الشخصية والفلسفية . وأشهـر رواياته : « آبل سانْتِشث » – ١٩١٢ . وفيها معالجة نفسية أدبية رائعة لموضـوع قديم يتجدد : الحسد بين الإخوة ، الذى يُثْمر الأنانية والإجحاف والطغيـان والبغْى والعنف . وهو موضوع إنسـانى اجتماعى معـروف مألوف فى أسبـانيـا على مر العصـور ، ويرتبط مبـاشرة بالفكر الإسلامى ، إذ أشار القـرآن الكريم إلى واقعة الخلاف الحاد بين ولَدَىْ آدم بسبب الحسـد الأسـود ومـا ترتب عليـه من آثار لاتنمحى من الأرض . ولئن كان المفسرون ذكروا أن اسم أحـد هذين الأخَوَيْن هو « هابيل » الطيب الذى احتمل من أخيــه العـذاب والآلام حتى انتهى الأمـــر بقتْله ، فإن بطل الرواية واسمــه « آبل » هو المرادف فى الأسبانيـة لاسم « هابيل » . وتضيف

(١٢) Miguel Unamuno : (١٨٦٤ ـ ١٩٣٦) : وُلد فى مـدينة « بِلْبـاو » بإقليم البـاسك القشتـالى . وهو أستاذ، فيلسـوف ، معلِّم ، وباحث ، أديب ، روائى ، شاعـر ، كان ذا تأثير بالغ على الثقـافة الأسبانية الحديثة ، فهو شيخ روادها . عمل أستاذا بجامعة سَلَمنْكة، أعلن معارضته لسياسة الديكتـاتورية والسطحية الثقـافية والعلميـة والاجتماعية حتى وفـاته بعد العـام الأول من اندلاع الحرب الأهلية الأسبانية ، وكـانت وفاته فى السنة نفسها التى ودَّعت الروائى المسرحى الإيطالى الشهير بيرانديللو .



● العُنـف والخوف ..

قصة « يوسف » عليه السلام فى القرآن أبعادًا كثيرة لهذا الموضوع .(١٣)

من أعماله الروائية أيضا : « ضباب » ـ ١٩١٤ ، « حب وتربية » ـ ١٩٢٠، « القديس مانُويل : الطيب ، الشهيد » ـ ١٩٣٣ ؛ ورواية : « العمة تولا » التى تتناول موضوع الأمومة عند المرأة .

فى روايته « ضباب » ، يَعْرِض أونامونو ، بطرافة ذكية ومقدرة أدبية فنية ممتازة ، الآثار السيئة المدمِّرة المترتبة على فقْد الإرادة ، والسلبية المؤدية إلى الفشل ، فتبدو الحياة اليومية حينئذٍ رتيبة كئيبة تافهة مُقَزِّزة . وقُرب نهاية الرواية ، يلتقى بطلها « أُوجستو بيريث » بالمؤلف أو نامونو نفسه فى مواجهة متحدية ، وحوار فكرى فلسفى عجيب . فأونا مونو هو الذى ابتدع شخصية أو جستو واستَنْطَقها فى الرواية ، لكنه هنا يستشير المؤلف فى عزْمه على الانتحار للتخلص من الحياة . فيصدُّه ويمنعه من ارتكاب هذه الحماقة السلبية التى تدل على الفشل ، لكنه يحكم عليه بالموت لامحالة . عندئذٍ يُسْتَثار البطل ، ويتمسك بالحياة ، ويعلن تمرده على مَن اصطنعه للحياة ؛ فهو يرفض الموت فى الوهْم كما ضاق ذَرْعا بالحياة فى الوهْم ؛ فأين الحقيقة إذَن ؟ . يقول « أُجستو بيريث » للمؤلف « ميجيل أونامونو » فى تحدٍّ صارخ يجلو الحقيقة (*) :

---


(١٣) من سورة المائدة فى القرآن الكريم :

﴿ واتْلُ عليهم نَبأ ابْنَىْ آدمَ بالحق إذ قَرَّبا قُرْبانا فتُقُبِّل من أحدهما ولم يُتَقَبَّلْ من الآخر قال لأقتلنَّك . . . . ثم إنَّ كثيرا منهم بعد ذلك فى الأرض لمسْرِفون (٣٢)﴾.

[من الآية ٢٧ ـ ٣٢ من سورة المائدة].

– أما قصة يوسف . . عليه السلام – فهى كاملة متكاملة فى سورة واحدة بالمصحف ، وجديرة بأن تُدَرَّس فى الكليات والمعاهد الفنية (التمثيلية والسينيمائية والمسرحية) وخاصة للمؤهَّلين بالعمل فى كتابة السيناريو والإخراج ، لأنها نموذج فريد وحيد فى الصياغة والعَرْض ، مع إبداعات الجوانب الفنية من بدايتها « الَر » (ثلاثة حروف كأنها ضربات المسرح التقليدية المنبِّهة) ، وهى بكل اليقين قصة حقيقية واقعية لاخيال أو إيهام فيها ؛ من «قَصَّ » بفتح القاف أى تَتَبع الأثر وتقصَّى .

* ترجمة النص للدكتور محمود على مكى أستاذ الأدب العربى الذى قال : « أثارت هذه الرواية ثائرة النقاد. إذ لم يستطيعوا أن يفهموا ما يرمى إليه أونامونو من إشارة إلى أن هذه الحياة ضرب من اللغو والعبث والوهم، ويستحق المفكر الأسبانى الكبير أن يكون فى طليعة المبشرين بما أصبح يدعَى الآن « مسرح العبث » وما هو فى الحقيقة من العبث فى شىء ، بل هو الجد كله . واتهمه النقاد بأنه خرج على تقاليد الكتاب الروائية ، فسخر منهم » .



● الجوع
والإحباط
واليأس

الضباب. أنا أريد أن أعيش . . أعيش . . أعيش ! . . أن أَرى نفْسى ، وأن أَسمع نفْسى ، وأن أُحِس نفسى . . أن أَشعر بالألم وأن أحيا وجودى . ألا تريد لى ذلك ؟ أيكون علىّ أن أموت وهْما كما عشتُ وهْما ؟ إذن . . فاسمع ياصانعى (فى النص : يا خالقى) ياسيد ميجيل : أنت كذلك ستموت مثلى ، ستعود أنت أيضا إلى الوهم الذى منه أتيت . ستموت أنت ، ستموت على الرغم منك . وسيموت كل من يقرأون قصتى . . الجميع . . الجميع . . الجميع ! . . لن يبقَى منهم أحد ! أنا أقول لك ذلك. . أنا أوجستو بيريث ، ذلك الكائن الوهمى الذى أوجده خيالك . غير أنى لا أزيد فى وهْميتى على أحد منكم ، فأنا مثلكم تماما ، وأنت لا تختلف عنى فى شىء ! . . أنت ـ ياصانعى ـ لاتزيد عن كونك مخلوقا وهميا آخر،وقُراؤك أيضا مخلوقات وهمية لاتزيد فى شىء علّى أنا... على أوجستو بيريث ، ضحيتك التى حكمْتَ عليها بالموت ! . . » .

روائى باسكىٌّ آخر ، هو : « **بيو باروخا نيسى** » [١٤] الذى يُعَدُّ الروائى الأعظم بلا منازع ، وواحد من أبرز كتاب القصة فى الأدب الأسبانى كله . كان ثائرا على مظاهر الحماقة والسفاهة فى الحياة الأسبانية ، فعبَّر عن ذلك بمهارة فنية فذَّة فى رواياته وأقاصيصه التى تفرغ لتأليفها بعد أن ترك كل أعماله ونشاطاته السابقة . صدر له أول كتابين سنة ١٩٠٠ ، وهما مجموعتان من القصص القصيرة الأولى بعنوان : « بيت الأثجورى » ، والثانية بعنوان : « حياة قاتمة » . وكتب إحدى عشرة ثلاثية تتناول المشكلات الاجتماعية المعاصرة ، أحسنها : « الصراع للحياة » ـ ١٩٠٤ ، وفيها تصوير يهز المشاعر ويثير الاشمئزاز والسخط للبؤس والفساد

---

(١٤) Pio Baroja Nessi : (١٨٧٢ ـ ١٩٥٦) ، لم تكن ثقافته واسعة غزيرة شاملة مثل أونامونو ، لكنه كان روائيا خالصا . درس الطب وزاول مهنته فترة قصيرة ، وأدار مخبزا كانت تملكه عمته . ثم انصرف إلى الكتابة فى الصحف ، ومن ثَمَّ اتجه نهائيا إلى التأليف الروائى . كان كثير الإعجاب بكتّاب القصة الروس من أمثال : دستُويفسكى وتورجينيف ، ومن الإنجليز : ديكنز وإدجار آلان بو ، وقرأ للفلاسفة الألمان من أمثال :شوبنهاور ، ونيتْشه . كان متقلب المزاج مع حدة رومانسية أنانية متحدية ، فلم يكن غريبا أن يهاجم فساد وخشونة ورعونة الطبقة الثرية البورجوازية وكان هو منها .

السياسى والقذارة فى مدريد بين قطاعــات الفقراء والبؤساء . ومن بين المائة قصة ورواية التى كتبها ، كان مشروعه الطموح « ذكريات رجل فعَّال » ـ بين ١٩١٣ و ١٩٢٨ ، ويتكون من أربع عشرة رواية ، وثمانية أجزاء من قصص قصيرة ، والبطل الرئيسـى فيهــا شخصيــة تــاريخيــة من أبطال حــرب الاستقلال ضد غزوات نابوليون بونابرت فى أوائل القرن التاسع عشر .

ولئن كان « باروخــا » ـ من خلال رواياته وقصصه ـ قاسيــا فى خشونة أحيانا عند نقـد أوضـاع خاطئة فاسـدة ظالمة فى بلده ومجتمعه ، فليس معنى ذلك التجـريح والتشهير وكشف الفضــائح والسـوءات ، وإنما كـان هدفـه ومقصده ـ كغيره من الكتاب الكبـار والرواد المستنيرين الشجعان ـ التحذير والتنبيـه قبل وقــوع الكوارث واشتعـال الثــورات (وقـد وقعت بعـد ذلك واشتعلت !) . فهو يريد أن يهدم لكى يمهد مخلصــا للبناء . وكان بوسعه أن يعيش متْرَفا مـرفَّهالاهيا ساهيـا مثل أبناء طبقته الاجتماعية الثـرية العَلية ، لكنه أبصر فاستَحْسَر ، وأَسْفَر فاستَفْسر ، وعايش فارْتعش ، فأدرك أن له فى دنيا الناس رسالة ، وأنه ـ كطبيب أديب ـ مُلْزَم بتوصيف الدواء ، وقد عرف مَصْدر الداء ، وهو يرجو للتعساء والمعذَّبين واليائسين والمتشائمين والعَجَزة ، ومعهم الأبطال ذوو الشخصيــات القــويــة ، والعــزائم الأبيــة ، والقــدرات الفعالة الرضِيَّــة ، كان يرجو إيقاظ رغبة فى الإصـــلاح ، وتكريما للإنسـان . . كل إنسـان .

وقبل أن نودع « باروخــا » وأسبانيــا فى هذا العرض الموجـز والإشـارات المنبِّهة ، يستــوقفنا قليلا تميــزٌ تفرد به هذا الروائــى الكبير بين رواد القصة الأوائل فى بلد الجمال والـدلال والأنس والأندلس ؛ تميــزه بفهــم عميق لفن التصـــوير (الرســم) الكلاسيكى ، وارتبــاطه بالبيئـة الرائعـــة الحُسن ، وبالمشــاعر الدافئـة الدافقة بالحب ؛ تلك البيئة الخلاَّبــة التى أخرجت قـديما روائع الأشعار من أعــلام أسبان كبار مثل : **ابن خفاجة الأندلسى ، وابن غالب الرصافى ، وابن الزقاق .**

لاتزال ضواحٍ وقُرى في أسبانيا تعيش في ظلال قرون ماضية ، وبعضها يحمل طابع الريف الشرقي ، وانعكس ذلك على روايات الأدباء : « في نقد قاس خشن أحيانا بقصد التنبيه والتحذير » .

فى روايتــه :« طريق الكمال » ـ ١٩٠٢ ، اختــار « باروخــا » طُليطلة ـ عاصمــة قشتالة ـ مسرحا للأحـداث ، وفيها تتشابك وتتنافـر ألوان متعددة من مشـاعر الحب : الجسـدى ، والنفعى ، والروحى ، والصـوفى . وتتجلى فى الرواية أيضـا صـور نابضــة ، ومشـاهـد وألوان جميلة شتى ، من طبيعـة طليطلة وقُشتالة ، إضافة إلى لمحـات مبهرة من أعمال الفنان القشتالى العالمى الشـهير « **إلجريكو** [١٥] » الذى تفـاخر به أسبـانيـا . وتُفصح الرواية فى هذا الجانب عن معرفة « باروخا » بدقـائق أعمال إلجريكو وإبداعاته ومقاصده فى لوحــــاته . وتلك حَسَنة مــن حسنات الأديب أو الروائــى : أن يُضيف إلى مواهبه وقدراته ، معرفة جيدة صحيحة بفنون وأعمال فنانين عظام آخرين ، فيزداد خيـاله خصوبة ، وإبداعـه عذوبة ، ومكانه فى التـاريخ وبين الأجيال رفعة وديمومة .

● فى بريطانيا

يأتى « **جراهام جـرين** [١٦] » فى مقدمة الروائيين الكبـار فى مطلع القرن العشرين ببريطانيا وحتى خـواتيمه . ورواياته فى معظمها تعـالج الملابسات والالتبـاسـات الغـامضــة فى الحياة السيـاسيـة المعـاصرة والأخـلاقيـات الاجتماعية . وعلى الرغم من القتامة أو العبوس الغالب على كثير من رواياته ، إلا أنها أوسع الأعمال الأدبية البريطانية انتشارا ومطالعة فى القرن العشرين. وتَحْظى كتبه ـ وإلى اليوم ـ بشعبية كبيرة لجاذبيتها النـابعة من موهبة فذة فى التأليف القصصـى ، ومن مقدرة فريدة على اختيـار التفاصيل الموضوعية التى تُدِلُّ ولا تُمِل ، ومن مهارة فائقــة عند استخدام الحوار الطبيعى السلس السريع الإيقاع .

---

(١٥) EL_Greco: (١٥٤٠ ـ ١٦١٤) ، رسـام كبير أسبـانـى من أصل يونانى (وهـذا يتضح من اسمه: إلجريكو أى اليونانى) . قضى سنوات من عمره فى البندقية (فينيسيا) وإيطاليا ، فتأثر بأعمال كبار الفنانين بهما ، وتتميز أعماله باسلوبه الخاص فى الإضاءة ، وعدم التقيد بالتكوين الحقيقى أو الطبيعى، وباستطالة أجسـام الشخصيـات ، وبغمـوض صـوفى فى لوحـاته . وفن إلجريكو يسيطر على التصـــوير الأسبـــانى الكلاسيكى ، ويشترك معـــه فى ذلك الفنان الكبير فيلاسكيز ، والفنان العظيم جويا .

(١٦) Henry Graham Greene : (١٩٠٤ ـ ١٩٩١) ، كاتب روائى قصصى مسرحى صحافى وناقد سينمائى . وقد تحولت معظم أعماله إلى أفلام سينمائية ناجحة .



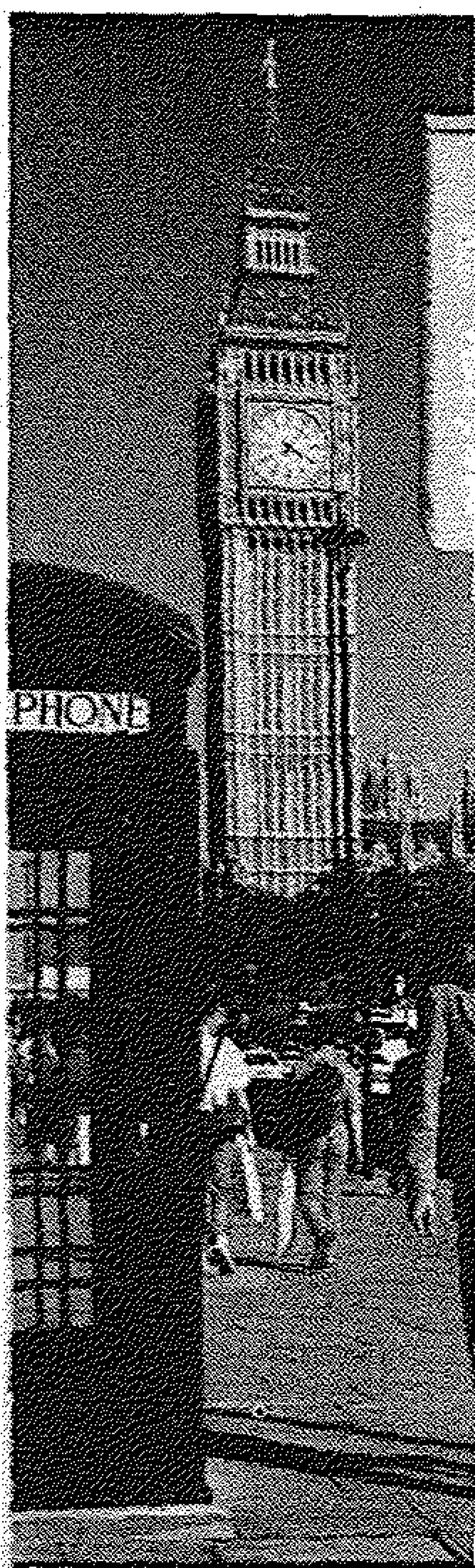
شاعر الأندلس الكبير « ابن خفاجة الأندلسى » (٤٥٠ - ٥٣٣هـ) قال يخاطب البَرْق فى قصيدة طويلة من أبياتها :

لَكَ اللهُ من بَرْقٍ تَراءَى فسَلَّمَا ... وصافحَ رَسْمًا بالعُذَيْب ومَعْلَما
إذا ما تجاذَبْنا الحديث على السُّرَى ... بكيتُ على حُكم الهَوَى ، وتَبَسما
.. فها أنا والظلْماءُ والعيسُ صُحبةٌ ... ترامَى بنا أيدى النوَى كُلَّ مُرْتَمَى
.. أراعِى نجومَ الليل حُبا لبدرِهِ ... ولستُ كما ظن الخلىُّ مُنَجِّما
.. وما راعنى إلا تَبَسُّمُ فتْيَةٍ ... نَكَرْتُ لها وَجْه الفتاةِ تَجَهُّما
فآهٍ طويلا ، ثم آهٍ لكَبْرَة ... بَكَيْتُ على عَهد الشباب بها دَمَا !

(توليدو) طُلَيْطلة – « باب الشمس »: المدخل القديم إلى المدينة ، وهو يحمل سمات العمارة الإسلامية المتناسقة الباقية البديعة .

بعـد أن فرغ من دراسته بأُكسفـورد ، تحول فى سنة ١٩٢٦ إلى المذهب الكاثوليكى الـرومـانى . وفى سنـة ١٩٢٩ صـدرت أول رواياتـه : « الرجُل الضِّمْنى » . لكن شهرته بدأت تتألق مع روايته الرابعـة : « قطار استانبول » - ١٩٣٢ ، التى تحولـت إلى فيلم سينيمائى عـالمى باسـم : « قطار الشرق السريع» فى سنة ١٩٣٤ ، وظهر فيـه عُمق النظرة ، وخصب الخيال ، وإحكام الحبْكة ، وبُعـد المغْـزَى . وهذا مـا تردد بدرجـات متفـاوتة فى جميع أعماله الروائيـة والقصصيـة . ثم صـدرت له عقب ذلك رواية : « بندقيـة للبيع» - ١٩٣٦ ، تحولت بـدورها إلى فيلم سنـة ١٩٤٢ . وفى سنة ١٩٣٩ ظهـرت روايتـه التاليـة : « المخبر السرِّى » فكانت فيلما سينيمائيـا سنة ١٩٤٥ . ثم رواية : « وزارة الرعب » - ١٩٤٣ ، ومنهـا كـان فيلم آخر سنة ١٩٤٥ . أمـا روايته الخامسـة : « الرجل الثالث » - ١٩٤٩ ، فقـد كتبها خـاصة للسينيما التى أنتجتها فى السنة نفسـها .

ويتفق النقـاد على أن أفضل رواياته : « صخـرة بريتـون » - ١٩٣٨ ، (صـارت فيلما سنة ١٩٤٨) ، « القُـوة والمجد » - ١٩٤٠ (أُنتجت فيلما سنة ١٩٦٢) ، « لُب المسألة » - ١٩٤٨ ، « نهاية القضية » - ١٩٥١ ، وكلها تحمل علامات مميزة دينيـة الطابع يعرض من خلالها شواغله وأفكاره عن الرذيلة والانهيـار الأخـلاقى . ثم أَتْبع ذلك بأربع روايات تدور أحـداث كل منهـا فى دولة من دول العـالم الثـالث وشعبهـا المناضل فى صحـوة الاستقـلال : «الأمـريكى الهادئ» - ١٩٥٥ ، عن حـرب فيتنام (فيلم فى سنة ١٩٥٧) ، «رَجُلنا فى هافـانا » - ١٩٥٨ عن كـوبا (وهـى فيلم فى ١٩٥٩) ، « قضيـة خاسرة» . ١٩٦١ ، عن الكنغو البلجيكية ، « الهزْليون » - ١٩٦٦ ، عن هاييتى (وهى فيلـم فى ١٩٦٧) . ومن أعمالـه الأخيرة التى تحولـت إلى أفـلام : «القنصل الفخـرى » - ١٩٧٣ ، « العنصر الإنسـانى » - ١٩٧٨ ، « صـاحب الفضيلة الأب كيكْسُوت » ، « الـرجل العاشر » - ١٩٨٥ . وأصدر « جـراهام جريـن » أيضا عددا كبيرا من المؤلفـات المسرحية ، وعـددا أكبر من القصص القصيرة . وصدرت له فى سنة ١٩٧١ مذكراته بعنوان : « نَسَق من الحياة ».



برج السـاعـة الشهيرة «بيـج بـن» فى قلـب العـاصمة البريطانيـة لندن .


النجم السينيمائـى «أورســون ولز » فى فيلم « الرجل الثـالث » عن رواية « جـراهام جرين » .



الجنود الأمريكيون يحملون القتلى والمصابين من زملائهم فى معاركهم الفاشلة فى فيتنام (التى انسحبت منها سنة ٩٧٤) بعد أن فقدت نحو ستين ألف قتيل . وأم فيتنامية تحمل باكية جثمان طفلها ضحية الغزو الأمريكى.

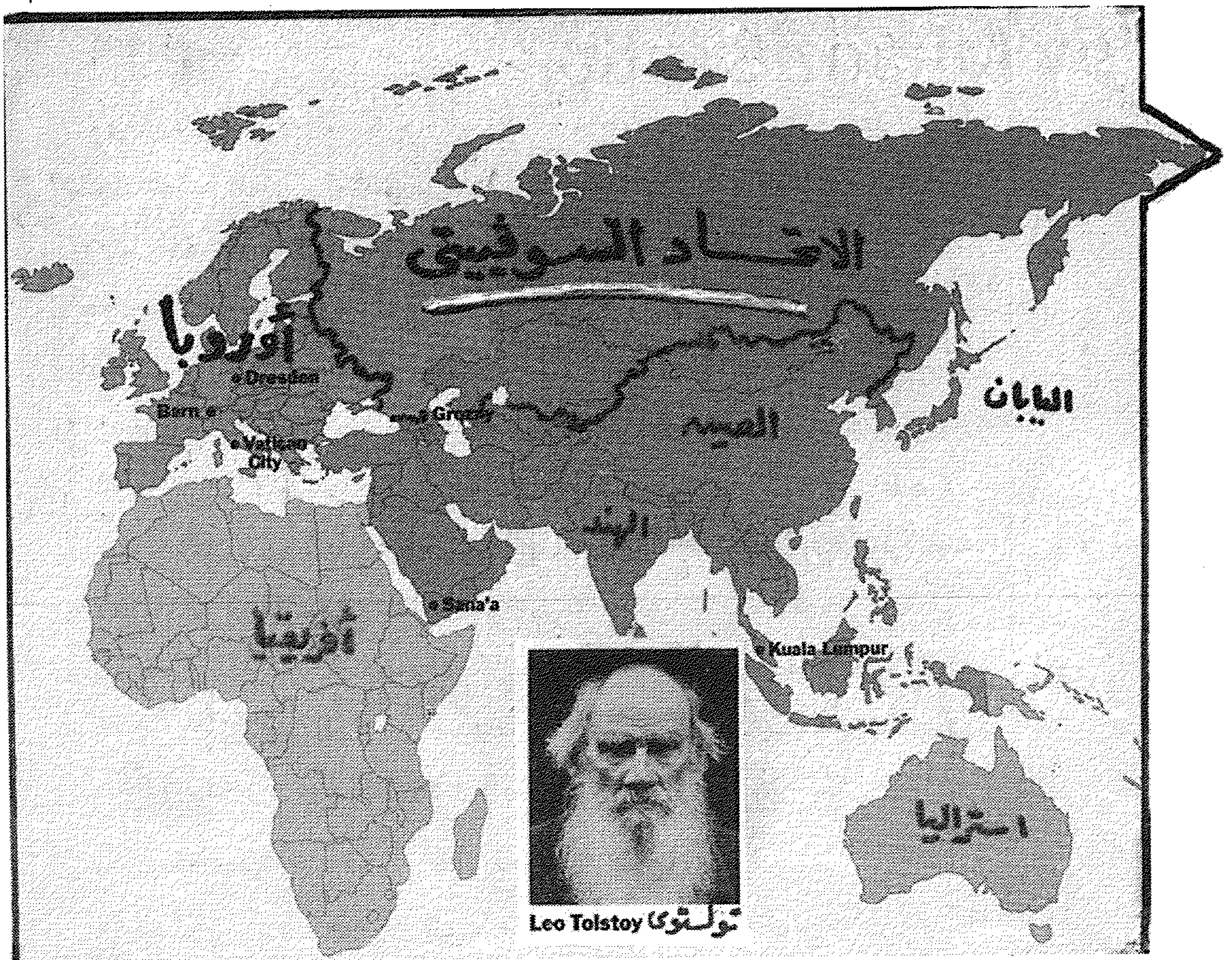
● فى روسيا

روسيا بلد كبير المساحة والسكان ، ثم صارت أكبر وأكبر بعد إنشاء الاتحاد السوفييتى ، فكانت سيطرتها الكاملة فى العقد الثانى من القرن العشرين على عدد من المناطق حولها ، إلى أن تفكك هذا الاتحاد فى أوائل العقد الأخير من القرن ، فتقلص حجم روسيا جغرافيا وسكانيا وسياسيا واقتصاديا وتأثيرا دوليا فى كثير من المجالات ، ومنها الأدبية والثقافية . فكان طبيعيا منطقيا أن يُفرز المجتمع الروسى طوال هذا القرن عددا كبيرا من الروائيين والقصاصين من مختلف المستويات ، من الرجال والنساء ، وأن يكون لكل منهم أسلوبه وفكره وكفاءته ، ومكانته محليا وعالميا ، وضْعا فى الاعتبار أن قيادات الثورة الروسيةالبلشفية ـ وهذا أيضا طبيعى منطقى ـ كانت حريصة على تشجيع المبتكرين والمبدعين الذين يدينون بالولاء لها وينقلون أو يزيِّنون إلى الكتل الجماهيرية أفكارها وأهدافها ودعاياتها وادّعاءاتها ، فتروِّج هى بالتالى لأعمالهم وتزينها للناس .

لكن عملاقا كبيرا ـ فكرا وفنا وموهبة ومقاما ـ ظل مع طلائع القرن ، وربما إلى آخر القرن ، وغالبا إلى ما وراء ذلك ، ظل مَوْصولا متسيدا متألقا محبوبا فى عالم القصة والأدب ، داخل روسيا وخارجها فى العالم كله : « **ليو تولستُوىْ** » ـ (١٨٢٨ ـ ١٩١٠) ـ الروائى العظيم المهيب ، وواحد من أبرع الروائيين فى العالم ، سليل إحدى العائلات الثرية الإقطاعية النبيلة فى روسيا.

انضم فى شبابه إلى الجيش ، واشترك فى قتال القبائل الجبلية ، وحضر حصار ـ مدينة « سباستبول » فى أثناء حرب القِرْم . فى سنة ١٨٥٧ زار فرنسا ، وسويسرا ، وألمانيا . وبعد عودته أنشأ على نفقته مدرسة لتعليم أبناء الفلاحين والعمال الفقراء فى بلدته مسقط رأسه « ياسْنايا » بمقاطعة « تولا » . وفى سنة ١٨٦٢ اقترن بزوجته « سونيا » وكانت من أسرة متوسطة .

بدأت تظهر عبقريته الإبداعية فى تأليف القصص القصيرة بين سنتى ١٨٥٥ و ١٨٥٦ . ثم تألق فى سنة ١٨٦٣ ككاتب روائى بدءا برواية : «القوزاق » . فلما صدرت له رواية « الحرب والسلام » سنة ١٨٦٩ ، تُوِّج



أعظم روائى فى روسيا . وتدور أحداثها فى فترة الحرب النابوليونية ضد روسيا ؛ وتتضمن الرواية عددا كبيرا من الشخصيات الرئيسية التى أحسن صياغتها فى ظروف أحداثٍ تاريخية معقَّدة ، فكانت من الناحية الأدبية الفنية على رأس أعظم إنتاج روائى فى التاريخ الحديث للشرق والغرب معا .

ثم تلتْها « أنَّا كارنينا » ـ ١٨٧٧ . وتدور قصتها حول امرأة انتهت حياتها بمأساة عجلتْ بموتها بعد أن هجرتْ زوجها من أجل شاب أغواها ثم خدعها. وفى الرواية تضمين لتفَهُّم معنى ومقصد الوجود الإنسانى .

فى رواية « اعتراف » ـ ١٨٨٤ ، يقدِّم تولستوىْ تفسيرا للأزمة الروحية التى تعرَّض لها عند بحثه عن معنًى مقبول للحياة . ثم نَذَر نفسه للإصلاح الاجتماعى . وفى مؤلَّفه : « ما الفن ؟ » ـ سنة ١٨٩٨ ، أضاف نظاما جماليا متطورا أكسبَ الفن وظيفة روحية وأخلاقية . ثم كانت رواية أخرى طويلة

بعنوان : « البعث » ـ ١٨٩٩ ، ومسرحيات تعالـج مشكلات اجتماعية ، منها : « قوة الظلام » .

كانت نهايته هـو فى صيغة دراما أو مأساة : فقد اعترتْه حـالة من التمزق الداخلى بسبب التنازع بين رغبتـه الملحَّـة فى أن يقضى بقيـة عمـره معتـزلا ناسكا فى هدوء وخشـوع ، وبين أداء واجبـاته كفنان عظيم أديب مـرمـوق ، وواحـد من كبار مُـلاك الأراضى . وانتهت به تلك الأزمـة الفكرية النفسيـة الوجـدانية ذات ليلة إلى تَرْك داره وأهله ومـاله وعقاره ، ثم هام على وجهـه وحيدا بلا رفيـق أو تبيع ، إلى أن عُثر عليه بعـد بضعة أيام ميتـا فى مكانٍ ناءٍ عند وصْلة شريط للسكة الحديد .



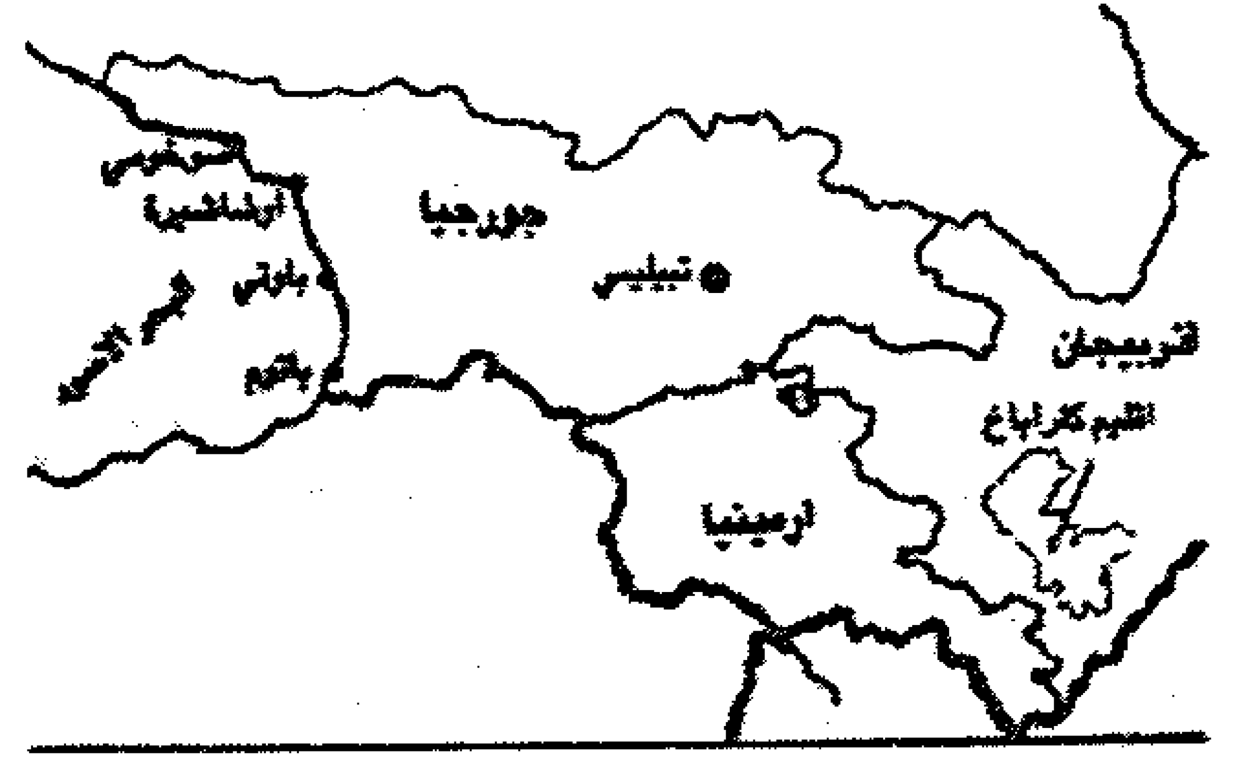
« تولستـــوى » (١٨٢٩ - ١٩١٠) العظيم المتـواضع يجلـس مفكـرا بحـديقـة هادئـة فى المرحلة الأخيرة من حياته .

و « **ألكْسى مكسيم جـوركى** » ـ (١٨٦٨ ـ ١٩٣٦) واحـد من كتَّـاب روسيـا العظام فى القصة القصيرة والرواية الطويلة . بدأ نجمـه يشعُّ ويلمع مع إصداره مجمـوعة قصص قصيرة واقعيـة جذابة مؤثِّـرة ، عن العاهرات والمنبوذين والمشردين ، ولم يأت ذلك من خيال مُجَرَّد أو من فراغ .



Maxim Gorky
مكسيم جوركى

فقد كانت طفولة جوركى بائســة تعيسة ، إذ كان عليه أن يقتات من عمل يده وهو فى سن الثـامنة . وكـان كثيرا مـا يتلقى ضربا مبرحـا من أصحـاب الأعمال ، مثلما كان دائم الجوع رث الثيـاب . فكان لهذا كله بالضرورة تأثير كبير مباشر على أعماله الأدبية من بعد ، ومن قبل ذلك ، على اختياره هو لاسم



شهـرته الشـائع : « جـوركى » ، أى : المـرور (من المُرِّ والمرارة) . وفى سن العشرين أو نحـوها ، كـان جـوَّالا متسكعـا فى جنوب روسـيـا ، يتنقـل مكتئبـا بين أشغـالٍ عارضة من أى نوع وأى مستوى وبأى أجر . وبينما كان مقيما فى مـدينة « تبليسى » فى جـورجيـا ، أفلح فى نشر أقاصيص فى الصحف المحليـة . ثم اتجهت إليه الأنظار عندمـا نَشَرَت له سنة ١٨٩٥ جـريدة كبيرة فى سـان بطر سبـورج إحـدى قصصـه بعنوان : «شِلْكاش» ؛ وهى تجمع بين الرومـانسية والواقعيـة الطبيعية ، ونابعـة من أعماق تلك المرحلة التى كان فيها جوركى متعايشا ـ وأحيانا متعاطفا ميالا ـ نحو « الحثالة » البائسـة فى المجتمع الروسى . فمثلا : قصة « ستة وعشرون رجُـلا وفتـاة » ـ ١٨٩٩ التى تُعتبر أحسن قصصـه القصيرة ، توصيف للأحوال المأساوية الصعبة لعمال مخبز .

ثم بدأت محاولاته لتأليف المسرحيات مع القصص القصيرة . فكانت أولى رواياته : « فومـا جوردييف » ـ ١٨٩٩ ، وفيهـا يُبدى إعجـابه بقوة الجسم والإرادة لَدى مـالكٍ لمركب شحن متصـاعـد فى الرأسماليـة يدعَى « إجْنات جوردييف » ، الذى تتعارض صفاته القوية مع سمات ابنه الضعيف الواهن الأحمق « فومـا » الذى يكد عبثا فى اكتشـاف معنى للحياة ، وهذا مـا تكابده معظم شخصيـات جـوركى فى رواياتـه . ومن هنا سيكون اهتمام جـوركى بتناول موضوعات تتعلق بالرأسمالية الروسية المتنامية . وفى رواية « أُم » ـ ١٩٠٦ ، تَظهر لأول مرة بوادر إعجابه بالحركـة الثورية الناشئة فى روسيا . وكتب جـوركى مجمـوعـة مـن المسرحيـات أشهـرها : « العمق السحيق» ـ ١٩٠٢ .

أقام جـوركى فى الفترة بين ١٨٩٩ ـ ١٩٠٦ فى سان بطـر سبورج إقـامة شِبـه دائمـة ، واعتنق الماركسيـة ، ثم انضم إلى البـلاشفة (حـزب الأقليـة الشيوعى) . واعتُقل فى سنة ١٩٠١ لنشْره بعض القصائـد الشعرية الثورية ثم أُفرج عنه . فانتقل إلى القِرم لإصـابته المتزايدة بالدرن الرئوى (السل) . وفى سنة ١٩٠٥ احتل مكانا مـرمـوقا فى الثـورة الروسيـة ، ثم أُلقى القبض عليه فى العام التالى ، ولم يمكث طويلا فى المعتقل إذ أُطلق سراحه سريعا بسبب

الضغــوط الخارجيــة المعــارضــة لاحتباسه .

ترك روسيـا سنـة ١٩٠٦ لقضـاء سبع سنوات فى المنفـى السيـاسـى ، لا يكاد يخرج من الفيلا الفاخرة التى كان يقيم فيها بجزيرة كابرى الإيطالية . ثم عـاد إلى روسيـا سنة ١٩١٣ ، وكـان معارضـا لدخول بلده الحرب العـالمية الأولى . وانتقـد أيضا طـريقة استيـلاء البــلاشفــة على السلطـة فى نوفمبر ١٩١٧. وذهب إلى أبعـد من ذلك . حين هاجم بشدة فى صحيفة « حياة جديدة » أسـاليب « لنين » الديكتــاتورية ، لكنه كفَّ عن تلك المعارضة بأمر من لنين (فى يوليو ١٩١٨) . وفى العام التالى تعاون مع حكومة لنين .



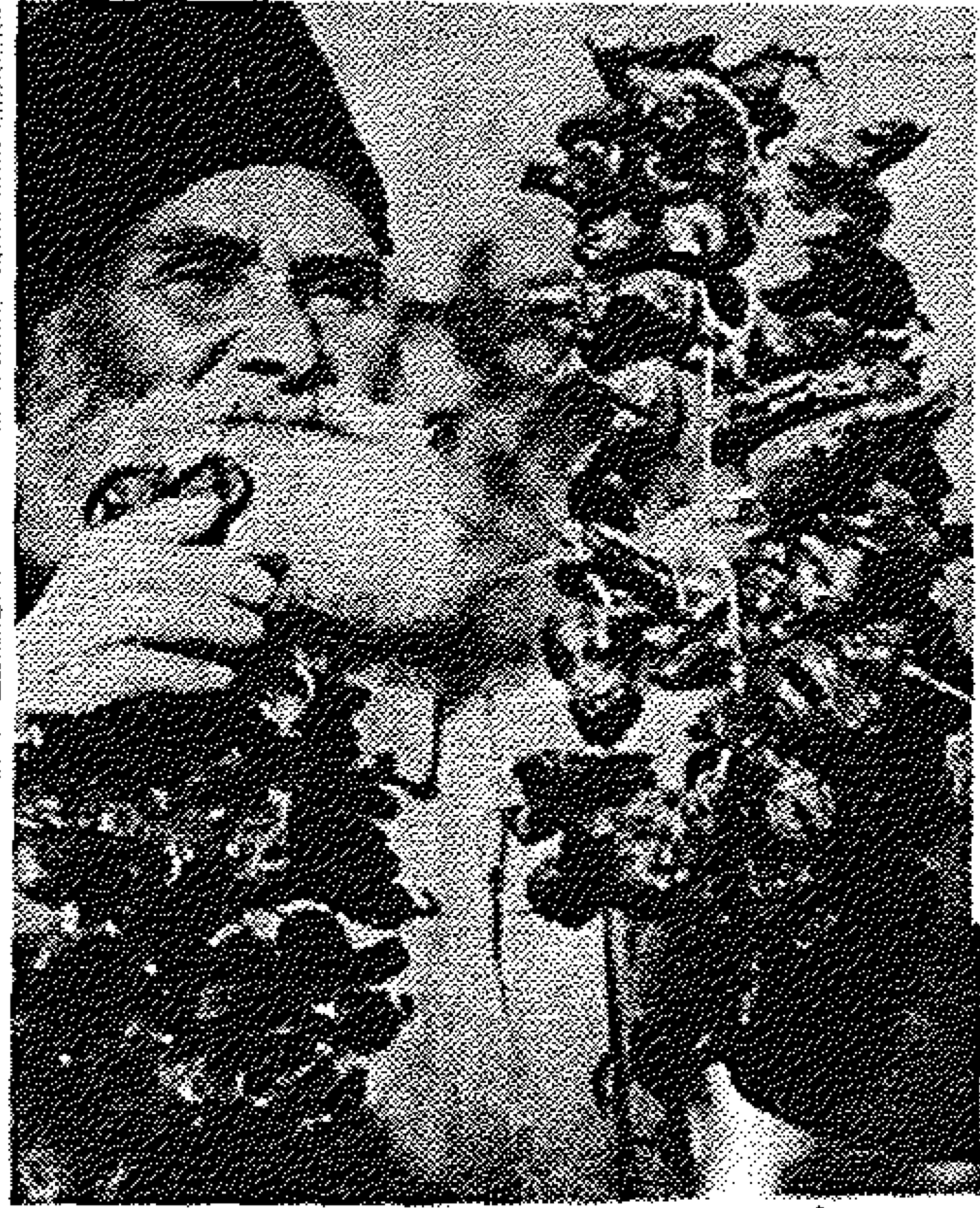
مدينة « تبليسى » فى جورجيـا (المستقلة الآن) وفى مقـدمـة الصــورة الحى القــديـم بمآذن مسـاجـده كما شاهدها « جوركى » فى أيام شبــابـه البائسة.

فى سنة ١٩١٣ بدأت تَظهـر ثلاثيته ـ التى تُعتبر أفضل أعماله الإبداعية ـ وهى تحتـوى على سيرته الذاتيـة ، وعنوانها : « طفـولتى » ، ثم ظهـر الجزء الثـانى بعنوان : « فى العــالم » ـ ١٩١٥ ، ثم الجزء الثـالث : « جـامعـاتى » ـ ١٩٢٣ .

عــاش جوركى فى إيطاليـا بين سنتى ٢١ ـ ١٩٢٨ ، لكنه كـان يتردد على روسيـا مرارا . ثم أصبح عن جـدارة وبلا منازع زعيم الكتَّاب الســوفييت ، وأول رئيس لاتحاد الكتَّاب بها .

لكن وفاته أحاطت بها أقاويل وغموض . إذ حدثتْ فجأة حين كان يمارس فحوصـا طبية . وتصـاعدت أنبـاء عن قَتْله بأمر من « جـوزيف ستالين » ، ولكن لم يظهر دليـل موثَّق يؤكد صحـة ذلك . وهل من الميســور إثباته ـ إن حَدَث ـ أو الحصول عليه ؟!



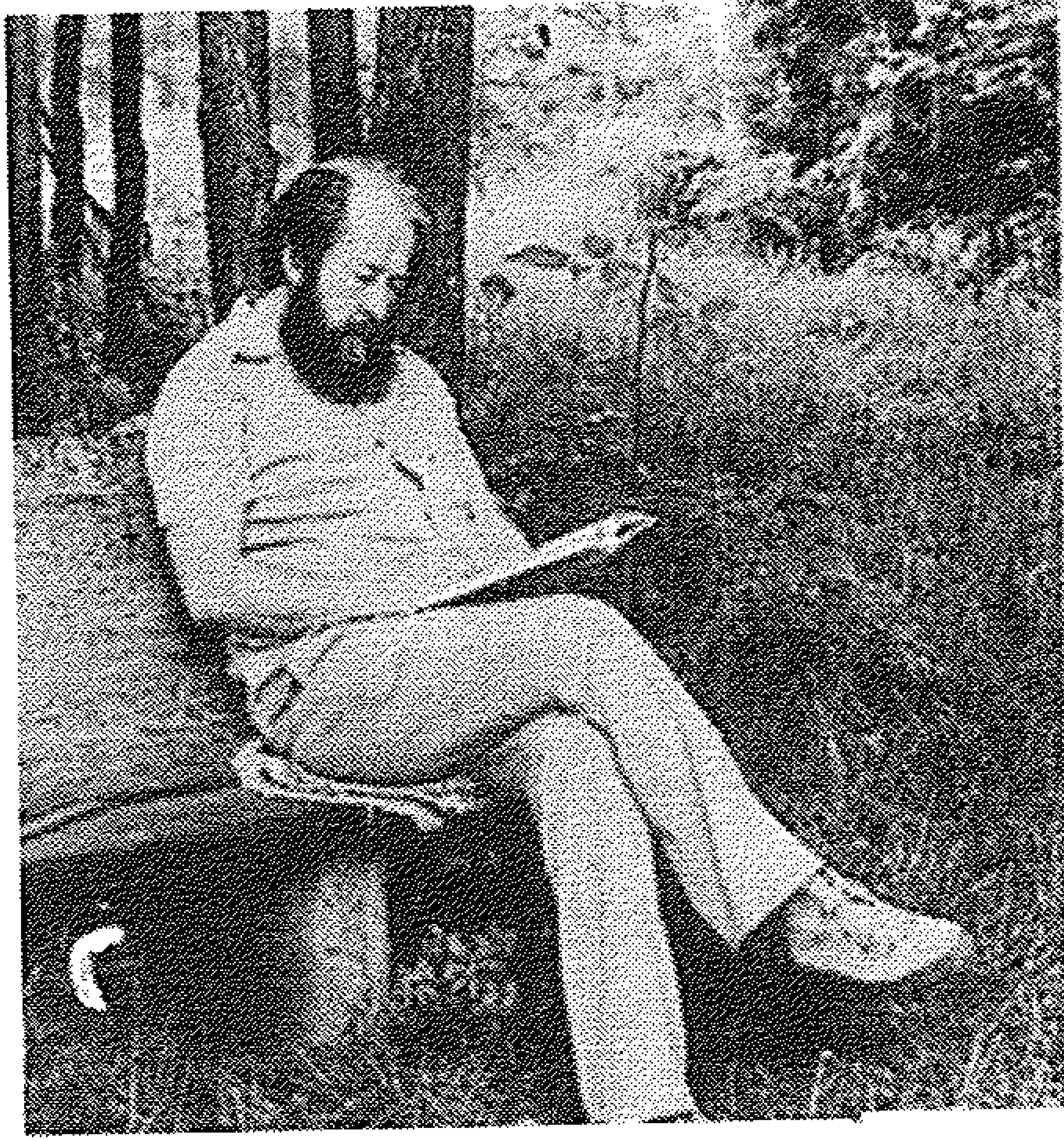


المزارعون الكادحون والمزارعات فى حقول جورجيا السوفييتية سابقا يجمعون المحاصيل والثمار .

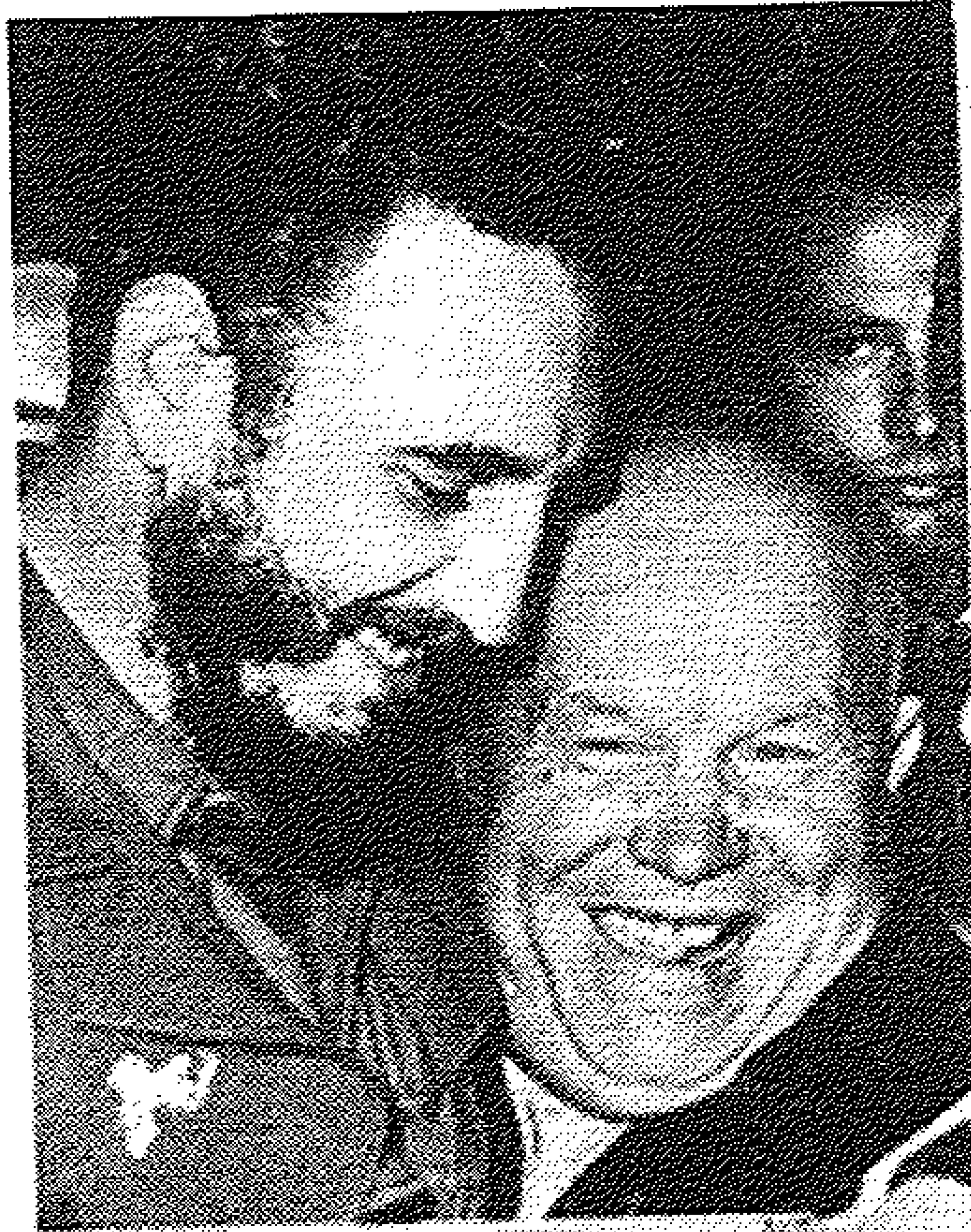
وكاتب آخر أديب روائى سياسى مؤرخ من روسيا : « **ألكسندر إيسايْئِفتش سولْجنيتْسين** » اليهودى الحاصل على جائزة نوبل فى الأدب سنة ١٩٧٠ ، والذى وُلد سنة ١٩١٨ .

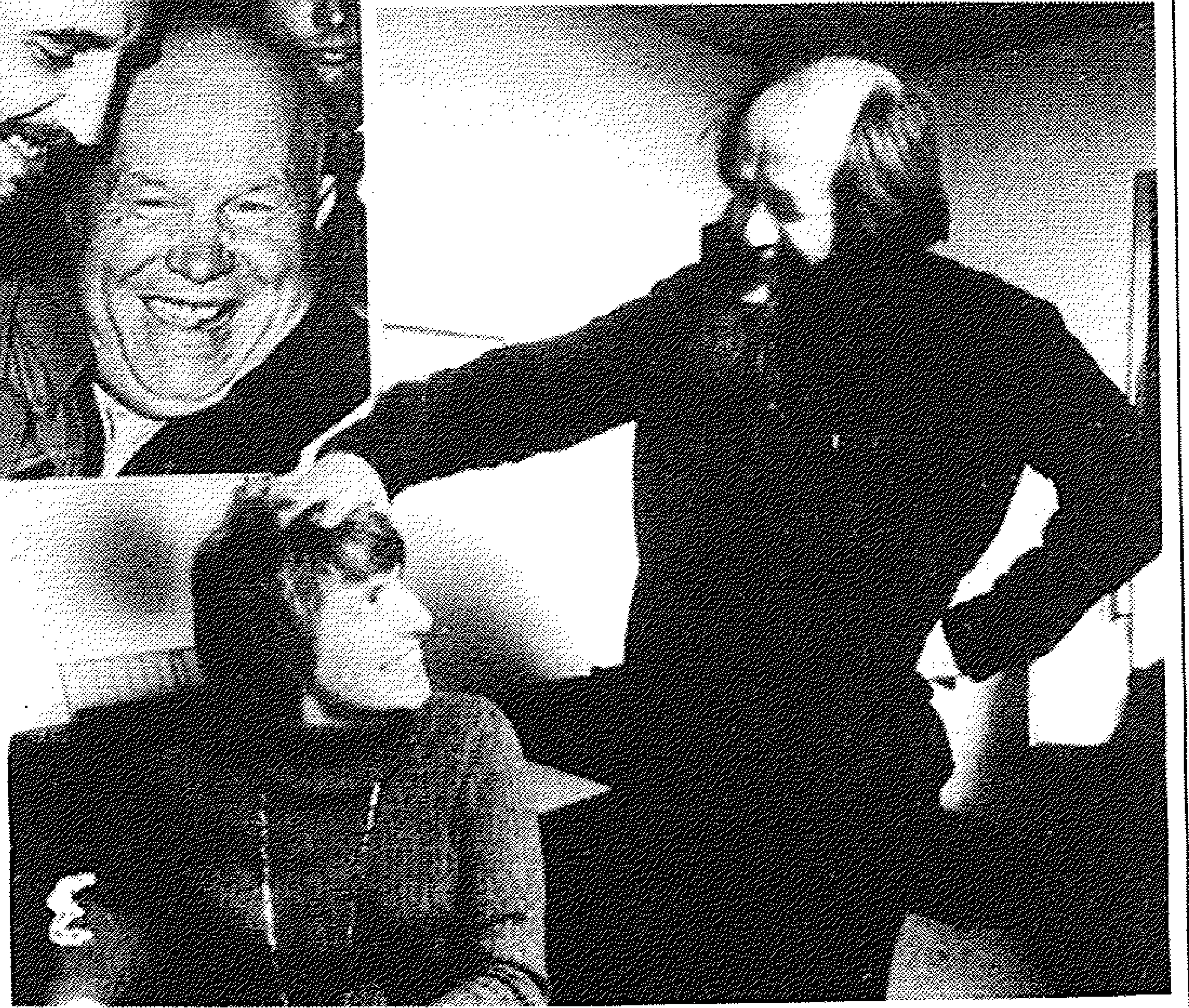
بعد أن تَخَرج من جامعة « روستون » ـ شعبة الرياضيات ، التحق بجامعة موسكو لدراسة التخصص فى الأدب . واشترك فى الحرب العالمية الثانية ، وترقَّى حتى رتبة « كابتن » فى المدفعية . وفى سنة ١٩٤٥ أُلقى القبض عليه بتهمة كتابته رسالة بها نقد لسياسة ستالين ، فزُج به فى السجن ومعسكرات الاعتقال لمدة ثمانية أعوام ، ثم ثلاث سنوات فى المنفى خارج روسيا . فلما صدر قرار خروشتشيف بالصفح عنه ، عاد فى سنة ١٩٥٦ للإقامة فى « ريازان » بوسط روسيا ، واشتغل بالتدريس ، وبدأ فى كتابة الرواية والقصص .

ذاعت شهرته من سنة ١٩٦٢ مع نشر قصته القصيرة : « يوم فى حياة إيفان دنيسوفِتْش » . لكنه لم ينعم طويلا بحياة الأمن والهدوء ، إذ اعتبرتْه السلطات الحاكمة معارضا لسياستها ومثيرا للشغب . وبعد نشْر مجموعة قصصية له سنة ١٩٦٣ ، مُنع رسميا من نشر إنتاجه الأدبى ، فساعدتْه









((١) ستالين : سيد روسيا السوفييتية المطاع .

(٢) ألكسندر سولْجنيتْسين فى أمريكا يراجع مراحل طباعة روايته « خليج الجولاج» .

(٣) خروشتشيف : خليفة ستالين الذى فضح إرهابه وجبروته يحتضن ضاحكا «كاسترو » سيد كوبا .

(٤) سولجنيتسين يداعب زوجته «ناتاليا».

المؤسسات اليهودية ونفوذها فى الإعلام والنشْر ، فذاعت شهرته فى العالم ، خاصة بعد صدور رواياته (خارج الاتحاد السوفييتى) ومنها : « الدائرة الأولى » ـ ١٩٦٨ ، و « سجن السرطان » ـ ١٩٦٨ ، و « أغسطس » ـ ١٩٧١ .

عندما حصل فى سنة ١٩٧٠ على جائزة نوبل ، امتنع عن السفر إلى ستوكهولم لتسلمها مخافة أن يُمنع من دخول روسيا عند عودته . فلما

نُشرت فى باريس الأجـــزاء الأولى من روايتـــه : « خليج الجُولاج [١٧] » فى ديسمبر ١٩٧٣ ، هبَّت عـــاصفـة من النقـــد الجارح ضــده فى الصحـــافـة السوفييتيـة ، وأُلقى القبض عليه ، واتُّهم بالخيانة بعد شهـرين من اعتقاله ، فهُرِّب متسللا من روسيا إلى الولايات المتحدة فى فبراير سنة ١٩٧٤ ، وأحيط بضجة إعلامية ضخمة فى أمـريكا والغرب حيث النفوذ والسيطرة الإعلامية اليهودية . فأخـذ يكتب ويـؤلـف ، وأصـدر سلسلة من الكتب تحت عنوان : « العَجَلة الحمـراء » ، وفيها دراسة تاريخيـة عن الأحداث التـى أدت إلى قيام الثـورة الروسية سنة ١٩١٧ . وضَم إلى هذه المجمـوعـة نسخة معـدلة من روايته السابقة « أغسطس ١٩١٤ » . ومن هذه السلسلة : « مارس ١٩١٧ »، و « أبريل ١٩١٧ » .

فى سنوات الثمانينيـات كان لمؤلفـاته ورواياته المتسللة إلى داخل الاتحاد الســـوفييتى تـأثير كبير على الشعب . وفى سنـة ١٩٨٩ نَشرت أكبر مجلة رسمية تصـدر فى موسكو مقتطفات من روايتـه : « خليج الجولاج » ، وكان هذا يحدث لأول مرة فى الاتحاد السـوفييتى بالنسبة لكاتب مُعـارض . كذلك بدأ نشْر مـؤلفاتـه داخل بلاده . ثم رُدت إليه رسميـا صفـة المواطَنَة فى سنة ١٩٩٠ ، فعاد للإقامة فى روسيا الاتحادية سنة ١٩٩٤ .

● فى أمريكا

تميز الفن الروائى والقصصى الأمريكى بصفتيْن بارزتيْن فى مطلع القرن العشرين وهُما : الدعابة الفَكِهَة ، والاستقامـة المتحفظة . وكان الرائد الأشهر فى هذا الاتجاه « **مارك توين** » الذى صنعتْ كتـابته جسرا بين الرومـانسية والواقعية الطبيعية .

وُلد « صامويل لانْجهورن كلمنْس » المعـروف باسم مارك توين ، فى عام ١٨٣٥ بولاية فلوريدا الأمريكية (ومات سنة ١٩١٠) . وهو روائى دائما فى كتـابته طريف ظريف فكِه ؛ وكـان مُحاضرا حـاضر البديهة جـذابا لا يُمَلّ . ويُعَدُّ جمهوره من القُراء بالملايين ، بعشرات ومئات الملايين على امتداد العالم ولأجيال متعاقبـة ، طالعتْ فأُعْجَبت بقصصه عن مغامرات شبـابية شَيِّقة .

---

(١٧) اسم يُطلق على معسكر الاعتقال الرهيب فى روسيا السوفييتية .

من سولجنيتسين كابتن المدفعية بالجيش الأحمر (الروسى) ..

إلى المعتقل بسجن « الجولاج » المدمر للنفس والأعصاب .



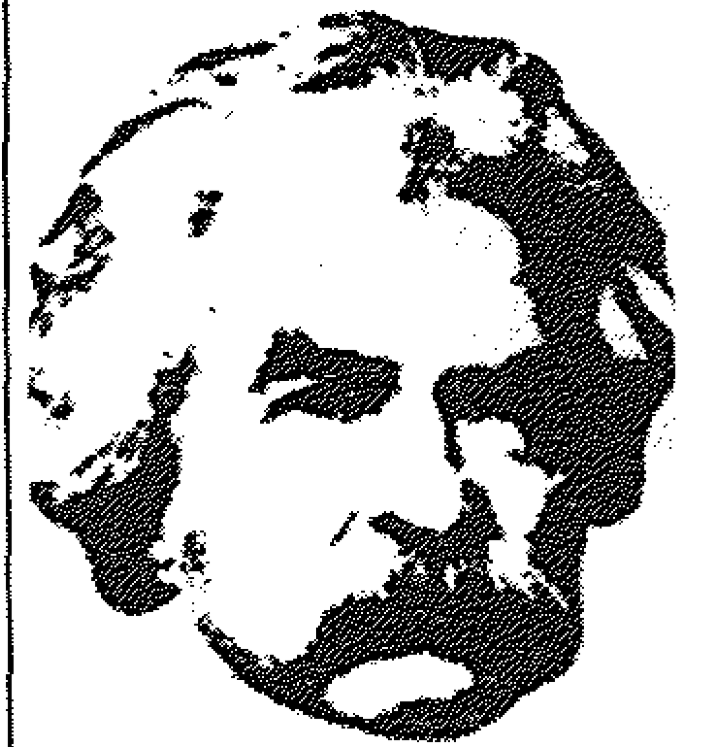
le capitaine d'artillerie de l'armée rouge, Soljenitsyne



ولقد نشأ فى طفولته وصباه عند شاطئ نهر المسيسيبى ، ولذا جعل من هذا النهر مسرحا تدور عليه أحداث بعض أقاصيصه .

عندما بلغ سن الثالثة عشرة ، اشتغل صبيا فى مطبعة محلية ، واكتسب خبرة . فلما أنشأ شقيقه الأكبر « أوريون » جريدة محلية ـ « جورنال هانيبال » ـ عمل صامويل (مارك) صَفَّافا للحروف بتلك الجريدة ، واستمر ملازما لأخيه حتى سنة ١٨٥٦ . ثم بدأ مرحلة جديدة فى حياته ، وإن ظلت

مـرتبطة بالحروف والكلمات والطباعـة والنشر . فقد كلفتْـه جريدة أخـرى محلية بكتـابة بعض رسائل خفيفة طـريفة سياحيـة ، يبعث بها ـ كمراسل للجـريدة ـ من أسفـار يقـوم بها . ولم تَنْشر له الجريدة (واسمهـا : « ديلى بوست ») سوى أربع رسائل (أو مقالات) ؛ والسبب : أنه فى أثناء سَفْرة له عَبْر المسيسبى وقَّع عقدا مع باخرة سياحية للعمل متدربا وصبيا مساعدا لقـائـد البـاخـرة . فظل نحـو أربـع سنوات مثـابرا على تجواله المتكرر ـ فى السفينة ـ فوق النهـر الشهير ، يعمل ويتعلم ، فكانت المحصِّلة : الفوز فى سنة ١٨٥٩ بشهـادة ملاحيـة تتيح له قيـادة السفن البخـارية ، لكنه لم يَنْعَم بها طويلا ، إذ بعد عامين اثنين نشبت الحرب الأهلية التى وضعت نهاية لأسفار تلك السُّفن .


مارك توين

رحل صـامويل مع أخيـه أوريون إلى ولاية نِفادا فى سنة ١٨٦١ ، وفيهـا عمل كـاتبا بصحيفـة محلية . وهناك ، فى فبراير ١٨٦٣ ، وُلد اسم : « مـارك توين » الذى غَلَب على اسمه الحقيقـى ، بعد أن اختاره ليـوقِّع به على المقالات الطريفة السياحيـة التى كان يكتبها . ثم رحل فى العام التالى إلى كـاليفورنيا . ومن خـلال زيارته لأحـد معسكرات المناجم فى تلك الولاية ، قفـزت إلى ذهنه فكرة لقصـة : « الضِّفـدع النطَّاط الشهير » التى جلبَتْ له شهـرة سريعـة واسعة. وفى العام التالى شد الـرحـال إلى جُـزر هوائـى مراسلا لصحيفـة «اتحاد ساكْرامنْتو » للكتابة عن مشاهداته وانطباعاته فى جولاته ، وضاعف فـائـدته من هذا العمل بـإلقـاء المحـاضرات . فلما اتسع نطاق نشر رسـائله وظهـرت فى صحف نيـويورك (« نيـويورك تريبيـون ») تحقق له النجـاح الجماهيرى الكبير ، فأصبح فى سنة ١٨٦٩ الكاتب الشعبى الأول المفضل .

تزوج سنة ١٨٧٠ ، وارتحل بـزوجتـه فى العـام التـالى للإقـامـة فى «هـارتفورد » بولاية كُونِّكْتكت . ثم نَشَر فى العام الذى تلاه يوميات عن رحلة سائق عـربة سفر (تجرها الجيـاد) وضمَّنَها مغـامراته هو نفسـه فى جزر المحيط الهادى . وبعد عام ، نشر مع جـار له قصة « العصر الذهبى » ، وفيها

تقع جـزر هوائى وسـط المحيـط الهادى وعاصمتها هـونولـولـو وبها ميناء بيرل هاربر الشهير حيـث القاعدة البحرية للأسطول الأمريكى الـذى دمـره اليـابانيـون فى الحرب العـالميـة الثانية .

بها مجمـوعـات نادرة من النباتات والطيور ومساقط مياه لا مثيل لها فى العالم ، وقد صارت ولاية أمريكية سنة ١٩٥٩ . وفيهـا اشتغل مارك توين لفترة مـراسـلا صحافيا .



تهكم ساخر على المثالب السياسية والمالية الباهظة فى الفترة التى أعقبت الحرب الأهلية . وضاعف من إلقاء محاضراته الشَّيِّقة التى وجدتْ استحسانا كبيرا من الجماهير فى مدن الولايات المتحدة وفى انجلترا . واستمر فى الكتابة وتأليف القصص فى تلك الفترة ، وكان من أشهرها : « الشراب الفنلندى » (١٨) التى تُعَدُّ فى النقد الأدبى تحفة قصصية أمريكية . وكتب سيرته الذاتية وأصدرها بعنوان : « حياة فوق المسيسبى » . ونشر فى سنة ١٨٨٩ تحفة قصصية أخرى تاريخية نقدية مرحة بعنوان : « يانْكى من كُونِّكْتكت فى بلاط الملك آرثر »(١٩) ؛ وفى القصة مَزْج ساخر بين عصرين تاريخيين ، ومقابلة وأحيانا مشابهة بين وجه أمريكا فى نهاية القرن التاسع عشر وبريطانيا فى عصرها الوسيط المظلم .

ثم تَعَرض مارك توين للإفلاس لأسباب منها توسعاته غير المدروسة جيدا لدار نشر أقامها لنفسه . ولكن متابعته لإصدار عدد من الروايات الناجحة مثل : « ويلسون الموحل الرأس » ـ ١٨٩٤ ، و « مجموعات جان دارك الشخصية » – ١٨٩٥ ، و « الرجل الذى أفسد هادليبرج » – ١٩٠٠ ، بالإضافة إلى جولاته حول العالم لإلقاء محاضرات جمع بعضها فى كتاب : « متابعة لخط الاستواء » ، كل ذلك أقاله ماليا من عثْرته ، وزاده بَسْطة فى النعيم .

فى خريف عام ١٩٠٣ انتقل مارك توين بأسرته للإقامة فى فلورنسا بإيطاليا . وماتت زوجته بعد ستة أشهر فقط من هذا الانتقال ، فحزن حزنا شديدا على فراقها ، وعلى شعوره بالوحدة فى سن الشيخوخة المتْعَبة المستَنْزَفة ، فانعكس ذلك على رواياته التالية ، وفيها تصوير لمرارة الوحدة ، والتشاؤم ، والحزن على مستقبل الجنس البشرى ؛ ومن أبرز أعماله فى تلك المرحلة الأخيرة : « رسائل من الأرض » .

---

(١٨) « Huckleberry Finn » .

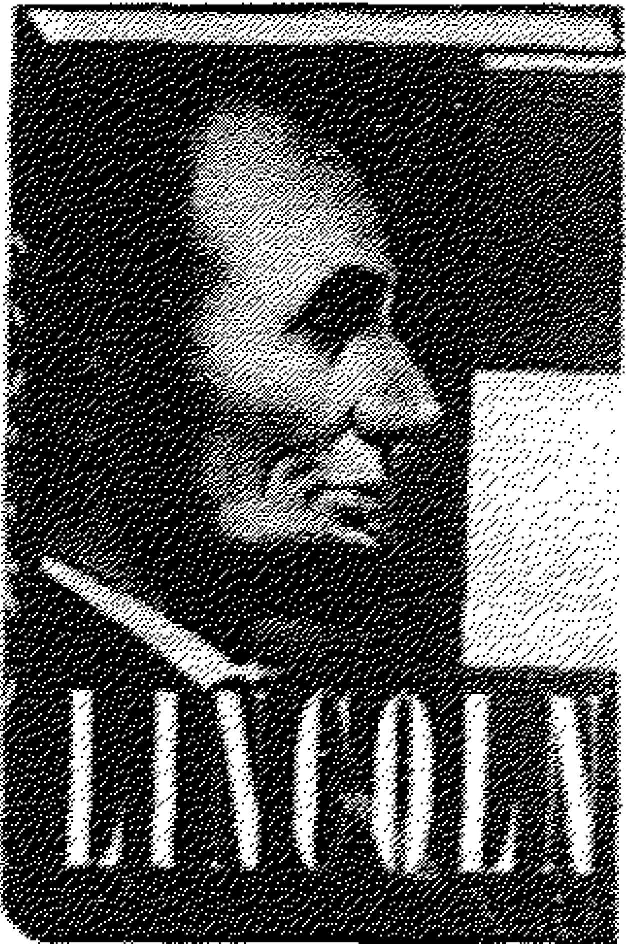
(١٩) لفظ « يانكى » ـ Yankee يُطلق على المواطن الأمريكى من شمال الولايات المتحدة خاصة وفيه شيء من التهكم والسوقية والابتذال .

فى سخرية نقدية مرحة كتب « مارك توين » تحفته القصصية : « يانكى من (ولاية) كونكتكت فى بلاط الملك (البريطانى) آرثر » . وكلمة «يانكى – Yankee» مجهولة المصدر لكنها ظهرت سنة ١٧٥٨ تعبيرا ساخرا لاذعا عن مواطن الشمال الأمريكى قبيل اشتعال الحرب الأهلية التى بدأت سنة ١٨٦١ .

من الكتاب الروائيين المفضَّلين أيضا فى أمريكا قبل مطلع القرن العشرين وبعده: « **ويليام دين هُووِلْز** » ، الذى وُلد سنة ١٨٣٧ ومات فى مدينة نيويورك سنة ١٩٢٠ . وكان أيضا ناقدا أدبيا مرموقا مقروءا .

بدأ حياته العملية كاتبا على الآلة الكاتبة ، ثم اشتغل فى التحقيقات الصحفية . وأدرك قيمة معرفة اللغات ، فعلّم نفْسه بنفْسه الألمانية والأسبانية والانجليزية القديمة ، وبدأ فى نشر أشعار من تأليفه فى الصحف . ومن كتابته لسيرة ذاتية عن الرئيس الأمريكى « أَبراهام لينْكُولْن » حصل على نفقات رحلة إلى « انجلترا الجديدة ـ نيو إنجلاند » حيث التقى بكبار الأدباء والكتَّاب ومنهم : « **أوليفر وِنْدل هُولْمز** » ، « **رالف والدُو إمرْسون**».

وبعد نجاح لينكولن فى انتخابات الرئاسة ، حصل على وظيفة للسفر إلى



أبراهام لينكولن

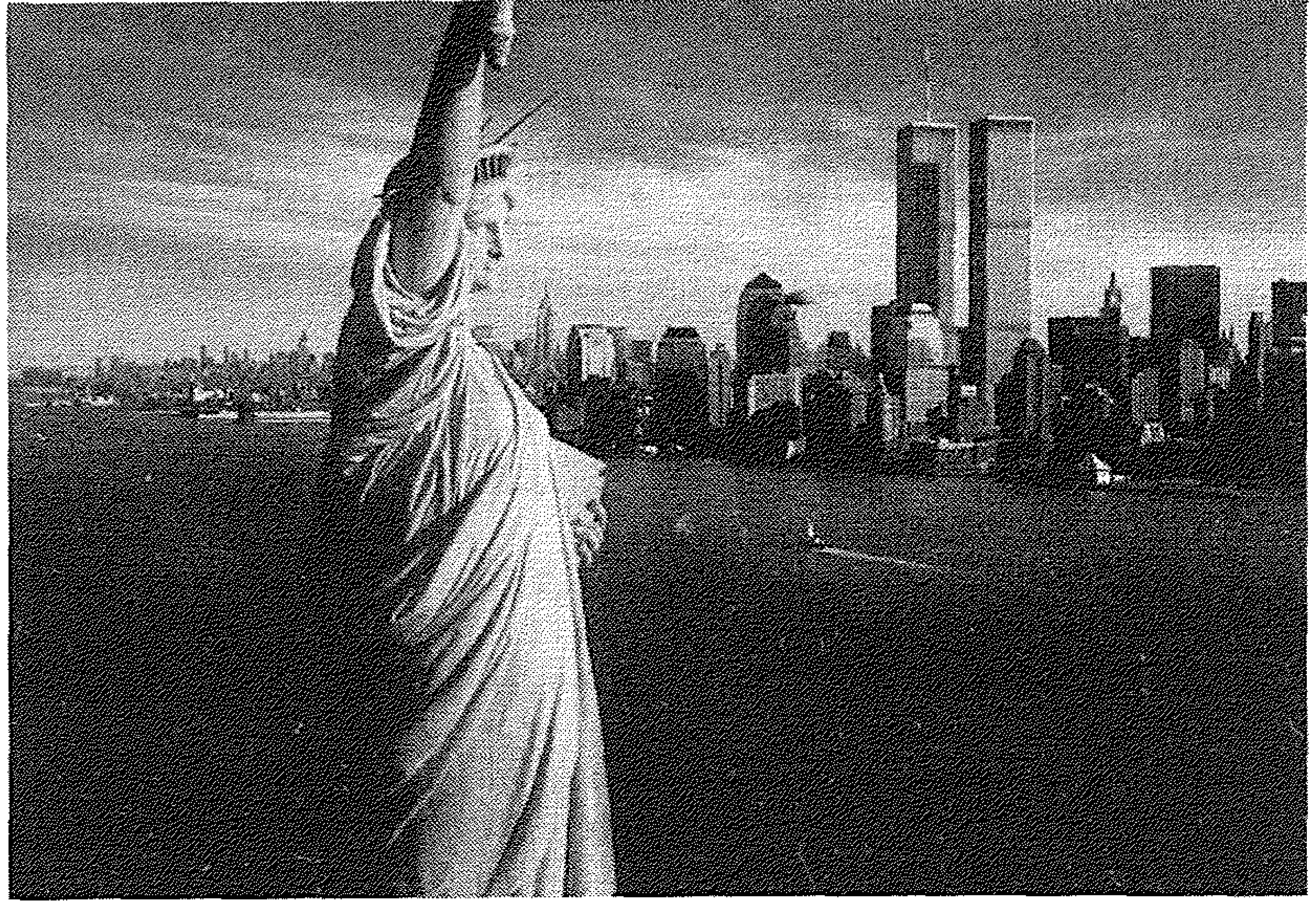
فينيسيا (البندقية) سنة ١٨٦١ قُنصلا ، مكافأة لنشاطه فى الحملة الانتخابية ، فاستطاع أن يتزوج . وبعد عودته إلى الولايات المتحدة (١٨٦٦) اشتغل محررا مساعدا ثم محررا بالصحافة ، فكتب عن الأدباء وإنتاجهم ، وقدَّم لأول مرة فى الصحف « مارك توين » باعتباره فنانا أديبا مبدعا جادا . وفى سنة ١٨٧٢ بدأ ينشر أُولى رواياته : « معرفة الحظ » وهى من النمط الطبيعى الواقعى ، عن حياة الطبقة المتوسطة . ثم أعقبها بمجموعة من الروايات المتنوعة تختلف فى أسلوبها وطريقة المعالجة عن الروايات الأمريكية والأوروبية الشائعة . فكانت أحسن رواياته وأوسعها انتشارا تلك التى صور فيها بدقة وشاعرية مرحلة انتقال المجتمع الأمريكى من البساطة والتآلف والمساواة إلى الجرى وراء الحظ والأنانية والسلْب ، واتساع الهُوَّةِ بين أخلاقيات المرحلتين ، ولن تضيق بعد ذلك أبدا ،بل زادت . وفى عام ١٨٨٢ صدرت له رواية قوية بعنوان : « حالة حديثة » تحكى قصة تفكك أسرة . وأحسن أعماله الروائية : « صمود سِيلاس لافام » وتدور أحداثها حول رجل أعمال ناجح كوَّن نفسه بنفْسه يحاول جاهدا أن يُكيف طباعه وسلوكياته مع مجتمع العِلْية فى مدينة « بوسطون » . وفى سنة ١٨٨٧ سَعَى « ويليام دين » وقدم ملتَمسا أدبيا للعفو عن مجموعة من العمال حكم عليهم بالإعدام بعد مظاهرات عنيفة فى مدينة شيكاغو . وكاد يفقد حياته وشهرته من وراء تلك القضية لإدانته محاكمتهم ووَصَمها بعدم النزاهة لدوافع سياسية فترك بوسطون إلى الإقامة فى نيويورك .



جون شتينبك

ومن هذه المدينة أصدر عددا من الروايات هزَّت بعنف مشاعر المجتمع مثل : « آنّى كيلْبورن » ، و « خطر الثروات الجديدة » التى تُعتبر من أجمل رواياته ، وهى تصوِّر بأسلوب درامى حياة التنافس الشديد فى تلك المدينة ، من خلال مجموعة من الشخصيات تحاول إصدار مجلة وإنشاء متجر .

ولا يتسع المجال لتَتَبُّع جميع القصاصين والروائيين الأمريكيين المتميزين . ولكن تكفى الإشارة إلى أسماء بعضهم ونماذج من أعمالهم .



مدينة نيويورك في مواجهة تمثال الحرية.

ومن هؤلاء : « هنْرى جيمس »[٢٠] ، «سينْكلير لويس »[٢١] ، « جون شتَيِنْبك»[٢٢] ، « إرنسْت هِمِينْجواى» ، « ويليام فولْكنر » . ولابد من التوقف قليلا عند واحد من هذين الأخيرين ، الحائزيْن على جائزة نوبل فى الأدب .

---

(٢٠) واقعى المذهب فى رواياته ، وحلقة اتصال قوية بين الثقافتين الأوروبية والأمريكية لذلك مُنح المواطَنَة الإنجليزية سنة ١٩١٥ . محور أفكاره يدور « حول صفاء وثراء العالم الجديد فى مواجهة فساد وكساد العالم القديم » . نشر أول قصة له وهو فى سن ٢١ ؛ زار كثيرا فى أوروبا فكتب فى أدب الرحلات، وسلسلة قصص عن « الفتاة الأمريكية » وكانت أحسنها وأشهرها : «صورة امرأة » ـ ١٨٨١ ، ثم أتبعها بروايتين ثوريتين عن الإصلاح الاجتماعى : «البُوسطونيون » ، و « الأميرة كازاماسيما » . ثم غيَّر أسلوبه القصصى بالتركيز على « رسم » و « مَسْرحة »الأحداث والمواقف فى مشاهد . وانتهى بتأليف أحسن رواياته الكبرى : « أجنحة الحمام » ـ ١٩٠٢ ، « السفراء » ـ ١٩٠٣ ، « الوعاء الذهبى » ـ ١٩٠٤ . مات سنة ١٩١٦ فى لندن .

(٢١) وُلد فى ١٨٨٥ ومات فى ١٩٥١ . أول أمريكى يحصل على جائزة نوبل فى الأدب سنة ١٩٣٠ . تميل رواياته إلى النقد الاجتماعى . أصدر أول رواية له « سَيِّدنا : وَرن » سنة ١٩١٤ وكان طالبا بجامعة «ييل » . وبعض رواياته تحوَّل إلى أعمال مسرحية مثل : «هذا لا يَحدث هنا » ـ ١٩٣٥ ، و « الدم الملكى » ـ ١٩٤٧ وهى عن العلاقات بين الأجناس .

(٢٢) ولد فى ١٩٠٢ . ومات فى نيويورك ١٩٦٨ . ذاعت شهرته محليا وعالميا من روايته : « عناقيد الغضب» – ١٩٣٩ ، وهى قصة واقعية عالمية . رواياته : « الكأس الذهبى » ـ ١٩٢٩ ، « إلى إله مجهول » – ١٩٣٣، « كعكة مسطحة » ـ ١٩٣٥ . كتب من الروايات الدعائية فى فترة الحرب العالمية الثانية مثل : «سقوط القمر » ـ ١٩٤٢ . كما كتب عددا من سيناريوهات الأفلام ومنها: «اللؤلؤ » ، و « الحصان الأحمر » ، و « القرية المنسية » ، « فيفازاباتا » .

● **همينجواى :**

ضَخم فخم ، وُهِب بَسْطة فى الفكر والجسم ؛ أمـــا فى السمات والخُلُق : فـوفْرة فى الرجـولة ، ونَضْرة فى الفحـولة ، وفَورة فى الانفعـالات والمشاعـر وعـزةالنفْس . فكان مُحبا للمغـامـرة ، شغوفـا بالمسـامرة ، دائم الترحـال والسفَر ، لايتخلى عن سلاحه وبندقيته ، ولاتتخلى عنه شجاعته وأَنَفَته . كان فريد عصره فى طبعه ، عزيز قومه فى أدبه ، إذا تَحَدث أَسْمع ، وإذا تَخَيَّل أَبْدَع، وإذا ماكتَب أَمْتع ، وإذا ما دُعِى إلى معروف أجاب . وقد نعجب إذ نَعلم أن هذا الأديب الملاكم العمـــلاق –جسما وحظا وفنا – كـــان يجمع بين متناقضيْن ظاهريْن : قـوة الإحساس مع قوة التخيل فـالإبداع فى أوقات ، وقـوة التمرد مع قوة التحـدى فالخشونة فى أوقـات أُخَر . غير أن حياته الشخصيـة كانت بحق «رواية » دراميـة عـريضة عميقـة ، ثرية كثيفـة ، أراد هو أن يكتب لها كلمة الختـام ، والأهل نيام . لم يكتبهـا ـ كالعـادة ـ بيده ، وإنما بطلقتين من بندقية صيد قديمة ، ماسورتها المزدوجة من الفضة وقد صُنعت وحيدة من أَجْله ، صوَّبها نحـو جبهته ليُنْهِى بها أَجَلَه . حدث ذلك فى يوم أحـد من شهر يوليـو سنة ١٩٦١ . مـأسـاة ! نعم ؛ خـاصـة من مـؤلف كبير للمأسـاة : «**إرْنِسْت ميللر هِمِنْجواى** » (٢٣) .

أمـريكى المولـد ، من ولاية « إداهو » فى يوليـو ١٨٩٩ . شهــرته محليـا وعالميـة فائقة ، كمؤلف للروايات وللقصص القصيرة ، حتى للأطفـال . وقد جَلَب لبلده جـائـزة نوبل فى الأدب سنة ١٩٥٤ بسبب أصغـر وأرق وأعـذب مؤلفاته : « العجوز والبحر » ـ ١٩٥٢ .

النشأة والتربية

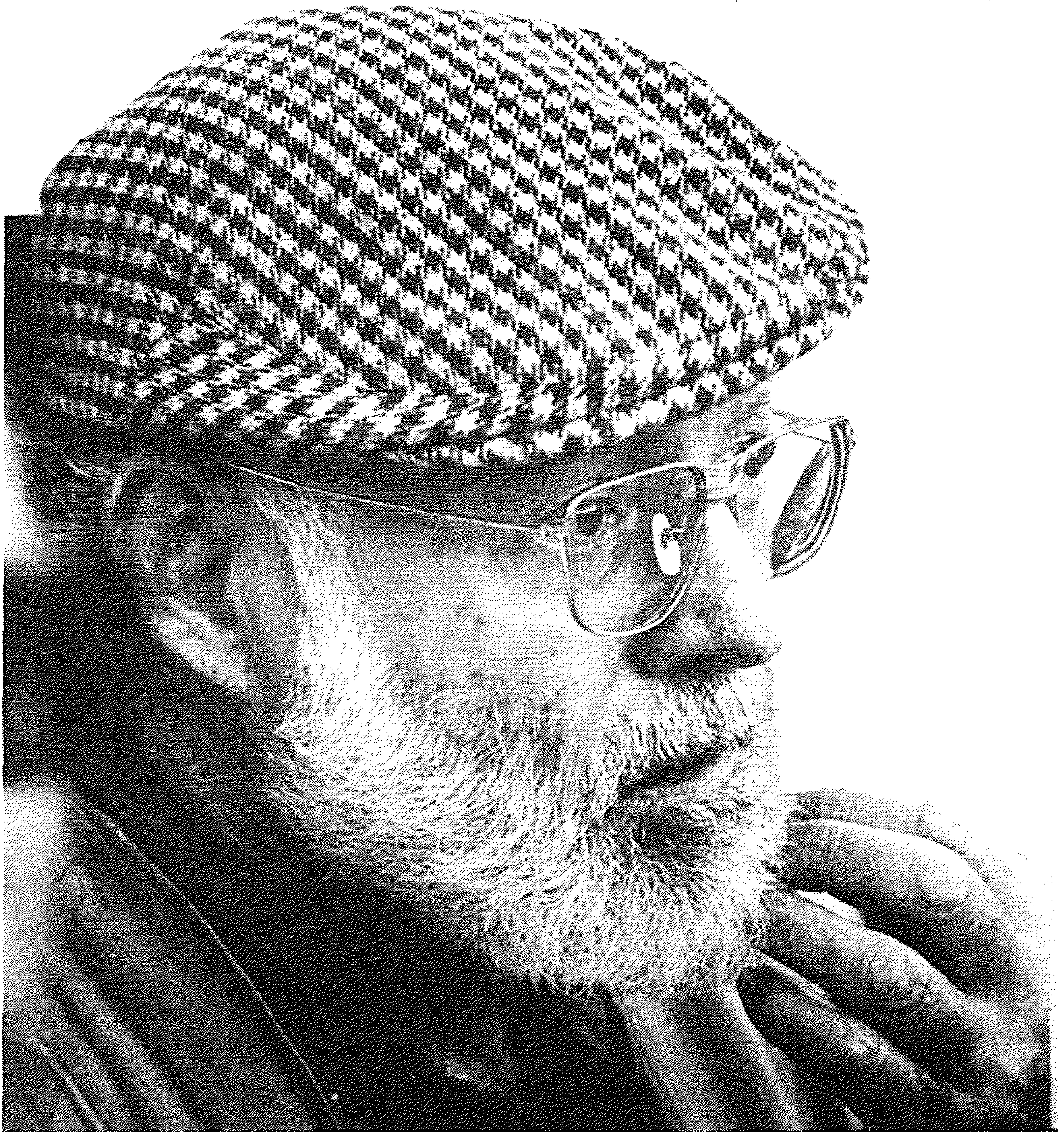
كان الابن الثـانى للطبيب د. « كلارنس همينجواى » وللسيـدة « جريس

---

(٢٣) E. Hemingway : الأصح أن يُكتب اسمـــه حسب النطق : « هِمِنْجـــوِيْ » لأن المقطع الأخير «way» يميل فى النطق العربى إلى الكسرة مع المد (مثل : day) لكن الشـائع بين كتاب العـربية كتابته بالألف (واى) ، فلا حرج من خطأ شائع لا يضر ، وإنما لزم التنويه .

HEMINGWAY

«إرنست همينجواى »: ١٨٩٩ - ١٩٦١
(توقيعه أعلى الصورة يسارا) .



هال » ، التى كانت ترغب أن تكون مغنية أوبرا ، ثم اكتفت بإنجاب الأبناء : «مارسلين » الابنة الكبرى ، « إرنست » ، ثم « أُرسولا » ، وبعدها « سونى » ، وأخيرا بعد سنوات الشقيق « لَيسَسْتَر » . فكانت الأم تغنى لهم ، وتحنو عليهم ، وترعاهم حُسْن الرعاية . أما الأب ، فكان يَنْزع إلى خشونة فى رجولة، وقسوة فى صحوة ، وتأديب بغير ترهيب . وهذا مثال فى موقف :

علَّمه الأب فى بواكير صباه أن يكون قويا : جسما ، وخُلقا ، وعملا . وأرشده إلى أن القوة مَهْما تعاظمت لابد لها من ضبط ؛ والأخلاق مَهْما تغايرت يجب ألا تخالف الأعراف والتقاليد ؛ وأن العمل مَهما كان بسيطا فلا مَحيد عن فعله بقصْد الفائدة والنفع . وبهذه الثلاث ، يحفظ المرء نفسه ـ ولو كان صبيا ـ من مخاطر أو مثالب ثلاثة : رعونة التجبُّر ، ودَنَس الانحراف والزَّلل ، ووصْمة الإفساد والسَّفه . وفى هذا الإطار ، كان أبوه يَرْقُبه ، ويذكِّره ، ويرعاه .

كان فى سن العاشرة عندما أهداه والده أول بندقية ، إذ رآه قوى البنْية ، شَغوفا بالصيد . ولما كان بيت الأسرة يطل على غابة مجاورة ، فقد فرح الصبى بتلك الهدية ، وراح يتجول بها ليتعلم الصيد وتسديد الرمْى . كان يقضى فى الغابة ساعات طويلة ، يختبر شجاعته ، ويطارد فريسته ، وأدرك مبكرا – كما قال فيما بعد – أن المرء لكى يكون رجلا بحق ، عَلَيه ألاَّ يخاف ، أبدا لايخاف من شىء ، فليجرِّب كل شىء ، من الصيد إلى الحرب . وقد رأى بعينيه فى الغابة ، أن الكل يَقْتُل ويَقْتَتل ؛ وأن ذا يَقْتل ليأكل ، وهذا يَقْتُل ليَغْلِب، وذاك يَقْتل خشية أن يُقْتَل . فلما أخبر أباه بما اكتَشَف وعَلِم ، أَفْهَمه أن تلك حياة الغابة ، حيث تسود بالقوة دوافع الطبائع والحاجة . أما بين الناس فإن قُوَّتَهم تحكُمها وتنظمها عدالة ، وعقول ، ومثاليات ، وقِيم .

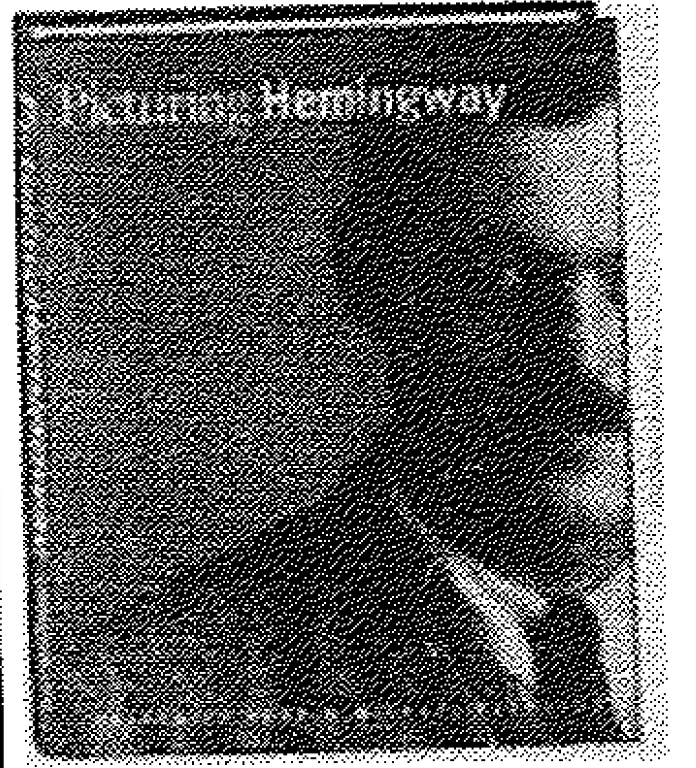
ورجع يوما من الغابة يحكى لأبيه ـ مُفاخرا ـ أنه قَتل ببندقيته خِنزيرا وحشيا لأنه جَرح كلبه ، وأحضره معه إلى البيت . فإذا به يفاجَأ بقول أبيه : « أقتلتَ هذا الخنزير البرىء لمجرد أنه أصاب كلبك بجُرح ؟ وهل جزاء مَن يَجْرح أن يُقْتَل ؟ أىُّ الذَّنْبين أكبر ؟ أم أنك قتلْتَه لحاجةٍ ومنفعة ؟ إذن . .

« العجوز .. والبحر »
الرواية التى جلبت له جائزة
نوبل فى الأدب (١٩٥٤)
وكان هو محبا للبحر ،
وللصيد .. فى البر والبحر !

Le Prix Nobel de littérature

فلزامـا عليك أن تأكله كله » ! وأصرَّ الـوالد ، ورضَخ الصبى . فظل يشـوى ، ويعيد شـواء لحم الحيوان السمين . ولم يكن مـذاقه طيبـا ، فكان يلوكه على مضض .

هكذا تربَّى « إرنست » منذ طفـولتـه وصبـاه . فلما بلغ سن السـادسـة عشرة تحوَّل فى تنمية قوَّته إلى رياضة الملاكمة ، وأقبل على الكتابة والمطالعة . لكنه لم يتخلَّ عن الصيـد ، وأحب علوم الرياضيـات . ومـارَس فى سنوات الدراسة الثانوية عمل المحرر لمجلة المدرسـة الأسبوعية ، وكان من عادته أن يزيِّن بخياله صيـاغة أى حَدث ، ويوسِّع فيه أو يُضْفى عليـه بعض مشاعره الشبابية . وبدا للجميع أن خياله نشط متوهج ، يتوافق مع رؤيته النافذة إلى أعماق أى مـوضوع يتناولـه ، وأى مشهد يَلْمحـه . كـانت « جينات » تأليف الرواية أو القصـة تسرى فى دمـه ، وتَنْشط فى رأسـه وتحت جلده . فترك الدراسة ليعمل محررا بجـريدة « النجم » فى مدينة كـانْساس مقـابل خمسة عشر دولارا فى الأسبوع . واستقل بحياته بعيدا عن الأسرة .





كـانـت أول هدية قدمهـا إليه والده : بندقيـة ، وكـان فى سن العـاشرة ، فظلت البنـدقيـة مـلازمـة له طوال حياته !

أدرك وأحسَّ أنه بحاجة إلى اقتحام آفاق جديدة ؛ إلى المغامرة ؛ إلى الكتابة عن أحداث حية ، عن وقائع نابضة . فرأى أنه لابد من التجوال عبر العالم ، ومن معايشة الدماء التى تسيل فى صراعات لا تنتهى بين الناس ، والشعوب ، والدول ، لكى يكتب عن الحياة بإيقاعها السائد ، وليس من وحى الخيال والأوهام والتصوُّر المصطنَع . وفى هذه الفترة التى قضاها فى العمل بجريدة « النجم » تعلَّم أن يكتب بأسلوب خاص به متميز : إيجاز غير مُخِل ، ووضوح بلا حشْو يلائم المحرر الجيد . وكما قال : « تَجَنُّب كثرة استخدام كلمات الصفات الزائدة فى الربْط والوصْل ، والحرص على جاذبية العَرْض . ولا يكون الكاتب سلْبيا » . وتدرَّب على الإفاضة فى تزيين الكتابة عن أى موضوع ، وإجراء الحوارات السريعة الوافية .

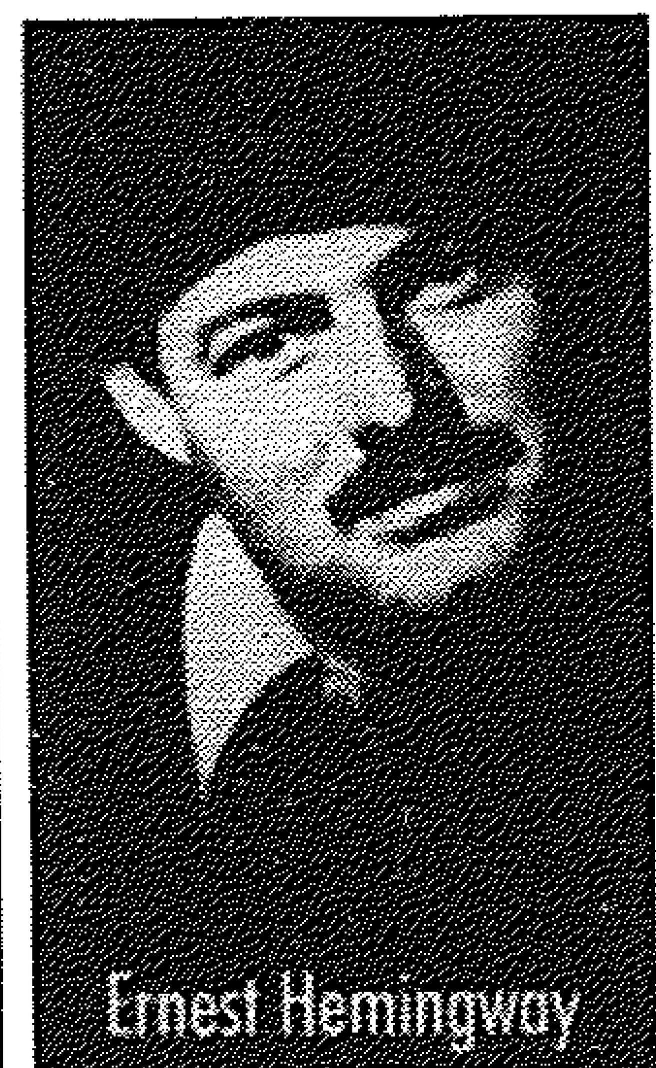
حَدَث ذلك فى سنة حاسمة بالنسبة إليه ، فاصلة فى تاريخ العالم الحديث : إنها سنة ١٩١٧ التى اسْتَعَرت فيها الحرب العالمية الأولى ، بكل ما حَمَلَت من حماقة وصفاقة ودماء وعداء وقتال وأهوال ، بسبب قادة وزعماء وساسة ، أطغتْهم القوة ، وأعمتْهم السلطة ، وأغواهم نَهم التسيد والجشع .[٢٤]

تحرَّق المحرر الناشئ شوقا إلى السفر لتغطية أخبار تلك الحرب من داخل ساحات المعارك فى أوروبا ، على الرغم من أنه لم يقْضِ سوى ستة أشهر فى العمل بجريدة « النجم » . وعارض أبوه تلك الرغبة ، وكذلك فعل القادة العسكريون . والسبب : أن نظر « إرنست » ضعيف غير ملائم للخوض فى ميادين القتال حيث التراشق بالبنادق ، والتهارش عن قُرب بحد السلاح ، وتكاثف أَدْخنة القذائف وأتربة الحطام والدمار .

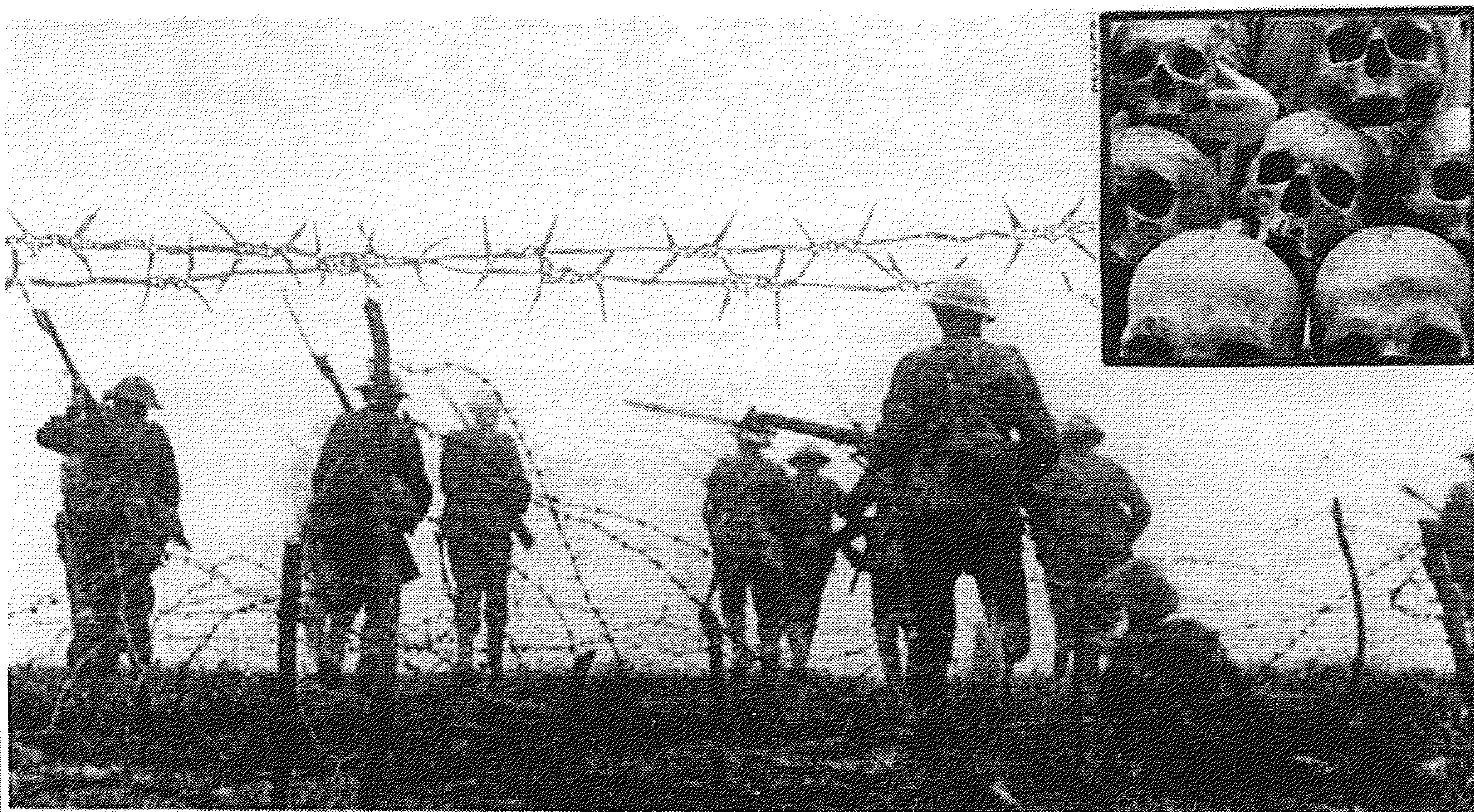
لم يتراجع عن عزمه ولم يُذْعن . تَحَرَّى سبيلا آخر ، بالتطوع فى هيئة الصليب الأحمر سائقا لسيارة إسعاف لنقل الجرحَى والمصابين من المدنيين

---

(٢٤) تفصيل وقائع ودوافع وفواجع تلك الحرب مبسوط فى الجزء الثانى من هذه السلسلة بعنوان : «السياسة والدبلوماسية فى القرن العشرين ـ جـ١ » .



فى المدن والمواقع الحربيـــة . وفى سنة ١٩١٨ كـــان فى مـــدينة « بورْدو » فى فرنسا، ومنها إلى باريس ، ثم إلى ميلانو (إيطاليا) ، إلى الجبهة فى « بياف » ، وهناك ترك العمل كســائق سيــارة إسعــاف ، إلى مساعــد ـ متطوع أيضــا ـ لتــوزيع المؤونة والاحتيــاجــات على الجنود القــابعين فى الخنادق بالخطوط الأماميــة . كان فى سن التــاسعة عشرة ، وعلى استعــداد لأداء أى عمل يجعله بطلا .



الحرب العظمـــى (العالميـة الأولى) وما حملت مـن حماقـــة وصفاقة ودماء وعداء وقتال وأهوال .

وأصبح « همينجــواى » فى سنة ١٩٤٢ اسما مَــذْكــورا . لكنه أدرك فيما بعد، أنه كان غِرًّا طائشا مدفــوعا بالرغبة المجنونة الرعناء . قال : « كنت غبيا معتــوها عندما جــريْتُ إلى حــرب ١٤ ـ ١٩١٨ . أذكر أننى كنت أتصــوَّر تلك الحرب وكأنها لُعبة أو مباراة نحن فِيها طَرَف أو فريق ، والنمساويون فريق منافِس » . لكن الضربة القاضية ـ أو بالأحرى المنبِّهة ـ بالنسبة له ، حدثَتْ فى منتصف ليلة الثامن من يوليــو ١٩١٨ . كان « إرنست » فى تلك الليلة فى غاية الإرهاق والتعب بعد أن قضَى النهار كله متسللا بين الخنادق تحت وابل من

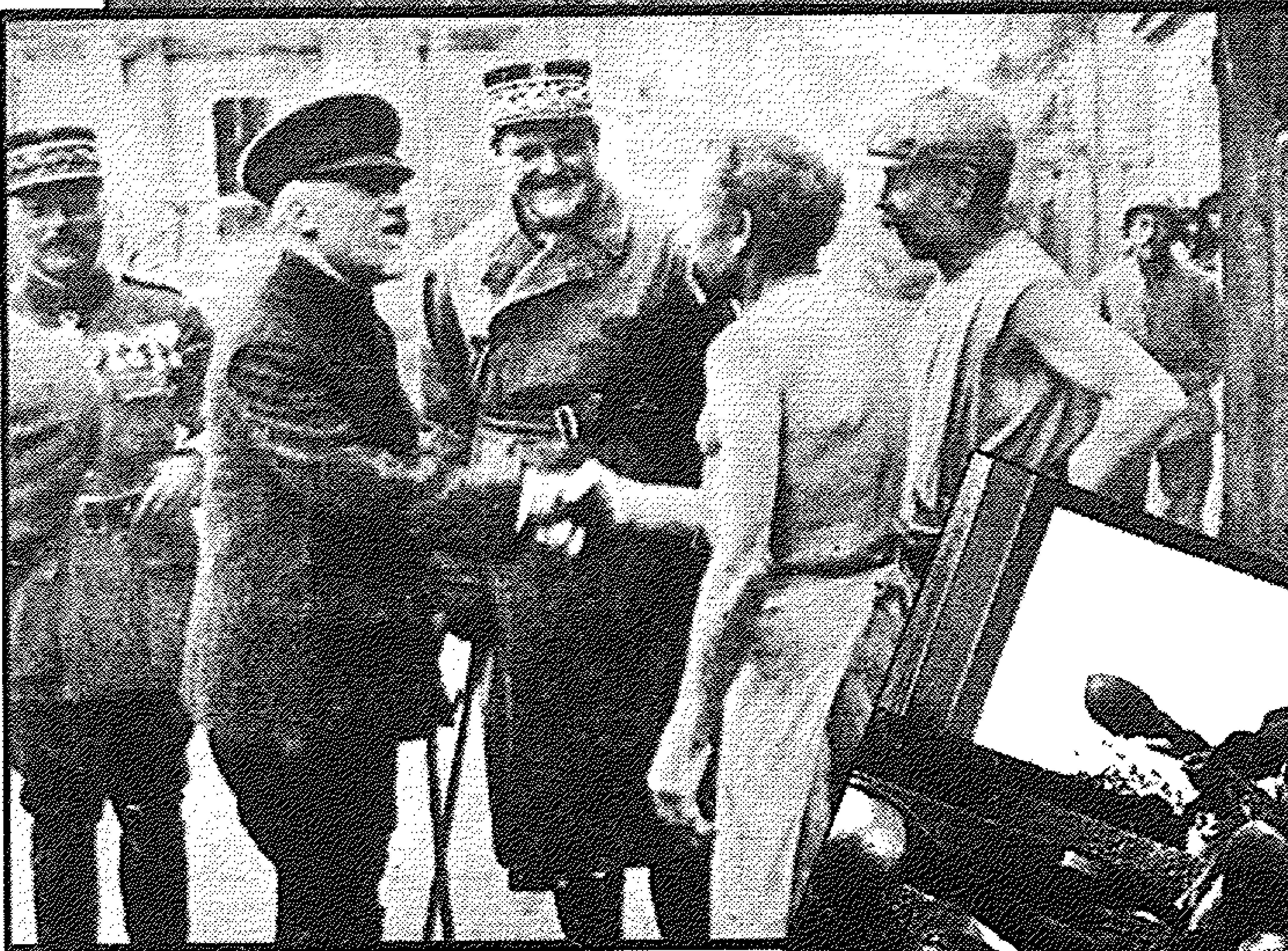
النيران وقد تمزقت ملابسه وهو يوزع الأطعمة على الجنود المرابطين قرب النهر . وعند منتصف الليل انفجرت قذيفة مدفعية معادية فوق الشاطئ . قال : « شاهدنا على الفور وهَجا ضخما يندفع ، كأنما فُتِّحت أبواب فرن هائل، صحبه صوت زئير مهيب مُزمجر ، وتحول لون الوَهَج من الأبيض إلى الأحمر » . ثم أضاف : « حاولت أن أتنفس ، لكنى لم أُفلح مُطْلقا . كانت الأرض تهتزّ .. تئزّ .. تشققَتْ . سمعتُ شخصا يبكى . حاولت أن أتحرك . مستحيل . دوَّتْ فى أُذنى أصوات طلقات البنادق تنطلق من الجانب الآخر للنهر» .

تصاعد صوت الباكى قريبا منه . لم يتبينْه « إرنست » فى الظلام . فزحف واجِفا ناحية الصوت . رفع الجندى المنتَحِب ، وألقاه فوق ظهره ، وأسرع به – وهو مقَوَّس الظهر – إلى مركز القيادة ، وقبل أن يَدْلف بِحِمْله نحو الداخل، أصابتْه رصاصة فى ركبته اليمنَى . فشَعَر بأنه سيسقط . حاول أن يتماسك. لكنه سقط أرضا . لم يستطع النهوض . ولم يَعرف ـ ولن يعرف مطلقا ـ ماذا فَعل لكى يحمل هذا الجندى ، بينما كان هو ـ دون أن يدرى ـ ينزف غارقا فى دمه بسبب اختراق ساقه بمائة وسبع وثلاثين شظْية قنبلة ، وإصابة قدميه برصاصة فى كل منهما . كان أول أمريكى يُصاب فى تلك الحرب !

تلقَّى حفاوة وتكريما . ثم اعْتراه روماتيزم ، فخضع للعلاج . وأحب الممرضة المعالِجة وأحبتْه . كانت تَكْبره سنا . لكنها أظهرتْ قدرا كبيرا من الشجاعة وقوة الإرادة : فقد انصرفت فجأة عنه قبل أن يبادر هو بذلك . وعاد إلى الولايات المتحدة ، يحمل ذكريات غرام لم يكتمل ، وأول شرارة حب لم تتوهج ولم تنطفئ ، ورتبة الملازم ، وميدالية فضية تقديرا « لبسالته » ! ودُهِش عند عودته لاستقباله بحفاوة لم يتوقعها ، وترحاب يفيض حماسة ـ خاصة من النساء والفتيات ـ أينما حَل ، وطلبات كثيرة تدعوه لإلقاءمحاضرات عن « أعماله الحربية ! » التى بقى له منها جرح بطول عشرين سنتيمترا بقدمه اليمنى ، فوق ثُقب غائر ، ومن خلفه ثقب أكبر فوق



ضراوة الحرب فى الساحات والخنادق



رئيس جمهورية فرنسا « بوانكاريه » يصافح مهنئا اثنين من الخبَّازين الذين بذلوا جهدا شاقا متواصلا لإطعام الأهالى فى أوقات الحصار والدمار .



ومأساة الشعوب ضحية الحروب وانتشار التسول والخراب .

الركبة ، وعَرَجٌ ظاهر من آثار « المعارك » التى لم يشترك فيها ! غير أن مَظهره – على الأقل – يوحى بذلك : فهو لم يَبْلغ بعد سن العشرين ، ووزنه يتجاوز تسعين كيلو جراما ، وطوله يزيد عن متر وثمانين سنتيمترا ، ويلبس حذاء مقاسه خمسة وأربعون سنتيمترا ، فيبدو ضخما قويا متينا لا تَنْقصه الشجاعة وبسالة الإقدام والاقتحام . . أو الالتحام . ولا شىء يُخيفه ، ولا الآلام تُفْزعه . وقديما ، عندما كان طفلا ، سقط من عُلُوٍّ فوق عصا فانغَرَسَتْ فى عنقه ، فأخرجها أبوه الطبيب بسلام ، ومسح الدم المُسَال وهو يُسْدِى إليه نصيحة مَليحة . قال : « إذا أصابك مكروه ، فحاوِل أن تُصَفِّر أو تُغَنى ، فإن هذا يَشْغلك ويُنْسيك ما يُؤْلمك » . يبدو أنه كان طبيبا . . حكيما !

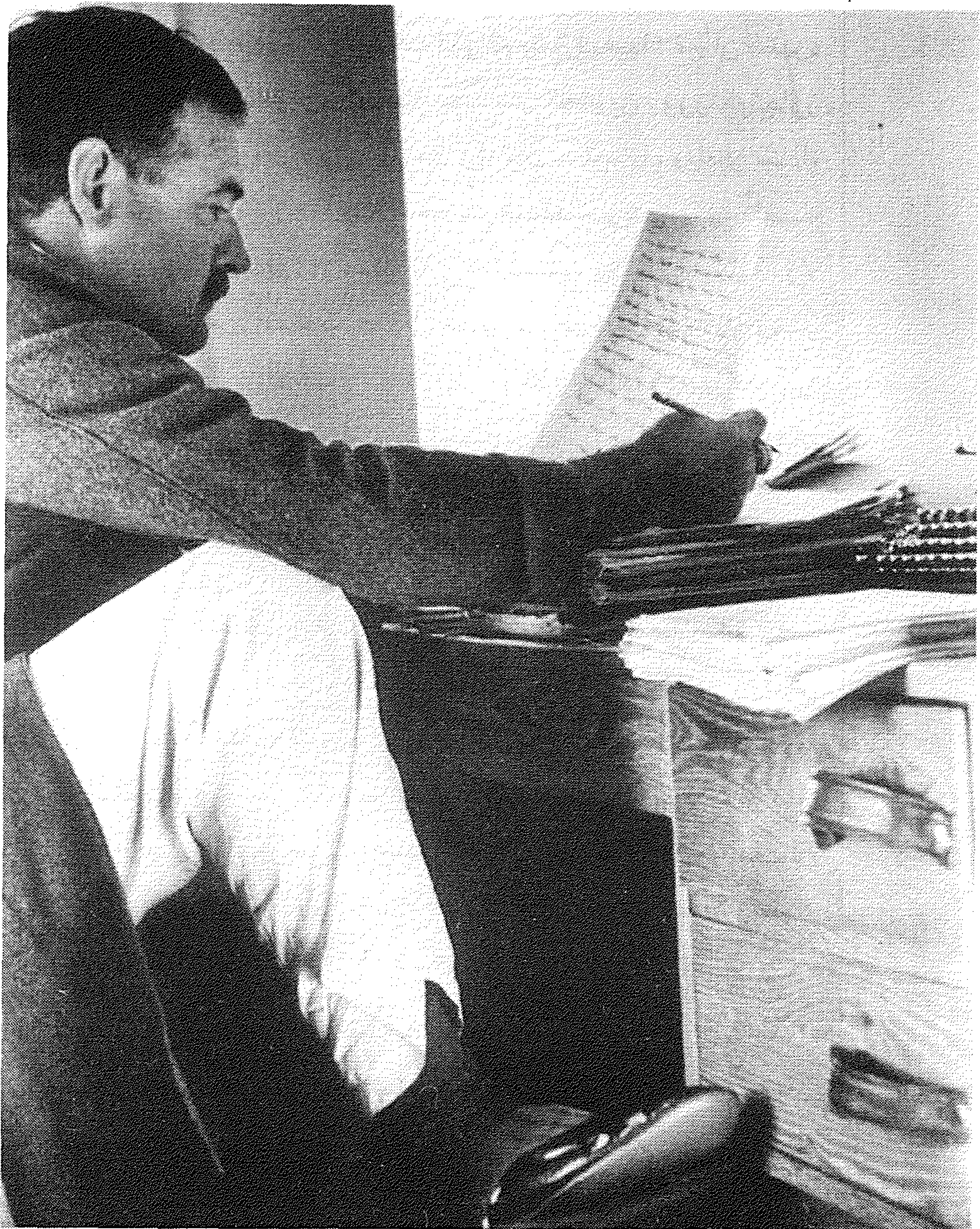
نوابض حياته

هذا كله سوف يلخص حياة « همينجواى » . . الإنسان : القوة . . وصلابة الأبوة . . عُذوبة صوفية مُستقاة من الأم . . نوابض من روابض البيئة والمدينة : لأخشاب وأشجار غابات ، لأنهار وشُطْآن بحار ، لأرصفة طريق وحانات سُمَّار . . أوحال خنادق فى إيطاليا . . لفْح غرام وفراق بغير انتقام . . آثار جرح بالساق ومائة وسبع و ثلاثون شَظْية . إنها علامات لن تُمْحَى ، وشهادات موثَّقة عن شجاعة جَدُّ مُكْتَسَبة ونادرا مُنْتَحَلة ، وبطولة متعددة الجوانب سوف تلازمه بقية عُمره .

عاش همينجواى الفترة الباريسية من حياته معيشة « أمريكى فى باريس» بحَق . ونَعِم بمعرفة وصُحبة « **فيتزجيرالد** » [٢٥] وزوجته « زيلْدا » فى مَرَحهما ونجاحهما وسيارتهما المكشوفة السقف ! كان ذلك فى السنوات

---

(٢٥) F. Scott Fitzgerald : (١٨٩٦ ـ ١٩٤٠) ـ أمريكى كاتب قصص قصيرة وروايات طويلة . بدأت شهرته من مجموعة قصصه : « عصر (موسيقى) الجاز » ـ ١٩٢٢ . ولكى يفوز بالموافقة على زواجه من « زيلدا ساير » ابنة رئيس المحكمة العليا فى ولاية « ألاباما » الأمريكية ، أعاد كتابة رواية : « هذا الجانب من الجنة » التى كان ألَّفها وهو طالب ، فحققت له نجاحا جماهيرا وماليا . والتقطته المجلات والصحف ليكتب فيها وينشر قصصه بأجور مرتفعة ، ومنها :« هذه الماسة الكبيرة فى حجم (فندق) ريتز » ، و « الحسناء والوحش » ـ ١٩٢٢ ، « سَجَى الليل » ـ ١٩٣٤ ، « جاتسباى العظيم » ـ ١٩٢٥ وهى من أحسن الروايات فى عصرها . وأحسن قصصه القصيرة : « الغلام الغنىّ » ، و « جميع الشباب المحزونين » ـ ١٩٢٦ .



همينجواى المراسل الحربى يكتب للصحافة .

التى يُطْلق عليها فى فرنسا : « سنوات الجنون . . أو المرح والطيش » . وفى هذه الفترة السعيدة ، بدأت تنمو فى ذهن همينجواى على مَهَل أول رواياته الكبرى : « الشمس أيضا تُشْرق » . ولماذا أضاف كلمة « أيضا » ؟ هذا الجندى العاجز المكلوم ، ينهض واقفا بلا أمل مع طلوع فَجر بلا نهاية ، بلا

مَجْد ، بلا حُب ، لكى يُواصل حياته ، وكذلك الشمس « أيضا » . . تُشرق يوما بعد يوم ، ليُتابع العالَم مسيرته .

نَبعتْ هذه الرواية من خبرات الحرب ، متضافرة مع حصيلة مراقبة مجموعات الأمريكيين الصغيرة التى كانت تعيش فى باريس حول سنوات العشرينيات . فى تلك الفترة ، كان همينجواى يجتاز مرحلة المغامرة ويحيا حياة المغامر ، مغتنما وظيفة مراسل حربى فى استانبول ، حيث كان الأتراك يقاتلون اليونانيين ـ فى سنة ١٩٢٢ ـ المحتلين لأراضيهم ، وأفلحوا فى طردهم من الأناضول بقيادة مصطفى كمال **أتاتورك** (أى : والد الأتراك) . والرواية فى سياقها تطرح السؤال : مَن المذْنب فى الحروب ومَن خاسر القضية ؟ مَن الجانى ومَن الضحية ؟ (٢٦) ويخلص إلى أن الأطفال اليونانيين – الذين لايدرون شيئا عن المهزوم والمنتصر ـ ضحية بريئة .


مصطفى كمال أتاتورك

ربما لأنه فى تلك السنة استقبل أول مولود له . كان قد تزوج « هادْلى » فى السنة السابقة (١٩٢١) ، وهى الزوجة الأولى بين زوجاته الأربع ، وأنجبتْ له طفلا قال عنه : « إنه يعوى كثيرا ويحطِّم الآذان » عندما كان هو يكتب الفصل الأخير من : « الشمس أيضا تُشْرق » . ثم افترقا بالطلاق سنة ١٩٢٧ . وتزوج الفرنسية « بولين » محررة ذكية مرموقة بمجلة « فوج » النسائية المشهورة . وفى دفء جوارها كتب رواية : « وداعا للسلاح » –١٩٢٩ . كان فى سن الثلاثين . وعلى الجانب الآخر من المحيط ، كان أبوه « يصيغ » رواية درامية أخرى ، لكنها واقعية تماما . . ومأساوية !

---

(٢٦) كالعادة مع كتَّاب الغرب ـ إلا ما نَدر ممن يَعَف ويُنصف ـ يميل همينجواى فى الرواية إلى جانب اليونانيين المهاجرين من الأراضى التركية ويأسَى على أحزانهم وبؤسهم وشقائهم فى مسيرة الخروج ، ويستشير المشاعر للبكاء عليهم ، وبالتالى السخط على أعدائهم (الأتراك) ، وأغفل ولم يُشر إلى أن اليونانيين كانوا محتلين مناطق ومدنا كبيرة بأكملها داخل شبه الجزيرة التركية وكانوا يهددون باحتلال استانبول ذاتها ، وأنهم أحرقوا عامدين عددا كبيرا من القرى والمدن بمن فيها وكذلك الحقول وهم فى طريق نزوحهم مهزومين ، واغتصبوا آلاف النساء ، وقتلوا آلاف الأطفال ، وسلبوا ونهبوا ودمروا . وفى حرب التحرير هذه لا يُسأل مَن الجانى : فهل يُلام شعب يجاهد ويقاتل لتحرير وطنه وصيانة تراثه ومجده وكرامته وعِرْضه ؟



باريس: فى سنوات « الجنون .. أو المرح والطيش » ، فى العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين .

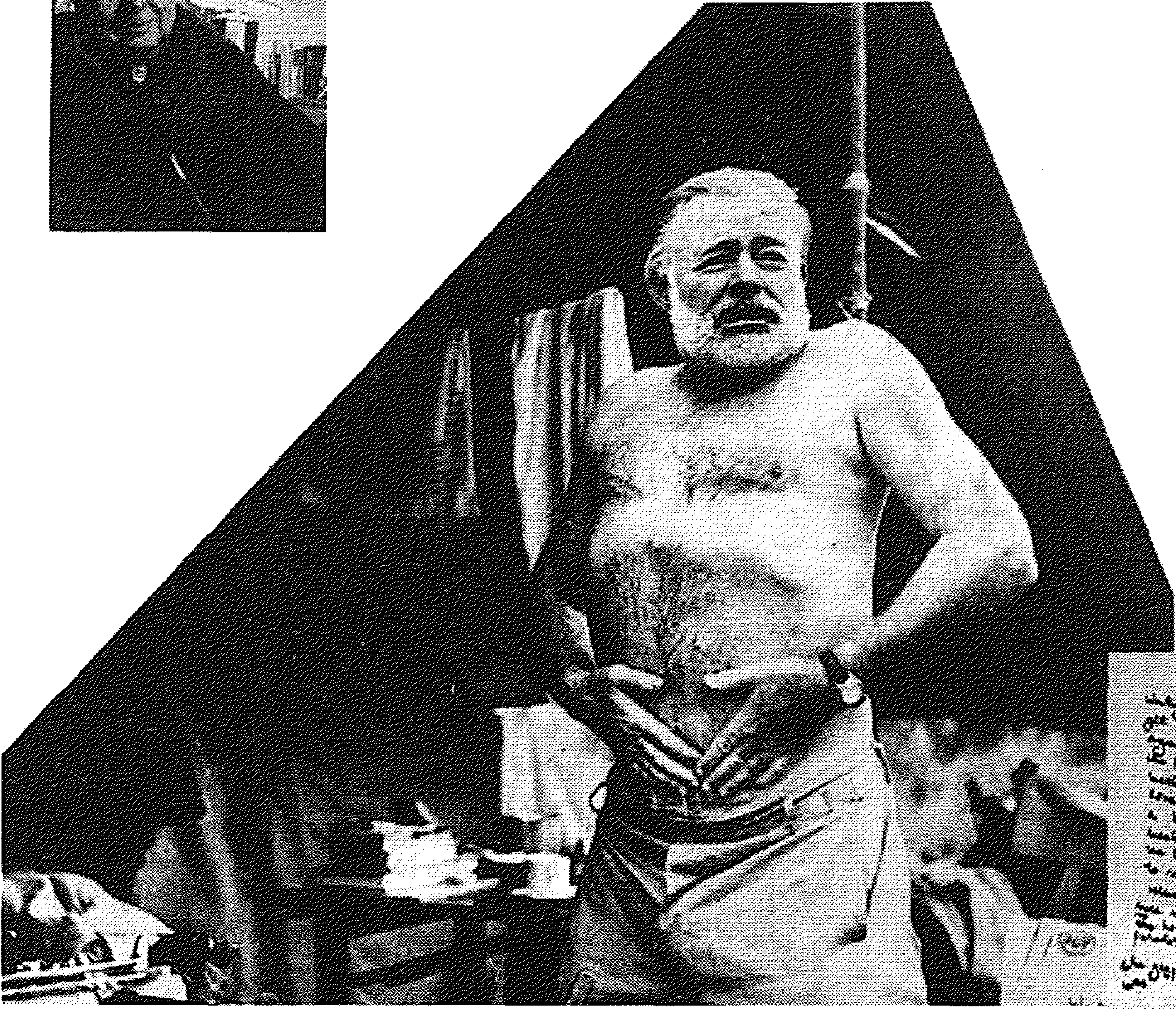


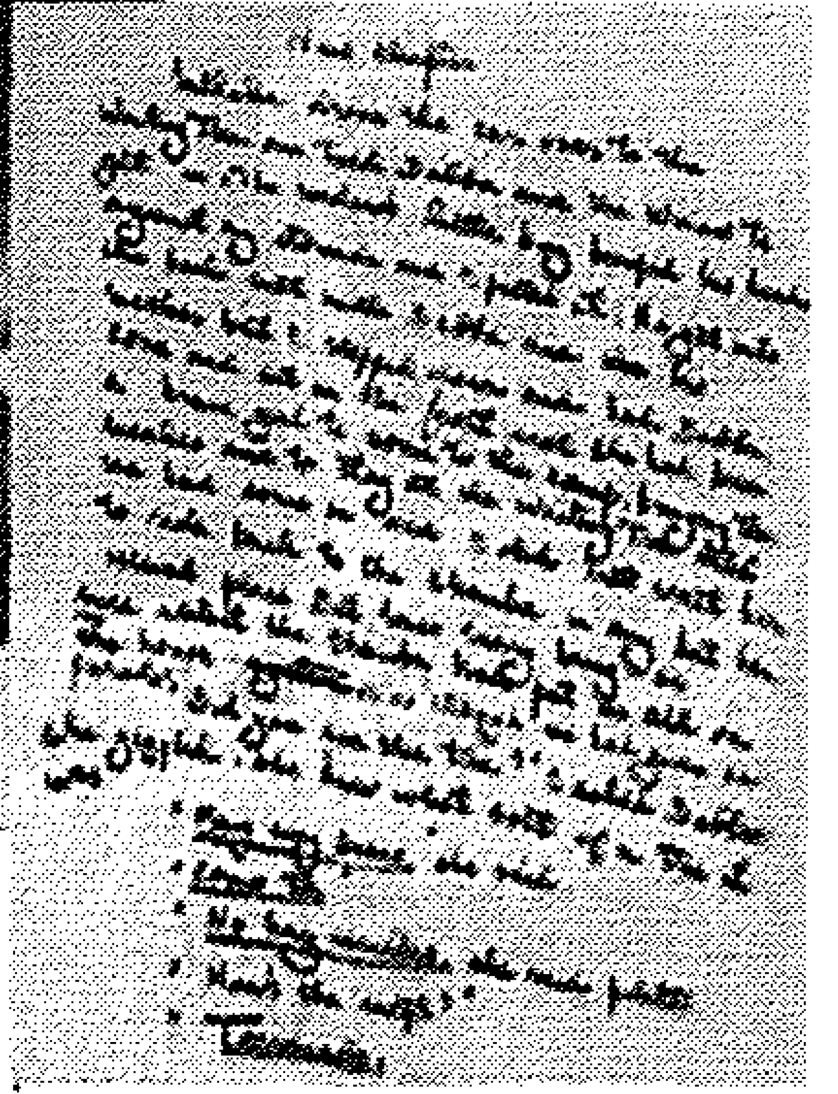
أطياف الموت

كان العجوز همينجواى ـ الأب ـ كهلا مـريضا ضاق بالحياة وتخلَّى عنه الأحياء . ولما كان هو طبيبا ، وفى ضائقة مـالية ، وقد بلغ من الكِبَر عِتِيّا ، فقد كان مُدركا لأخطار مرضه المتفاقم ، وعَجْزه عن اكتساب ما يحل أزمة المال ، وسَأَمه من تنائى الأصـدقاء والأهل والعيال ، وكرامتـه على أى حال ـ وكان يعتـدُّ بها ـ تمنعه من الشكوى أو قبـول الهوان . فأحـرق أوراقه الخاصـة ، وصـعـد إلى غُـرفته ، ثم أغلـق الباب بإحكـام ، وأمسك بمسدس أبيـه (جـد إرنست) وأطلق رصـاصـة من وراء أذنـه كـانت كـافيـة لتهشيم الرأس فى الحال. وتلقى « إرنست » الخبر ؛ فماذا فعل ؟ أبرق إلى أخيه الأصغـر ـ وكان فى سن الثـالثـة عشرة ـ يقـول : « لا تَبْكِ عند دفْن أبيـك » . ورفض إظهـار الأحـزان ، أو الحديث عن الفجيعـة والانتحـار ، ولم يُصْغ لتعليقـات الأهل والجيران عن حالة « الاكتئاب » التى كـان أبوه يعانى منها فى أواخـر أيامه . ومع ذلك ، كان هو ـ إرنست ـ يعرف وقْـع تلك الحالة المكتئبة التى مَرت به ، وكـان أحيانا يتحـدث عن الانتحـار ، بدون أن يدرى إقـدامه هو نفسـه على ارتكاب تلك الخطيئة مستقبلا . ولئن كان أبوه فعل ما فعل بعد صراع شديد طويل مع النفس وآلامهـا وإظلامهـا ، فإن الابن سـوف يفعله وهو فى قمـة الشهـرة والراحـة والرِّفعـة ، بدافـع مختلف ـ كما ذاع بعـدها وشـاع ـ هو مخافة أن تغشاه تلك الحالة يوما ، فتَنْهشه حيا وتعذِّبه . لكنه فى تلك الفترة ، كـان لايزال قادرا على التأكيـد بأنه لايخاف شيئا . . ولا يرهب الموت ، الذى فَرَضَـه على آخرين ، فى رواياته .

فَرَغ من إتمام روايته بسرعة فى فبراير ١٩٢٩ ، وهـى : « وداعا للسلاح » ، لكى يسـدد ديون الأسرة التى تركهـا والده ، ولمسـاعدة أمـه على المعيشـة . وأسعَفَتْه القصص القصـيرة ، فعـائـدها المالى سريع وإن كان قليلا . فكتب : « رجال بلا نساء » ، و « فائز لاينال شيئا » ـ ١٩٣٣ ، ثم « مكان نظيف جيد الإضـاءة » ، و « وفاة بعـد الظهيرة » . وبعـد رحلة إلى غابـات أفريقيـا كتب قصة: « تلال أفريقيـا الخضراء » ـ ١٩٣٥ . ثم كتب روايته المعبِّرة بجلاء عن







« إرنست همينجواى » يقف متثاقلا فى خيمته التى أقام بها فى إحدى رحلات صيده فى أفريقيا . يقول ابنه « باتريك » - صورته إلى أعلى يسارا - إن والده كان خبيرا مشهورا بالأدغال والغابات الأفريقية وظهر ذلك فى قصصه ورواياته . كما أنه ترك آلاف الصفحات المكتوبة بخطه (إلى اليمين) لموضوعات وقصص قصيرة وروايات لم تكتمل ، وكلها تلقى ضوءا جديدا على فكر ومشاعر ودفين انفعالات أبيه ، ونشر بعضها سنة ١٩٩٩ .

تصاعد اهتمامه بالمشكلات الاجتماعية ، وهى : « مَن يَمْلك ومَن لا يملك » -١٩٣٧ .

تدور أحداث قصته :

« وفاة بعد الظهيرة » حول « الآلة الجبارة » التى تنظِّم وتدير عالَم مصارعة الثيران ، وتحصد بها فى النهاية الأرباح والأموال ، كما تحصد أيضا رءوس الثيران والرجال . كان همينجواى عاشقا لتلك المصارعة الدموية منذ زيارته الأولى لأسبانيا . وعلى الرغم من مجاملة النقاد الزائدة له فى الصحف والمجلات الأمريكية للتخفيف من إيقاع وكثافة القصة ، إلاَّ أن

الحكم عليها لم يكن قاسيا حين قال : « إنها مُحزنة ، مُعتمة ، وعمل رومانسى (عاطفى ملتهب) يرفض الاعتراف بأن الموت هو النهاية ، وهو المتمم للحياة » .

والموت . . دائما الموت يُذْكر كثيرا فى روايات وقصص همينجواى . فكثيرا ما واجهه ، وكثيرا ما اجتذبه ، وكثيرا ما أخافه . . فكتب عنه وأكثر ، حتى يدفع بعيدا رهبته . وكانت رحلاته إلى أفريقيا ، وبرمودا (جزر بالمحيط الأطلسى) تحديا للموت ، وفرارا من هواجس التفكير فيه . وفى برمودا أكرم نفسه بهدية حققتْ واحدا من أجمل أحلام حياته : مركب طوله أحد عشر مترا، بمحركيْن ، ودفَّتيْن . اشتراه بسبعة آلاف وخمسمائه دولار سنة ١٩٣٤ . فكان له بمثابة الواحة للراحة ، يلتجئ إليه دائما وقت الضِّيق .

فى الحرب الأسبانية

ومن خلال جولاته الأفريقية لصيد الضَّوارى والوحوش ، كتب رواية : « ثلوج كيليمانْجارو » .[٢٧] لكن فى سنة ١٩٣٦ ، وما بعدها ، حُرم الروائى الرحَّال من متابعة أسفاره ، إلى حين . فقد عادت الحرب الأهلية الأسبانية تشتعل بضراوة فى تلك السنة ، وعاد هو إلى ممارسة مهنته القديمة ، المحفوفة بالمخاطر : مراسلا حربيا صحافيا ؛ ثم لبِس الزى العسكرى ، مشاركا بنفسه فى القتال .

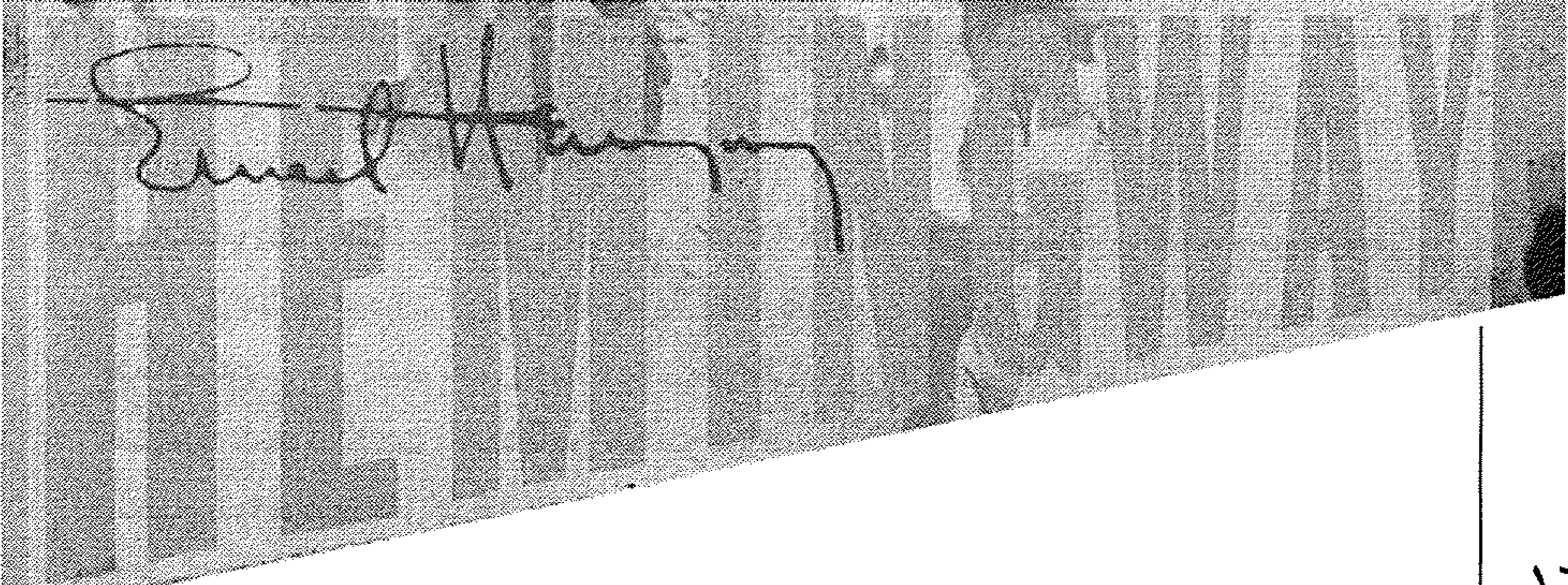
دفعتْه كراهيته للفاشستيين[٢٨] الأسبان إلى الوقوف محاربا مع الجمهوريين . لكن هذه الحرب « الضائعة المضَيِّعة » كما وصَفَها ، تركت فى نفسه مرارة ونَدَم . فقال صراحة : « إن الشىء الوحيد ذا قيمة فى الحرب ،

---

(٢٧) جبل Kilimandjareo ، وهو من الصخور البركانية ، فى تانزانيا ، وقمته « أُوهُورو » تغطيها ثلوج دائمة على الرغم من وقوعه بالمنطقة الاستوائية ، حيث يبلغ ارتفاعه ٥٩٦٣ مترا وهو أعلى ارتفاع فى القارة الأفريقية كلها .

(٢٨) الفاشية : نظام سياسى طُبِّق فى إيطاليا (من ١٩٢٢ ـ ١٩٤٥) بمعرفة واضعه « موسولينى » عن طريق سلطة الحزب الواحد القَمعية (الديكتاتورية) ، والتطرف فى القومية ، وتنظيم التعاونيات . وهو نظام يُقابَل عادة بالديمقراطية ، وفى كلٍّ حسنات وسيئات ؛ وفى نهاية القرن تساءلت شعوب كدَّت وشقيتْ من خضوعها لسياسات واجتهادات ونظم ، فتساءلت : هل صحيح أنها جميعا مثل ما قال الله تعالى فى الخمر والميسر : ﴿ وإثمهما أكبرُ من نَفعهما ﴾ ؟!





الثيران الأسبانية تنطلق فى الشوارع إيذانا ببداية موسم المصارعة وهمينجواى مع زوجته « مارى» بالمقصورة الرئيسية يشاهدان المصارعة الدموية التى ذكرها فى روايته « موت بعد الظهيرة » .

هو الانتصـار . . وما إن تبـدأ ، حتى توجَّـه مباشرة إلى النصر . . وهذا مـالم نفعله . فلْتَذهب الحروب إلى الجحيم ، فقد قررْتُ أن أكتب . . وكفَى » .

بيت فى كوبا

وكتب « لمن يَدُق الجرَس » ـ ١٩٤٠ . وكما غيَّر رأيه فى الحرب ، غيَّر أيضا زوجته . فاقترن بالثالثة : « مارتا جيلْهورْن » ، شقراء هيفاء ، رقيقة المشاعر طموحة حالمة ؛ واستمر فى التغيير ، فانتقل بزوجته الجديدة للإقامة فى كوبا، واشترى بيتا بقرية جنوب العاصمة هافانا ، فكان البيت الوحيد الذى امتلكه طوال حياته ، وأحبه مثل حُبه لمركبـه الذى خاض به البحار . غير أنه لم يكن سعيدا فى تلك السنوات من الأربعينيات ، بعـد كل ما فعل وغيَّر وأنْجز . فلجأ إلى المغـامرة : حـوَّل مـركبـه السياحى الجميل الأليف ، إلى سفينـة حربيـة صغيرة مستترة ، طوَّافـة تجوب البحـار ، لتستكشف مـواقع الغـواصـات المعادية ، ثم تستدرجها إلى كمين مترصِّـد . لكن الزوجة الشقراء الحسناء لم يعجبها هذا « الكفـاح » الساذج ، إذ لا قيمة فعليـة له وسط بحار ومحيطات تَعِجُّ وتَلِجُّ بمئات ، بل آلاف السفن الحربية والغواصات من كل حجم ونوع ، وأسـاطيل دول عُظْمى تتقاتل وتتناحـر وتتقاذف وتتفجـر وتحترق ؟ ! ولم يستمع « إرنست » جادًّا لقولها ، ولم تُطِقْ « مارْتا » صبرا على كتمان غيظها، فأخذت تَسْخـر من أفكاره وتتهكم ، ثم أعلنتْه بعزمهـا على السفر إلى انجلترا للعمل هناك مراسلة حربية . فرحلَتْ وتركتْـه وحيدا فى كوبا « مستغرقا » فى الشراب ، الذى صَرَفَـه عن « إغـراق » الغـواصـات ، وأخمد ـ شيئا فشيئا ـ حماسـه للكفـاح الوطنى . وفى ليلة من عـام ١٩٤٣ ، أفـرط فى الشراب داخل حانة بالعاصمة هافـانا ، وفوجئ الحاضرون به يقف مترنحا وهو يصيح فى غضب قائـلا إنه سيذهب إلى أوروبا للبحث عن زوجته وإعـادتها راغمة ولو بضرب الحذاء !

إلى الحرب من جديد

وفى الواقع ، كانت فترة إقامتـه فى كوبا منذ سنة ١٩٤١ غير مُريحة له كما كان يتـوقع . ولم تكن مُخْصِبة فى الكتابـة . وضاق فيها بالوحـدة ، مخادعا



« هافانا » العاصمة الكوبية فى سنوات الثلاثينيات من القرن العشرين ، والتى أقام بها فترة «همينجواى» مع زوجته الشابة «مارتا » فى البيت الوحيد الذى امتلكه فى حياته !



نفسه بأنه « يراقب ويتأمل مسار الحرب » . واعتراه اكتئاب وملل . ومع ذلك، كان يملك من الشجاعة وقوة الإرادة ، ما جعله يهجر طواعية حانات الشراب ، ويعود إلى ارتداء زِيِّه الحربى الأزرق المميِّز للمراسلين الحربيين . سافر فى حاملة جنود بحرية إلى بحر المانش (سنة ١٩٤٤) استعدادا لشهود اليوم الفاصل « يوم الحسْم » فى الحرب العالمية الثانية ؛ يوم نزول قوات الحلفاء سرا ، فى فجر السادس من يونيو ١٩٤٤، عند شاطئ نورماندى (شمال فرنسا) بقيادة الجنرال الأمريكى دوايت أيزنهاور (رئيس الجمهورية بعد الحرب) قائد جيوش الحلفاء ، لغزو ألمانيا النازية والوصول إلى برلين ، وإنهاء الحرب . ومضى همينجواى إلى نورماندى فى صحبة الفِرق العسكرية التى كانت تحت قيادة الجنرال « باتون » . ثم التحق بالفرقة الرابعة مدفعية ، واتجه إلى جنوب فرنسا . لم يعد « مراقبا يتأمل الحرب » كما زعم من قبل ، بل أصبح الآن مقاتلا مشتركا فيها . وهو بطبعه

يهْوَى الصراع والقتال، كما صرَّح بذلك: وللصراع عنده ـ من ممارساته وفى رواياته ـ أشكال وأنواع: صراع مع الثيران، وصراع مع مُصارع الثيران، وصراع مع فرائس الصيد، وصراع مع ضوارى الغابات، وصراع الإنسان مع الإنسان.. ومع الطغيان.. ومع الحياة.

وانضم إلى الجيش المتجه إلى باريس. ولم يجد معارضة لانْضمامه من القادة العسكريين، فهو لطيف المَعْشَر، سريع المصادقة؛ والأهم من ذلك: كان يملك زمام نفْسه، ويمتلك إحساسا قويا بمعنى الحرب، فيعرف جيدا الطاعة والانضباط فى أجواء المعارك، والحصول على المعلومات الضرورية عند الحاجة، وكيف يُحْسِن العمل عند سقوط قذائف، أو انفجار قنابل، وعند إصابة أو موت الجنود.

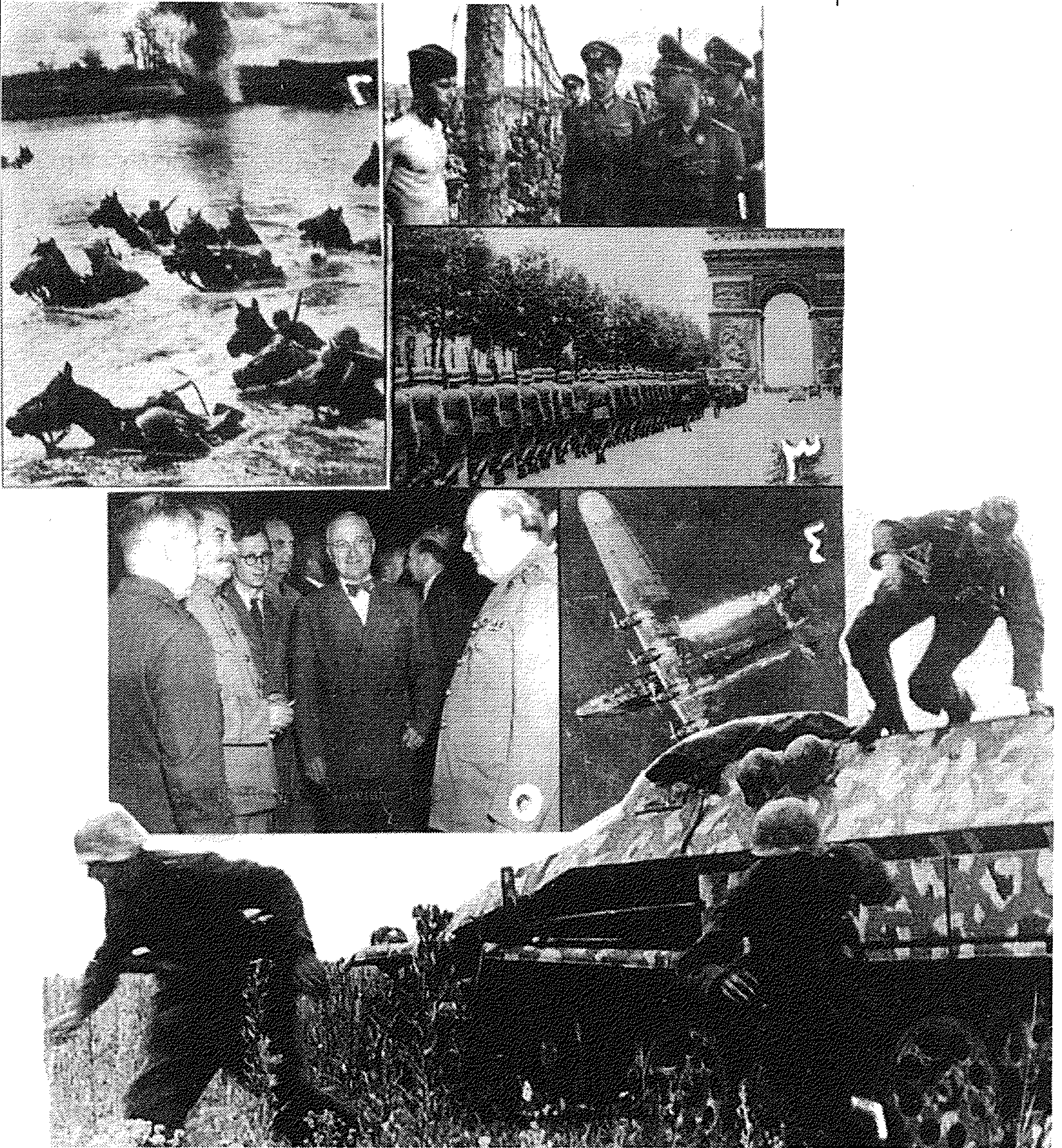
وفى باريس، يلتقى بزوجته الرابعة: « مارى وِلْش »، صحافية أمريكية، متخصصة فى الاقتصاد والسياسة. ثم يعود إلى الترحال والسفر: بلجيكا، ثم ألمانيا، وخط « سيجفريد »[٢٩]. إنه يستكمل أسطورته، ويعيشها يوما بيوم، ويملأ بالخبرات الثمينة شخصيته، مضيفا إليها حصاد مغامرٍ جرىء مُلْتَحٍ، ذى هِمة عالية، لم يَعُد يخشَى أهوال الحرب، وأضرار الشراب، وأخطار الإفراط فى صحبة النساء. وأمور كثيرة أخرى لايخشاها.. إلا شيئا واحدا: التقدم الزاحف فى السن، أو شتاء الشيخوخة. فهل آن للمحارب أن يستريح؟!

استراحة بلا راحة

لقد خرج من الحرب العالمية الثانية بحصيلة لا بأس بها: تسعة عشر جُرحا من المعارك، وبإصابتين من حادثتَىْ تصادم سيارة. فإذا ما أضيف إلى ذلك إفراطه فى الشراب، ورصيد ما مَرَّ به فى السنوات السابقة، والافتقار الشديد إلى الراحة على الدوام، الذى كان ينخُر فى بَدَنه وما فى داخل رأسه، لم

---

(٢٩) خط الدفاع الحصين الذى أقامته ألمانيا بين ١٩٣٧ و ١٩٤٠ على طول حدودها الغربية.



(١) القائد الألمانى « هنريك هيملر » يزور معسكرا للأسرى .

(٢) نزول قوات الحلفاء إلى شاطئ نورماندى الفرنسى فى يوم الحسم .

(٣) القوات الألمانية المحتلة لفرنسا فى استعراض للقوة فى قلب باريس .

(٤) كان للطيران الحربى دور كبير فى المعارك لدى الفريقين المتقاتلين بضراوة .

(٥) زعماء الحرب المتحالفون ضد هتلر : تشرشل / ترومان / ستالين .

(٦) دبابات البانزر الألمانية التى تفوقت وأزعجت بشدة الحلفاء .

يكن غريبـا إذَن أن تَصْحبه باستمرار آلام الصُّـداع والدَّوار ، وأحيانا فُقْدان الذاكرة ، وطَنِين فى الأذن . فتوقف عن الكتابة إلى حين مَيْسَرة .

ولكنه ظل متماسكا ، بينما آخرون فى مثل حالتـه الصحية ، بل وأقل منها آلاما وسُقـاما وضَجرا ، كـانوا يَهْلَكون سراعا من الإنهاك ، ومن الخوف أن يشتد بهم العـذاب . وإذ كان يدرك ذلك ، ويعلم مقـدار صبره هو واحتماله ، فقـد زاده المرض صمـودا ، وزاده الضَّجَـر عنـادا ، وزادتْه الآلام صـلابة ، فزادتْه قوة التحمل زهوا فى نفسه ، ومهـابة عند مَن يَعْرفون ومن يَجْهلون . لاحظ الجميع فقط أن شَعـر رأسه بدأ يتسـاقط ؛ وأنه يريد تجميل معيشتـه مع حُبه الأخير ، بأكبر قَدْر من السكينـة والهدوء . وابتهجَتْ أساريره عندما تسلَّم (فى يونيو ١٩٤٧) ميداليـة النجم البرونزية ، تقديرا لجهوده فى أثناء الحرب . فطاب نَفْسا . وجاء فى نص الشهادة المصاحبة للميدالية : « . . ونَظَرا إلى أنه أثبت جدارة فى معرفة عميقة صائبة بعِلْم العسكرية الحديثة وشَرْحه ، ومن ثَمَّ تفسيره الدقيق السـديد لقيمـة الحملات الحربيـة ، وأيضا لتعـاظُم القُـوى لدى الأصـدقـاء والأعـداء ؛ وبالنظر إلى انطلاقـه متنقـلا تحت وابل النيران فى سـاحـات المعـارك لكى يحصل على صـورة صحيحـة للمـوقف ؛ وبفضل مـوهبته المُجيدة للتعبير ، فـإن السيد « همينجواى » أتـاح للقُراء أن يدركوا بوضوح فائق وحيـوية ، مَدى الصعاب التى واجهها جنود الخطوط الأُولى وانتصاراتهم ، وكذلك انتظامهم فى المعركة » .

ارتفعت معنوياته ، وأسلم نفسـه بلا رَوِية لاستراحـة المحـارب : نَهم فى الطعـام ، وإسراف فى الشراب ، وانطلاق فى السفـر ، واستغـراق فى مغـازلة النساء ، واندفاع فى معيشة طائشـة لا رابط لها ولا ضابط . فكان طبيعيا أن يزداد سمنة (١١٦ كجم) ، ويتناقص قوة ، ويـرتفع عنده الضغط ، وتَنْتابه حِـدَّة وعصبيـة ، واستشـاطة غضب لأقل استثـارة ، وهَذيان بكلام غير مفهـوم. ورفَض استشـارة طبيب نفسى : « لا حـاجـة بى إليـه . فأنا أعلم بنفسى . . اكتئاب مرجعه إلى الضجَـر ، والملل ، والتقزز ، والزهو » . وتلميح عن التخلص من الحيـاة . . هـروبٌ مستتر ،لإخفـاء وَهَن ينتشر : « بالأمس ،



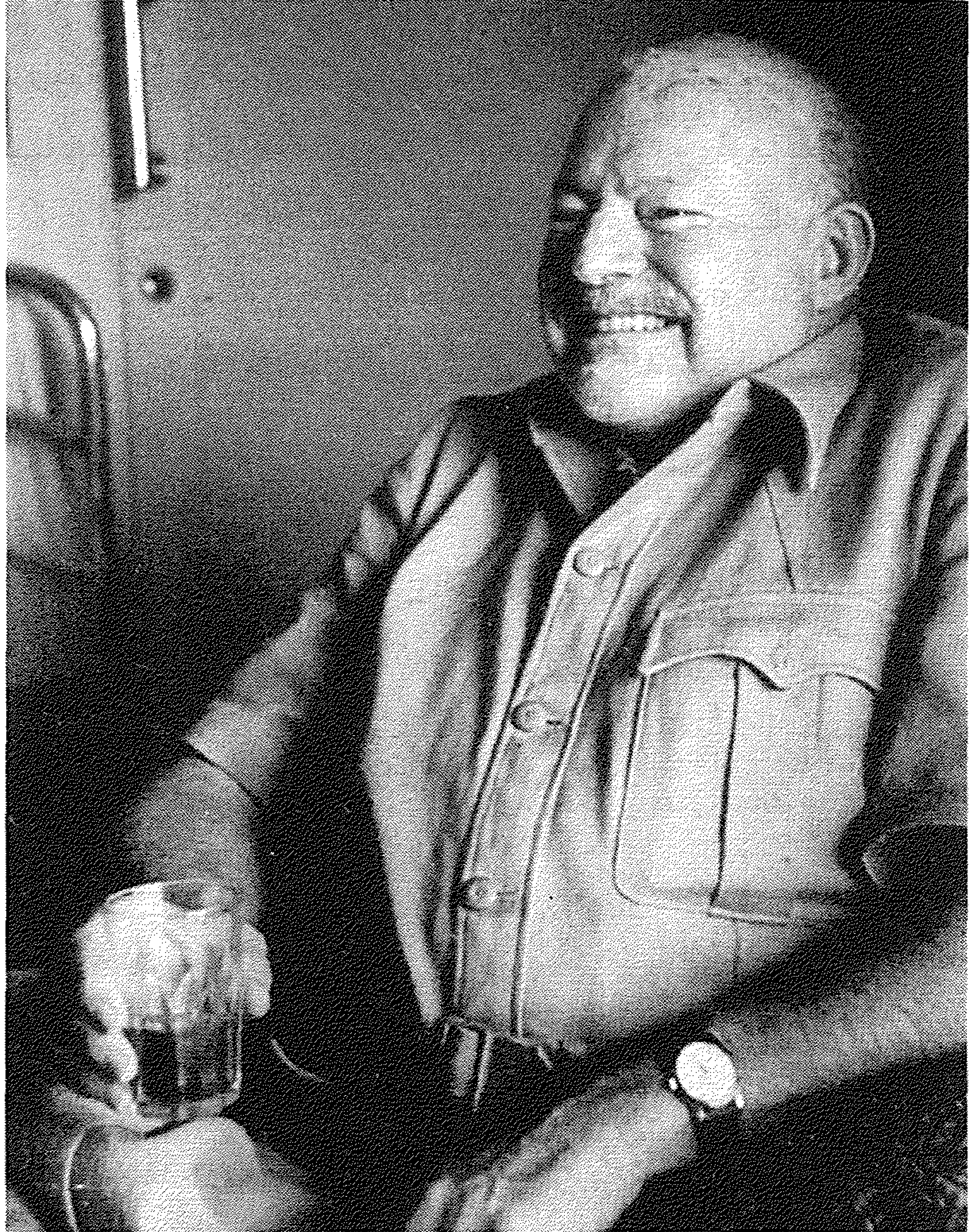
الزوجة الرابعة : الصحافية الأمريكية « مارى ولش » .

غَطَسْتُ لمسافة تقرب من كيلو مترين تحت الماء . . وراودتْنى النفْس أن أظل هكذا فلا أَخرج . كان حقا مُمْتعا » .

وكتب رواية هاجمها النُّقاد بشدة : « عَبْر النهر وبين الأشجار » ـ ١٩٥٠، وعدُّوها حَشْوا من الكلام تافهة . فضاعفَتْ هجماتهم آلامه ، وقد أصبح لا يَقْوى على الرد والصد . (ولو أنه سيفعل بقوة بعد حين) . إنه يقاسى من الصمت ، ومن الكسل ، ومن جروح الحرب . ويقاسى أكثر وأكثر من حبه الشديد لزوجته ، إذ منعه هذه المرَّة من استكمال سعيه فى مطاردة النساء ، وقد كان منذ صباه « صيادا » ماهرا . وشَعَر فى قرارة نفسه بأنه صار عجوزا بروح طفل ، وقريحة شاب ، وفحولة نَزِق . لكنه حبيس شُهرته ، مكَبَّل بوَهِيج أسطورته ، الذى يخشى عليه أن يَخْمد يوما أو ينطفئ . ومع



همينجواى يكتب



« أسلم همينجـــواى نفســـه بـلا روية إلى نهم فى الطعـــــام ، وإسـراف فى الشراب، وانطلاق فى السفــر ، واستغراق فى مغازلة النسـاء ، واندفـاع فى معيشـة طـائشـة .. فـــزاد وزنه كثيرا».

ذلك، فهــو آمن على نفْســه أن يعيش عِيشَــة راضيــة ، فى بيت يطل من عليـاء التلالٰ على البحــر الكاريبى ، فيشــاهَد مركبه الأثير لــديه رابضا فى مــرساه يتراقصه الموج ؛ وهى عِيشة طيبة هانئة ، فى كنَفَ زوجة مُحِبَّة مُحَبَّة ، رابطة الجأْش ، ترفض اليأس ، تُســانده فى الأزمــات ولا تَحْطِمه ، وتتغــاضى عن ثوراته ونَزواته حِفــاظا على الوُد وخير صفــاته . فهى تعرفــه حق المعرفــة ، وتناديه دائما « بابا » .


العجوز والبحر

فى خِضَم هذا الخَواء والرُّغـاء والغُثاء ، كتب همينجـواى تحفته الخالدة ، وأجمل وأرق رواياته على الإطـلاق : « العجــوز والبحـــر » ـ ١٩٥٢ ، التى

استحق عليها سريعا جائزة نوبل فى عام ١٩٥٤ ، فكانت « رد اعتبار » ، أو ردا عمليا حاسما رادعا لأولئك الذين أسرفوا فى نقده ولومه على روايته السابقة ، وأولئك الذين أشاعوا ـ خُبثا وضَغينة ـ إرهاصات عن فراغ جُعْبته، ونُضوب قَريحته ، وإظلام مَخيلته ، وأُفول نجمه . وكانت تنتابه بين الحين والحين ـ بعد إتمامه تلك الرواية ـ فورة من الغضب الثائر الساخط على المخرج السينيمائى « داريل زانوك » الذى أعد واستعد لتحويل رواية : « ثلوج كيليمانجارو » إلى فيلم ، ولم يكن همينجواى راضيا عن السيناريو ، وصرَّح بقوله : « إننى أُجَهز بندقيتى القديمة للتوجُّه بها إلى كيليمانجارو ، فأتسلق قمة « كيبو » بحثا عن زانوك وإزهاق روحه » . (كان زانوك يصوِّر هناك) ! ولكنه بدلا من الذهاب مباشرة إلى أفريقيا ، تحوَّل إلى محبوبته : أسبانيا ، حيث المباهج ، ومصارعة الثيران ، وذكْرَى غراميات قديمة . ثم اتجه إلى أفريقيا .

وهنا تقع حادثة لطائرته ، فيظل العالم لأكثر من أربع وعشرين ساعة على يقين من وفاة همينجواى . . الروائى الكبير . وما حَدَث : هو أن عاصفة طوَّحت بالطائرة التى كان يستقلها مع زوجته « مارى » ، وكانت فوق أعالى النيل ، فسقطت متدحرجة فوق الصخور الجبلية بارتفاع مائة وثلاثين مترا. كان الزوجان يعتزمان التحليق فوق غابات أوغندا . وفى اليوم التالى ـ ٢٣ يناير ١٩٥٤ ـ عُثر على حطام الطائرة خاليا . وفى الخامس والعشرين من الشهر ، أذاعت لندن (BBC) أن همينجواى وزوجته على قيد الحياة ، بعد أن تسلَّلا من حطام الطائرة وخرجا إلى الأدغال المليئة بالسباع والتماسيح وأفراس النهر ، وأنهما مَشيا حتى بَلَغا شاطئ النيل ، إلى أن عَثَرت عليهما الشرطة . وكانت الصحف قد نشرت فى صبيحة ذلك اليوم أنباء وتعليقات حزينة عن فجيعة الطائرة الجديدة التى استأجرها همينجواى ثم تحطمت واشتعلت فيها النيران عند شواطئ بحيرة ألبرت ، وعن احتراق همينجواى وزوجته داخلها .

نَجا العجوز من الموت ؛ وما كانت أكثر مواجهاته للموت ! فاستقل مع



JUST ONE MORE

1953

بهذه الصورة وتحت هذا العنوان الموجز المفصح : « واحدة –أى تحفة – أخرى بحق » نشرت الصحافة العالمية تعليقاتها على روايته الخالدة « العجوز والبحر » بعد صدورها ورواجها وإفحامها شانئيه .

«مـارى » طائرة ثالثـة (منذ اعتـزامهما السفر إلى أفـريقيا) للوصـول إلى «عَنْتيبى » فى أوغندا . وظهرت صورتهما فى دول العالم وهما فى رحلة صيد : الروائى المغـامر العجـوز يقف على مقـربة من حيوان وحيـد القرن القـوى الشرس ، وفى صـورة أخرى وهـو يطارد ببندقيته الأُسُـود ، فى حين كـانت زوجته تطالع خريطة سياحية وتُجلس على ركبتيها غزالا رضيعا .

وحـان موعـد تسلُّم جائـزة نوبل . ولم يَحضر حفل تسليمها بحجـة أنه مريض ، وأناب عنه سفير الولايات المتحدة الذى ألقى كلمة كتبها همينجواى قال فيها : « تَعْظُم أهمية الكاتـب فى عيون الجماهير عندما يتخلى عن رغبته فى العُـزلة . وأحيانـا قد يكون لهذا تأثير سيئ على إنتـاجـه ؛ لأنه يُحْسن العمل والإبداع وهو فى عُزلة إذا كـان كاتبا مجيدا ، إذ عليه أن يواجـه فى كل يوم إما الخلود وإما الخمـود .. لذا كان فى العـالم قديما كُتَّـاب مبدعـون عظماء ؛ أما الكاتب الآن ، فهو مضطر إلى الذهاب بعيدا وبعيدا جدا ، أبعد مما يستطيع أن يَبْلُغَه لو سارت الأمور على طبيعتها ؛ وهناك لن يجد أحدا يُعِينه ... » . وتلقَّى الجائزة ، فأَهدى الميدالية إلى القديسة التى يُجِلُّهاأهل كوبا (عذراء النُّحَاس)، واحتفظ لنفســه بقيمتهــا (٢٥ ألـف دولار آنذاك ، وبلغت مليــون دولار أمريكى سنة ١٩٩٩) ليســدد بها بعض ديونه . وقد كـان دائما على خلاف وفى نزاع مستمر مع الضرائب التى كان يرى أنها تمتص وتستنزف بلا حياء وشرف عصـارة جهد رجل وحيـد لا يملك سـوى خيـاله وقلمه لكى يُبـدع ويُنتج ، ويقَـدم لملايين البشر فى العالم مـا يُسعـدهم ويساعـدهم على التأمل والتفكير . ولم يكن هو الوحيـد الذى كـانت تؤرِّقـه وتُعَـوِّقه بيروقـراطيـة الضرائب وإجْحـافاتها ، ولن يكـون الأخير ، ما دامت الضرائب لا تفـرِّق بين إبداع مُنْتِجٍ يُخرج للنـاس ثمارا حلوة فيهـا غــذاء وشفــاء للعقل أو تَسُرُّ الناظرين ، وبين صَناع مُنتجٍ يخادع الناس ببضـاعة مُضِرة قـد تُتلف العقل وتَغُم النابهين .

LE VIEIL HOMME AVEC UNE BARBE

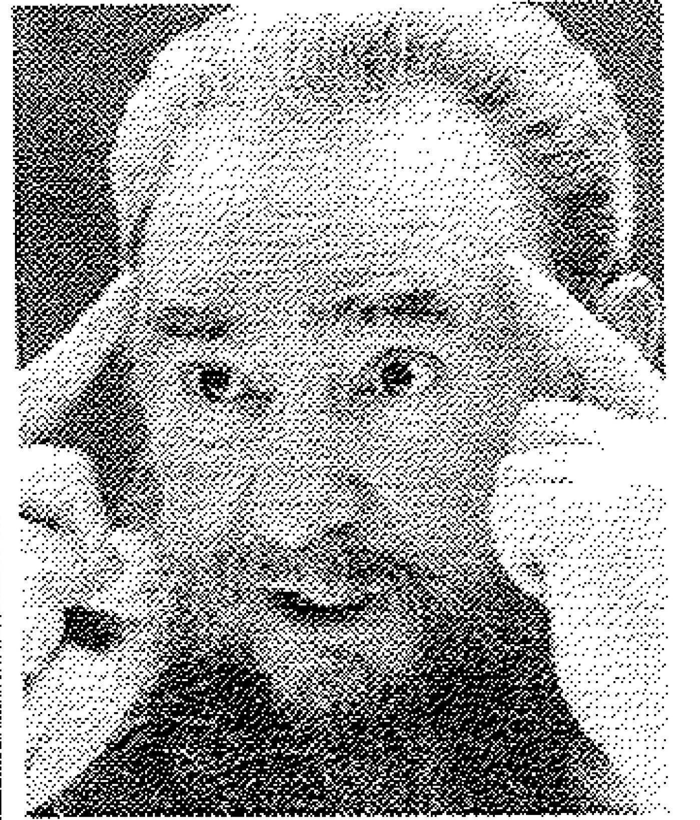


« إرنست همينجواى » من الصبا والشباب إلى المشيب والاغتراب ، أو كما كتبوا عنه : «العجوز ذو لحية».

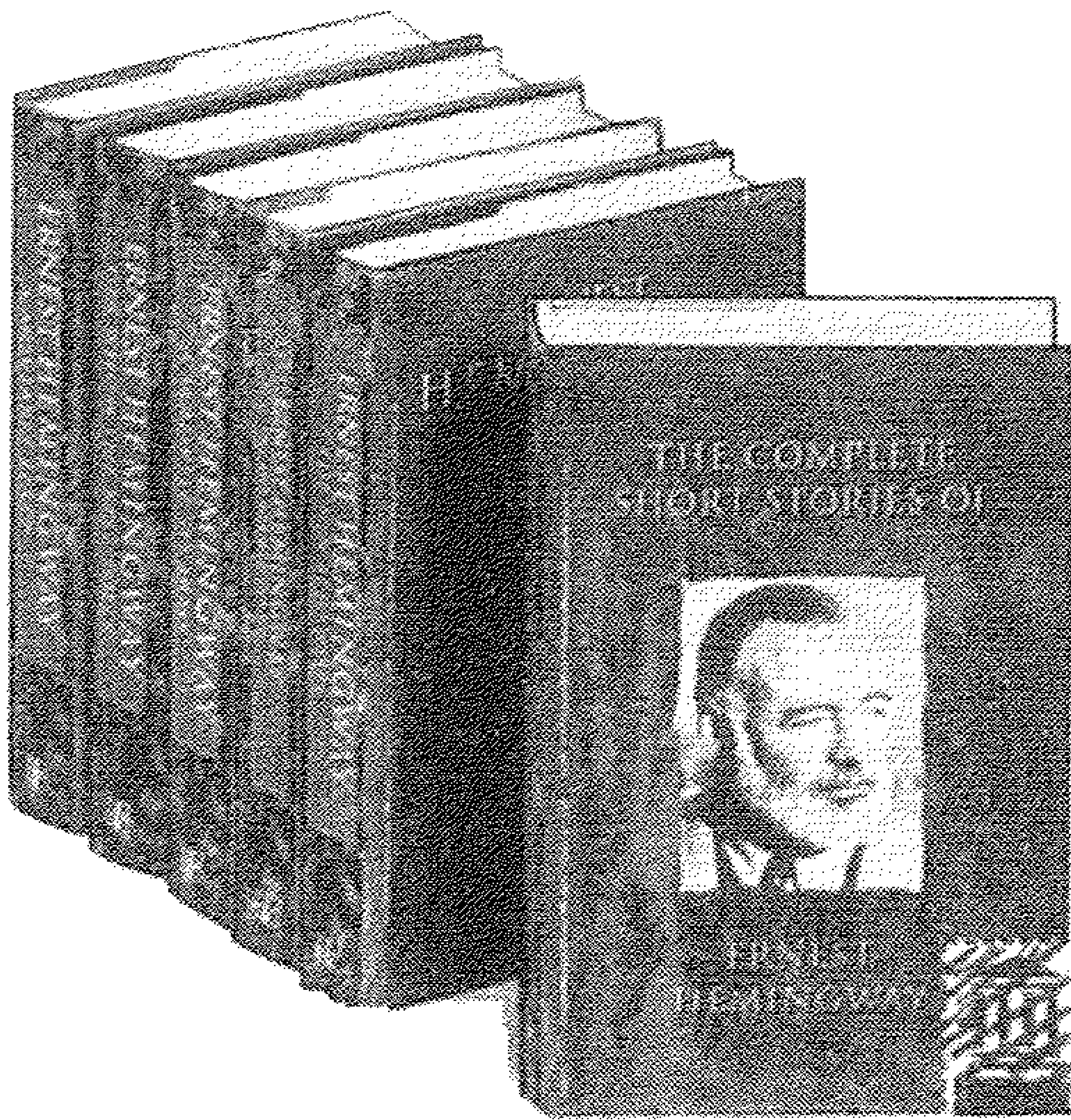
خريف الأحزان

أصبح همينجواى - منذ عام ١٩٥٦ - رجلا مريضا . ربما بسبب ما ضاقت به نفسه من هموم وظنون . لكن الذى كان واضحا ، أن جروحه السابقة (فى ساقَيْه وقدميه وجسمه ورأسه) عادت تنشط وتؤلم وتُنذر بالخطر . لكن ذلك لم يمنعه من السفر إلى بيرو (غرب أمريكا الجنوبية) لكى يتولى بنفسه إخراج مشاهد السمَك فى فيلم سينيمائى عن روايته : « العجوز والبحر » ، إذ لم يعجبه أسلوب المخرج فى تلك المشاهد . فلما ضايقه فريق العمل الفنى فى الفيلم ، ذهب مُغاضِبا إلى أوروبا يحمل معه مشروع روايته عن أفريقيا لم يكتمل ، وعَرَّج على أسبانيا معتزما الكتابة القصصية عن حياته فى باريس بعد تحريرها من الاحتلال النازى ، وعن المعارك ، وعن أمجاده السابقة . لكنه أفرط فى المسكرات ، فأتلف كبده ، ولجأ إلى الأدوية ،

ولم تكن مُجْدية . فعـاد إلى كوبا . كـانت تشتعل بالثـورة يقودها كـاسـترو ، وكان هو فى سن الستين .


فيديل كاسترو

تمنى همينجواى لكاسترو النجاح ، لتحقيق ما وَعَد من إصلاح . ثم رحل عن كوبا إلى باريس ، فأسبانيا . والمرض يشتد . تضاف إليه آلام الكُلَى . الآن فقط بدأ يخاف .. لأول مـرة فى حياته يَعْتريه خـوف . وتُظْلم نفسه . فَتَنْتـابه نوبة من الجنون .. إحســاس واهـم بالاضطهـاد .. وأنـه مـرصـود للقتل . ممَّـن؟ من وكالـة التحقيقات الأمريكيـة (F.B.I) ، ووسائلهـا فى الاغتيال والقتـــل كثيرة ، منهـا الضرائب . فكان لا مفـر من إدخـاله المستشفى ، سرا بالطائرة فى مدينة « دورْشسـتر » بانجلترا .

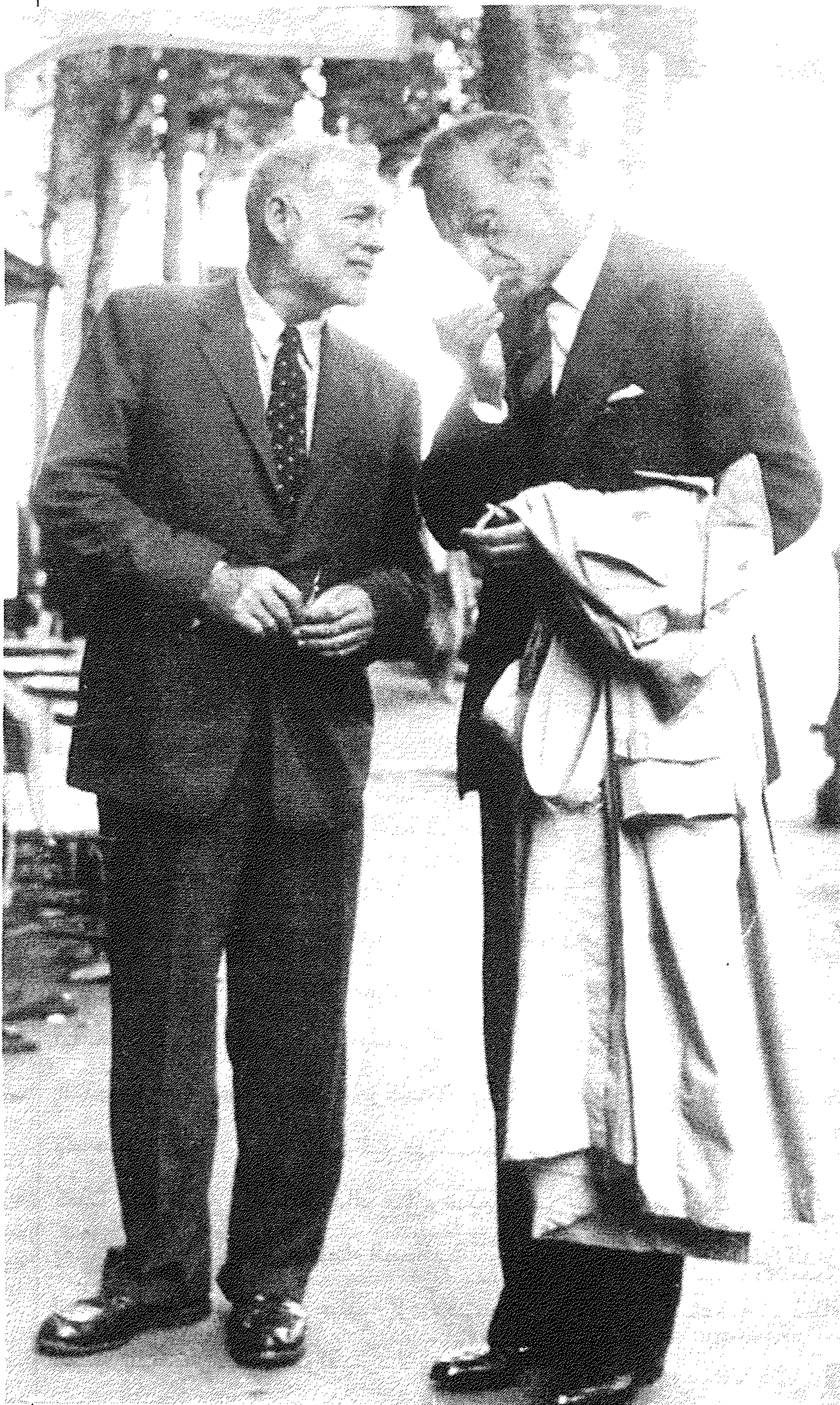


مجموعة من مؤلفات همينجواى .

موت البطل

وُضع فى مستشفى « مـايو » تحت العلاج النفسى والعضـوى . وخَضع لجلستى صدمات كهـربية كل أسبوع ، فى الفترة بين ديسمبر ١٩٦٠ ويناير ١٩٦١ . فتحسنت حـالتـه . وفى الواقع ، لم تعـد لديه الرغبـة فى المقـاومـة : مقاومة أى شىء ، أو حتى إنقاذ نفسه . وتملَّكه الحزن .

بعد خروجه من المستشفى ، فـاجأَتْه « مارى » يوما وهو يقلِّب بين يديه بندقية وأمامـه رصاصتان . فتمالكتْ نفسها بحكمـة ، واقتربت منه تلاطفه



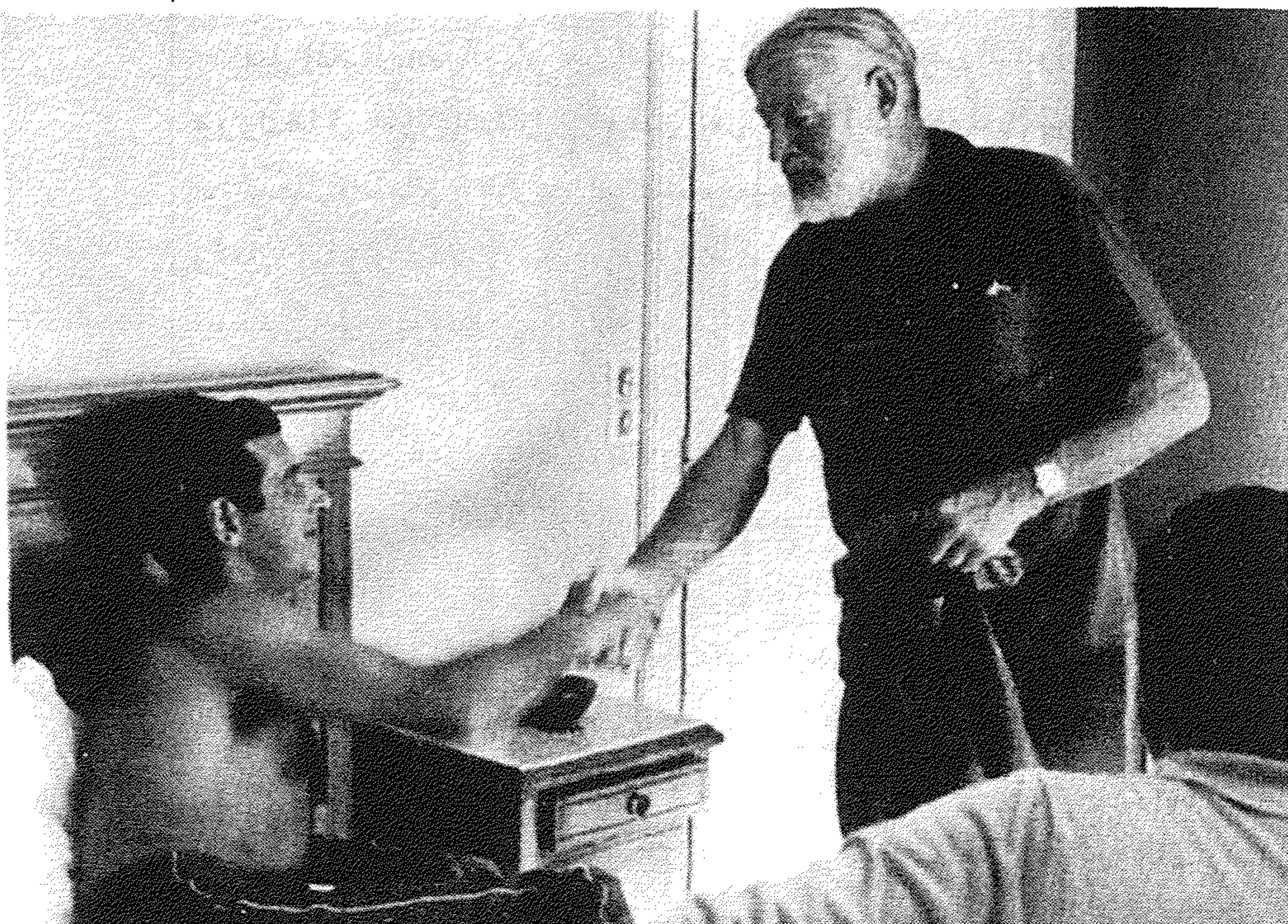
خروجا من دار السينيما بباريس مع النجم العالمى « جارى كوبر » (يشعل سيجارة) عقب مشاهدة فيلم :« ثلوج كيليما نجارو » .

وتهدئ من شرور هواجِسه ، حتى أفلحتْ بهدوء فى إقناعه بتسليمها السلاح. فكان لابد من معالجته من جديد بالمستشفى . وفى اليوم المحدد لدخوله ، كان همينجواى فى بيته ومعه صديق ، وإذا به فجأة يسرع نحو بندقيته ويحشوها بطلقات نارية ثم يوجهها نحو رقبته ، فحدثت مشادة بينه وبين الصديق الذى قفز نحوه ، وبصعوبة بالغة - وخطرة - نجح فى انتزاع البندقية منه .

وفى الطريق إلى المستشفى بالطائرة - خُفية كالعادة - حاول الانتحار أكثر من مرة: عند إقلاع الطائرة ، بمسدس كان يواريه فى حقيبة يده ، وعند النزول من الطائرة ، باندفاعه نحو محرك طائرة أخرى رابضة ـ وكان يدور بسرعة هائلة ـ فى لحظة تحرُّكها للإقلاع . فوُضع تحت المراقبة المستمرة . وأُخْضِع للعلاج بالصدمات الكهربية مرة أخرى ، ولفترة أطول من سابقتها. وفى البيت ، جَمَعَتْ « مارى » كل الأسلحة والذخيرة ، وأخفتْها فى حجُيَرة مُعتمة صغيرة (تشبه الكرار فى البيوت القديمة) . ولم تذهب معه إلى المستشفى .

فى الثلاثين من يونيو توجَّه إرنست همينجواى ـ بعد خروجه من المصحة - إلى « وادى الشمس - Sun Valley » وهى قرية سويسرية صغيرة تشبه المنتجع للتزلق على الجليد ، كانت تستهويه زيارتها من حين لآخر منذ سنوات بعيدة ، ولعائلة همينجواى الكبيرة مُسْتراح (شاليه) بها . لكنها على أية حال ليست فى دفء وبهاء بيت الأسرة فى كوبا ، المطل على مياه الخليج الذى يتراقص على سطحه مركبه الأثير لديه ؛ ذاك البيت الذى تحيط بحديقته الزهور ، وتتجول فيه على سجيتها قططه وكلابه ، وتتجمع فيه كتُبه ومُقتنياته . كل هذا وذاك عالَم قديم مضى ، ولن يراه بعد الآن . ولن يموت همينجواى بين السماء الصافية ، والبحر الساكن ، والشاطئ الدافئ الحنون ؛ وإنما سيغمض عينيه إلى الأبد بين قمم الجبال الشاهقة ، وغطاء الجليد الدائم، ولفحات هواء بارد لا يَريم (٣٠) .

(٣٠) أى : لا يَبْرح ، لايزول .



لم يتخل عنه شعور دفين بالقوة والجرأة والمغامرة ولو من أطياف الماضى . وفى غمرة الآمة وأمراضه واكتئابه ، لم يتكاسل عن زيارة صديقه الحميم المريض : « أنطونينو أوردونيز » مصارع الثيران الشهير .

كان يوم الأحد الأول من يوليو ١٩٦١ ، وكانت « مارى » قد لحقتْ به لرعايته فى هذا المكان النائى بعد علاجه بالمستشفى . فى تلك الليلة ، قام العجوز من فراشه وتسلل خارجا من حجرته على أطراف أصابعه ، حتى لا يوقظ الزوجة المستغرقة فى النوم داخل غرفتها المجاورة . إنه يعلم جيدا أنها جمعتْ كل الأسلحة التى كان يحتفظ بها منسَّقة فى (الشاليه) ، وأخفتْها فى خزانة بالأسفل (بالبدروم) وأَوْصَدَتْها جيدا بمفاتيح . وهو يعرف أين تضع تلك المفاتيح .

صعد من تحت الأرض (من البدروم) وفى يده بندقية صيد فضية قديمة، ومضى يمشى على مَهَل ، فى هدوء ، ثم توقف فى ردْهة المدخل . وفى لمح البصر، صَنع بيديه ـ لا بخياله وقلمه ـ ذلك المشهد المأساوى الذى أشرنا إليه فى مُستهل الحديث عنه : صوَّب البندقية ذات الماسورة المزدوجة نحو جبهته، وضغط على الزناد بقوة ، آخر قوة تَصْدر منه .. وانتهى كل شىء ..

حَدث ذلك عند الفَجر . ثم أشرقت الشمس .. بيضاء لامعة ، فوق الموت الأحمر .. والدم المُسال .

. . . .

قبل إقفال هذا الباب عن القصة والرواية فى بعض الدول شرقا وغربا وروادها فى القرن العشرين ؛ وقبل الفراغ من تلك الجولة السياحية الذهنية بين معالم خيالية فكرية أبدعَتْ وأمتعتْ ، لابد من الإشارة إلى أنها كانت وقفات أمام علامات ونماذج ، وغيرها من أعمال وشخصيات المبدعين كثير ، يستحيل جمعها كلها فى كتاب واحد هو جزء من سلسلة عن حصاد القرن . وقد تضَمَّن الجزء الرابع والخامس من هذه السلسلة بعنوان : « رجال صاغوا القرن العشرين » أسماء وأعمال بعض كبار الكتاب والروائيين ، وفى جزء خاص عن السيدات بعنوان : « نساء شهيرات فى القرن العشرين » أسماء وأعمال عدد من الكاتبات الأديبات الروائيات من أمثال : « **أجاثا كريستى** » الإنجليزية ، و « **جِس فُوسْت** » الأمريكية ، و « **جابرييلا مِيسْترال** » الشيلية الحائزة على جائزة نوبل فى الأدب سنة ١٩٤٥ ، و«**نادين جورْديمر**» الجنوب أفريقية الحائزة على جائزة نوبل فى الأدب سنة ١٩٩١ ، وكانت فى قصصها ورواياتها مناهضة لسياسة التفرقة العنصرية على الرغم من أنها كانت من طائفة البيض .

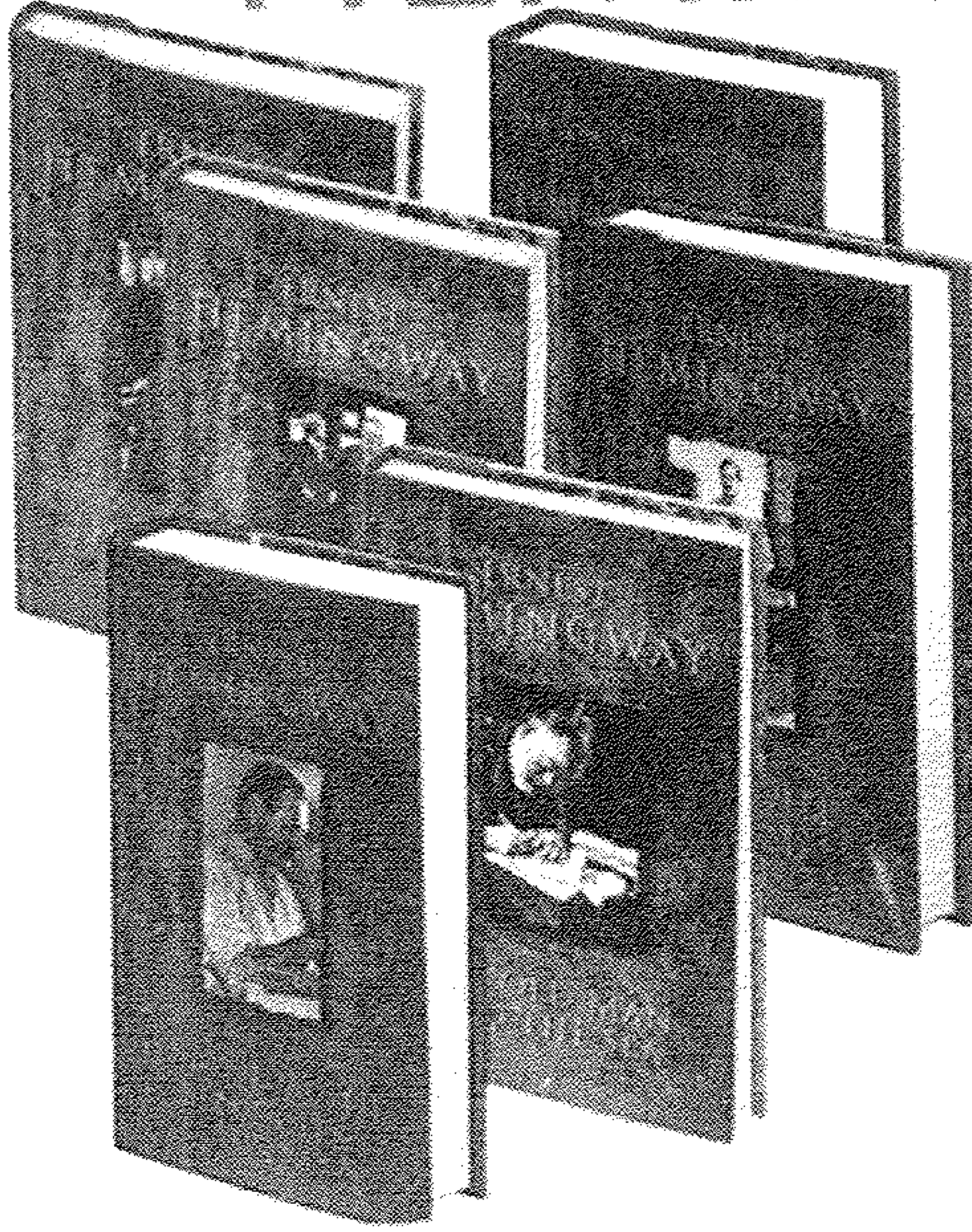
وفى أقصى الشرق : فى الصين ، وكوريا ، واليابان ، كتُّاب مبدعون فى القصة القصيرة والرواية . ومن بين الأسماء التى تعتز بها اليابان فى هذا المجال اثنان : « **ياسونارى كاواباتا**[٣١] » ، و « **يوكْيو ميشيما**[٣٢] » .

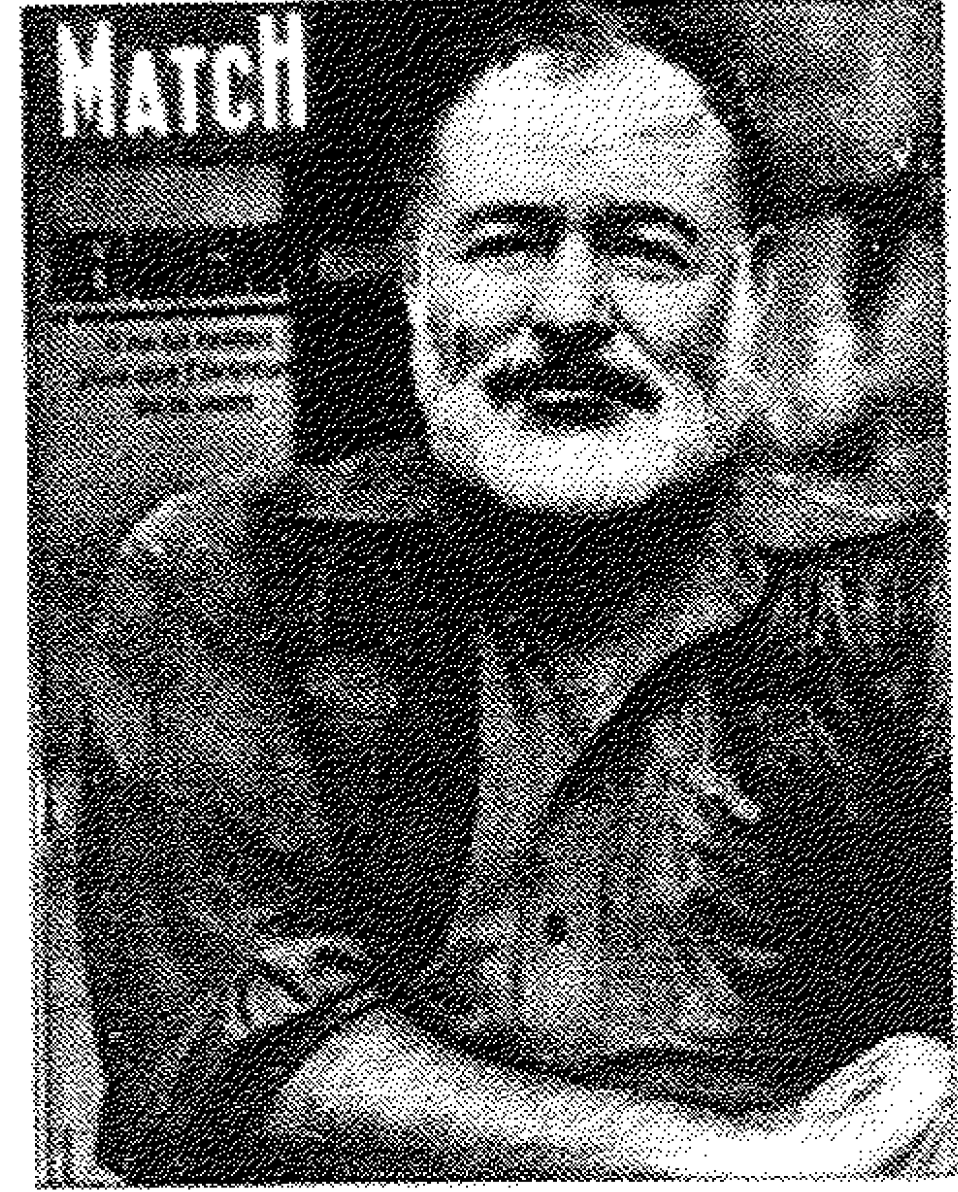
(٣١) Yaunari Kawabata : (١٨٩٩ ـ ١٩٧٢) ، روائى يابانى حصل على جائزة نوبل فى الأدب سنة ١٩٦٨ . يغلب على رواياته الناضجة طابع الشعور بالوحدة والجزَع من الموت ، ربما لأنه قاسى من آلام الوحدة وهو صغير يتيم فقد تقريبا كل أهله قبل أن يبلغ مرحلة الشباب . فى سنة ١٩٢٦ نُشرت له أول رواية فى شبه سيرة ذاتية بعنوان : « إيزو الراقص » فى جريدة «العصر الفنى » التى أسهم فى إنشائها وكان عضوا بارزا فى جماعة المفكرين الجُدد . وكانت هذه الجماعة تعلن عن مدرسة أدبية تستمد عناصر ومفاهيم الجمال فى الإبداع الأدبى والفنى من موجة « الداديين » الفرنسيين ، و«التعبيريين » ، و « التكعبيين » . وهذا ما يبدو على كثير من أعمال كاواباتا ، الذى كان يمزج فى المؤلف الواحد بين الجميل والقبيح وبين المشاعر المختلطة المتضاربة .

من أحسن أعماله : « بلد الثلوج » ـ ١٩٤٨ ، « ألف رافعة » ـ ١٩٤٩ ، « صوت الجبل » ـ ١٩٥٢ . ومات منتحرا حزنا على وفاة صديق حميم له ، هو : « يوكيو ميشيما » ، الروائى الوطنى المكافح ببطولة .

(٣٢) Yukio Mishima : (١٩٢٥ ـ ١٩٧٠) ، كاتب روائى خصب الخيال وفير الإنتاج ، يراه النقاد أهم روائى يابانى فى القرن العشرين . كان حريصا على الالتحاق بالجيش للدفاع عن بلده فى الحرب العالمية الثانية ، وأحزنه كثيرا أنه لم يُقبل لضعف صحته ، فاشتغل متطوعا فى مصنع للإنتاج الحربى، ثم التحق بعد الحرب بجامعة طوكيو لدراسة القانون . أول رواياته : « اعترافات قَناع » ـ ١٩٤٩ ذات أسلوب جذاب متميز وإن كان موضوعها عن شاب منحرف جنسيا يُضطر أن يتقنَّع لإخفاء انحرافه . ثم أتبعها بروايات أفضل يغلب على شخصياتها الرئيسية فقدان السعادة لضَعفهم صحيا ونفسيا ، منها : « توَّاق للحب » ـ =

ERNEST
HEMINGWAY





Juillet 61
Ernest Hemingway.



Janvier 76
Agatha Christie.

أجاثا كريستى

= ١٩٥٠ ، « ألوان ممنوعة » ـ ١٩٥٤ ، « صوت الأمواج » ـ ١٩٥٦ ،« معبد الإيوان الذهبى » ، «بحر الإخصاب » ـ ١٩٧٠ ، وهى أحسن أعماله .

عاصر ميشيما زحف العصر المادى الساحق للثقافة اليابانية العريقة بعد الحرب العالمية الثانية والإغراق فى تغريب المجتمع (على النمط الغربى) ، وكان هو على دراية بالثقافة الغربية ومساوئها ، فتصدى بشدة لهذا التيار الوافد الجارف ، فكوّن جماعة من ثمانين طالبا نابها وسماها : « جماعة الحِمَى » للدفاع عن الثقافة والروح اليابانية ، وحماية الإمبراطور من أى هجوم أو اعتداء . وفى سنة ١٩٧٠ انقض ـ مع أربعة من تلك الجماعة ـ على مركز قيادة عسكرية للجنرالات المنشقين ، ولقى ميشيما مصرعه .

جيمس جويس (مفجر ثورة للخيال القصصى)

قال« جيمس جويس » يوما لواحد من أصـدقائه : « إن أحد الأشياء التى لم أستطع مطْلقا أن أعتاد التآلف معها فى شبابى ، هو ما وجدْتُ من اختلاف بين الأدب والحياة » . وبينما لاحظ هذا الاختلاف جميـع القراء من الشباب الجادين ، فإن « جويس » كرَّس حياتـه الأدبية لإزالته ، ومن هنا – كما قالوا – صَنع ثورة القرن العشرين القصصية أو الروائية .

والحياة التى ابتعثها فى فنه الأدبى ، كانت فى مُجملها حياته هو . وقد وُلد فى «دَبْلن » ـ أيرلندا ـ عام ١٨٨٢ ، فكان أكبر إخوته العشرة (ماتوا جميعا)، لأب سكير مبـذر قارب الانحـدار إلى هاوية الفقـر ، وأمٍّ صانها من الانهيـار ورعُها الكاثوليكى ، وهى تَـرْقب عاجزة مستسلمـة ضَياع الزوج والأسرة ، فكانت تـأمل فى حيـاة أرغـد وأسعـد بعـد الممات . وانتشلت جماعـة «الجوزويت»– اليسـوعيين – جيمس من التشرد ، وتولت تعليمـه منذ حداثتـه ، إلى أن تخـرج مـن جامعـة دبلن عام ١٩٠٢ . وعندئذٍ أقنع نفسه بأنه حصَّل من المعرفة قدرا يتيح له أن يطرح عنه عقيـدته الدينية ، والتزامه نحو الأسرة، وواجبه إزاء الوطن ، الذى يَرْزح تحت حكم الإنجليز ! واتجهت مشاعره نحو المجـال الأدبى ، حيث بدأت موهبته تتفتح ، وتزدهر ، وتتشكّل نسيج حياته .

تعرَّف على « نورا برانْكل » ، خادمة غُـرف بأحد الفنادق ، فتزوجها بعد أن فَـر بها من دَبلن ، يحمـل فى ذاكـرته بذور ـ أو خـامـات ـ كل الروايات القصصية التى سوف يستنبت منها معظم مؤلفاته فيما بعد . كان عليه فقط

« جيمس جــويس » ، ومــدينــة دَبلن فى أيرلندا التى ولد ونشأ بها .



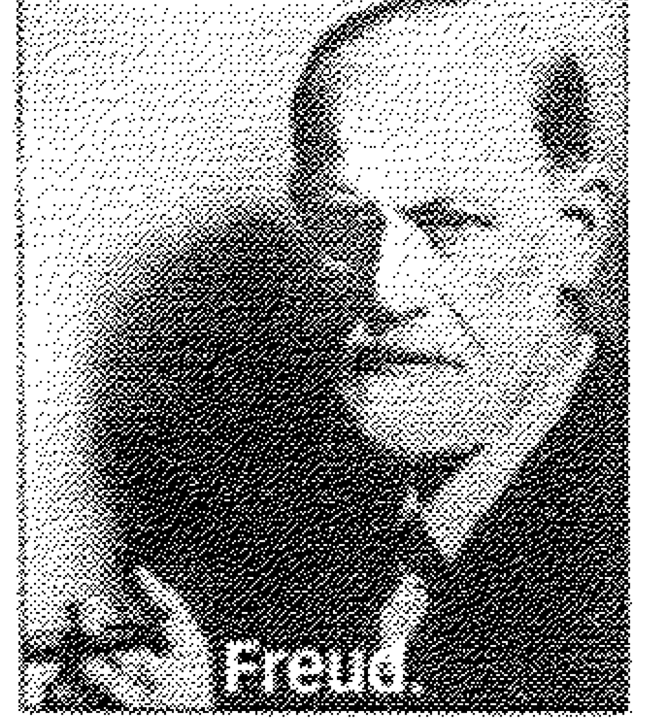
أن يحوِّل هذا « الرصيد » إلى « فن » جديد ، يرقَى إلى المستوى الذى كان يحلم به ويتوقع .

راح يتجول بين بلدان أوروبا ومعه « نورا » وطفلاهما : من بولاَ إلى ترْيسْتا(١) ، إلى زيورخ (سويسرا) ، ثم روما ، وباريس . وفى كل مدينة أقام بها فترة ، ليعمل مدرسا ، أو كاتب حسابات ، كى يوفر ـ بالكاد ـ نفقات معيشة بسيطة للأسرة ، ولمتطلبات التأليف .

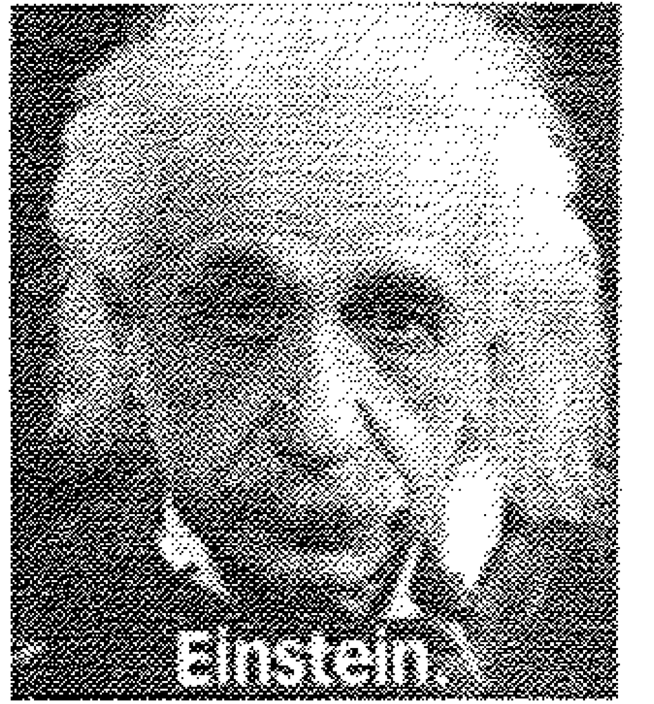
فى عام ١٩١٤ صَدَرت أولى رواياته بعنوان « الدَّبْلنيون » (نسبة إلى مدينته الأيرلندية دَبلن) . وهى مجموعة قصصية قصيرة ، حَبْكتها تقليدية، لكنها مُسْهَبة الإثارة ، ثرية اللغة . ثم أتبعها بعد عامين برواية : « صورة وصْفية لفنان شاب » ، هى فى الحقيقة عرْض موضوعى لغوى ، عسير على

(١) بُولا : مدينة فى كرواتيا الآن (النمسا ـ المجر سابقا) ـ وتريستا : ميناء شهير يتبع الآن إيطاليا وفقا لمعاهدة السلام (١٩٤٧) بعد الحرب العالمية الثانية ، وقررت اتفاقية ١٩٥٤ أن يكون ميناء حرا . استولت يوغوسلافيا على تريستا عام ١٩٤٥ ثم أعيد إلى إيطاليا .

الفهم ، لحياة جيمس جـويس نفسه من مولـده إلى اتخاذ قراره بالرحيل عن دَبلن بحثـا عن مستقـبله الفنـى . إلا أن هذه الرواية لم تَلْق رواجـا فى السوق، وبالتـالى سبببت له مضايقـات مالية . لكن هـذه البواكير من أعماله جـذَبت انتباه رواد الطليعـة ممن لهم تأثير ونفوذ ، خـاصة من الأمـريكيين الذين استهـوتهم فكرة أن القـرن الجديد يتطلب تجديدا فى الفن ، والشعـر ، والقصة ، والموسيقـى ... أو باختصـار : فى كل شـىء . تسـارع هؤلاء فى الإقبـال على « جـويس » ، والالتفـاف حـوله ، والأخـذ بيـده والترويج له ، لإنجاح محاولاته المبتكَرة فى الكتابة ؛ ومن جانبه لم يخيِّب ظنهم .



فرويد



أينشتين

ثم بدأ – فى عـام ١٩١٤ – فى تأليـف روايتـه الشهيرة : « أُولِيس » . وقبل صدورها فى كتاب ، بادرت بعض الصحف والمجـلات فى بريطانيا والولايات المتحـدة بنشر مقتطفـات منها . إلا أن الـرقابة (الحكـومية الأمـريكيـة على المطبوعات) صـادرت ثلاثة أعـداد من تلك الطبعات بسبب ما تضمَّنه أسلوب « جويس » من بذاءة وفُحش ، وفرضَت غـرامة مالية على الناشرين . فكانت تلك العقـوبة سببا فى رواج الكتاب قبـل إصداره ، ولهفة النـاس على شرائه . ولم ينتظر النقـاد صدور الرواية (وأغلب الظن أنهم دُفعـوا أو دُفع لهم) ، فأفـاضـوا فى إطراء « جـويس » وابتكاراته الأدبيـة ، بل إن بعضـهم قـارَنَها باكتشافات آيْنشتين وفُرويد .

تسلم « جويس » النسخة الأولى من « أُوليس » المطبـوعة والمغلفة بغلاف أزرق أنيق ، فى عيد ميـلاده الأربعين (١٩٢٢) ، معتبِرا إياها ثمرة نـاضجة لمحاولته المضْنية لإزالة الحاجز الفاصل بين الفن الأدبى وواقع الحياة . فقد أطاح ، بادئَ ذى بِدْء ، بأسلوب السرْد الممِض الـذى كان شـائعـا فى روايات القرن التاسع عشر . وليس فى « أُوليس » حَبْكة قصصية واضحة التميز ، ولا عُقْـدة أو مشكلات مستعصيـة تتطلب مـن البطل ـ أو البطلة ـ تجاوزها أو حلَّها وصولا إلى الانفراج بالنهاية السعيدة . كما أنها خالية من الراوى الذى هو بكل شىء عليم ، على طريقة شـارل ديكنز وتولستُوىْ ، الذى يتولى إرشاد القـارئ ويصف الشخـوص (الشخصيـات) ، ويرسم بـالكلمات صـور


لندن تحتفل بمطلع عام جديد


باريس : الحى السابع

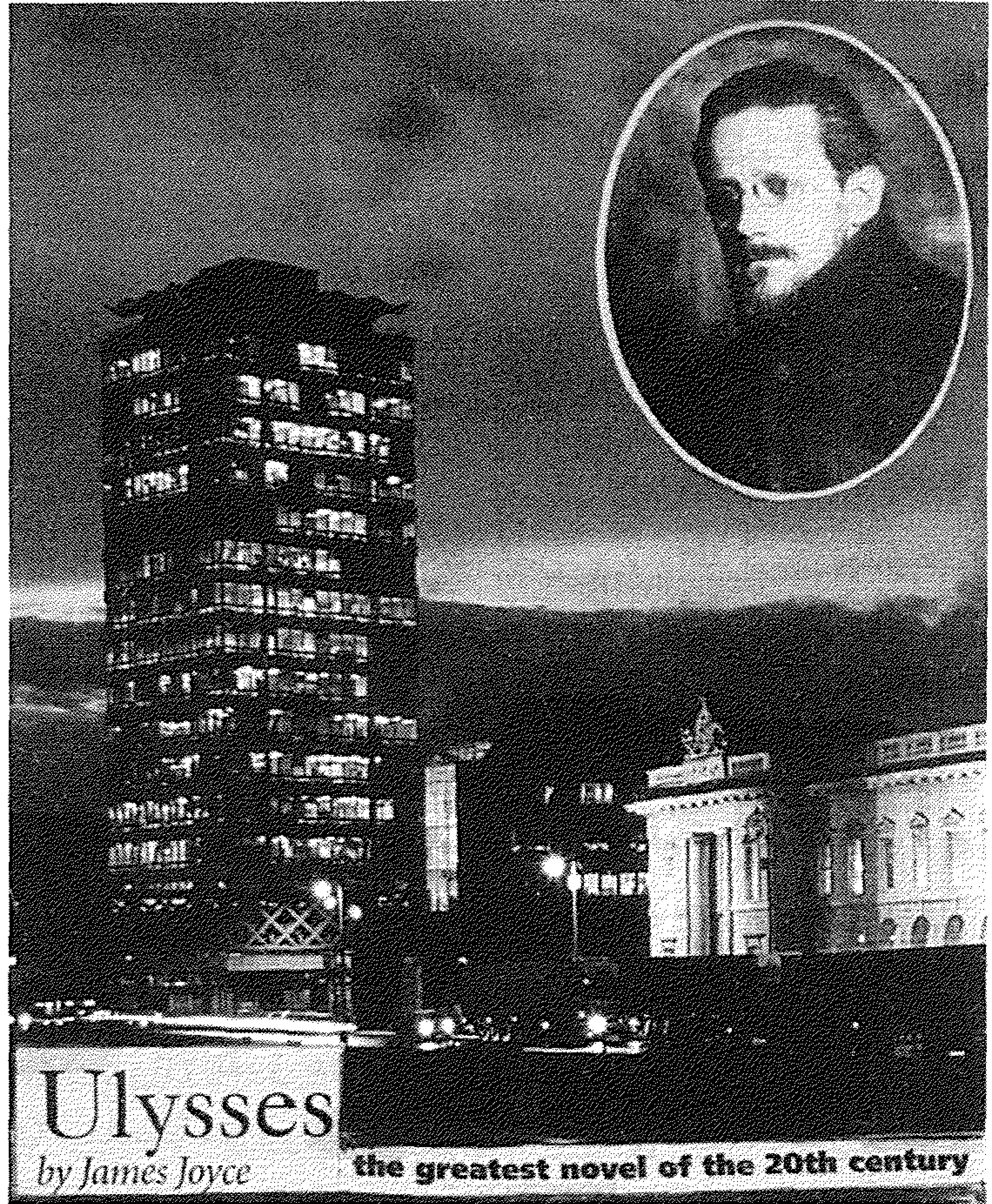

روما فيللا
ميدتشى

المشـــاهد ، والمواقف ، ويضيف معلومـــات تعمِّق خلفيـات تلك الصــوَر ، ويلخص الأحــداث أو يفسر الوقـائع ، ويوضــح بين الحين والحين المغـزى الأخـلاقى للروايــة أو القصــة . ومــاذا يبقى إذن بعـد كل هــذه الإضــافـة والحذف؟

ربما كانت أفضل إجابة عن هذا السؤال مـا ذكره الناقد إدموند ويلسـون بقوله : « لقد حاول جويس فى (أُوليس) أن يقـدِّم على نحوٍ ما صورة شاملة محددة ، ومباشرة ـ بقدْر مـا يمكن أن تحتمله الكلمات ـ لما يشبه تماما الذى نفعله فى حيـاتنا اليـومية ، أو الـذى يبدو لنا متـوافقـا مع نمط الحيـاة الذى نعيشـه لحظة بلحظة » .

ومع ذلك ، فإن القـراءة الأولى لـرواية « أُوليس » قـد تثير الحيرة ، وربما الإحبـاط . وما من كتــاب آخر يَمْنح مَن يطالعــه قدرة أكبر على الاصطبـار والجَلَد . إنه قائمة بمجموع الوقائـع التــى حـدثت فى يـوم واحـد ، اختـار « جـويس » أن يكـون الســادس عشر من يونيــو عــام ١٩٠٤ ، تعبيرا عن اعتزازه الشخصـى بهذا اليوم الذى التقى فيـه لأول مرة بـ « نورا » . فيتتبع الكتاب حركة الحياة وإيقــاعاتها المتباينة ، ليس فقط بالنسبة للبطل والبطلة ، وإنما أيضــا بالنسبـة لمئات آخريـن من أهل دَبلن ، أثناء مسـيرهم فى الطرق ، ولقـــائهم للحـديث والثــرثرة ، ومـــزيد من الثــرثرة والحوار فى المطاعم والمنتـديات. وتبدو كل هذه الوقـائع والأنشطة ، وكأنها عفـوية عشوائيــة ، وتسجيل للحظات سعادة مَدَنية مُبهجة .

وفى الحقيقة ، ليس من شىء فى « أُوليس » عشوائى أو جـاء مصادفة . إذ تحت السطح تكمن واقعية الرواية ، وبســاطة واضحة فى رسم تيـار الحياة المتـدفق ، تُوارى تخطيطـا معقـد التركيب . وعندمـا حَثــه أصـدقـاؤه على التخفيف من غمـوضهـا حتى يسهل على القـراء إدراك سر مقصـدها كـان جوابـه : « لقد ضَمَّنتُها الكثير من الألغـاز والغموض حتى أشغَل الأسـاتذة والشُّراح لعدة قـرون فى الجدل حول مــا أعْنيه ، وتلك هـى الطريقـة الوحيدة التى تَكْفل للمرء الخلود » .



« جيمس جويس » يطل على مدينة دبلن المضاءة ليلا ، وهى محور روايته « أوليس » التى اعتبرها بعض النقاد أحسن رواية غربية فى القرن العشرين .

ثم رضَخ « جويس » فيما بعد ، وعندئذٍ أدرك العالم أن قصة « أُوليس » هى الصورة الحديثة لملحمة « هوميروس » المعروفة باسم : « الأوديسا » ؛ وأنَّ « ستِفِن » هو البطل المتجول عند جويس ؛ وأن « ليوبولدبلوم » فى روايته يقابله « تليماك » عند هوميروس ، و « موللى » - زوجة ليوبولد - تناظرها «بِنِلُوب » فى الملحمة القديمة ، إلا أنها هنا - عند جويس - أقل إخلاصا ووفاء(١) .

---

(١) هوميروس : شاعر الملاحم الإغريقى المشهور فى التاريخ الأدبى ، وإليه تُنسب ملحمة « الإلياذة » و«الأوديسا » وبعض الأساطير الأخرى . عاش فى القرن السادس قبل الميلاد ، واعتبره المؤرخ القديم هيرودوت من أهالى آسيا الصغرى (تركيا الآن)، وملاحمه الشعرية ذات تأثير كبير على الأدب الأوروبى الحديث ، وفيها صور للبطولات والمعارك والعلاقات الأسطورية .
وأُوليس بطل ملحمة هوميروس (الأوديسا) - الذى اختار اسمه جويس ليكون عنوانا لروايته - هو البطل ، وزوجته بِنِلوب ، وابنهما تليماك (أو تليماكوس) ، تركه أبوه وهو صغير ورحل إلى طروادة .

كتب « ت . إس . إليـوت » الذى أشاد بقـوة الرواية ، فقال : إن استخـدام جـويس » الأسطورة الكلاسيكيـة كوسيلة لبناء تجربـة حديثـة « يعتبر من حيث الأهمية والقيمة مثل اكتشاف علمى »(٢) .

جَلبت « أُوليس » الشهـرة الواسعة لجيمـس جويس ، وأحس هو بقيمـة تجربتـه الأدبيـة فى استخـدام اللغـة ، وفى ابتكار أسلـوب جـديد فى الكتـابة القصصية . فعندما اقترب منه شخص ذات مرة سائلا : « هل تأذن لى بتقبيل يدك التى كتَبَتْ (أُوليس) ؟ » ، أجـاب جـويس : « لا ، فقد كتبْتُ بها أيضـا أشياء أخرى كثيرة ! » . لكن الواقع يشهد أن « أُوليس » صـارت مَصْدرا أدبيا متميزا فى تاريخ الأدب للقرن العشرين . وبها ، اتسع مجال المباح والمستسـاغ من الموضـوعـات التى تُثـرى الخيـال القصصى . ومن الميسـور مـلاحظة انعكاسات بعض ملامح من « أُوليس » فى أعمال « ويليام فولْكنر » ، و « ألْبير كامو » ، و « صمويل بِكِت » ، و « جابْرِيل جارسيا » ، و « تونى موريسون »، وجميعهم ـ مثل جويس ـ حصلوا على جائزة نوبل فى الأدب(٣).

حاول « جويس » أن يتفوق على نفسه بعد النجاح الكبير والشهرة العالمية التى أحـرزها ، خاصـة من روايته « أُوليس » ، فقضـى سبعـة عشر عامـا فى تأليف: « صحوة فينجانز ـ ١٩٣٩ » وهى الرواية المقابلة أو المكملة لأُوليس. فبينما أوليس تتناول حيـاة مـدينة دَبلن المتيقظة بالنهـار ، تدور أحـداث



ت. س . إليوت .


مع أنه لم يكن مـوسرا ثريا، إلا أنه كان يحرص دائما على التأنـق وحسن الظهور أمام الناس .

(٢) توماس ستيرن إليوت من أكبر شعراء العصر ، ولد فى الولايات المتحدة (١٨٨٨) وعاش فى إنجلترا ، وحصل على جائزة نوبل فى الأدب (١٩٤٨) ، ومات فى لندن (١٩٦٥) .

(٣) فولكنر : كاتب أمريكى (١٨٩٧ ـ ١٩٦٢) ومؤلف روايـات نفسية ورمزية مستوحاة من جنوب الولايات المتحـدة (مثل : «ضجيج السخط » ـ ١٩٢٧ ، و « قـداس وداع لراهبـة » ـ ١٩٥١) . حصل على جائزة نوبل ١٩٤٩ .

كـامـو : كاتـب فـرنسـى جزائـرى المـولـد (١٩١٣ - ١٩٦٠) ، مـن أشهـر رواياتـه : «الطاعـون - ١٩٤٧ » ، و « الغريب » ـ ١٩٤٢ » ، وللمسرح روايـة « كاليجـولا » ـ ١٩٤٥ ... حصل على جائزة نوبل ١٩٥٧ .

بكت : كاتب أيرلندى المولد فى دبلـن (١٩٠٦) ومات فى باريس (١٩٨٩) ، له قصص وروايات مسرحية تدور حول استنكار سخف ولا عقلانية الوضع الإنسانى ، مثل : « فى انتظار جودو » ـ ١٩٥٣، حصل على جائزة نوبل ١٩٦٩ .

جارسيا : كاتب كولومبى المولد (١٩٢٨) حظى بشهرة عالمية بعد نشر روايته « مائة سنة من الوحـــدة» -١٩٦٧ ، له كثير من الروايات والقصص القصيرة واسعة الانتشار عالميا ، وهو محور مدرسة أدبية يُطلق عليها : الواقعية السحرية . فاز بنوبل ١٩٨٢ .



فى مكتبة الناشر لـروايته « أوليـس » فى السنـوات العشرينيات .

«الصحوة » حول الأحلام ليلا . وكان لزاما على « جويس » أن يدخل تجربة أدبيـة جـديدة ، ويبتكر أسـاليـب وكلمات ومصطلحـات تلائم هذا المجـال الغـامض العسير : وهو الأحـلام . واعترف « جـويس » بأن اللغـة التى استخـدمهـا فى هـذه الروايـة تبدو غـامضـة مُبهمة « وهذا أمـر طبيعى وواقعى جدا : ألا تبدو الأمور والأشياء غير واضحة فى الليل ؟ ! » .. ويضيف النقاد : لعله كان يرى أن كشف هذا الغموض سيحتاج إلى قرن من القراء ، أو أكثر !

حـاول « جـويس » فى شبـابه أن يكون طبيبـا . لكنه لم يطق صبرا على متـابعـة الدراسـة الطبيـة ، فـانصرف إلى الأدب . فلما كبر ، تردد كثيرا على عيادات الأطباء حزينا ومُكْرَها . فقد أصيبت ابنته بخلل عقلى فشل فى علاجه واضطر إلى إيداعها مستشفى للأمراض المستعصية خارج باريس . أما هو ، فقد ظل ثلاثة عشر عاما متنقلا بين الأطباء والجراحين لعلاج مرض فى عينيه كان يسبب له العَمى الكامل فترات .. أجرى ٢٥ جراحة بين ١٩١٧ و ١٩٣٠، فى القُزحية ، والماء الأزرق (جلوكوما) ، وإعتام العدسة (كاتاراكت) .

وعندما احتل الألمان فرنسا عام ١٩٤٠ مـع بداية الحرب العالمية الثانية ، رحل « جويس » عن باريـس إلى زيورخ حيث مات وفى نفسه غُصَّـة من عدم استحسان الجمهور لروايته الأخيرة . وغادر الدنيا مخلِّفا إلى جانب قصصه القصيرة ورواياته ، ثلاثة دواوين من الشعر ، ومسرحية .

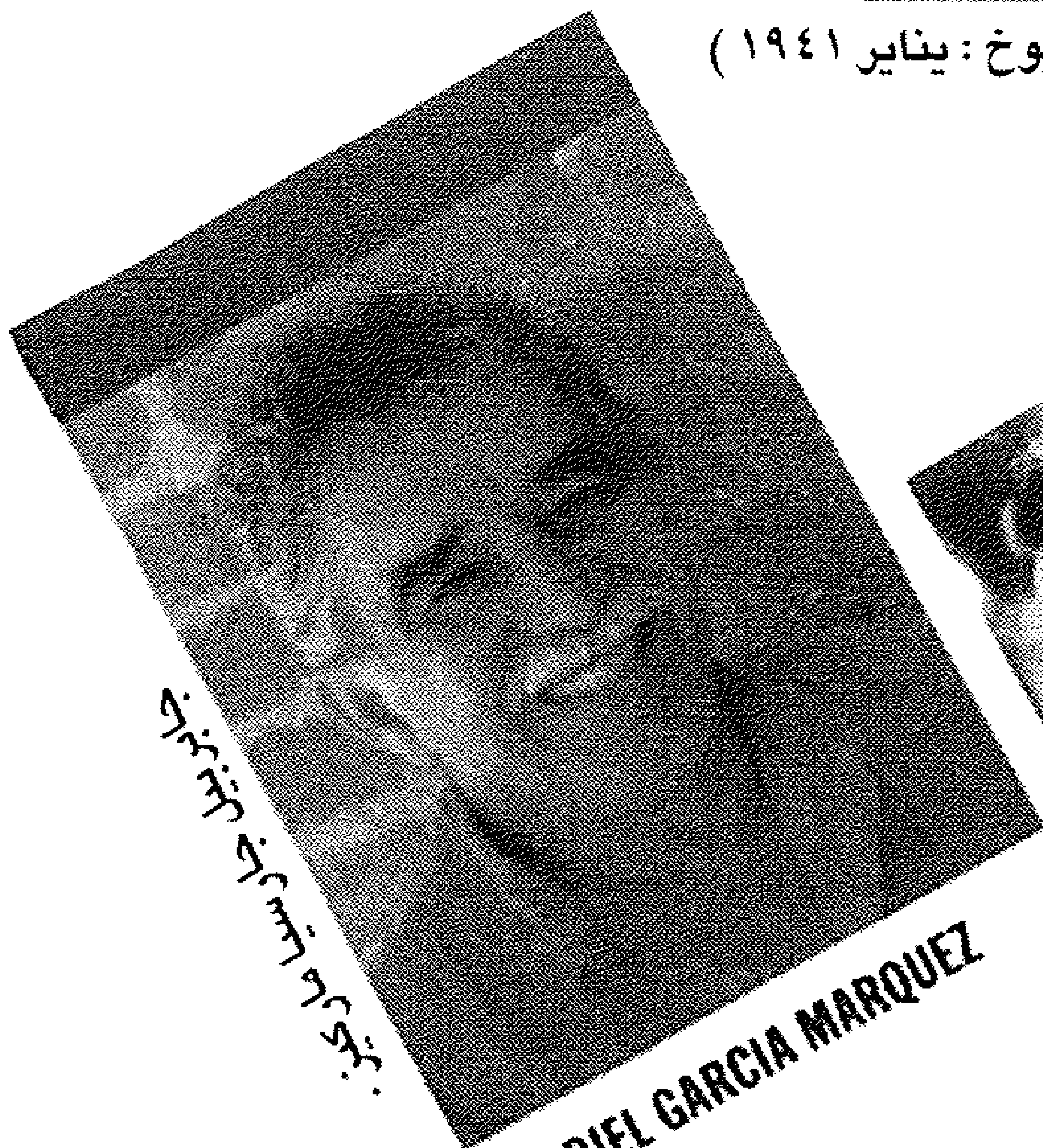


James Joyce

فى سنة ١٩٣٩ كان بصره ضعيفا وكثيرا ما استخدم العدسة المكبّرة فى القراءة .



جيمس جويس (ولد فى دبلن : فبراير ١٨٨٢ – وتوفى فى زيوخ : يناير ١٩٤١)



GABRIEL GARCIA MARQUEZ

جابرييل جارسيا ماركيز .

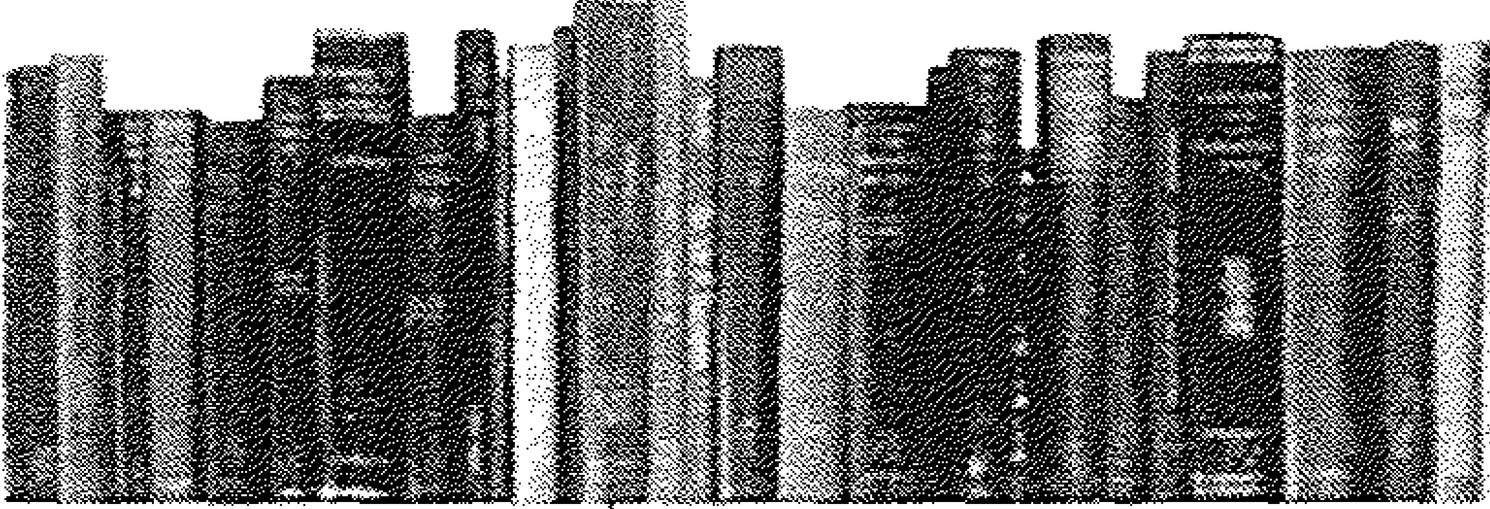


ألبير كامو .



ويليام فولكنر .

أضواء على فن الرواية المصرية (والمسرح العربى)(*)



أدب القصة والرواية بالمفاهيم الحديثة يُعتبر فنا جديدا فى مصر وفى دول الوطن العربى ، وإن كان التراث العربى الإسلامى حافلا بقصص وحكايات خيالية وأسطورية ومَلْحمية فى عصور مختلفة ، ومنها قصص للأطفال ، كانت شائعة متداولة منذ العصر الأول للإسلام أو ما قبله . والحديث هنا عن « الفن القصصى » ، بأشكاله وأساليبه وخصائصه وأنماطه التى استقر عليها فى أواسط القرن العشرين فى مجال القصة القصيرة ، والرواية الطويلة، والرواية المسرحية ، دون دخول فى تفاصيل تُباعد عن القصد من هذا العرض العام المتناسق ، وهى تفاصيل أساسية وضرورية ، لكنها مبسوطة فى المراجع والكتب المتخصصة .

أشرقت شمس القرن العشرين وحركة الترجمة عن الغرب ـ المباشرة أو الممصَّرة أو المعرَّبة ـ تنمو وتتسع فى مصر وبعض بلاد الشام والمغرب ، وإن كانت وئيدة الخُطَى بطيئة المَنْهَل . فانتعشت النهضة الثقافية ، وتفتحت

---

* المصادر الرئيسية لهذا الفصل ـ إلى جانب مصادر أخرى ـ هى :

ـ تطور الأدب الحديث فى مصر : أ. د كتور أحمد هيكل (القاهرة) .

ـ الأدب القصصى والمسرحى فى مصر : أ. د . أحمد هيكل (القاهرة) .

ـ أضواء على الأدب الحديث : أ. د . أحمد الحوفى (القاهرة) .

ـ القصة القصيرة فى مصر : أ. عباس خضر (القاهرة) .

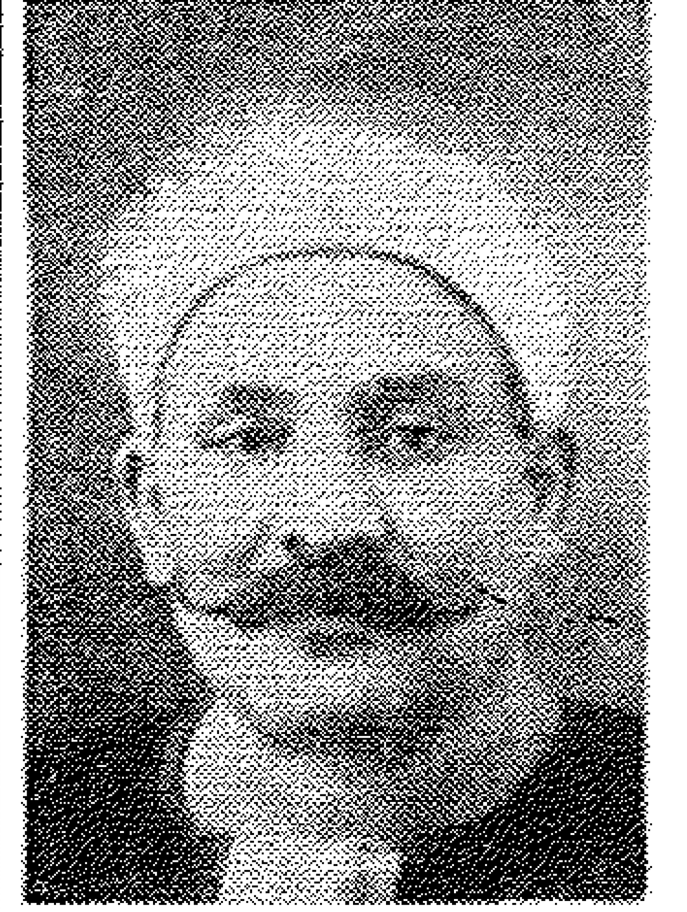
ـ الأدب المغربى من خلال ظواهره وقضاياه : أ. د . عباس الجرارى ـ (جامعة محمد الخامس ـ الرباط بالمغرب) .

ـ فجر القصة المصرية ـ يحيى حقى .

ـ موسوعة « وبستر » الأمريكية فى الأدب : . Encyclopedia of Literaure , M. Webster , 1995

أذهان وعيون وقلوب على أغـراض وأنواع جديدة للمعرفـة تسللت حثيثا إلى الفكر العـربى والوعى الجماهيرى ثم تشـابكت مع نسيج الثقـافـة المحليـة القائمةوصارت بعد ذلك جزءا منها . ومما لاشك أو جدال فيه ، أن الصحافة (من جـرائـد ومجلات ودوريات) أسهمت بنصيب كبير فى إنعـاش تلك النهضـة ، ونشر تلك الثقـافـة المتطورة على نطاق واسع بين كـل فئات ومستـويات الجماهير . فكان الإقبال المتـزايد على فنون القصـة ، والرواية ، والمسرح .(١)

ولمعتْ أسماء رواد أحبهـا القُـراء ، كـان من أبرزهـا : مصطفى لطفى المنفلوطى (ت ١٩٢٤) ، محمـد المويلحى (ت ١٩٣٠) ، الشـاعـر حـافظ إبراهيم (ت ١٩٣٢) (٢) ، لبيبة هاشم (ت ١٩٤٧) .


المنفلوطى

كـان المنفلوطى على رأس حـركـة « التمصير » ، أى النقل والترجمة من الأدب الغربى ترجمة غير حرفية . فهـو يحافظ على الفكرة وسياق الأحداث ، لكنه يضعهـا فى إطار وبيئة محليـة ، ويستبـدل اسم الـرواية وأسماء الشخصيات والأماكن بأسماء عربية أو مصرية ، ويتصرف فى مسار الوقائع ببعض التغييرات ، وكذلك فى الأسلوب وصياغـة الجُمل والعبارات ، وإدخال ما يراه مـن حِكَم وأمثال عربيـة أو شعبية . وكـان للمنفلوطى أسلوب أدبى متميز ، يتَّسم بالإيقاع الموسيقى فى الألفـاظ والعبارات ، وهذا يتطلب حُسن الصياغـة ، واستخدام السَّجع أحيانا ، والإفراط فى المحسِّنات البـديعية . كما كان يُبـدى اهتماما كبيرا بالجانب العـاطفى ، فيستثير المشاعـر ، ويستَذْرف الدمـوع ، ويستحـثُّ الشَّجن ، فكانت أعماله وقصصـه ورواياتـه مقـروءة

(١) ما أوجه الاختلاف فى توصيف : الأقصوصة ، والقصة القصيرة ، والرواية الصغيرة ، والرواية؟ التعريفـات كثيرة ، والآراء النقدية تختلف فى جـوانب وتتفق فى أخرى أو يكمل بعضهـا بعضا . وفى إيجاز: الأقصوصة أصغر من القصـة القصيرة والقصة القصيرة : « تنحصر فى موقف محدد أو تصوُّر لحظة معينة ينفعل بها الكاتب ويعبِّر عنها فى حادث موحَّد ؛ ويمكن إجمال خصائصها فى كلمتين : الوحدة والتركيز » . أما فى الرواية ـ القصيرة والطويلة ـ فالمواقف تكثر فيها وتتنوع، وكذلـك الشخصيات ، والأحداث ، والأمـاكن والأزمان (ويجوز أيضـا توحد الزمـان والمكان) ، والأفكار مترابطة أو غير مترابطة . . . .

(٢) تفصيل حيـاة وأعمال حـافظ إبـراهيم فى الجزء الخامس من هذه السلسلة بعنوان : « رجـال صاغوا القرن العشرين » .

محبَّبة إلى أعداد كبيرة من الجماهير لأجيال متعاقبة ، وكان هو أكثر كتَّاب جيله تمثيلا لروح العصر فى أوائل القرن العشرين (٣) .

من رواد النهضة الأدبية أيضا ـ القصصية والروائية ـ فى أوائل القرن : « محمد المويْلحى»(٤) صاحب الرواية المشهورة « حديث عيسى بن هشام » ، وهى رواية فكاهية مسلِّية ، نقدية اجتماعية ، مقصدها التنبيه والتهذيب ، من خلال مقارنة بين جيلين ، جيل المؤلف وجيل سابق ، بين جيل شرقى عربى صِرْف ، وجيل شرقى عصرى يميل بعض أبنائه إلى التغريب ، أى محاكاة الغرب فيما ينفع قليله ويضُر كثيره . ويرى فريق من أساتذة الأدب والنقد أن هذه الرواية « أول رواية اجتماعية مصرية فى الأدب الحديث » ، وإن كانت غير كاملة النضج . والفكرة الأساسية فيها : أن عيسى بن هشام ـ الشخصية الرئيسية أو البطل ـ ذهب يوما إلى المقابر للعِبْرة والعِظة ، فإذا به يفاجأ بقبر ينشق عن رجل كان ميتا ثم أحياه الله ، ويخبره أنه « أحمد باشا المنيكلى » رئيس الجهادية (الحربية) فى عهد محمد على باشا . ثم تبدأ جولة الرجلين فى أنحاء وأحياء ومواقع وإدارات مختلفة داخل العاصمة المصرية ،

(٣) يقول الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه « رجال عرفْتُهم » عن الأسلوب الأدبى للمنفلوطى : « إنه أدب الشِّكاية أو أدب البكاء.. وهو غير قابل للتحول عن الشعور التقليدى بأن العاطفة هى الرقة ، وأن الرقة هى البكاء » . ثم يشير العقاد إلى مكانة المنفلوطى كرائد من رواد النهضة الأدبية فيقول : « .. لا يُعرف له نظير بين أعلام الأدباء الناثرين مِمن استطاع أن يقرب بين أسلوب الإنشاء وأسلوب الكتابة كما استطاع المنفلوطى صاحب « النظرات » و « العَبَرات » ... إن المنفلوطى ـ قبل غيره ـ هو الذى قارب بين الجمال والصحة على نَسَقه الفصيح فى سهولة لفظ ووضوح معنى وسلاسة نغم ، وهو يَبْلغ مبلغ التبرج بالصقْل والزينة ، ولا يترك التبرج والزينة ترك المتقشف فى مسوح النساك .. » .

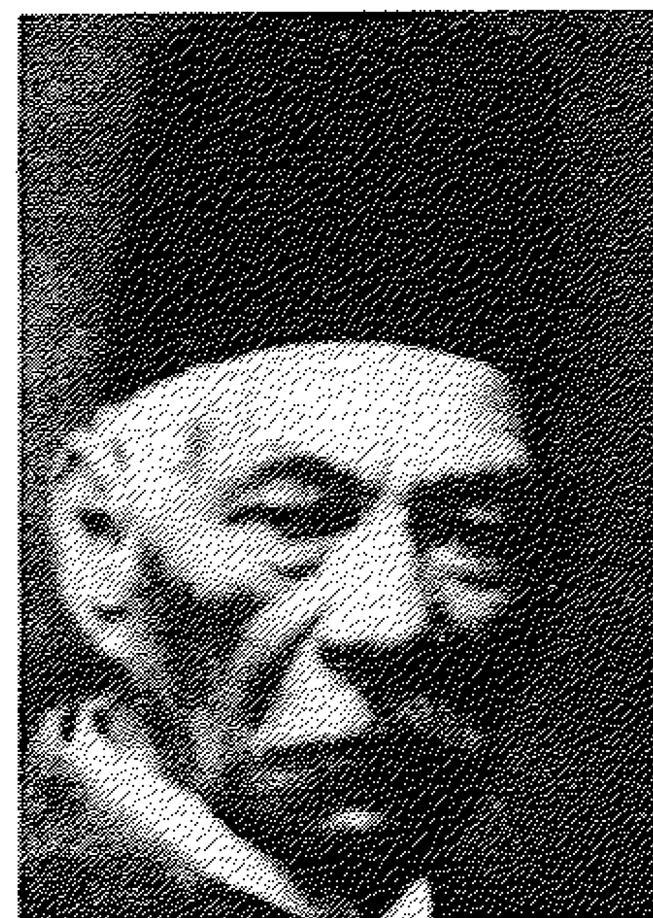
والمنفلوطى من مواليد منفلوط بصعيد مصر (١٨٧٦) ، تعلم بالأزهر ، ولم يكمل دراسته به ، فتركه بعد عشر سنوات متجها إلى كتب الأدب والشعر وكتابات الشيخ محمد عبده وكبار المفكرين . ثم اتجه إلى الكتابة بالصحف ، فكان من الكتاب البارزين فى جريدة « المؤيد » التى أصدرها الشيخ «على يوسف » وكان الزعيم مصطفى كامل من كتابها فى البداية قبل مخاصمته للشيخ . ولما تولى سعد زغلول وزارة المعارف (التعليم) عيَّن المنفلوطى محررا بالوزارة ، ثم انتقل مع سعد باشا عند توليه وزارة الحقانية (العدل) ، فلما ترأس سعد البرلمان عيَّن المنفلوطى محررا بمجلس الشيوخ ، فظل به حتى سنة ١٩٢٤ .

(٤) يقال له « المويْلحى الصغير » تمييزا له عن أبيه « المويلحى الكبير » أو إبراهيم المويلحى الذى كان يصدر مجلة « مصباح الشرق » إحدى المجلات الأدبية الكبيرة آنذاك . وقد تعلم محمد المويلحى ـ الابن ـ فى مدارس مدنية ، وكان يتردد على الأزهر ويحضر دروس الشيخ محمد عبده سافر إلى بعض الدول الأوروبية ومنها إيطاليا وفرنسا ، وأتقن الفرنسية ، وساعد الشيخ جمال الدين الأفغانى و محمد عبده فى إصدار مجلة « العُروة الوُثقى » فى باريس بعد نفيهما من مصر بأمر الخديوى توفيق . وكان محمد المويلحى يساعد أباه فى إصدار المجلة ، ونشر بها « حديث عيسى بن هشام » (١٩١٠) ، وتوفى سنة ١٩٣٠ .


محمد على


عباس محمود العقاد


مصطفى كامل


سعد زغلول

ويلتقيان بشخصيات متنوعة فى سلسلة من الأحداث والمواقف المثيرة والقضايا والمشكلات التى كانت تقع بسبب سلوك وتصرفات الباشا الذى يجهل ما استجد من أحوال وأمور وأخلاقيات وقوانين ونُظم لم تكن قائمة فى عصره (فيتعرض لمقابلة الشرطى ، والقاضى ، والمحامى ، والطبيب ، والعمدة ، والغانية ، والخليع ...) . ومن هنا يُظهر المؤلف أوْجُه التباين والتغاير بين عصرين وأخلاق وأساليب حياة جيلين . ولا يكتفى بذلك ، بل يدفع بالأحداث لحمل الرجلين (ابن هشام و الباشا) على السفر خارج مصر لإظهار أوجه الخلاف بين مَدَنية الشرق ومَدَنية الغرب ، بمحاسن ومساوئ كل منهما . ثم يختم الرواية بأنها كانت مجرد رؤيا نائم ، هو عيسى بن هشام ، فرواها كما رآها .

إذا برجةٌ عنيفة من خَلفى ، كادت تَقْضى بحتفى ؛ فالتفَتُّ التفاتةَ الخائفِ المذْعُور ، فرأيتُ قَبرًا انشقَّ من تلكَ القبور ، وقد خرج منه رجلٌ طويلُ القامَةِ ، عَظيمُ الهَامَة ، عليه بهاءُ المهابةِ والجلالةِ ، ورُواءُ (٤) الشرفِ والنَّبالةِ ؛ فَصُعِقْتَ

ثم دارَ الحديثُ بيننا وجرَى ، على نحو ماتَسْمعُ وترى ، بالتُّركِيَّةِ تارةً والعربيةِ أخرى.

الدفين ـ ما اسمكَ أيها الرجل ، وماعَمَلُكَ ، وما الذى جاء بك ؟

فقلتُ فى نفسى : حقًا إنَّ الرجُلَ لقَريبُ العهدِ بسؤال الملكَيْن ، فهو يسأل على أسلوبهما ، فاللهمَّ أنقِذْنى من الضِّيق ، وأوسِعْ لىَ فى الطريق ، لأخْلُصَ من مناقشة الحساب ، وأكتفى شر هذا العذاب . ثم التفتُ إليه فأجبْتُه :

عيسى بن هِشام ـ اسمى عيسى بنُ هِشام ، وعملى صناعة الأقلام ، وجئت هنا لأعتبرَ بزيارةِ المقابر ، فهى عندى أوْعظ من خطب المنابر .

الدفين ـ وأين دَواتُكَ يامُعَلِّم عيسى ودفترُك ؟

عيسى بن هشام ـ أنا لستُ من كُتَّاب الحساب والديوان ، ولكنى من كُتَّاب الإنشاء البيان .

الدفين ـ لابأْسَ بك ، فاذهبْ أيها الكاتبُ المنشىء ، فاطلب لى ثيابى ، وليأتُونى بفَرَسى «دَخْمان» .

عيسى بن هشام ـ وأين ياسيدى بيتكم فإنى لاأعرفه ؟

الدفين (مشمئزًا) ـ قل لى بالله مِنْ أى الأقطار أنت ؟ فإنه يظْهَرُ لى أنكَ لستَ من أهلِ مِصر ؛ إذ ليسَ فى القطر كلِّه مِنْ أحَدٍ يجهلُ بيتَ أحمد باشا المِنيكلى ناظر الجهادية المصرية .

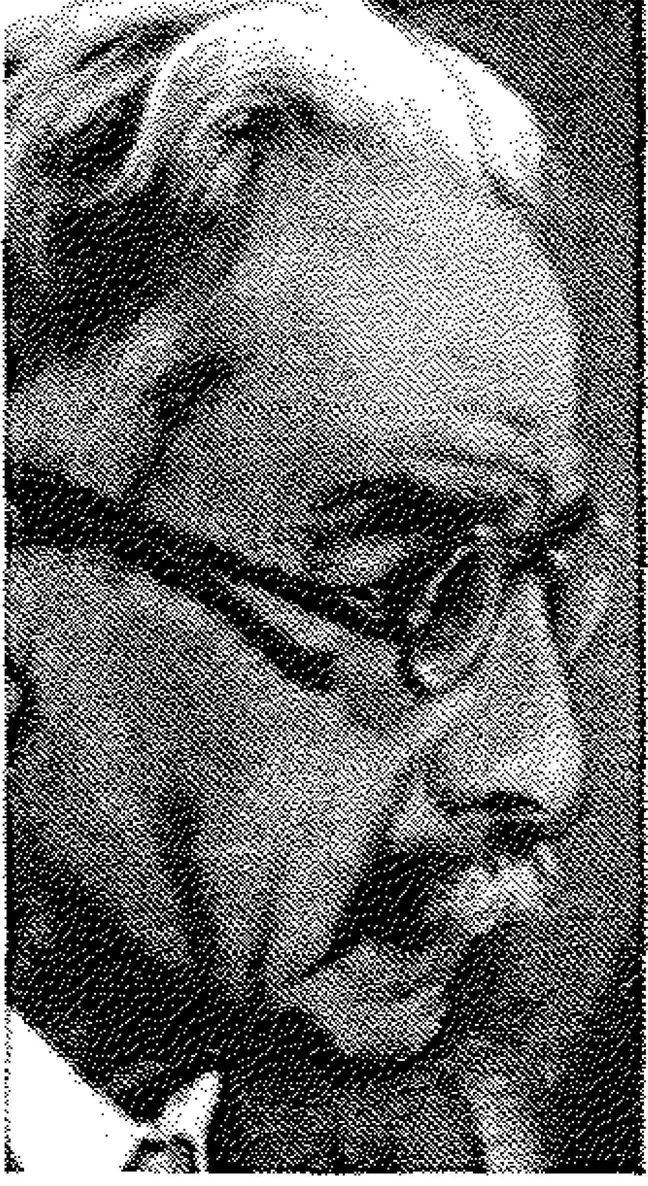
عيسى بن هشام ـ اعلمْ أيها الباشا أننى رجلٌ من صميم أهلِ مصرَ ، ولم أجهلْ بيتَكَ إلا لأنَّ البُيوتَ فى مِصرَ أصبحَت لاتُعرَفُ بأسماء أصحابها ، بل بأسماء شوارعها وأزقَّتها وأرقامها ، فإذا تفضَّلْتَ وأوضحت لى شارعَ بيْتكم وزُقَاقَه ورَقَمَهُ انطلقت إليه وأتيْتُكَ بما تطلبه .

الباشا (مغضبًا) ـ ما أراكَ أيها الكاتبُ إلا أنَّ بعقلكَ خَلَلاً . فمتى كان للبيوت أرقامٌ تُعرَف بها ! وهل هى «إفادات أحكام» أو «عساكرُ نظام» ؟ والأَوْلى أن تناولنى رداءك أستترُ به وتصاحبنى حتى أصل إلى بيتى .

قال عيسى بن هشام : فنزلت له عن ردائى

(صفحة من التمهيد لرواية المويلحى)

من الرواد الأُوَل أيضا « لبيبة هاشم »(٥) التى أسهمت فى أوائل القرن فى تأليف وترجمة القصص القصيرة ونشرها فى مجلة « الضياء » ذات الطابع الأدبى (كان يُصْدرها إبراهيم اليازجى) . ثم أصدرت هى مجلة « فتاة الشرق » ـ سنة ١٩٠٦ ، المتخصصة فى شئون المرأة ، وتابعت فيها نشر قصصها مع آخرين .


خليل مطران

جاء بعد ذلك جيل جديد من الذين درسوا وتخرجوا من المدارس العليا (الكليات) والجامعات المصرية أو الأجنبية بالخارج . فأحسن هؤلاء الانتقاء، والترجمة ، والحرص ـ غالبا ـ على نقل الذوق الأدبى السليم ، ساعدهم فى ذلك إجادة اللغتين : العربية و الأجنبية ، وهى غالبا فرنسية أو إنجليزية . من أشهر هؤلاء : إبراهيم عبد القادر المازنى ، خليل مطران ، محمد السباعى ، محمد عوض محمد ، عباس حافظ ، زكى نجيب محمود ، عبد الرحمن صدقى ، درينى خشبة ، محمد عبد الله عنان ، وغيرهم كثيرون. ولما أنشأ أحمد حسن الزيات مجلة « الرواية » أفسح فيها مجالا واسعا للقصة القصيرة المترجمة إلى جانب القصص والروايات المؤلَّفة (٦) .


إبراهيم المازنى

كان « محمد تيمور » أول من كتب قصة قصيرة عربية حديثة (سنة ١٩١٧) ثم جاء من بعده رواد آخرون فى العشرينيات من القرن . وينسبهم النقاد إلى « المدرسة الحديثة » ، وهو توصيف أو تعبير عام يُطلق على الفترة المزدهرة بالجديد فى الآداب والفنون . جاء فى جريدة « الفجر » يوم ٢٠

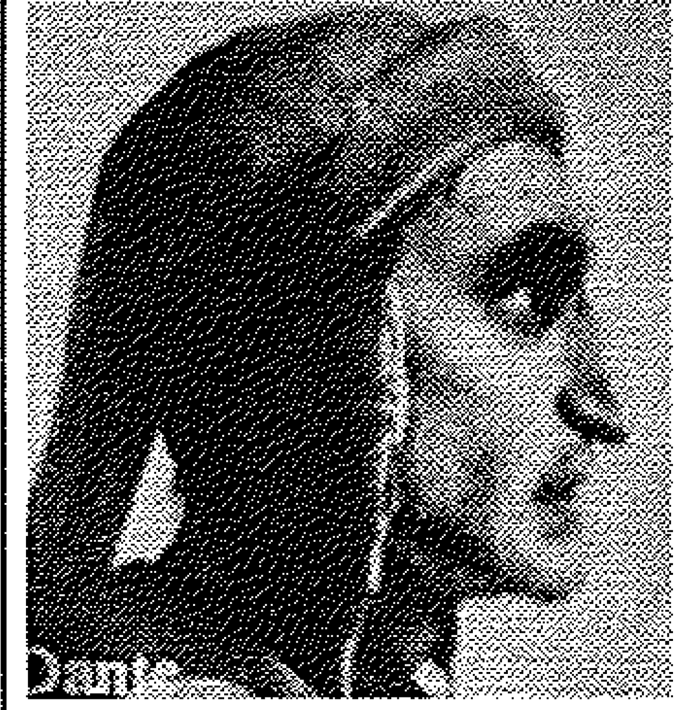

محمد تيمور

(٥) هى لبنانية الأصل ، وفدت إلى مصر وهى صغيرة مع أهلها وتزوجت بها ، وكانت تحاضر فترة بالجامعة المصرية القديمة ، وسافرت إلى سوريا وتولت التفتيش بمدارس البنات ، ثم رحلت إلى شيلى ، ثم إلى شيكاغو بالولايات المتحدة و أنشأت بها مجلة « الشرق والغرب » ، وعادت إلى مصر وتوفيت سنة ١٩٤٧ . ومزيد من التفصيل عنها فى الجزء الخاص من هذه السلسلة بعنوان : «نساء شهيرات فى القرن العشرين » .

(٦) « من المرجح أن أول من كتب القصة القصيرة فى شكلها الحديث المتكامل ، هو الكاتب الفرنسى «جى دى موباسان » فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . كتبها قبله كثيرون ، منهم « مارك توين » ، و«إدجار آلان بو » الأمريكيان ، ولكنهم لم يهتدوا إلى ما اهتدى إليه « موباسان » من أن القصة القصيرة لاتحتاج إلى الوقائع الخطيرة والخيال الخارق ، بل يكفى الكاتب أن يتأمل فى الوقائع العادية والأفراد العاديين لكى يفسر الحياة ويعبر عن خفاياها من خلال موقف أو لحظة من لحظاتها . وكانت الواقعية الحديثة هى المذهب الملائم لهذا المنهج » ـ من كتاب : القصة القصيرة فى مصر ـ عباس خضر .


طه حسين وحرمه

مـارس ١٩٢٥ : « .. للآداب أنصـار جُـدد انشطروا بحكم نزعـات تفكيرهم وظروف تهذيبهم وتأثيرات الوسـط ، إلى مـدارس متحـدة الغـاية مختلفـة الوسـائل . فهناك مـدرسة لطفى السيد ومنصـور فهمى و (محمد حسين) هيكل وطه حسين و (محمود) عزمى وأحمد ضيف ومصطفى عبد الرازق . وهناك مدرسة (إبراهيم عبد القادر) المازنى وعبد الرحمٰن شكرى وعباس حافظ و محمـد السباعى و عباس العقاد وعلى أدهم وعبـد الرحمن صدقى . وهناك مدرستنا الحديثة التى اتخذت هذه الجريدة « الفجـر » لسان حالها .. وتمتـاز هذه المدرسـة بالعناية بالعلوم الحديثـة والفنون الجميلة اهتمامهـا بالآداب . وجميع هذه المدارس متحدة ضد القديم وضد الجديد الفاسد » .



دانتى

وفى كتابه « فَجر القصـة المصرية » يقول الأستاذ يحيى حقى : « أميل الى الاعتقـاد بأن أعضاء المدرسـة الحديثـة مـروا فى مرحلتين : الأولى ، مـرحلة اتصال ذهنـى بالأدب الفرنسى والإنجليـزى . فقد تعلموا فى مـدارس هاتين اللغتين ، وقـرأوا فى المدرسـة أيضـا لمؤلفـات كبـار أدبائهما مثل : شكسبير ، وموريسون ، وكـارليل ، وسكوت ، وديكنز من الإنجليز ، وكورنىْ وراسين ومـوليير ولافـونتين وبلزاك وهوجـو ودومـاس (الأب والابن) وفلوبير وموباسـان من الفرنسيين ، ثم قادهم جـوعهم الثقافى إلى ارتياد آفاق أخرى . فقرأوا لكتـاب يجذبونهم لما فى حياتهم من مآسٍ أو لقـدرتهم على البهلوانية ، فكانت على مائدتهم تتردد أيضـا أسماء : جوته وأوسكار وايلد وإدجار ألان بو ، ورامبـو، وبودْلير ، بل قـرأوا فى الأدب الإيطالى مـؤلفـات بيراندللو وترجموا له ،والصـابرون منهم طوَّفوا أيضا بجحيم « دانتى » ، فإذا ضـاقوا وطلبوا الفكاهة ، قرأوا مارك توين وبـوكاشيو . وكان من النادر ، أن تسمع باسم الجاحظ أو المتنبى ... ولم تكن أسماء أعـلام النقد تشغل مكانا كبيرا فى حديثهم . وكان التعصب لكاتب لا لمذهب . هذه هى مرحلة الغذاء الذهنى .



جوتـه

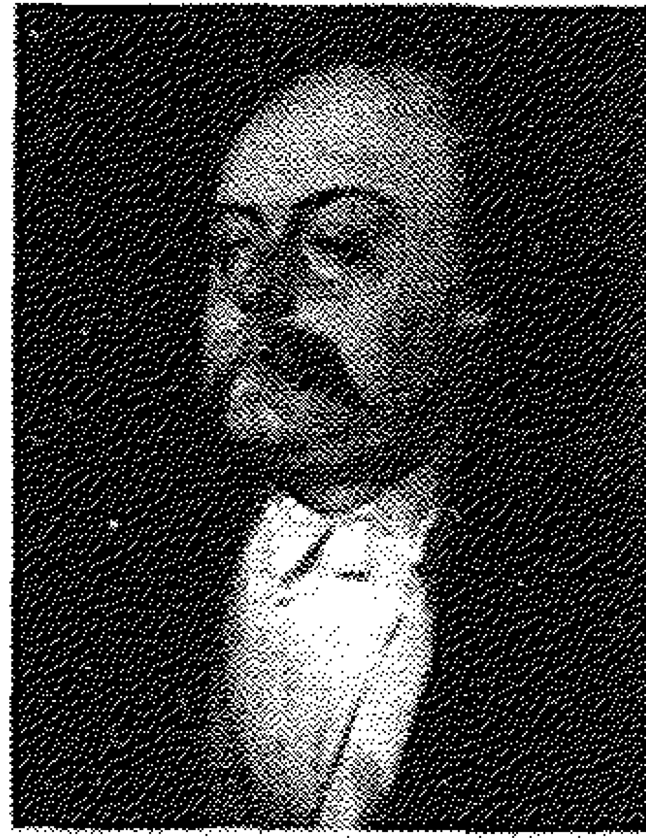
« والثانية ، انتقلوا منهـا إلى مرحلة أخرى أسميِّها مـرحلة الغذاء الروحى التى حَرَّكت نفـوسهم وألهبتْ عواطفهم ودفعتهم للكتابة بحـرارة الشباب .

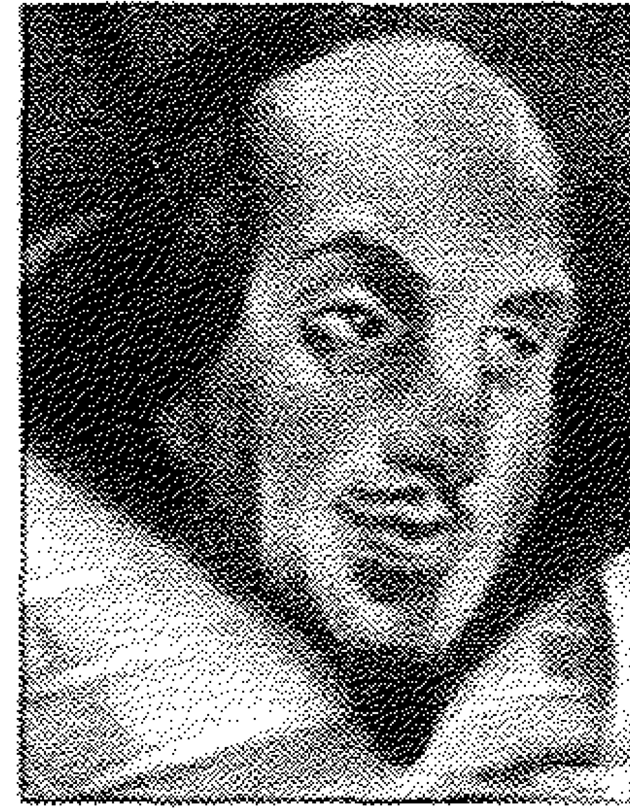

يحيى حقى



جى دو موباسان

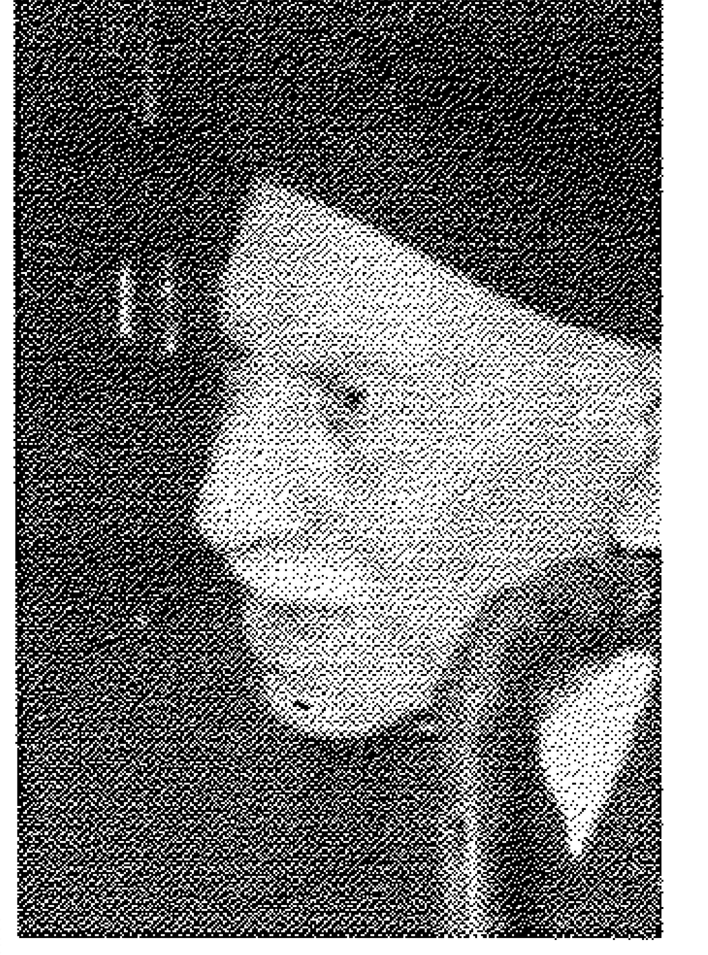

CHARLES DICKENS
شارلز ديكنز

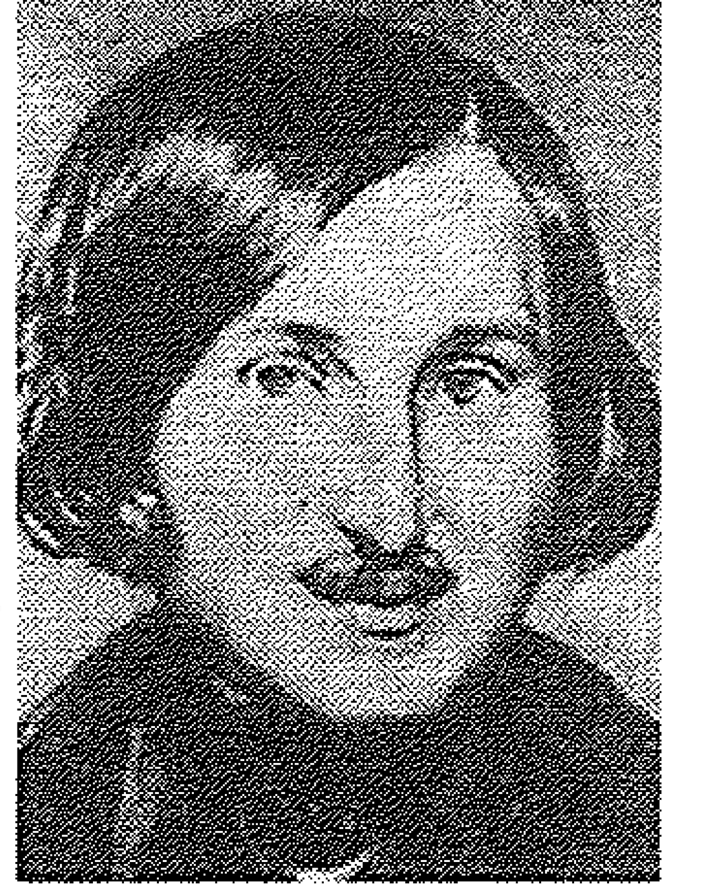

Flaubert, par Eugène Giraud.
فلوبير


SHAKESPEARE
شكسبير


فيكتور هيجو
فيكتور هوجو

انتقلوا إلى هذه المرحلة الثانية حين قرأوا الأدب الروسى وبَهَرهم جوجول،وبوشكين ، وتولوستوى ، ودستويْفسكى ، وتورجنيف ، وأخيرا جوركى . فهذا أدب يتحدث بحرارة وانفعال شديد عن الاعتراف والنزعة إلى التطهر والفداء ، والبكاء على مآسى الحياة ، والإيمان بالقَدَر والثورة عليه فى وقت واحد ؛ يحدثهم عن الصلاة والتراتيل ، وعن الخمر والبغاء ، والجريمة والعقاب ، والقديسين والشياطين ... ودهشوا حين رأوا هذا الأدب - إلى جانب حفاوته بدراسة النفس البشرية والمشكلات الاجتماعية - ليس بأقل حفاوة فى وصف الطبيعة ومشاهدها والتغنى بجمالها . كل هذه أجواء توافق مزاج الشباب الشرقى الملتهب العاطفة ، والمحروم من الحب . لذلك لا أكون بعيدا عن الحق إذا أرجعتُ إلى الأدب الروسى الفضل الأكبر فى إنتاج أعضاء المدرسة الحديثة ، وتكون القصة بذلك قد مرتْ من التأثر بالأدب الفرنسى على يد(محمد حسين) هيكل ، إلى التأثر بالأدب الروسى على يد هذه المدرسة


توفيق الحكيم


جوجول

الحديثة . ولما كان أغلب أعضاء هذه المدرسة يتقنون الإنجليزية خيرا من الفرنسية ، فقد كان من حُسن الحظ أن الإنجليز عُنوا أكثر من الفرنسيين بترجمة الأدب الروسى ترجمة دقيقة غير مقتَضَبة ، هذا على الرغم من أن دستويفسكي وتورجنيف عاشا فى باريس زمنا لا فى لندن » .

والملاحظ أن أعمال رواد مثل : محمد تيمور ، وعيسى عبيد ، وشحاته عبيد ، ومحمود تيمور ، ومحمود طاهر لاشين ، متأثرة بالأدب الفرنسى والروسى معا . ووفاء للجانب التاريخى وحده ، نذكر هنا نص أول قصة قصيرة فنية مصرية لمؤلفها محمد تيمور [7] ، وهى : « فى القطار » التى نُشرت فى جريدة « السفور » سنة ١٩١٧ ، مع ملاحظة أنها ليست أحسن قصصه ، وربما كانت أضعفها .

---

(٧) ولد محمد تيمور سنة ١٨٩٢ فى بيت علم وأدب وثراء ومحافظة . فأبوه أديب عالم محقِّق ثرى مرموق (أحمد تيمور باشا)، وعمته « عائشة التيمورية » الأديبة الشاعرة ابنة إسماعيل باشا تيمور الذى كان يرأس القلم الأوروبى فى ديوان الخديوى ثم صار رئيسا للديوان كله ، وأخوه « محمود » الذى كان معه ومن بعده رائدا من رواد القصة القصيرة ومؤرخيها فى مصر .
تعلم محمد تيمور بالمدارس المصرية حتى نهاية المرحلة الثانوية ثم أرسله أبوه إلى أوروبا لإتمام دراسته . فاتجه أولا إلى برلين لدراسة الطب ثم تركها إلى باريس لدراسة القانون ، ثم تركه إلى قراءة الأدب ومشاهدة المسرح ودراسة فنه بالأقسام الأكاديمية الحرة . وبعد ثلاث سنوات عاد إلى مصر للدراسة بمدرسة الزراعة العليا لكنه لم يستكملها وتفرغ للمجال الأدبى والفنى ، فألف للمسرح ومثَّل أدوارا على خشبته ، وكتب القصة القصيرة . ورآه السلطان حسين كامل فى أداء إحدى المسرحيات بالأوبرا ، فأعجب به وعينه أمينا بالقصر ، فاضطر إلى أن يترك المسرح وأفرغ طاقته الأدبية الفنية فى الكتابة ، وكانت أول مجموعة قصصية صدرت له بعنوان : « ما تراه العيون » وقد ضمَّنها قصة « فى القطار » . وعلى الرغم من عراقة أسرة تيمور وثرائها ومكانتها ، إلا أن « محمدا » كان يعيش فى قصر والده بدرب سعادة فى حى الحمزاوى الشهير بالقاهرة ولم يمنعه ذلك من مخالطة أبناء الحى البسطاء الفقراء ومصادقتهم . وكان يتردد على ضيعة (عزبة) أبيه فلا ينعزل عن الفلاحين ويعيش فى استعلاء المترفين . بل كان يجالسهم ويصاحبهم متأسيا بسلوك والده الذى كان يستقبل ويكرم أهل الأدب والعلم ولو كانوا فقراء أو من عامة الشعب . وفى رحلاته التعليمية إلى أوروبا لم ينغمس « محمد تيمور» فى ملذات ومُتع الشباب الحسية والجنسية ، كما فعل ويفعل كثيرون ، وإنما أفرغ همه فى دراسة الأدب والفن والمسرح . ومات شابا فى ربيع العمر سنة ١٩٢١ .



كـان للجـامعـة المصرية (الأهليـة ثم الحكـوميـة) دور رائـد كبير فى التثقيف والتنـوير والنهضـة الأدبية. وفى الصورة (سنة ١٩٢٥) : رئيس الجامعـة د .أحمد لطفى السيـد (الجالس فى الـوسط) وإلى يمينه د منصور فهمى . وفى الخلف مـن اليمين : د . على العنـانـى ، د. طـه حسين ، وفى أقصى اليسار د . أحمد ضيف ، وكلهم من أسـاتذة الجامعة .



د. هيكل



ديستويفسكى



محمود تيمور

قصة : فى القطار

أول قصة قصيرة مصرية مؤلفة للأديب « محمد تيمور » وهى تعكس أفكار وآراء وملامح النظرات الاجتماعية التى كانت سائدة .

« صباح ناصع الجبين يجلى عن القلب الحزين ظلماته ، ويرد للشيخ شبابه . ونسيم عليل ينعش الأفئدة ، ويسرى عن النفس همومها . وفى الحديقة تتمايل الأشجار يمنة ويسرة ، و كأنها ترقص لقدوم الصباح . والناس تسير فى الطريق ، وقد دبت فى نفوسهم حرارة العمل . وأنا مكتئب النفس ، أنظر من النافذة لجمال الطبيعة ، وأسأل نفسى عن سر اكتئابها فلا أهتدى لشىء . وتناولت ديوان « موسيه[1] » وحاولت القراءة فلم أنجح ، فألقيت به على الخوان ، وجلست على مقعد واستسلمت للتفكير ، كأننى فريسة بين مخالب الدهر.

« مكثت حينا أفكر ، ثم نهضت واقفا ، وتناولت عصاى وغادرت منزلى ، وسرت وأنا لا أعلم إلى أى مكان تقودنى قدماى ، إلى أن وصلت إلى محطة باب الحديد ، وهناك وقفت مفكرا ، ثم اهتديت للسفر ترويحا للنفس . وابتعت تذكرة ، وركبت القطار للضيعة ، لأقضى فيها نهارى بأكمله .

« وجلست فى إحدى عربات القطار بجوار النافذة ، ولم يكن أحد سواى ، وما لبثت فى مكانى حتى سمعت صوت بائع الجرائد يطن فى أذنى : (وادى النيل ، الأهرام ، المقطم) فابتعت إحداها وهممت بالقراءة ، وإذا بباب الغرفة قد انفتح ، ودخل شيخ من المعممين ، أسمر اللون طويل القامة نحيف القوام

---

(١) «ألفريد دو موسِّيه A. de Musset- » ولد فى باريس ١٨١٠ ومات ١٨٥٧ ، أديب كاتب روائى شاعر ، من أشهر أعماله : [حكايات أسبانية وإيطالية] ، و[نزوات ماريان] ، وأيضا قصة [لا عبث فى الحب] وله ديوان [الليالى]، وكذلك آراء ودراسات مسرحية . وكان أخوه «بول» أيضا كاتبا روائيا. وعلاقة «ألفريد» بالأديبة «جورج صان» أثرَت الأدب وأثارت أحاديث كثيرة.

كث اللحية ، له عينان أقفل أجفانها الكسل ، فكأنه لم يستيقظ من نومه بعد ، وجلس الأستاذ غير بعيد عنى ، وخلع مركوبه الأحمر ، قبل أن يتربع على المقعد ، ثم بصق على الأرض ثلاثا ، ماسحا شفتيه بمنديل أحمر ، يصلح أن يكون غطاء لطفل صغير . ثم أخرج من جيبه مسبحة ذات مائة حبة وحبة، وجعل يردد اسم الله والنبى والصحابة والأولياء الصالحين ، فحولت نظرى عنه ، فإذا بى أرى فى الغرفة شابًّا لا أدرى من أين دخل علينا ، ولعل انشغالى برؤية الأستاذ منعنى أن أرى الشاب ساعة دخوله .

« نظرت إلى الفتى ، وتبادر إلى ذهنى أنه طالب ريفى انتهى من تأدية امتحانه ، وهو يعود إلى ضيعته ليقضى إجازته بين أهله وقومه . نظرت إلى الشاب كما نظر إلىّ ، ثم أخرج من جيبه رواية من روايات مسامرات الشعب وهمّ بالقراءة ، بعد أن حول نظره عنى وعن الأستاذ . ونظرت إلى الساعة راجيا أن يتحرك القطار قبل أن يوافينا مسافر رابع ، فإذا بأفندى وضاح الطلعة حسن الهندام دخل غرفتنا وهو يتبختر فى مشيته ، ويردد أنشودة طالما سمعتها من باعة الفجل والترمس . جلس الأفندى وهو يبتسم واضعا رجلا على رجل بعد أن أقرأنا السلام ، فرددناه رد الغريب على الغريب .

« وساد السكون فى الغرفة ، والتلميذ يقرأ روايته ، والأستاذ يسبح وهو غائب عن الوجود ، والأفندى ينظر لملابسى طورا وللمسافرين تارة أخرى ، وأنا أقرأ وادى النيل ، منتظرا أن يتحرك القطار قبل أن يوافينا زائر خامس .

« مكثنا هنيهة لا نتكلم كأنا ننتظر قدوم أحد ، فانفتح باب الغرفة ، ودخل شيخ يبلغ الستين ، أحمر الوجه براق العينين ، يدل لون بشرته على أنه شركسى الأصل . وكان ممسكا مظلة أكل عليها الدهر وشرب . أما حافة طربوشه فكانت تصل إلى أطراف أذنيه . وجلس أمامى وهو يتفرس فى وجوه رفقائه المسافرين ، كأنه يسألهم : من أين هم قادمون ، وإلى أين هم ذاهبون . ثم سمعنا صفير القطار ينبئ الناس بالمسير . وتحرك القطار بعد قليل ، يقل من فيه إلى حيث هم قاصدون .

« سـافـر القطار ونحن جلوس لا ننبس ببنت شفـة ، كأنما على رءوسنا الطير ، حتى اقترب مـن محطة شبرا ، فإذا بـالشركسى يحملق فىّ ثـم قـال موجها كلامه إلىّ :

–هل من أخبار جديدة ياأفندى ؟

فقلت– وأنا ممسك الجريدة بيـدى– ليس فى أخبـار اليـوم مـا يستلفت النظر، اللهم إلا خبر وزارة المعارف بتعميم التعليم ومحاربة الأمية .

« ولم يمهلنى الرجل أتم كـلامى ، لأنه اختطف الجريدة من يدى دون أن يستأذننى ؛ وابتدأ بقراءة ، مـا يقع تحت عينيه . ولم يدهشنى ما فعل ؛ لأنى أعلم الناس بحدة الشراكسة . وبعـد قليل وصل القطار محطة شبرا ، وصعد منها أحد عمد القليوبية ، وهو رجل ضخم الجثة كبير الشارب أفطس الأنف ، لـه وجـه بـه آثار الجدرى ، تظهر عليه مظاهر القوة والجهل . جلس العمدة بجوارى ، بعد أن قـرأ صـورة الفاتحـة وصـلى على النبى . . ثم سار القطار قاصدا قليوب .

« مكث الشركسى قليـلا يقـرأ الجريدة ، ثم طواها وألقى بها على الأرض وهو يحترق من الألم ، وقال :

– يريدون تعميم التعليم ومحاربة الأمية حتى يرتقى الفـلاح إلى مصاف أسياده ، وقد جهلوا أنهم يجنون جناية كبرى .

فالتقطت الجريدة من الأرض وقلت :

– وأية جناية ؟

– إنك ما زلت شابًّا لا تعرف العلاج الناجح لتربية الفلاح .

– وأى علاج تقصد ؟ وهل من علاج أنجح من التعليم ؟

فقطب الشركسى حاجبيه وقال بلهجة الغاضب :

– هناك علاج آخر . .

– وما هو ؟

فصاح بملء فيه صيحة أفاق لها الأستاذ من نومه وقال :

– السوط . إن السوط لا يكلف الحكومة شيئا ، أما التعليم فيتطلب أموالا طائلة . ولاتنس أن الفلاح لا يذعن إلا للضرب ؛ لأنه اعتاده من المهد إلى اللحد.

« وأردتُ أن أجيب الشركسى ، ولكن العمدة – حفظه الله – كفانى مئونة الرد ، فقال للشركسى وهو يبتسم ابتسامة صفراء :

– صدقت يابيه صدقت . ولو كنت تسكن الضياع مثلنا ، لقلت أكثر من ذلك ، إننا نعانى من الفلاح ما نعانى لنكبح جماحه ، ونمنعه من ارتكاب الجرائم .

فنظر إليه الشركسى نظرة ارتياب وقال :

– حضرتكم تسكنون الأرياف ؟

– أنا مولود بها يابيه .

– ما شاء الله .

« جرى هذا الحديث والأستاذ يغط فى نومه ، والأفندى ذو الهندام الحسن ينظر لملابسه ، ثم ينظر لنا ويضحك . أما التلميذ فكانت على وجهه سيما الاشمئزاز ولقد همّ بالكلام مرارا فلم يمنعه إلا حياؤه وصغر سنه ، ولم أطق سكوتا على ما فاه به الشركسى ، فقلت له :

– الفلاح يابيه إنسان مثلنا ، وحرام ألايحسن الإنسان معاملة أخيه الإنسان .

فالتفت إلىَّ العمدة كأنى وجهت الكلام إليه وقال :

أنا أعلم الناس بالفلاح ؛ ولى الشرف أن أكون عمدة فى بلد به ألف رجل ، وإن شئت أن تقف على شئون الفلاح أجيبك . إن الفلاح ياحضرة الأفندى لا يفلح معه إلا الضرب ، ولقد صدق البك فيما قال . وأشار إلى الشركسى :

– ولا ينبئك مثل خبير .

فاستشاط التلميذ غضبا ولم يطق السكوت ، فقال وهو يرتجف :

– الفلاح ياحضرة العمدة . .



فى نوفمبر سنه ١٩٢٥ نشرت هذه الصورة وتحتها خبر يقول : «آخر صورة للآنسة منيرة ثابت صاحبة الآراء المشهورة فى تحرير المرأة المصرية ومساواتها بالرجل . وقد رخصت لها وزارة الداخلية بإنشاء جريدتين إحداهما فرنسوية والثانية عربية أصدرت الأعداد الأولى منها . وهى أول فتاة مصرية قامت بمثل هذه المهمة الصحافية الخطيرة .

فقاطعه العمدة قائلا :

- قل ياسعادة البك ؛ لأنى حزت الرتبة الثانية منذ عشرين سنة .

قال التلميذ :

- الفلاح ياحضرة العمدة لا يذعن لأوامركم إلا بالضرب لأنكم لم تعودوه غير ذلك ، فلو كنتم أحسنتم صنيعكم معه لكنتم وجدتم فيه أخا يتكاتف معكم ويعاونكم ، ولكنكم - مع الأسف - أسأتم إليه ، فعمد إلى الإضرار بكم تخلصا من إساءتكم . وإنه ليدهشنى أن تكون فلاحا وتنحى باللائمة على إخوانك الفلاحين .

فهز العمدة رأسه ونظر إلى الشركسى وقال :

- هذه نتائج التعليم .

فقال الشركسى :

- نام وقام فوجد نفسه قائم مقام .

أما الأفندى ذو الهندام الحسن ، فإنه قهقه ضاحكا وصفق بيديه ، وقال للتلميذ :

- برافو يا أفندى ، برافو ، برافو .

ونظر إليه الشركسى ، وقد انتفخت أوداجه ، وتعسر عليه التنفس وقال :

- ومن تكون أنت ؟

- ابن الحظ والأنس يا أنس .

وقهقه عدة ضحكات متوالية .

« ولم يبق فى قوس الشركسى منزع ، فصاح وهو يبصق على الأرض طورا ، وعلى الأستاذ طورا ، وعلى حذاء العمدة تارة :

- أدبسيس فلاح .

ثم سكت وسكت الحاضرون ، وأوشكت أن تهدأ العاصفة ، لولا أن التفت العمدة إلى الأستاذ وقال :



فى مايو سنة ١٩٢٦ نشرت هذه الصورة للأستاذ « أحمد حافظ بك عوض » صاحب جريدة « كوكب الشرق» مع الثناء على إسهامه وجريدته فى إفادة القراء من جميع المستويات بالمعارف الأدبية والفنية .

– أنت خير الحاكمين ياسيدنا ، فاحكم لنا فى هذه القضية .

فهز الأستاذ رأسه ، وتنحنح ، وبصق على الأرض ، وقال :

– وما هى القضية لأحكم فيها بإذن الله جل وعلا .

– هل التعليم أفيد للفلاح أم الضرب ؟

فقال الأستاذ :

– بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك فتحا مبينا . قال النبى عليه الصلاة والسلام : « ولا تعلموا أولاد السفلة العلم » .

وعاد الأستاذ إلى خموله وإطباق أجفانه مستسلما للذهول ، فضحك التلميذ وهو يقول :

– حرام عليك ياأستاذ . إن بين الغنى والفقير من هو على خلق عظيم ، كما أن بينهم من هو فى الدرك الأسفل .

فأفاق الأستاذ من غشيته ، وقال :

– واحسرتاه . إنكم من يوم ما تعلمتم الرطان فسدت عليكم أخلاقكم ، ونسيتم أوامر دينكم ، ومنكم من تبجح وبغى واستكبر وأنكر وجود الخالق.

فصاح الشركسى والعمدة (لك الله يا أستاذ) وقال الشركسى :

– كان الولد يخاف أن يأكل مع أبيه ، والآن يشتمه ويهمّ بصفعه .

وقال العمدة :

– كان الولد . لايرى وجه عمته ، والآن يجالس امرأة أخيه .

« ووقف القطار فى قليوب ، فقرأت الجميع السلام وغادرتهم ، وسرت فى طريقى إلى الضيعة ، وأنا لا أكاد أسمع دوى القطار وصفيره ، وهو يعدو بين المروج الخضراء ؛ لكثرة ما يصيح فى أذنى من صدى الحديث[1] » .

* * *

ويلاحظ على هذه القصة أن المؤلف بدأها بمقدمة فى وصف الطبيعة وكآبة النفس على الرغم من مناظر الطبيعة الخلابة . وفى تلك المقدمة يتضح تأثير

---

(١) ماتراه العيون لمحمود تيمور ص٥ وما بعدها .

المنفلوطى. وقد تبدو هذه المقدمة مقحمة أمام النظرة السريعة ، بحيث يُظن أن من الأفضل الاستغناء عنها . ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أن هذه المقدمة تخدم بناء القصة وتؤدى وظيفة حيوية فيها ؛ فهى توحى بالمشكلة من أول سطور القصة ، وهى مشكلة الأزمة التى يعانيها الكاتب من جراء الظلم الاجتماعى الجاثم على صدر الفلاح ، تلك الأزمة التى لا يفرجها ما للطبيعة من جمال وفتنة .

الاحتفال باليوبيل الخمسيني لمجلة المقتطف



الدكتور يعقوب صروف



الدكتور فارس نمر

فى مايو سنة ١٩٢٦ نشرت هذه الصورة المزدوجة تكريما للصحافة الأدبية والفنية الناهضة فى مصر - وكان للأدباء والصحافيين السوريين واللبنانيين مشاركات فيها - ومع الصورة كان هذا التعليق «أقيمت فى الساعة الخامسة يوم الجمعة الماضى حفلة تكريم فخمة فى دار الأوبرا الملكية تحت رعاية جلالة الملك احتفاء ببلوغ مجلة المقتطف السنة الخمسين من عمرها اشتركت فيها طائفة كبيرة من اقطاب العلم والفضل وحملة لواء الأدب فى هذا القطر تنويها بعظيم خدمتها فى نشر العلم وإذاعة المعارف . وقد تبارى كبار الشعراء والخطباء فى تقريظ المقتطف وتعداد فوائده وبيان خدماته الجليلة متمنين له عمرا مديدا ونجاحا اكيدا فى المهمة التى أخذها على عاتقه ووقف نفسه لها . وبهذه المناسبة ننشر فوق هذا الكلام صورتين تذكاريتين للعلامتين الدكتور يعقوب صروف والدكتور فارس نمر صاحبى المقتطف عقيب مجيئهما لأول مرة إلى القطر المصرى » .

كانت هذه مرحلة البداية والريادة التى تلتْها مراحل النُّضْج المثمر والإنتاج الإبداعى الوفير ، من خلال أعمال كتَّاب كبار (قد يتيسر الحديث عنهم فى جزء تالٍ بإذن الله) كان من أبرزهم « نجيب محفوظ » بمجموعته القصصية القصيرة : « همس الجنون » .

فإذا انتقلنا إلى « الرواية » الفنية التى مَهَّد لها المويلحى بـ « حديث عيسى ابن هشام ، نجد أن د . محمد حسين هيكل بدأ يؤلف وهو فى فترة دراسته الاقتصاد السياسى فى باريس (سنة ١٩١٠) روايته « زينب » ثم يستكملها فى العام التالى ، وهى عند نقاد ومؤرخى الأدب المعاصر « أول رواية فنية فى تاريخ الأدب المصرى الحديث» [٨] . وعندما نشر هذه القصة لأول مرة سنة

(٨) من مواليد كفر غنام بمركز السنبلاوين (محافظة الدقهلية) سنة ١٨٨٨ ، تخرج من مدرسة الحقوق (١٩٠٩) ، وكان يكتب وهو طالب بها مقالات فى صحيفة « الجريدة » ، ثم سافر إلى فرنسا =


د. محمد حسين هيكل

١٩١٢ ، تحرَّج أن يكتب اسمه عليها ، واكتفى بكتابة : « مناظر وأخلاق ريفية بقلم فلاح مصرى » . فلما سئل عن ذلك أجاب بأنه « خشى على سمعته كمحامٍ من أن يُعاب عليه كتابة الروايات ، لأن الناس ـ فى تلك الأيام ـ لم يكونوا ينظرون بعين الاحترام إلى الروائيين » ! ويضيف الروائى الأديب «يحيى حقى » سببا آخر : هو اشتمال الرواية على أحداث حُب لم تكن البيئة الاجتماعية تحترم أصحابه فى تلك الآونة . لكن الأرجح – فى رأى «يحيى حقى» و « د . أحمد هيكل » – هو إحساس المؤلف أنه بطل الرواية «حامد » وبأن «أهم الأحداث التى فى روايته واقعية تجعلها أشبه بترجمة ذاتية ، ولذا استَحَى أن يقول للناس ـ وهو محام ناشئ ـ إنه كان يحب العاملة الريفية زينب ، ويمارس معها بعض مظاهر الحب الجسدية وما إلى ذلك من أحداث ، لا يليق بالمؤلف أن تُنسب إليه ، وهو رجل يُعِد نفسه للمناصب الكبرى وينتمى إلى حزب سياسى له خصوم يلتمسون زلاَّت رجاله » .


محمود تيمور

وفى دراسته لتلك الفترة المبكرة للأدب الروائى (بين سنة ١٩١٩ وقيام الحرب الكبرى الثانية) يصنف د . أحمد هيكل رواياتها على النحو التالى :

(أ) الرواية التحليلية : مثل رواية « ثريا » لعيسى عبيد ، و « رجب أفندى» لمحمود تيمور ، و « الأطلال » له أيضا ، و « أديب » للدكتور طه حسين .


عباس العقاد

(ب) رواية التجربة الذاتية : مثل رواية « إبراهيم الكاتب » للمازنى ، و «سارة » للعقاد ، و « عصفور من الشرق » و « يوميات نائب فى الأرياف » لتوفيق الحكيم ، و « نداء المجهول » لمحمود تيمور .

(جـ) رواية الطبقة الاجتماعية : مثل رواية « حواء بلا آدم » لمحمود طاهر لاشين ، و« دعاء الكروان » لطه حسين .

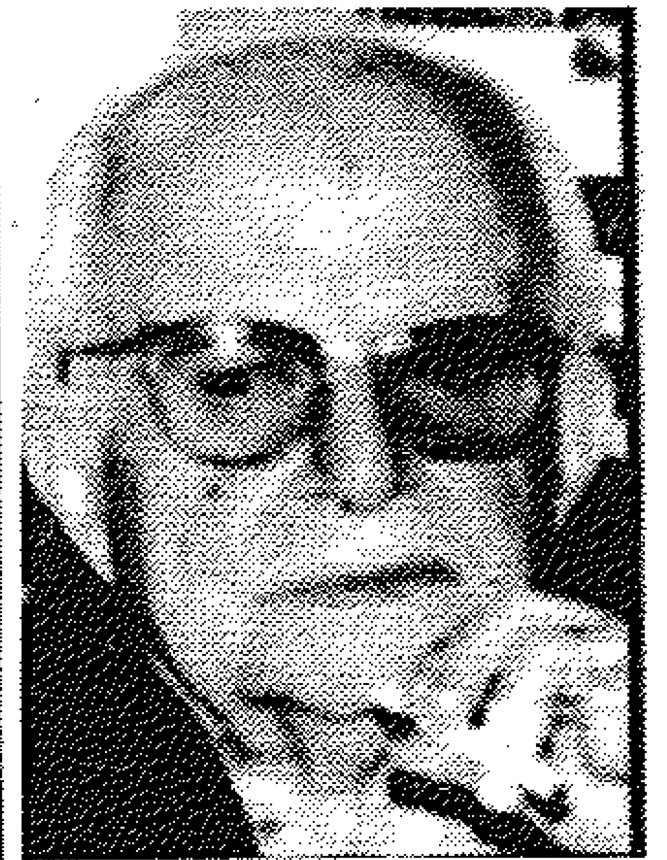
= لاستكمال دراسته بكلية الحقوق فى باريس وحصل على الدكتوراه فى الاقتصاد السياسى (١٩١٢) . اشتغل بعد عودته إلى مصر فترة بالمحاماة فى المنصورة ، وعند إنشاء الجامعة الأهلية ألقى بها بعض المحاضرات ، ثم رأس تحرير جريدة « السياسة » لسان حزب الأحرار (١٩٢٢) وأصدر ملحقا ثقافيابها خاصا بالأدب والنقد . تنقل فى مناصب وزارية (وزير دولة المعارف) ثم عين رئيسا لمجلس الشيوخ (٤٥ ـ ١٩٥٠) ثم تفرغ للكتابة إلى أن تُوفى سنة ١٩٥٦ .

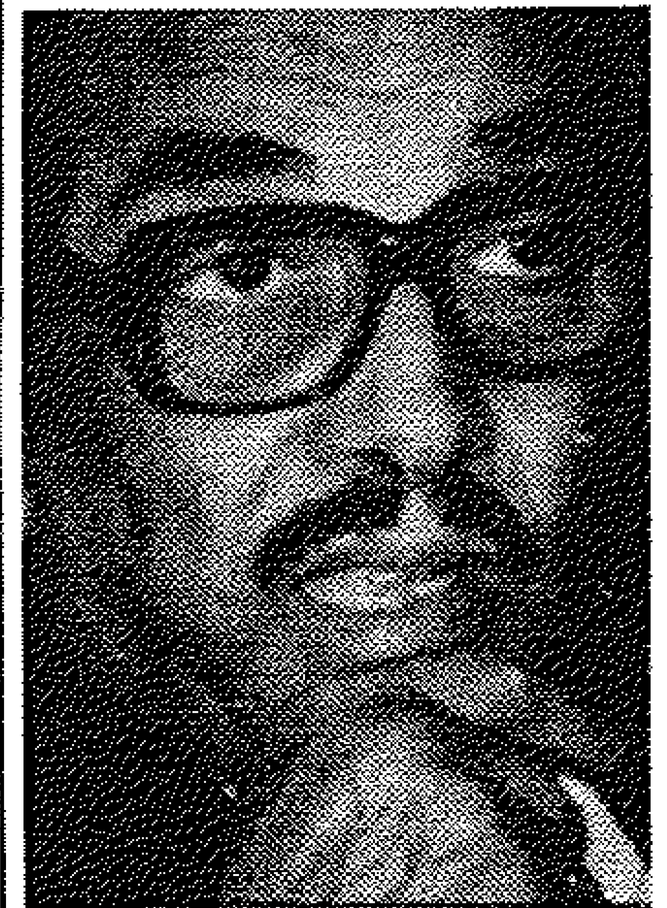
(د) الرواية الذهنيــة : مثل رواية « عــودة الروح » لتــوفيق الحكيم [٩] ، «المصابيح الزُّرق » لمحمود تيمور [١٠] .

(هـــ) الرواية التاريخية: مثل رواية « ابنة المملوك » لمحمد فريد أبو حديد ، و«عبث الأقدار » لنجيب محفوظ [١١] .

ثم نضجت وتألقت « الرواية المسرحية » . والمسرحية فى جوهرها لا تَعْدو أن تكون « قصة أو رواية » تحكيهـا شخصيات فى حوار وحركـة . فالحركة أهم خصائصها ومميزاتها الفنية .


إبراهيم المازنى


يحيى حقى


الدكتور أحمد هيكل

---

(٩) من مواليد الإسكندرية (١٩٠٢) ، تلقَّى تعليمه الابتدائى فى دمنهور ، ثم الثانوى بالقاهرة ، ثم التحق بمدرسة الحقـوق . بعد حصوله على الليسانس سافر إلى فـرنسا لإتمام دراسته العليا فى القـانون . واهتم هناك بدراسـة الأدب والمسرح هاويا ، وتزود بالفكر الحديث . بعـد عـودته إلى مصر عُين وكيلا للنائب العام (من ٣٠ ـ ١٩٣٤) وانتقل رئيسا للتحقيقات بوزارة المعارف ، ثم اعتزل العمل الحكـومى ليتفرغ للإنتـاج الأدبى . لكنه عاد مـديرا لدار الكتب ، وعضوا متفـرغا بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون ، فمندوبا لمصر فى منظمة اليونسكو بباريس ولم يمكث بها طويلا لرغبته فى العودة إلى مصر .

يعـد « الحكيم » من كبار كتـاب الرواية الأدبيـة والمسرحية فى الشرق العـربى ، وإنتاجـه وفير متنوع ـ بخلاف مقالاته وأحاديثـه ـ ومن أشهرها : « أهل الكهف » ، « طظ » ، « عودة الروح » ـ ١٩٣٣ ، «شهرزاد » ٣٤ ، « أهل الفن » ـ ١٩٣٤ ، «محمد » ـ ١٩٣٦ ، « مسرحيات توفيق الحكيم » فى مجلدين ـ ١٩٣٧ . . . وله كتب قيمـة ومؤلفـات أخرى منها : « زهـرة العمر » ، و « مختصر تفسير القرطبى للقرآن الكريم » . توفى بالقاهرة فى يوليو ١٩٨٧ .

(١٠) شقيق محمد تيمور : (١٨٩٤ ـ ١٩٧٣) ، تنقل كثيرا بين أحياء القاهرة وقرى الريف وفى أوروبا (ثلاث سنـوات فى ســويسرا من سنـة ١٩٢٧) فــاكتسب خبرة وزادا وفيرا مـن الناس والمجتمعـات ومن التجارب والمواقف والشخصيـات ، فكان لذلك أثر كبير على إبداعـه القصصى والروائى . كتب محمـود تيمـور القصة القصيرة ، والرواية ، والمسرحيـة ، وفى أدب الرحـلات ، والمقالة ، والبحث . مـن مؤلفاته القصصيـة القصيرة : « الشيخ جمعة » ، « فـرعون الصغير » ، «مكتوب على الجبين » ، « قـال الراوى » ، «شفاه غليظة » ، « خلْف اللثـام » ، « بنت الشيطان » ، «إحسان لله » ، « كل عـام وأنتم بخير » ، « شباب وغانيات » ، « أبو الشـوارب » ، « ثائرون » ، «دنيا جـديدة » ، « نبوت الغفير » ، « تمر حنا عجب » ، « أنا القاتل » ، « انتصـار الحياة » ، « عم متولى » ، « الأطلال » « أبو على عامل أرتِست » ، « الشيخ عفا الله» . . . بين سنة ٢٥ ـ ١٩٣٩ . ومن رواياته : « نـداء المجهـول » ، « سلوى فى مهب الـريح » ، « كليـوباترا فى خــان الخليلى » ، «شمروخ » ، « إلى اللقـاء أيها الحب » ، « المصابيح الزرق » . . . ومن أدب الـرحلات : «أبو الهول يطير » ، « شمس وليل » ، « جـزيرة الجيـب » ، « خطوات على الشـلال » . وله من المسرحيـات: «حواء الخالدة » ، « اليـوم خمر » ، « ابن جلا » ، « صقر قـريش » ، « المخبأ رقم ١٣ » ، وغيرها . تُرجمت بعض أعماله إلى لغـات أجنبية ، واختير عضـوا بالمجمع اللغـوى ، وحصل على جائـزة الدولة التقديرية سنة ١٩٦٣ .

(١١) ورد تعريف بالأديب الروائى الكبير نجيب محفوظ الحائز على جائزة نوبل فى الأدب سنة ١٩٨٨ ، وذلك فى الجزء الخاص من هذه السلسلة عن : « رجال صاغوا القرن العشرين » ـ جـ١ .



أبو خليل القبـانى : أبدع المسرح الغنـائى فى بلاد الشـام ثم انتقل إلى مصر فـاستقبلتـه الإسكندرية أولا بالترحيب والتكريم فقدم فيها خمسا وثلاثين مسرحية غنـائية ، ثم انتقل إلى القـاهرة فسمح له الخديوى توفيق بعرض مسرحياته لمدة عام بالمجان على مسرح الأوبرا .



سلامة حجازى



نجيب محفوظ



طه حسين



توفيق الحكيم

ومن هنا ننتقل إلى المسرح والرواية المسرحية فى هذا القرن (١٢) . وقد طلع فَجْره وفى مصر عـدد من الفِرق التمثيلية ، وعـدد من الكتَّاب المسرحيين ، من المصريين والشـاميين . فكان تنافس ونشاط متـزايد ، وتضاعف عـدد رواد المسارح من الجمهور . كانت تعمل فرقة « أبى خليل أحمد القبانى »(١٣) التى قَـدَّمت روايات تراجيـدية للشـاعـر الفـرنسى الكبير « راسين » ، وأخـرى كوميدية مترجمة ممصَّرة لعملاق المسرح الفـرنسى « موليير » ، ومسرحيات من تأليف كتَّاب ناشئين فى هذا الفن فى مقدمتهم « محمد عثمان جلال » (من مـواليد بنى سـويف ، اشتغل بالقضـاء وبالمحـاكم المختلطة والاستئناف) وكـان يكتب مسرحيـاته المترجمة أو المؤلفـة بالزجل ، فى حين كـان القبـانى يفضل استخدام اللغـة العربيـة الفصحى ـ ولا تخلو من الشعر ـ خـاصة فى المسرحيات التى تتناول موضوعات تاريخية .


الشيخ سلامة حجازى وخليل مطران

وفى سنة ١٩٠٥ كـوَّن الشيخ سلامـة حجازى فـرقته الخاصـة ، وقدَّم مسرحيات غنـائية وغيرغنائية ، واستكتـب عددا من كتَّاب عصره المتـازين من أمثـال: خليل مطران ، وفـرح أنطون ، ونجيب الحداد . وكـان مسرحـه يتميز بالألحان والأغـانى ، وبالإبهار فى الملابس والمناظر وأسلوب العرض . وهو الذى أنشأ « دار التمثيل العـربى » ، واهتم كثيرا بالروايات التاريخيـة مثل : « صلاح الدين » ، و « غانية الأندلس » ، و « زنوبيا » .

(١٢) عرف الشرق العربى المسرح لأول مرة سنة ١٨٤٧ عنـدما أنشأ « مارون نقاش » فى بيروت أول مسرح عـربى . (ذكر الجبرتى أنه شـاهد تمثيليات مسرحيـة أيام الحملة الفرنسيـة على مصر لممثلين فرنسيين لكنه لم يكن يعرف شيئا عن المسرح أو التمثيل أوالرواية) . وفى عهد الخديوى إسماعيل أنشئ « مسرح الكوميـديا » سنة ١٨٦٨ ، ثم أنشئ مسرح الأوبرا سنة ١٨٦٩ وقـدمت عليـه أوبرا « عايدة » كمسرحيـة غنائيـة بمناسبة احتفـالات افتتـاح قناة السويس . وكـانت المسرحيـات التى تُقَدم كلهـا أجنبيـة نصا وتمثيـلا وغناء . أمـا أول مسرح عربى فى مصر كـان افتتاحـه سنة ١٨٧٠ بمعرفة يعقوب صِنُّوع صـاحب جريدة : « أبو نضَّارة » ، وكـان قد درس هذا الفن فى إيطاليـا ، فألـف هو لمسرحـه وكـوَّن فـرقـة درَّبها على التمثيل ، وسمى مسرحـه : « التياترو الوطنى » . وكانت مسرحياته ـ مؤلفـة أو مترجمة ـ تتناول قضايا اجتماعية سياسية أخلاقية ، هزلية وغنائيـة ، وكان الممثلون من المصريين والأجانب . وظل هذا المسرح يعمل حتى أغلقة الخديوى إسماعيل لظنه أن بعض المسرحيـات تُلَمِّح إلى مساوئه وتقصـده بالنقد واللوم بأسلوب غير مبـاشر ، و أمـر بطرد الفرقـة المسرحيـة (فرقـة يوسف الخيـاط) من مصر التى عرضت أمامه مسرحية « المظلوم » .

(١٣) أول من أنشأ سنة ١٨٦٥ فرقة مسرحية للتمثيل فى دمشق ـ سوريا .

وبعد عودته من دراسة التمثيل فى فـرنسا (سنة ١٩١٠) كوَّن « جورج أبيض » فـرقتـه المسرحيـة التى قـدمـت (ابتـداء من سنة ١٩١٢) روايات مترجمة ، وأخـرى عـربيـة تاريخيـة ، بـأسلوب متطور . ثم كثـرت الفـرق المسرحية عقب ثورة سنة ١٩١٩ الشعبيـة الوطنية ، وكثر معها عـدد الكتَّاب والممثلين والفنيين . فكانت فـرقة « منيرة المهـدية » ، وفـرقة « عبـد الرحمن رشـدى » ، وفـرقـة « أبناء عكاشـة » ، و « جمعيـة رقى الآداب والتمثيل » ، و« جمعية أنصـار التمثيل » ، و « فرقة عـزيز عيد » ، و « فـرقة الريحانى » ، و« فرقـة على الكسـار » ، و « فرقـة فاطمـة رشـدى » . فلما ظهـرت « فرقة رمسيس المسرحيـة سنة ١٩٢٣ » التى كـوَّنها « يـوسف وهبى » ، ترسخت دعائم النهضة المسرحية ، واحتل المسرح الجاد مكانه المرموق فى دنيا الفنون. ثم أسهمت الدولة بدور فى رعـاية الفن المسرحى بتأليف « الفرقـة القوميـة » سنة ١٩٣٥ ، التى اشترك فيها نخبـة ممتازة من كبـار الممثلين والمخرجين ، وتولى رئاستها الشـاعر الأديب خليل مطران . ولمعت جماهيريا أسماء رجال ونسـاء صـاروا أعـلامـا وروادا فى هذا المجال وعلى ألسنة الجماهير ، مثل : عزيز عيد ، يوسف وهبى ، نجيب الريحانى ، زكى طليمات ، حسين رياض ، فؤاد شفيـق، أحمد علام ، سليمان نجيب ، روز اليـوسف ، فاطمـة رشدى ، أمينة رزق ، زينب صدقى . . .

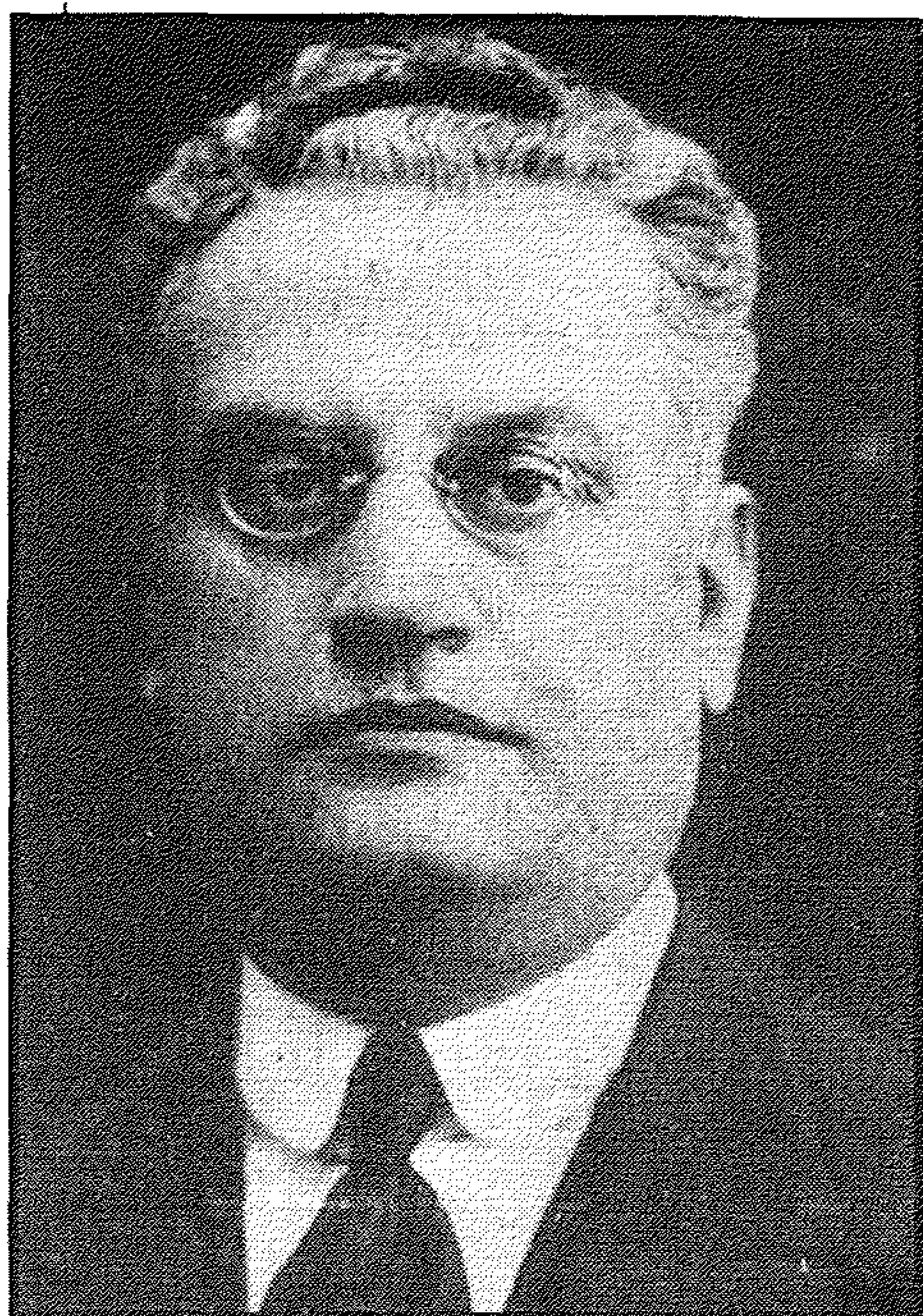

أحمد شوقى

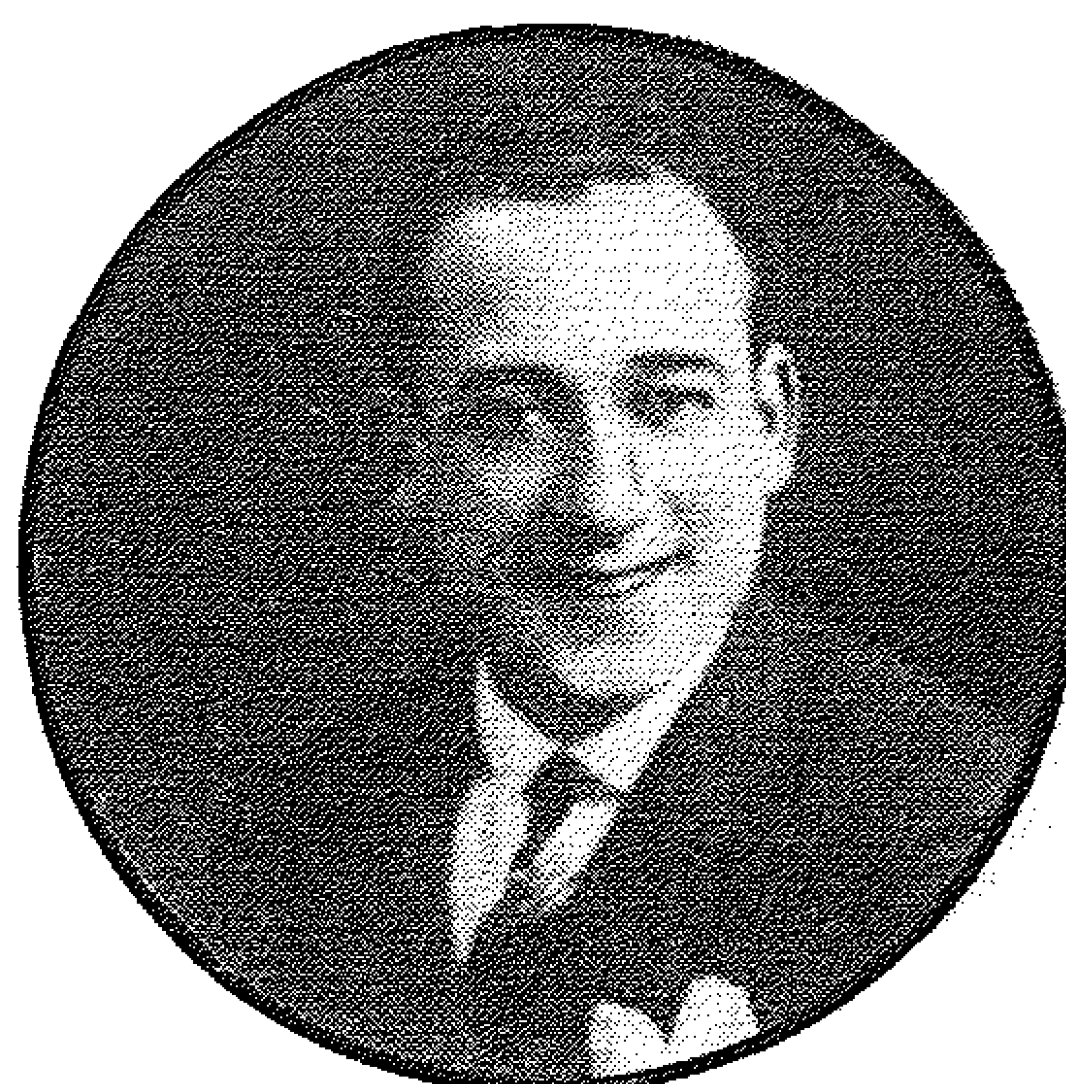

زينب صدقى .. من ممثلات مسرح رمسيس

وأنشئ أول معهد للتمثيل ، وأشرف على إنشـائه زكى طليمات ، فكان من بواكير خـريجيه مَـن صاروا أعـلامـا ونجومـا فى المسرح والسينما ، مثل : حسين صـدقى ، أحمد بدرخـان ، روحيـة خـالد ، زوزو حمدى الحكيم . . . وعلا شأن المسرح عُلُوًّا كبيرا بفضل روايات اثنين من أعلام الشعر والأدب : أحمد شوقى ، وتوفيق الحكيم .

وفى المغرب العـربى الذى برع واشتهر من أبنائه فى أواخـر القرن الأديب « طاهر بن جلّون » ، كـان أول « حَـدَث » مسرحى فى سنة ١٩٠٨ حين زارت


يوسف وهبى


جورج أبيض


أحمد علام


نجيب الريحانى


حسين رياض


زينب صدقى


روز اليوسف


أمينة رزق

فـرقة سليمان القـرداحى المصرى كلا من تونس والجزائـر ، ولم تتمكن من زيارة المغـرب بسبب الظروف الصعبة التى كـانت قـائمة فيـه آنذاك والتى أدتإلى فرض الحماية الفرنسية البغيضة (١٤) ، مع أن القرداحى أقام بتونس نحو عـامين ، ومات بها . ثم شهـدت سنوات العشرينيات من القـرن تحركا مسرحيا نشطا ، بدأ فى سنة ١٩٢٣ بفرقة المغنى « محمد عز الدين » .

وهو تلميـذ جـورج أبيض التى كـوَّنها فى تونس ثم زارت الرباط وبعض المدن المغـربية حيث قـدمت فرقتـه عـددا من المسرحيات كـان أبرزها رواية «صلاح الدين » لنجيب الحداد . ولقيت هذه الفرقة ترحيبا وتقديرا من جميع المستويات ، حتى إن السلطان « يوسف » شاهد تلك المسرحية بالقصر الملكى بالرباط ، وأنعم بوسام على رئيس الفرقة .

ثم زارت المغـرب سنة ١٩٢٤ فـرقـة مكوَّنة من مشـارقـة (شـاميين ومصريين) وتونسيين لتمثيل مسرحيات كان مـن بينها : « صلاح الدين » ، « روميو وجـولييت » لشكسبير ، و « الطبيب الفظ (١٥) » لموليير . فكان ذلك دافعـا إلى حث المغاربة على تأسيس فِرق وطنية مسرحيـة بمساعـدة فنانين وافدين ؛ وكـان أعضاء تلك الفرق التمثيلية من تلاميـذ المدارس ومن أعضاء الجمعيات الثقـافية . ومن أبرز تلك الفِـرق : « جوقة التمثيـل الفاسى » سنة ١٩٢٨ ، « فـرقـة التمثيل العـربى فى الرباط » ، « فـرقـة مصطفى الجزار » بمـراكش سنة ١٩٢٧ ، « جـوق السعى والفضيلة » فى الرباط سنة ١٩٢٨ ، « جوق التمثيل » فى سـلا ، « فرقـة أبناء الأعيان » بالدار البيضـاء ، « جمعية الهلال » فى طنجة وكانت قد تأسست سنة ١٩٢٣ ، « جمعية الطالب المغربى» فى تطـوان ، التى تأسسـت عقب زيارة الفنانة فاطمة رشدى وزوجها عزيز عيد لهذه المدينـة سنة ١٩٣٣ . فكـانت هـذه الفِرق – أو الجوقـات– ممهِّدة

---

(١٤) تفصيل ذلك فى الجزء الخاص من هذه السلسلة عن « السياسة والدبلوماسية فى القرن العشرين » .

(١٥) مسرحية : « Le Misanthrope » أى الجافى أو الفظ . وكـان من بين الأسماء التـى لمعت فى تلك الفرقة : عبد الرازق كرباكة ، وبهية الشامية وأختها علياء .

لإنشـاء المسرح المغربـى المتطور القادر على التعبير عن الجماهير ومخاطبتها مـن خـلال قضاياهـا ومشكـلات العصر ، على الرغـم من إعراض فئات من الجماهير عن التمثيل والمسرح لأسباب بعضها عقائدى (١٦) .

---

(١٦) فى دراسة بحثية للدكتور « عباس الجرارى » أستاذ الأدب المغربى بجامعة محمد الخامس بالرباط يقـول : « .. وإذا كـان المغـاربة لم يحتفظوا بهذه التقـاليد المسرحيـة (القـرطا جنيـة والرومانية) فى ظل الإسلام ، فذلك راجع إلى أن هذا الدين جاء بثقافة جديدة ، وأنهم لم يَجِدوا فى نطاق ثقافته حاجة إلى التعبير بالمسرح على الشكل الإغـريقى الرومانى الذى عرفوه . إذ لا يخفَى أن هذا المسرح كان حافلا بالصراع ، ولا سيما فى مواجهـة القضاء والقَدَر ، والدين الإسلامى يحد من هذا الصراع ، ويحث على الطمأنينة النفسية بالدعوة إلى الإيمان بالقَدَر خيره وشره .

« ومع ذلك ، فقد بقيت لتلك التقاليـد آثار غير قليلة تتجلى فى الرقص الشعبى ، سواء منه الرقص البربرى والبدوى ، أو رقص الطوائف الطرقية (الصوفية) . كما تتجلى هذه الآثار فى الاستعداد الذى ظل عند المغـاربة للعمل المسرحى ، والذى جعلهم يقتبسـون « خيـال الظل » ، ولا سيما فى تونس والجزائر حتى منتصف القرن ١٩ ، حيث قررتْ سلطات الاحتلال (الفرنسى) منعه ، لما كـان له من دور فى توعيـة المواطنين ، ولعله كـان معـروفـا فى مغـربنا الأقصى فى فترة مـا من التاريخ، ولا سيما أيام السعديين الذين كانت لهم علاقات وطيدة مع الأتراك .

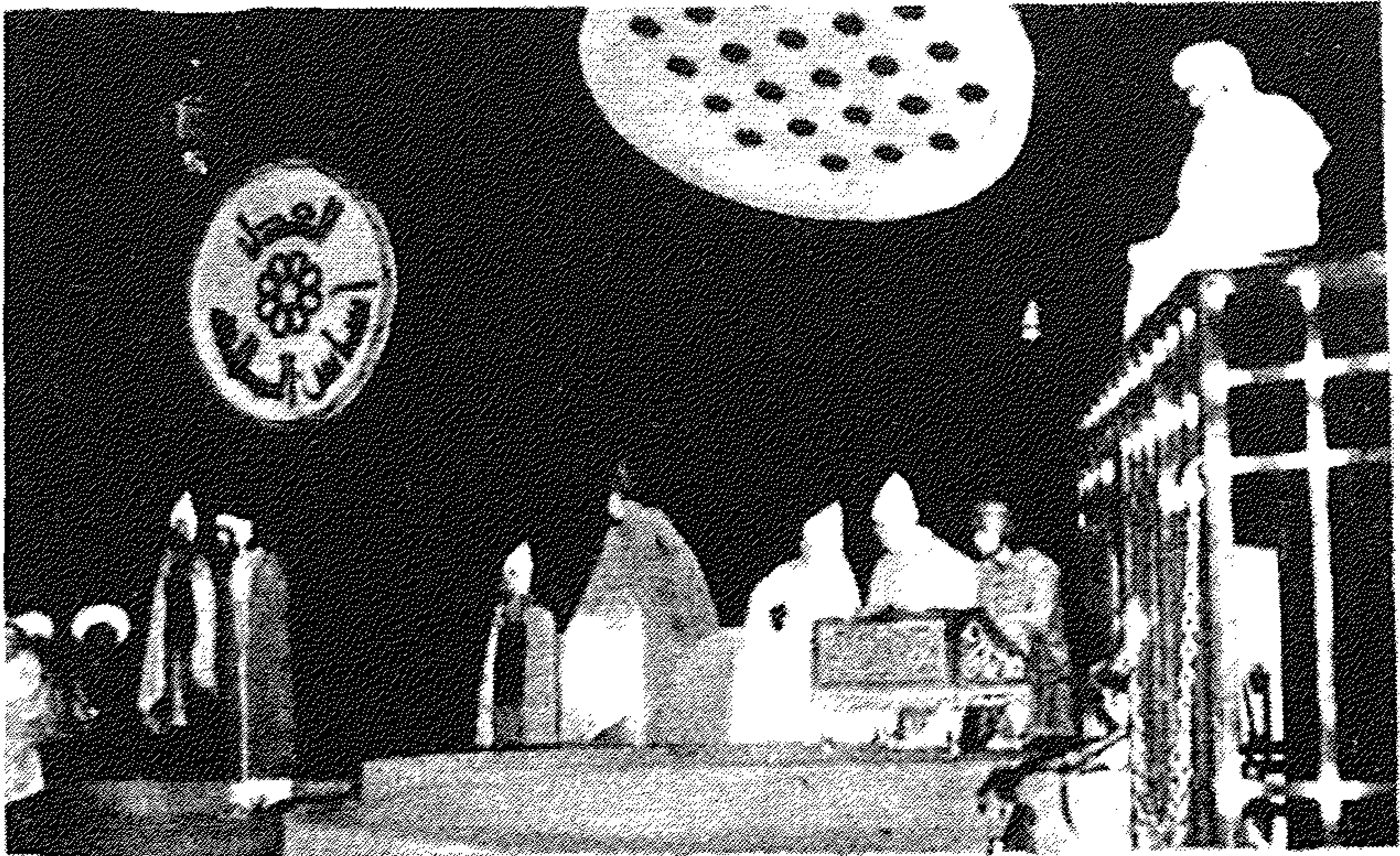
« ولم يكتف المغاربة بالاقتباس ، ولكنهم ـ بحكم موروثهـم التقليدى وما تولّد عنه من استعداد ـ أنشأوا فى العهد الإسلامى فنونا متعددة تتـوسل ببعض عناصر الدرامـا : كالحوار ، والحـ (مـا يقـوله الراوى) ، والغناء ، والترديد ، والـرقص ، والتمثيل القـائـم على الحركـة والإيماء وتلوين الصوت . . . » . ـ الأدب المغربى ـ حـ١ ـ ١٩٧٩ .



أحد مناظر الفصل الثانى من رواية «الجحيم» ويرى فى الوسط العروسان - يوسف وهبى وأمينة رزق - وأمامهما الراقصة جميلة وحولهما الأهل والأقارب أثناء حفل الزفاف.

يناير - ١٩٣٠

مشهد من مسرحية «ابن زيدون» عام (١٩٣٩).



من تراث المسرح المغربى

● يوسف وهبى

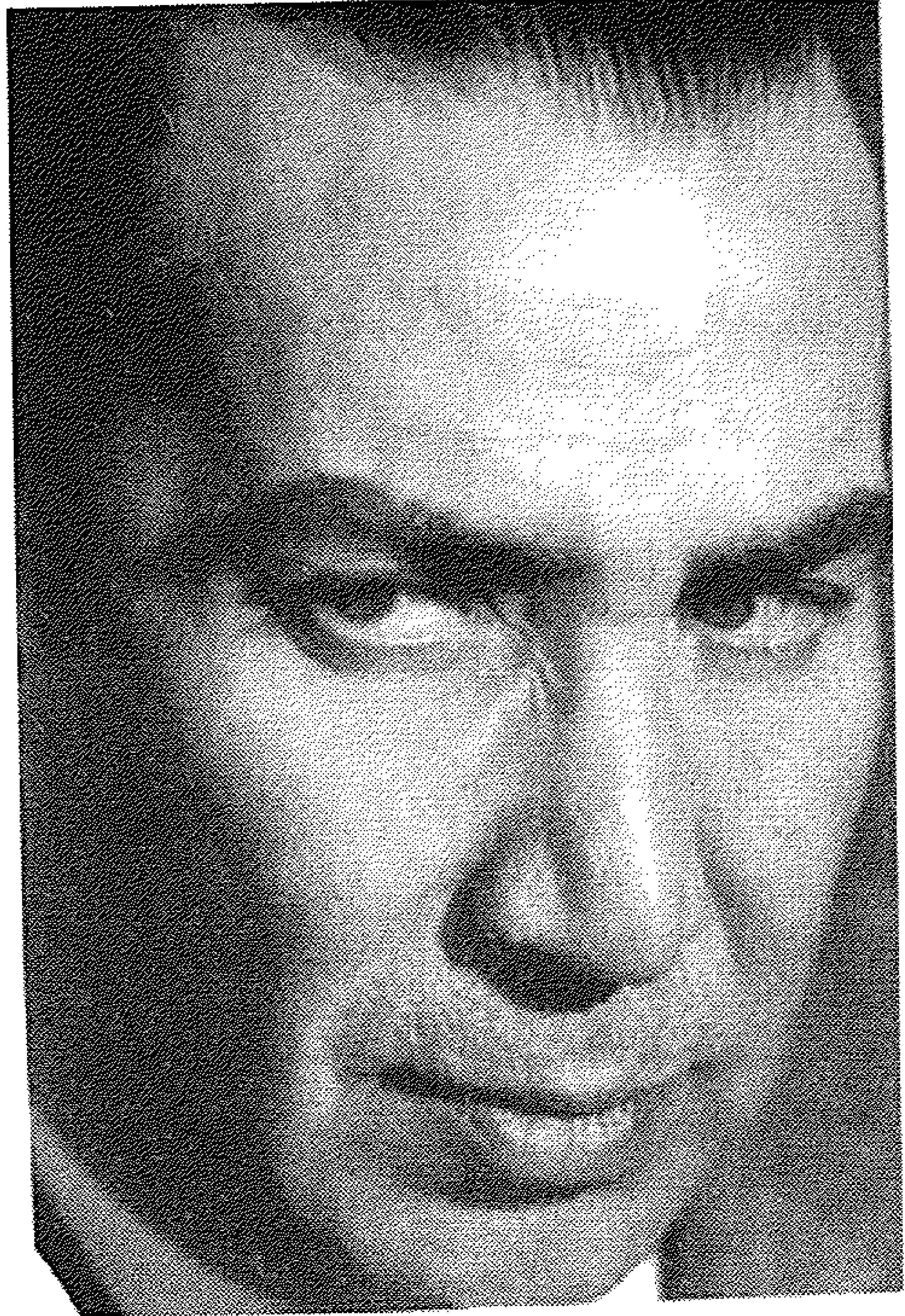
رحل عن عالمنا الفانى – ويا للهول ! [(١)] – فى أكتوبر ١٩٨٢ ، وقد تجاوز سن الرابعة والثمانين بقليل (وُلد بالفيوم فى يوليو ١٨٩٨) . ولم يَعُد مناسبا ـ ولا مُجْديا ـ أن يقال عنه : « يوسف بك وهبى » ، ولا « عميد المسرح العربى » ، ولا « فنان الشعْب » . فهو الآن فى « ذمة » التاريخ الفنى ، والثقافى، والحضارى المصرى والعربى ، وله من رصيد القرن العشرين نصيب موفور مذكور .

قضى هذا الفنان الكبير ـ المتعدد الكفاءات والإبداعات ـ نحوا من ستين سنة فى عمل متواصل بالمجالات الفنية الكثيرة المتنوعة التى مارسها وأثراها وطوَّرها منذ إنشائه « مسرح رمسيس » سنة ١٩٢٣ وحتى قُبيل وفاته : فى المسرح ، والسينيما ، والإذاعة ، والتليفزيون . . بالتمثيل ، والإخراج ، والتأليف ، واكتشاف النجوم ، وصُنع الأبطال ، وإمتاع الجماهير فى مصر والوطن العربى كله وخارجه ، والارتقاء بالفن المسرحى ، وبالوعى الفنى الخاص والعام . ومن حُسن الحظ أن عددا كبيرا من أعماله الفنية حفظتْه التسجيلات الصوتية والمرئية التى كانت من إنجازات القرن التكنولوجية ، فهى الآن تراث ممدود وكنز مرصود ، لأجيال وأجيال قادمة .

قدَّم يوسف وهبى ومثَّل ٢٨٦ مسرحية كان هو المخرج لـ ٢٤٦ منها ، وكتب نصوص ٦٣ مسرحية ، واشترك فى تأليف وتمثيل وإخراج ٧٠

---

(١) هذه الكلمة من تعبيراته المشهورة وبإيقاعه أو نُطْقه الخاص لها ، فكانت محفوظة وعلى كل لسان ، تثير البَسْمة والأشجان .



● من مدينة الفيوم .

● ولد في ١٤ يوليـــو ١٨٩٨ (توفي ١٧ أكتوبر ١٩٨٢) .

● كـان والده مفتش عـــام الري بوزارة الأشغال .

● الوالدة من أسرة ثـرية باشـــوية من عهد محمد علي باشا .

● ترك لـه أبوه ثـروة أسسس منهـــا مسرح رمسيس .

● أحب المسرح صغيرا من مشاهدة فرقة سليمان قرداحي .

● في المدرسة السعيدية بالقـاهرة كانت هوايتـه إلقـاء المنولوجـات في الحفـلات المدرسية .



يوسف وهبي ... صورة من أيام مجد « فرقة رمسيس» في العشرينيات .

● ســافـر إلى إيطاليـا لتعلم فن التمثيل المسرحي .

● استجابة لدعـوة الشاعر أحمد شــوقــي (وكــان في فرنسا) بدأت تظهر في مصر الفرق المسرحية .

● بدأ نشاط فرقة رمسيس في ١٠ مــارس ١٩٢٣ بعماد الدين .

● من أعضاء الفرقة الأوائل (بقيـــادة يوسف وهبي) : حسين رياض ، أحمد علام ، حسن فــايق ، ستيفـــان روستي ، فتـوح نشـاطي ، مختار عثمان ، عزيز عيد .

● ومـن النســـــاء : روز اليوســف ، فاطمـة رشدي ، زينب صـدقـي ، مــاري منصـــور ، ثم : أمينة رزق ، فـــردوس حسن ، علـوية جميل ، روحية خالد .

● وضع تقــاليـد صــارمـة للمسرح أكسبت الفــرقـــة حســـــن الأداء واحترام الجمهور .

فيلمـا سينيمائيـا بخلاف الأعـمال الإذاعيـة والتليفـزيونيـة الـدرامية : فكاهية (كوميدى) ومأساويـة (تراجيدى) . وكان نجما جوَّابا فى الآفاق : فقد رحل بمسرحـه ومسرحياته إلى أكثر من أربعين دولة ، فى البلاد العـربية بالمشرق وفى بلاد المغـرب من الشمال الأفـريقى ، وفى فـرنسـا ، وفى أمـريكا الجنوبية حيث الجاليـات العربية الإسلاميـة وعرب المهْجَر . فلم يكن غـريبا حصوله على عـدد كبير من الأوسمة والجوائـز والنياشـين الفاخـرة ، فضلا عن حب واحترام وتقـدير الجماهير فى كل بلد زاره ، أو عُرضت فيـه أعماله .

ومن هذه الحصيلة : وسـام الاستحقـاق مـن الدرجـة الأولى (من الرئيس جمال عبـد الناصر سنة ١٩٦٤) ، وقـلادة الجمهـورية (وهـى من أرفع الأوسمة والنياشين وكـان أول فنان مصرى يحمل هذه القلادة التى تسلمها من الرئيس محمـد أنور السادات سنة ١٩٧٣) ، ومنحـه الملك فاروق رتبـة ولقب البكوية (سنة ١٩٤٥) ، ووسام الأرز الـذهبى (من لبنان) ، ووسام الفنون التونسى (تسلمه من الرئيس الحبيب بورقيبـة) ، ووسام الفاتيكان لأدائـه الممتاز لـدور الكاردينال فى مسرحية « كـرسى الاعتراف » ، ووسـام ولقب « كـومنـداتورى » (من مـوسـوليني سنة ١٩٢٦) ، كما حصل على جـائزة الدولة التقـديرية (من مصر سنة ١٩٧٠) . وكان أول نقيب لنقـابة الممثلين المصرية .



الملك فاروق



جمال عبد لناصر



أنور السادات

وتلاميـذ يـوسـف وهبى ـ فى المسرح والسينيما ـ كثيرون وكثيرات ، وهم معظم النجـوم التى أشرقت ولمعـت فى سنوات الأربعينيـات والخمسينيـات واستمروا بعـدها . من هؤلاء : أمينة رزق ، فاطمة رشـدى ، زينب صدقى ، راقية إبراهيم ، علوية جميل ، زوزو نبيل ، فاتن حمامـة ، نور الهدى ، فاخر فاخر ، فريد شوقى ، أحمد علام ، حسن فايق ، حسن الإمام . .

ولقد خـدم مسرحه القـديم القويم ـ مسرح رمسيس ـ نخبـة ممتازة من جهـابـذة الممثلين ، فى مقـدمتهم : حسين ريـاض ، مختـار عثمان ، روزا اليوسف، أحمد علام . .

* من أقوال «يوسف وهبى»
التى صارت مثلا شائعا :
[ما الدنيا إلا مسرح كبير] !


بيومى أفندى .. وإلى جواره أمينة رزق


من مسرحية الصحراء .. يمثل دور البدوى !

صورتان من أدواره التى لا تُنسى ..

تبقى الإشــارة إلى أنه كــان مثل بيتهـوفن[٢] فى الموسيقى الغـربيــة : وضَع الفنان فى مكانه اللائـق المحترم ـ بين الناس وفى نظر المجتمع ـ بعـد أن كــان الكثيرون جــــدا فى أوائل القـــرن يروْن « المشخَّصــــاتــى » ـ أى الممثل ـ والجور نالجى ـ أى الصحـــافى ـ لا يُنَاسَب ولا يُصَاهَــر ، لو ضاعــة عمله أو مهنتــه . فيوسـف وهبى كــان ابن باشــا ، باشا حقيقى وليس من باشــاوات التمثيل : عبد الله باشا وهبى مفتش عموم الرى بالقطر المصرى .

بالفصحَى أم بالعامية ؟

ثارت خــلال القــرن مناقشـــات ومجادلات حــول اللغة الأكثــر مــلاءمــة للمسرح : الفصحَى أم العــامية ، ولكل فريــق حُجة ورأى ومأرب . وفى حوار مع الكاتب الروائى المسرحى الكبير « توفيق الحكيم » حول هذا الموضوع قال (فى مارس ١٩٧٩) :

« هناك وهـم بـوجـــــود لغتين منفصلتين فى اللغـة العـربيـة ، تقـوم بينهما هوة سحيقـــة ، وهـذا الوهـم جعـل كثيرا من الكتّـــاب يمعنون فى تعميق الهوة بين الفصحى والعامية ، لا لشىء إلا لتأكيـد انفصال العـاميـة ، وإظهارها بمظهر « اللغة المستقلة » » .

وأضاف :

« على الرغـم من اصطناعى لغـــة عربية مبسطة غاية التبسيط ، إلا أننى أجـد عند التمثيل أنـه قـد دفع بها إلى من يحولها أو يترجمهـــا إلى اللغـــة العـــاميـــة ، وهـذا وضع عجيب ، فـالاعتراف بوجـود لغتين منفصلتين لأمة واحـدة ، تسعى إلى اذابة الفوارق بين طبقاتها . لأمر لايبشر بخير » .

وللحكيم مشروع نظـرية فى هــذه القضية :

« إن أكثـر ما نسميـه لغـة عـامية مـا هو إلا اختزالات اقتضتهـا سرعة الكلام والخطاب ، كما يحدث فى أكثـر اللغـات الحية ، ونحن فى لغتنا العربية ، نستطيع بشىء مـن السماح فى لغـــة التخـــاطـب والحوار ببعض الاختـــزالات الشــائعـــة على الألسن فى أسماء الإشارة والأسماء الموصـــولة . نستطيـع أن نضيق الحدود والفـــروق والحواجـــز ، وأن نصل إلى مستـوى موحـد من لغة عـربية أقـرب ما تكون إلى السلامة » . .

مـــاهى هـذه الاختـــزالات التى اقترحهـا ، واستخدمهـا فى مسرحياته

(٢) قبـل بيتهوفـــن ، كان المؤلف أو العـازف الموسيقى– أيا كانت كفاءته أو مـوهبته أو إبداعــاته – يوضع فى مرتبة الوظائف والأشغال الدنيـا كالخدم . وكان فى القصور وبيوت الأثرياء يأكل مع «الشغّيلة » بالمطبخ . فجـاء بيتهوفن ورفض تلك المهـانة ، وجالس الملوك والأمـراء والرؤساء والوزراء ، ورحم الله امرءا عرف قدْر نفسه .

الأخيرة ؟

قال الحكيم أن عبارة « هاتوا لنا التفاح اللى اشتريته » .. سليمة إلا من اختزال الاسم الموصول « الذى » « إلى «اللى » وأن جملة « بدى أسافر » سليمة أيضا ، قضت سرعة النطق بها أن تحذف الواو من الكلمة الأصلية «بودى أسافر » فهو يبرر الاختزال واستخدام الكلمات ذات الحروف الساقطة مع الزمن . . بسبب من سرعة النطق . .

أما تسكين أواخر بعض الكلمات بدلا من إعرابها ـ وهى مشكلة فرعية يعانى منها الممثلون فيجد الحكيم لها حلا :

« وتسكين الأواخر ، أى الوقف بالسكون وعدم الإعراب ، هو أيضا من صفات التخاطب السريعة فى الأمة العربية ، ولعل الأمر كان كذلك أيضا أيام العرب القدامى فى أوج حضارتهم فقد كان يقال « سكّن تسلم» وما نحسب الكلام والتخاطب فى الأسواق فى أيامهم . . كان دائما بإعراب أواخر الكلمات . بالتسامح إذن فى الوقف فى الحوار التمثيلى العصرى المنطوق والمكتوب يجب أن لا يقدح فى عربية اللغة أو سلامتها » .

رفض الحكيم الاعتراف بوجود « لغة » منفصلة مستقلة . اسمها «العامية » وهو يريد أن يقول للجمهور وللكتاب المسرحيين « إننا بقليل من حسن النية وقوة الإرادة نستطيع تدريجيا أن نرتفع بأسلوب تخاطبنا العادى إلى مستوى تضيق فيه الفروق بين الكتابة والتخاطب كما هو حادث فى اللغتين الفرنسية والإنجليزية . إن الهوة ليست سحيقة إلى الحد الذى يبيح شطر اللغة الواحد شطرين وجعلها لغتين » .

وفى مسرحية « الورطة » طبق نظريته ، فلغتها هى لغة التخاطب العادية فى حياتنا اليومية ـ آخذين بعين الاعتبار وجود بعض المفردات المصرية ـ ولكنها مع ذلك قريبة إلى العربية الصحيحة وعند التمثيل لن تحتاج إلى الترجمة إلى ما يسمى بالعامية ، وبذلك لن يكون هناك نصان للمسرحية الواحدة . والأمر المهم . . هو القضاء على ازدواج النص ، وعلى الازدواج اللغوى فى كتابة الحوار العصرى .



الرئيس حسنى مبارك يرحب بشيخ الكتاب توفيق الحكيم



تجولت الفرقة فى بلاد كثيرة من العالم حتى أمريكا الجنوبية لتقديم مسرحياتها .

يوسف وهبى فى إحدى مسرحياته المبكرة لفرقة رمسيس فى العشرينيات .

قطعة فنية من الفسيفساء تمثل الأقنعة التى كان الممثلون المسرحيون اليونانيون القدماء يغطون بها وجوههم فى أثناء عرض المأساة أو التراجيديا (إلى اليسار) أو الملهاة (الكوميديا) .

● نجيب الريحانى *

الفنان الضاحك الباكى . . أضحك من القلب ملايين ، وأبكى من القلب ملايين . وكان قلبه هو يبكى عندما كان يُضحك الناس ، حتى مرِض هذا القلب وأصابتْه « ذبحة » ، لكنها لم تكن سببا فى موت الريحانى سنة ١٩٤٩ بل كان « التيفود » ، ولو أن فريقا من علماء الطب الحديث يؤكد أن الموت « حالة » أو « ظاهرة » طبيعية قائمة بذاتها تماما مثل الميلاد ، وسواء مرض الكائن الحى أم لم يمرض فهو يموت ، ولابد أن يموت ؛ وأن لكل إنسان مَيْتته الخاصة به التى لا تتشابه مع نهاية حياة غيره من البشَر ؛ وسبحان خالق الموت والحياة .


نجيب الريحانى

* هو : نجيب إلياس ريحان من أصل عراقى ، لكنه وُلد بالقاهرة فى حى باب الشعرية . وكان أبوه تاجرا للخيول .

كـان مـوظفا بسيطا فى شركـة السكر المصرية ، ثم ترك الوظيفـة حبـا فى التمثيل والتفـرغ له ، فكانت مغامـرة مفزعـة للأهل ، أن يتْرك راتبا شـهـريا مضمـونا من الحكومـة ، إلى صراع وضياع غير مأمـون الدخْل والعـواقب ، ناهيك عن سخـرية الناس به وازدرائهـم له . هكذا كـانت نظرتهم إلى الممثل والتمثيل فى مطلع القـرن . فلما أفلح فى تكوين فـرقته المسرحيـة وقـدَّم لونا جديـدا من الأعمال المسرحية ـ مقْتَبَسة أو مـؤلَّفة سمَّاها « فـرانكوأراب » ـ أقْبل عليه جمهور كبير وأقبل معه المال الوفير .

ثم انتقل الريحانى إلى مـرحلة فنية أخـرى جديدة كـان لها صدًى أوسع بين الجماهير التى بدأت تتـــذوق الأعمال الفنيـــة الجادة والمتطـورة فى كل مجالات الفنون والآداب ومنهـا المسرح. فقد ابتكر شخصيـة « كشكش بك » ليجعلها البطل الرئيسى فى عدد من المسرحيات الفكاهية النقدية الاجتماعيـة، واختـاره عمـدة لقرية وهمية « كفْـر البلاَّص » ، وهو اسم يوحِى بالسذاجة والتفاهة والتخلف والجهل ، فهو إذ يملـك المال والسلطة فى بيئته المتوارية فى الظلمات ، يلذُّ لـه أن يتسلل بين الحين والحين إلى « النـور » ، إلى القــــاهرة بأجوائها وأحيائها وأضوائها ومبـاهجها وملاهيها ؛ فيغوص منْبهرا فى هذا البحـر اللُّجِّى وهولا يُحسن العوم ، لكنه لا يَغْرق ، وإنما يتصادم مع تيارات ومستحدثات وعوائق غريبة عليه ، تضعه فى مواقف تثير الحيرة والارتباك ، فيأتى سلوكـه التلقائى مـدهشـا مضحكا ، وتصدر منه تعليقـات ساخـرة ســافرة ، تحمل فى ثناياها نقـدا لاذعا أو رأيا حصيفـا منبِّها ، وربما حكمـة لطيفة ملطِّفة ، تُطرب الأسماع وتتناقلها الألسن .

كـان إذن مسرح « الشعب » ، الذى شـاهد فيـه نفسـه ، واستمع فيـه إلى بعض مشكلاته وتطلعاته وقضاياه ، بعد نضاله وثورته الوطنية (١٩١٩) ودخوله فى مرحلة التحديث والنهضـة الشاملة ، بخطوات قد تكون وئيدة أو متعثرة ، لكنهـا متحركة على كل حـال ، باحثة عن الاتجاه الصحيح مع رياح الاستقلال .

مشى نجيب الريحانى بفكره وفنه ومسرحه فى اتجاه الملهاة (الكوميديا)،



نجيب الريحاني

أكبر فنان ضاحك في المسرح العربي

فأفلح ونجح ، مـؤلفا وممثلا ومُخرجـا ، وأحبه الجمهـور واحترمه وأكبره، فكان ذلك قيـدا ذهبيـا حـال بينه وبين تقـديم المسرحيـات المأسـاوية (التراجيـدية) وكان هو يتمنى أن يؤديها ، وكـان من الممكن أن يُبدع فيهـا . لكنه لم يَجنْح إلى الإسفـاف والابتـذال وتهريج (الفـارْس) فى مسرحـه الكوميـدى - ولا فى أفلامـه السينيمائية - وإنما كان مـع إضحاكـه وتسليته جـادا كل الجد ، ناقـدا ساخـرا ولا يتجـاوز الحد ؛ ولا يخلو عمل من أعماله الفنيـة من مـواقـف ومشـاهد تَستثير الشَّجَـن ، أو تَسْتشيط الغضب ، أو تَسْتذرف الدموع .

واعتلى القمـة . ثم صار الأستـاذ المعلِّم . ومن بين يديه ومن فوق خشبـة مسرحه ، تخرج ممثلون وممثـلات أصبحوا فى قادم السنين أبطالا ونجـوما فى المسرح والسينيما والإذاعـة والتليفـزيون. وظل هـو - حتى آخـر يوم من حياته التى انتهت فجأة - ظل عاليا متألقا فى أدائه ومنزلته فى قلوب الناس . . كل الناس . حتى إن عميـد الأدب العـربـى دكتـور « طه حسين » كـان دائم التردد على مسرح الريحانى ، صـديقا شخصيـا له ، ومُعجبا رضيًّـا بسماع فنه. وكـان إذا جـاءه ضيف أو زائر عـزيز عليـه من الخارج ، اصطحبـه إلى مسرح الريحانى ، وكـان من هؤلاء الأجـانب أديب فـرنسـا الكبير « أندريه جيد» الذى أبدى إعجابه بالمشاهدة وهنأ الريحانى وأخبره أنه تابع المسرحية وفهم مقصده ومعانى كثيرة من الحوار ، وإن لم يعرف العربية .

أمـا عن الجانب الشخصى فى حياة نجـم الكوميديا المصرى - والعـربى - الأول فى القـرن العشرين ، فقد كـانت أبعـد ما تكون عن الفكاهة أو الملهـاة ، باستثناء أنه كـان بطبيعته حلو الدُّعـابة ، سريع البديهة فى الرد البـاسـم ، أو التعليق المرح .

كان دائم الأحـزان على فقْد أخيه الأصغـر (جورج) الذى اختفى فجأة ، ولم يُعـرف مصيره أو أى شىء عنه مطلقا طوال حيـاة نجيب الريحانى ولا بعد موته . وكان يذكره كثيرا فى نفسه وعلى لسانه .



د. طه حسين

الأديب الفرنسي «أندريه جيد» (١٨٦٩ - ١٩٥١) في لوحة زيتية له سنة ١٩١٢ - زار مصر وصحبه د. طه حسين إلى مسرح الريحاني فأعجبه.

وكثيرا ما كان يعانى من الأزمات المالية . كانت تتجمع له من المال وفرة يحسبها البعض رصيدا ضخما وثروة . لكنه كان كثير الإنفاق ، وأحيانا ببذخ ، على مسرحه ، وزملائه ، وأصدقائه ، ومُحَسِّنات فنه . وأحيانا كان يستدين ، وأحيانا كان ينتهى من العرض المسرحى ، فيجد الدائنين فى انتظاره متحفزين . وعندما استطاع أخيرا أن يبنى له « فيلا » جميلة واستعد لمعيشة هادئة هانئة بها ، عاجلة الموت قبل أن تكتمل ، وتحولت إلى قصر للثقافة الجماهيرية ، فكأنه يسهم بعد رحيله فى دفع تيار الثقافة وإرواء شجرة الفن والمعرفة .

ولكن الأمانة فى البحث والعَرْض ، تقتضى الإشارة إلى أن فريقا من

نجيب الريحانى .. كان شارلى شابلن ممثله المفضل





الأدباء والكتاب فى عصر الريحانى ـ خاصة فى السنوات الأولى من إنشاء مسرحه ـ كان ناقدا له وعلى غير رضًا أو وفاق مع ما يقدمه . ومن ذلك مثلا ما كتبه الأديب « مصطفى لطفى المنفلوطى » فى كتابه « النظرات » تحت عنوان : « الملاهى الهزلية » ، وفيه يوجه اللوم إلى المترددين على مسرح «فرقة الريحانى » ، ويخص الشباب بالتحذير والنصح ، والإعراض عن « شخصية كشكش» الهزلية السوقية المبتَذَلة ، التى تمثل عمدة ساذج من الريف يثير سخرية الجمهور وضحكه من كلامه وسلوكه وتفكيره ، ويعيب المنفلوطى على هذا المسرح إغراقه وتماديه فى السخرية من شخصيات وفئات من المجتمع شريفة جادة مُنتجة ، والإيهام بأن هذا العمل المسرحى يبتغى الترويح والتسلية واستثارة روح الوطنية والحرص على الأخلاق والفضيلة، ويقول : « يمثلون الفلاح أقبح تمثيل ، ولا يتركون مفسدة من المفاسد ولا زديلة من الرذائل إلا ويلصقونها به ، ويُنشدون مختلف الأناشيد فى السخرية بشكله والهزء بصفاته وأعماله،


المنفلوطى

ثم لا يخجلون أن يقولوا بعد ذلك فى تلك الأناشيد : ما دام بلادنا زراعية ، حِبوا الفلاَّح إن كُنتو تحبُّوا أوطانكم. وينتقدون فى رواياتهم فساد الرجال وخلاعة النساء ، ويَنْقِمون على المصرى تبديد أمواله فى سبيل شهواته . وليس للنساء فى مسارحهم عمل سوى إغراء الشبان وإغوائهم وإفساد عقولهم وابتزاز أموالهم فى الساعة التى تُمَثَّل فيها هذه الروايات ، وتلقَى هذه الأقوال . ويهدمون اللغة العربية هدما بهذه اللهجة العامية الساقطة التى يكتبون بها رواياتهم ، وينظمون بها أناشيدهم، وينشرونها فى كل مكان ، ويُفسدون بها المَلَكات اللغوية فى أذهان المتعلمين ، ثم يزعمون بعد ذلك أنهم أنصار اللغة العربية وحُماتها ...

« ولا يسْتَحون أن يجمعوا فى نشيد واحد من رواية واحدة بين قولهم :

[أبيع هدومى عشان بوسة ،

من خَدك القِشْطة يا مَلْبن .

ياحلوة زى البسبوسة ،

يا مهلَّبية كمان واحْسن] .

... إنهم يعتقدون أن المصريين بلغوا من الغفلة والبَلَه مبلغا لا يبلغه أطفال المكاتب (الكتاتيب) ولا سكان المارستانات ... » .





« كشكش بك » : مسرحية نجيب الريحانى – العمدة – فى الوسط فى لحظة مؤانسة وإلى يمينه استيفان روستى يسدد نظراته ثم مختار عثمان ، وفى أقصى اليمين حسن البارودى (المهراجا) . وقد نقل المسرحية إلى فيلم فكاهى غنائى ناطق (١٩٢٩) .

عالم المسرح : رُوَّاد وأمجاد وأجداد .. وأحفاد .



بديع خيرى ونجيب الريحانى



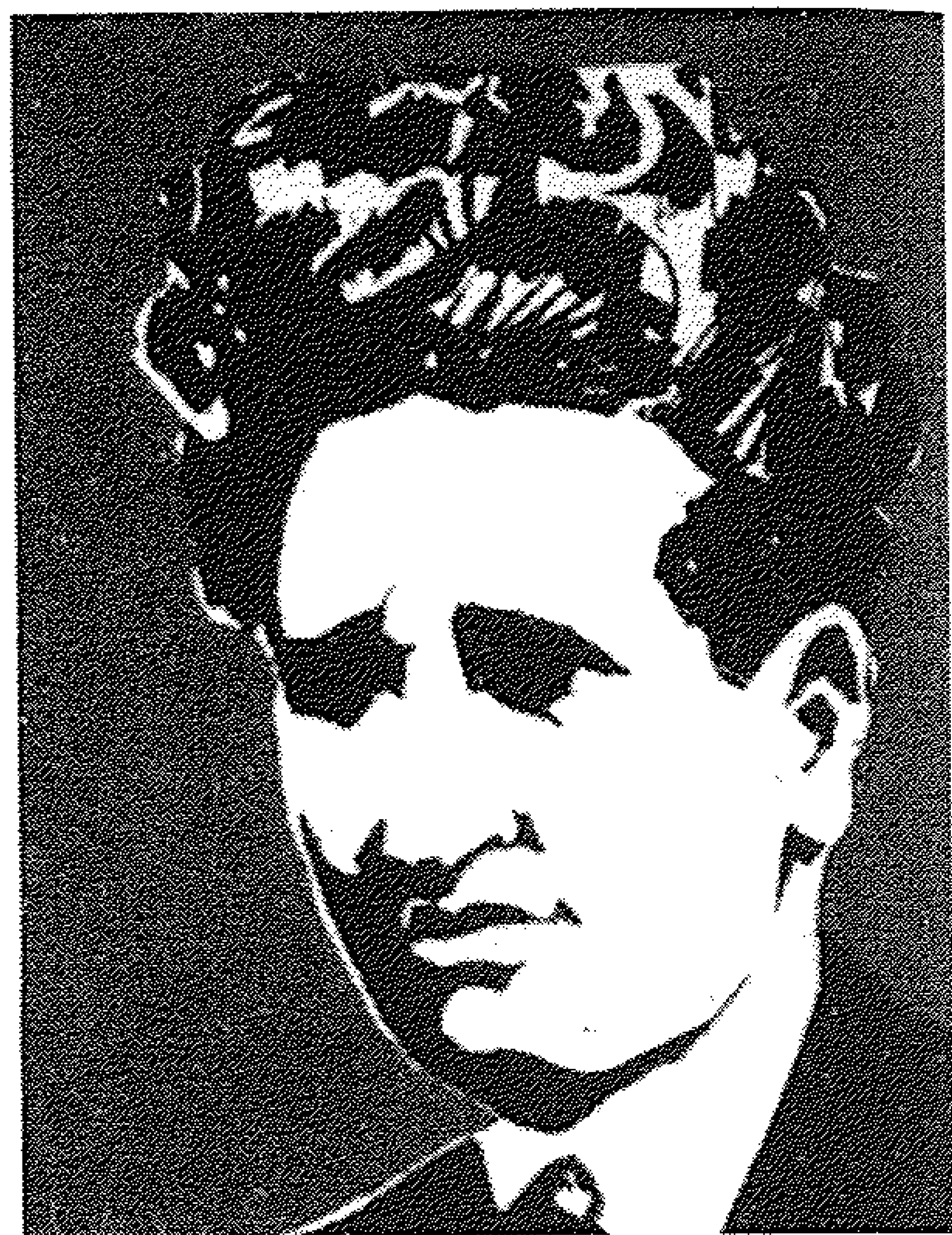
بهيجة حافظ



وداد حمدى



أمينة رزق



سيد درويش



محمود المليجى

إسماعيل ياسين وشادية







الريحانى أثناء « بروفات » مسرحية (ماحدش واخد منها حاجة) وإلى جواره مارى منيب وعبد الفتاح القصرى وبعض افراد الفرقة .

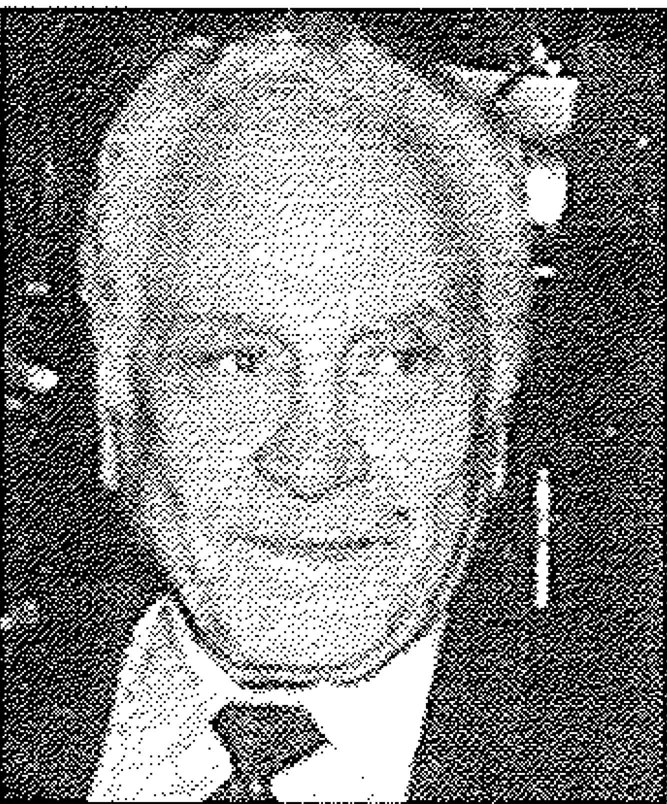

يوسف وهبى ونيللى


عماد حمدى


السيد بدير


عبد السلام النابلسى وزينات صدقى


فاطمة رشدى

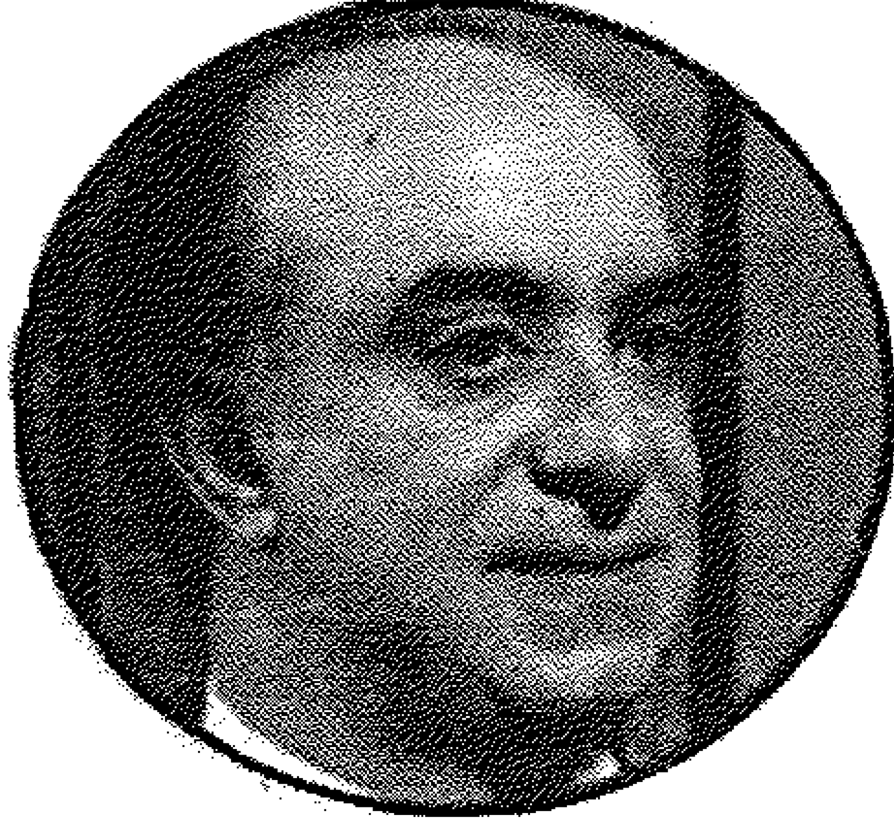

محمود مرسى


هدى سلطان وفريد شوقى

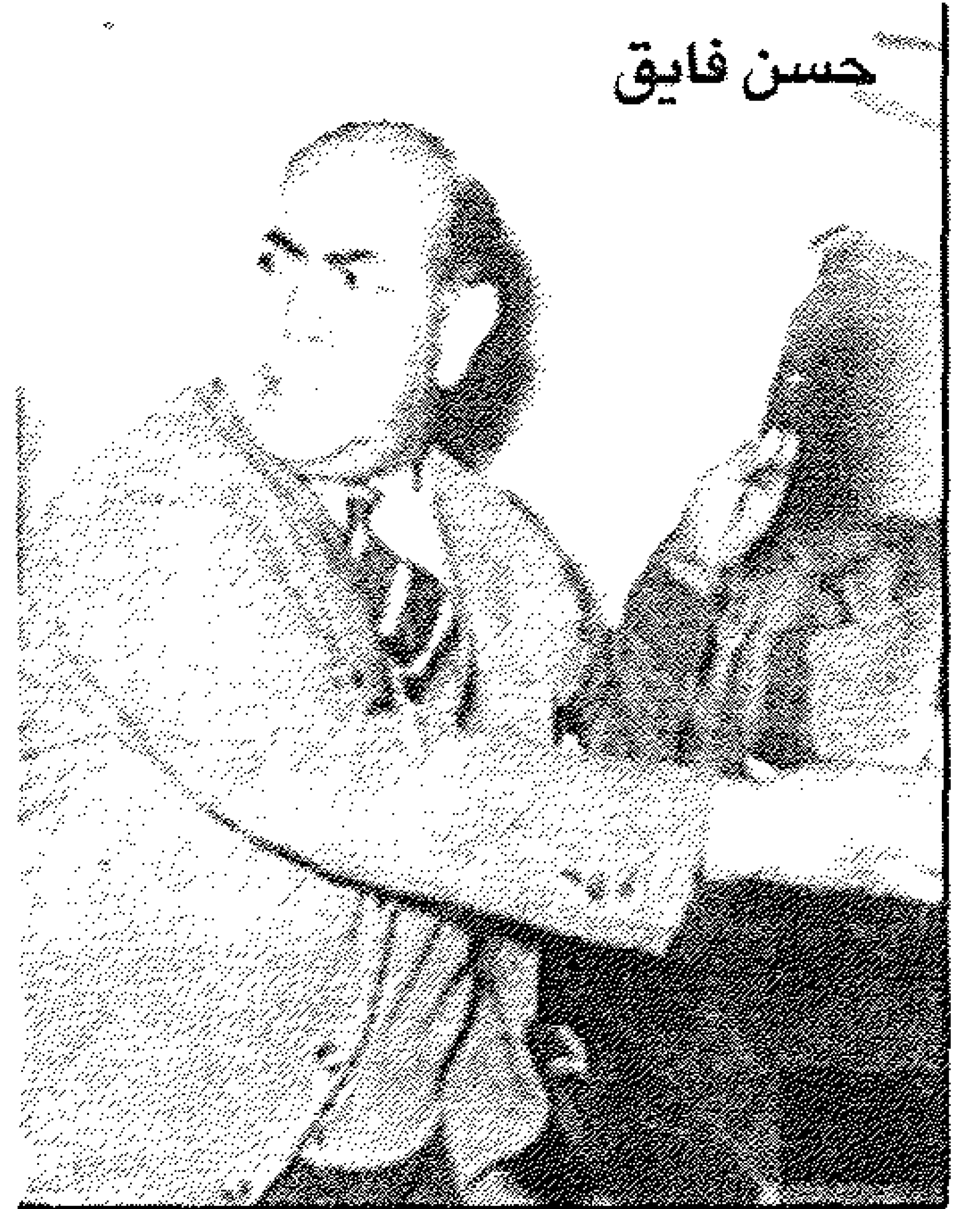

شكرى سرحان / شادية / عبد المنعم إبراهيم

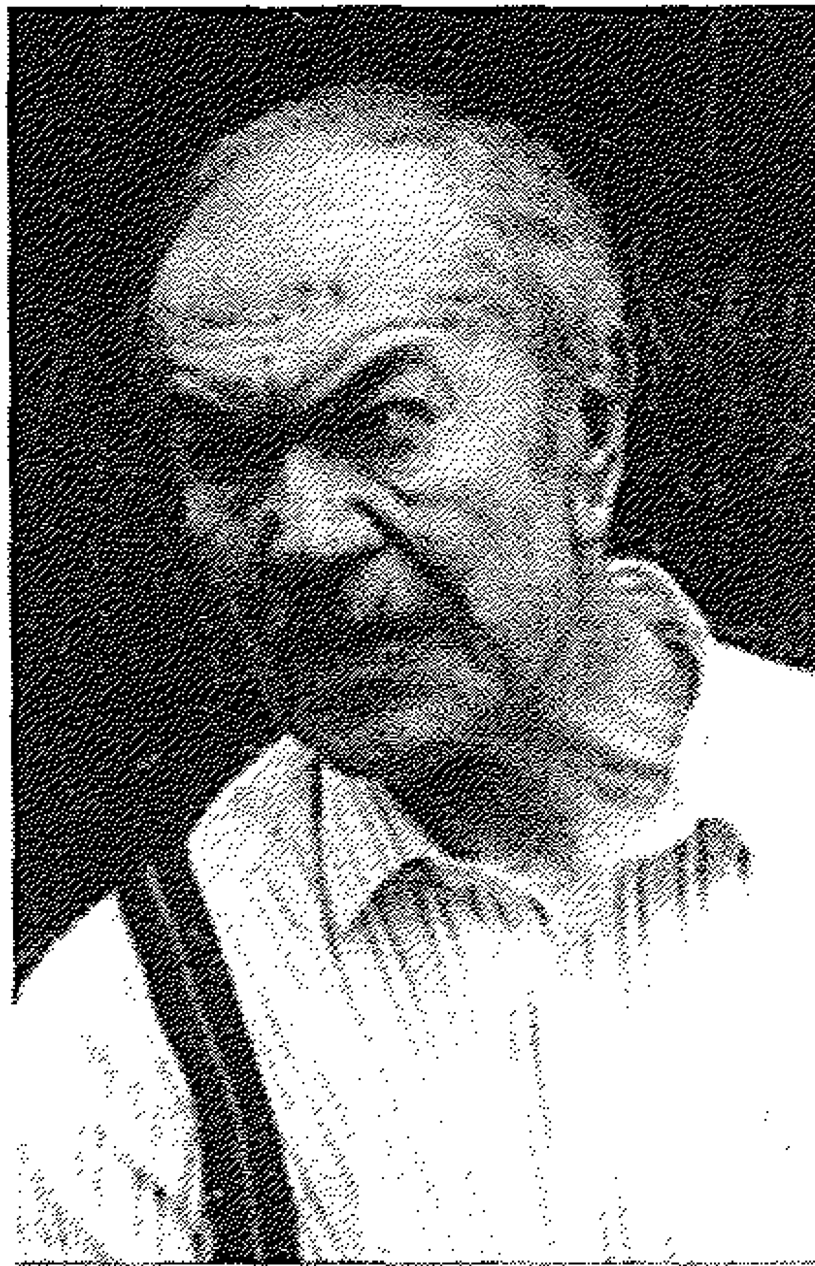

سناء جميل

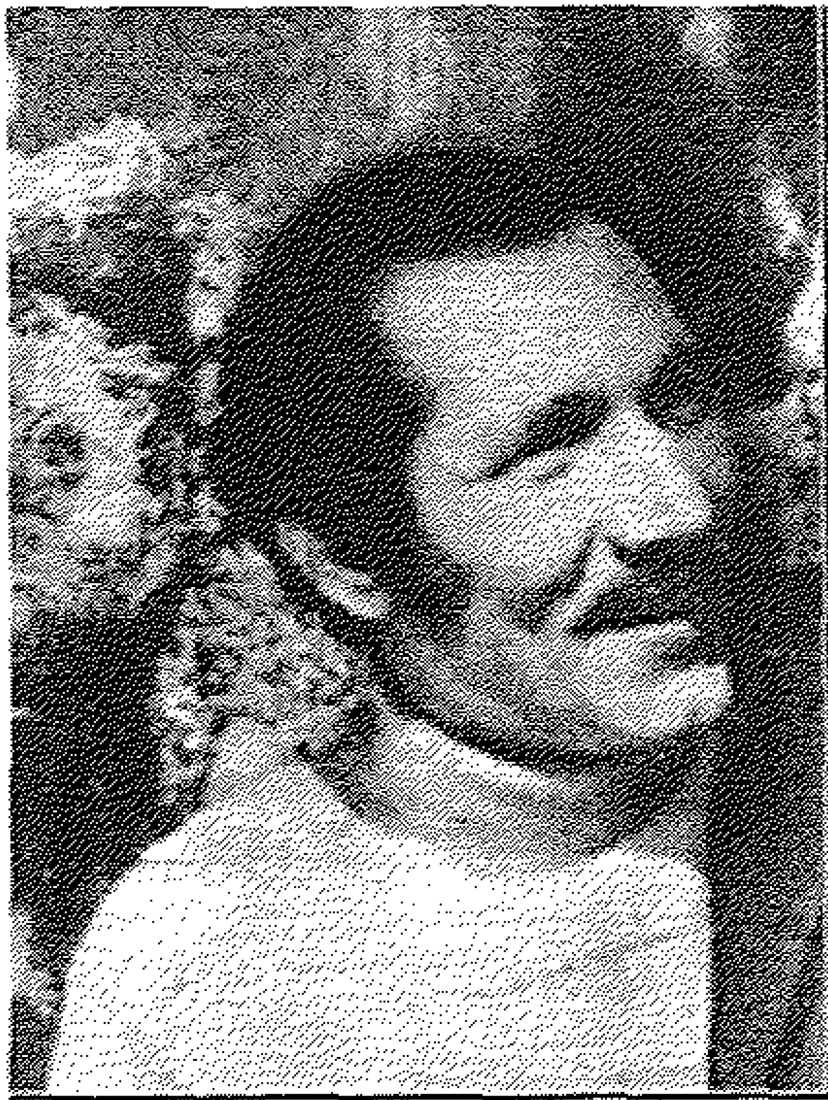

فؤاد المهندس


جلال الشرقاوى


سميحة أيوب


حسن فايق


عادل أدهم


عبد الله غيث


سهير البابلى


تحية كاريوكا


زهرة العلا


كريمة مختار


معالى زايد


هالة فاخر

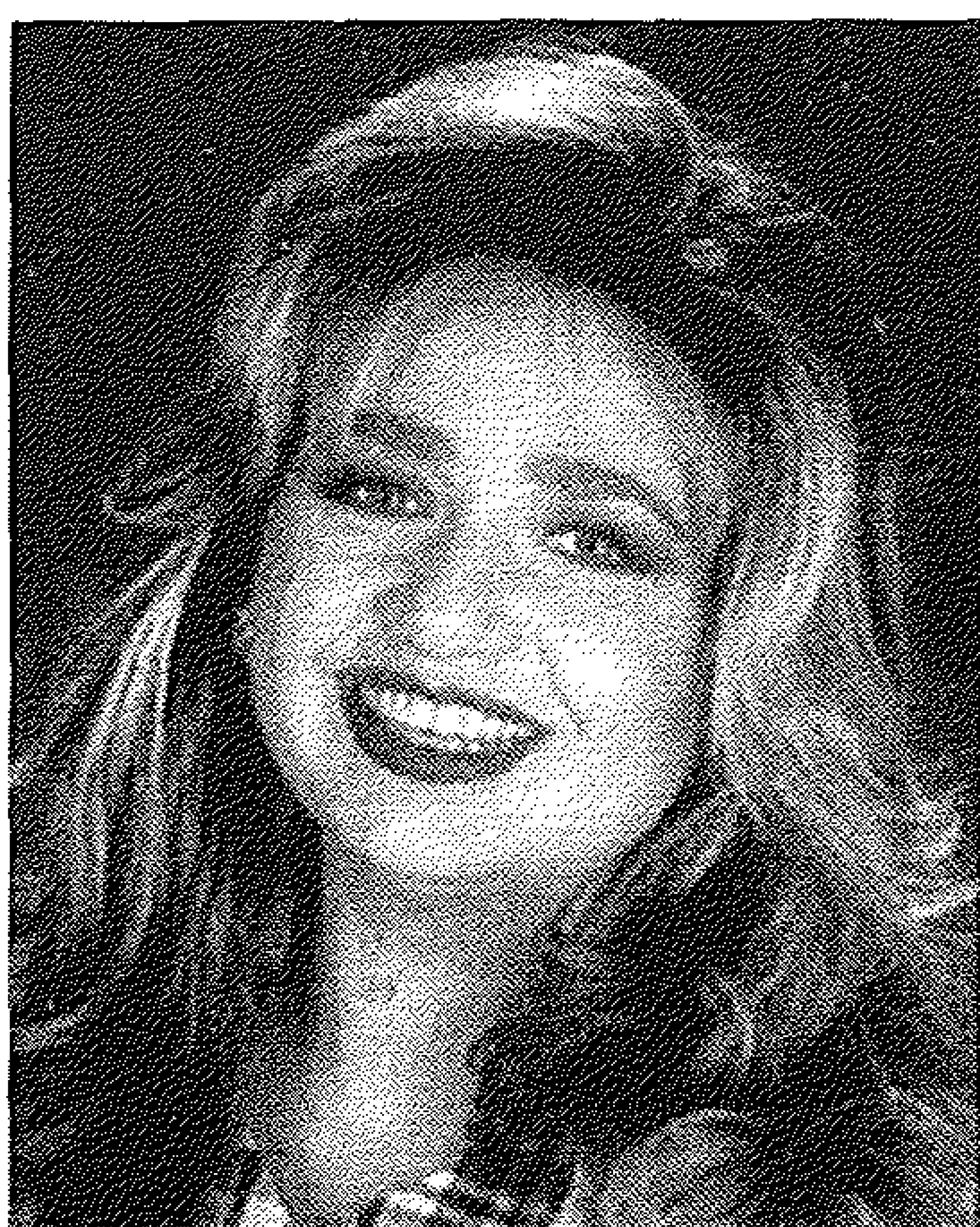

ليلى طاهر


عقيلة راتب


هالة صدقى

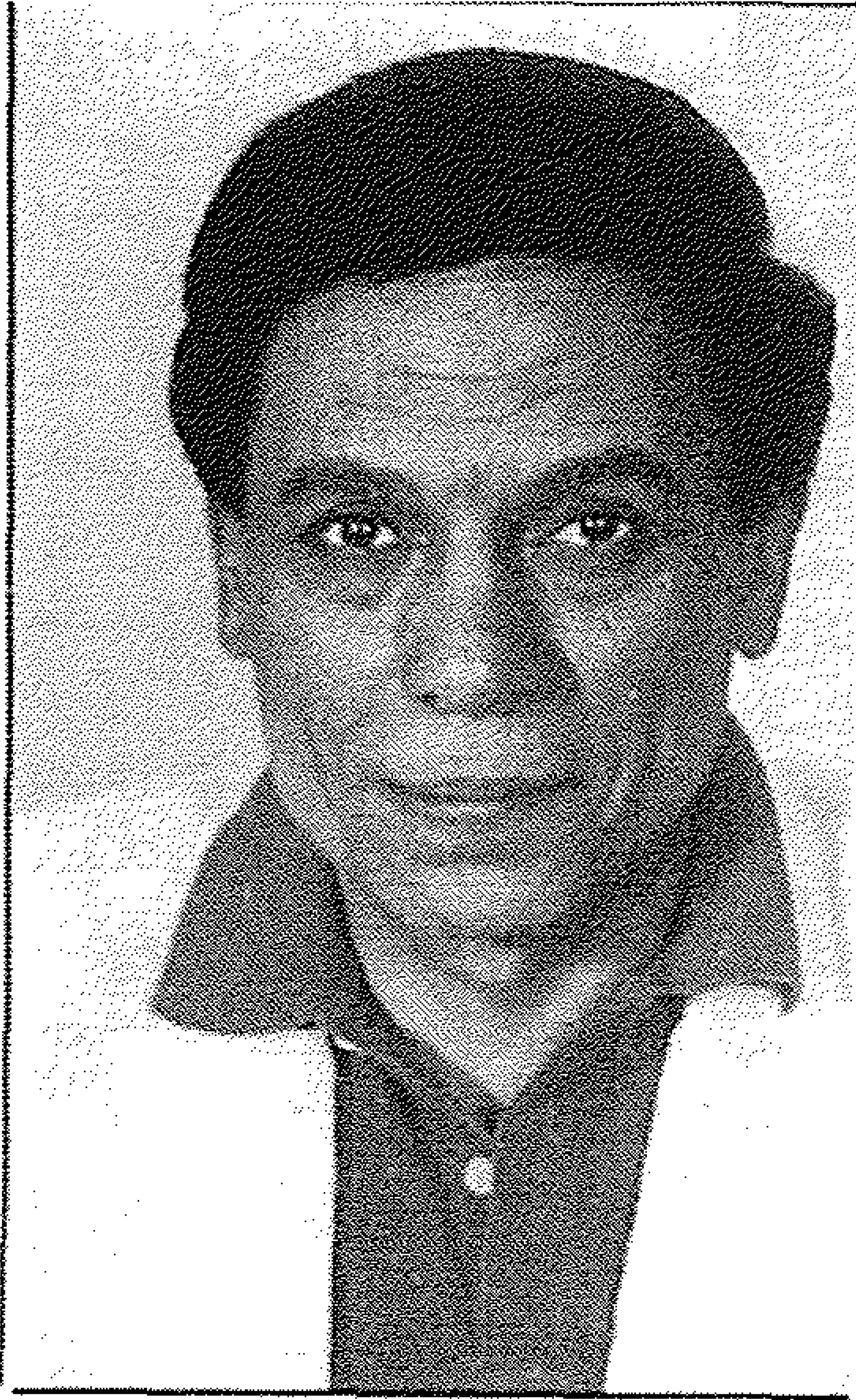

نبيلة عبيد

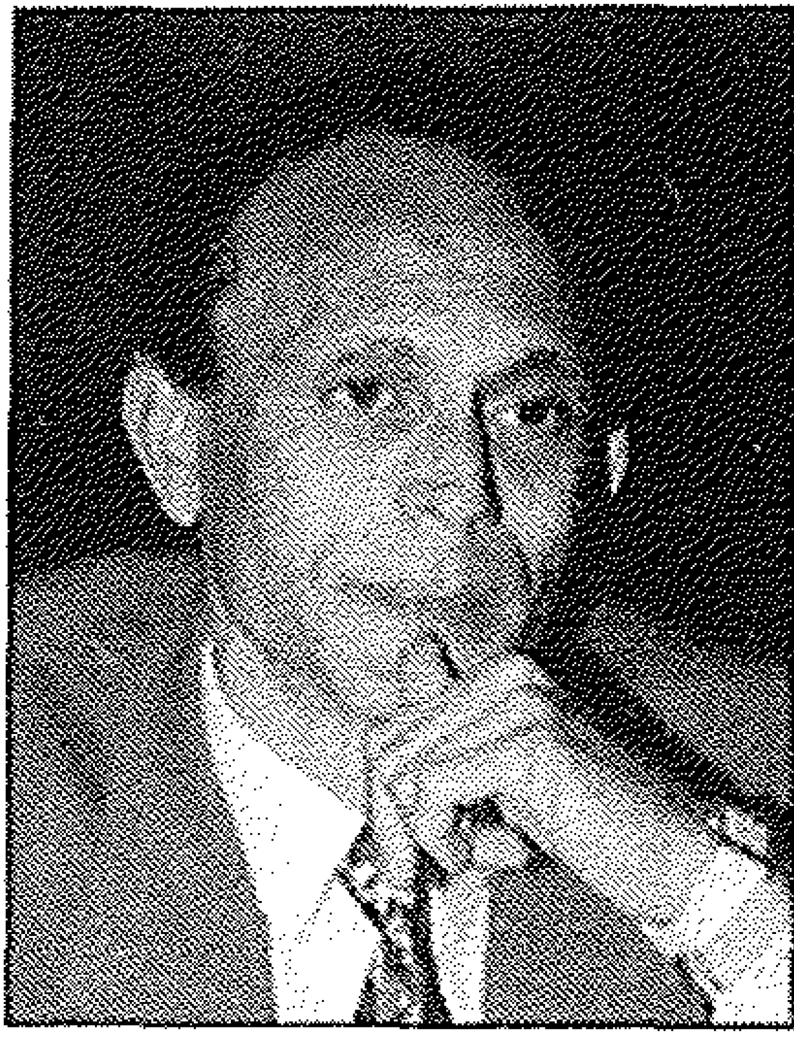

شويكار


ليلى علوى


عبلة كامل

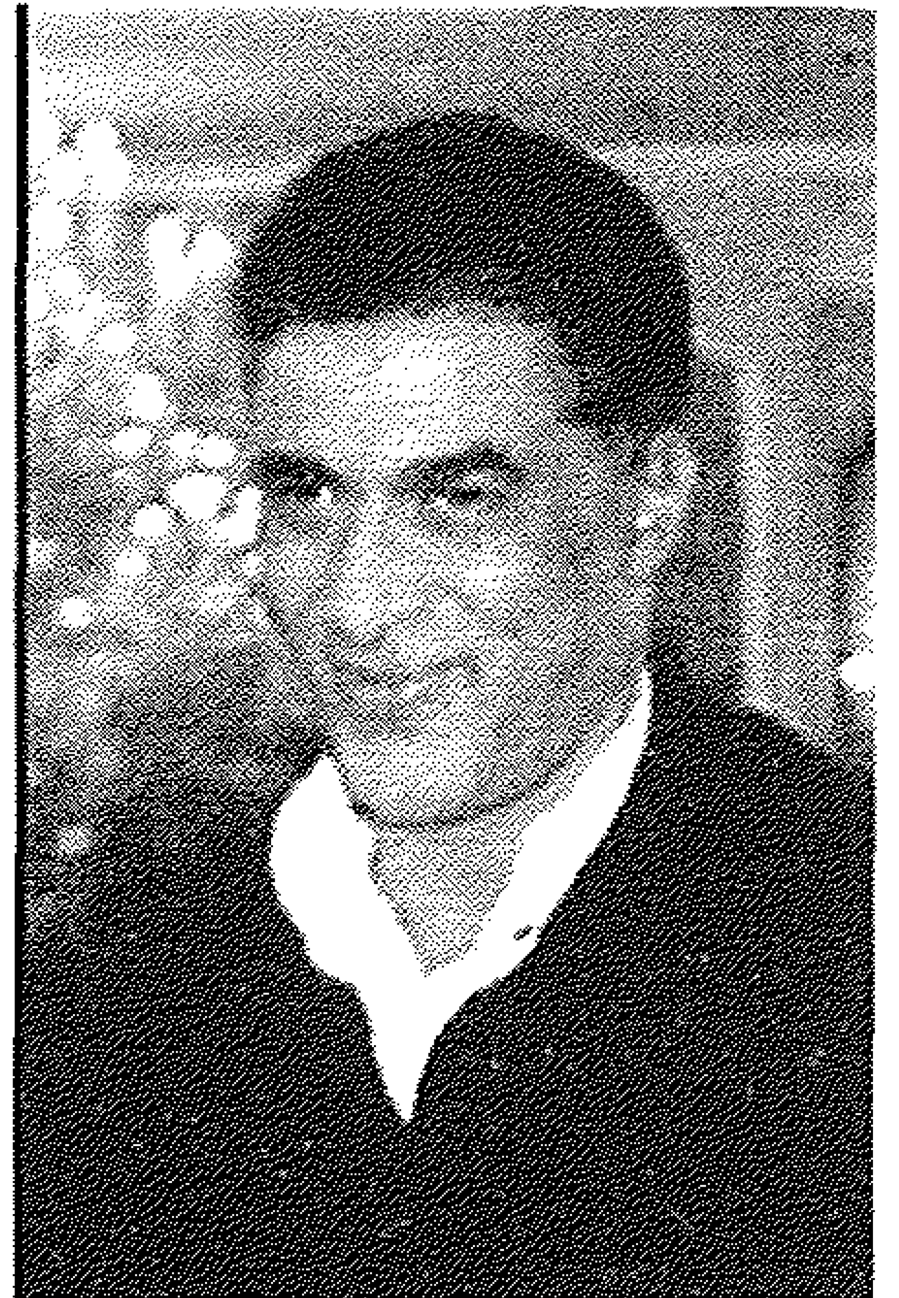

إلهام شاهين


عادل إمام


محمد صبحى


نور الشريف

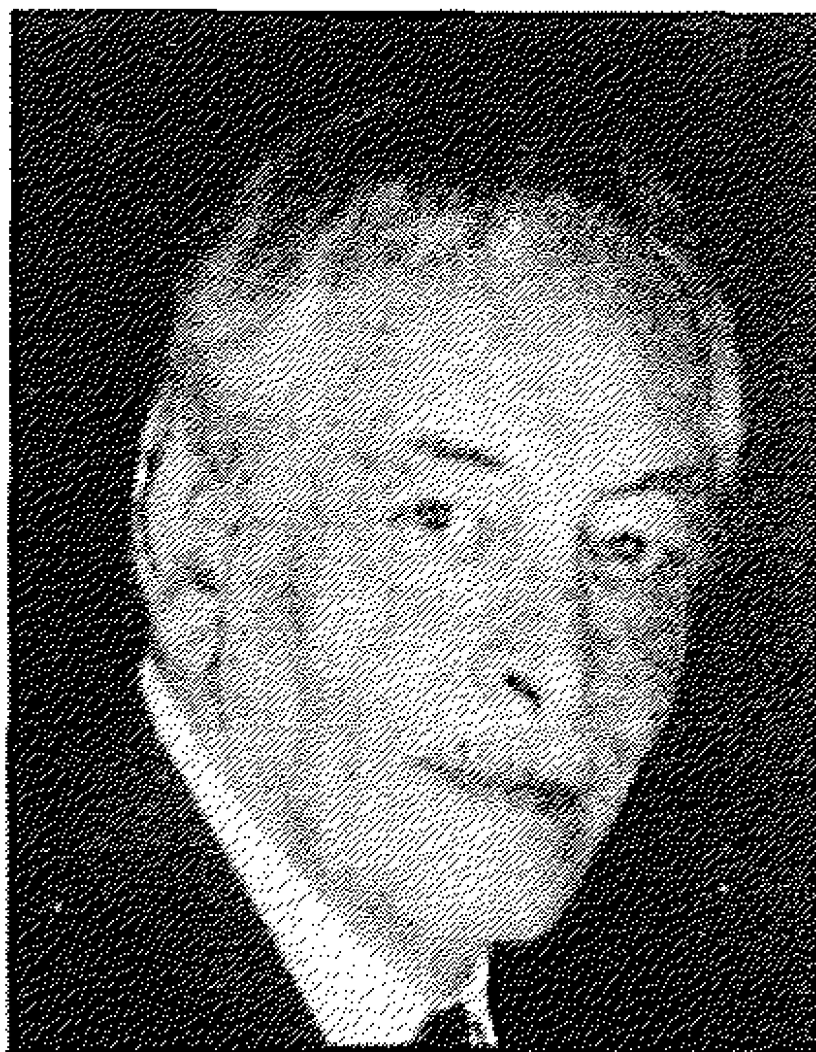

محمود ياسين

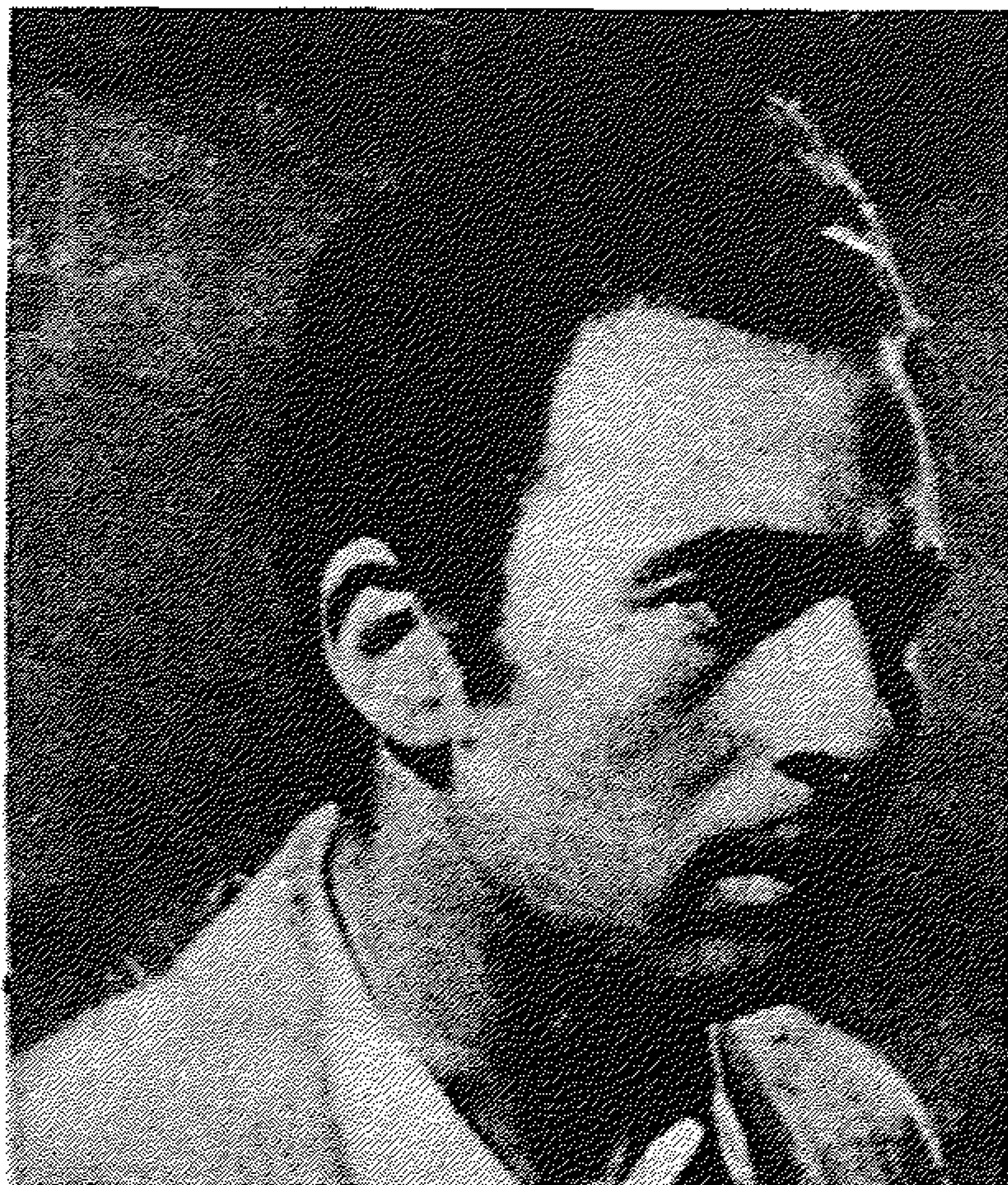

أحمد زكى


شهيرة وسمير غانم


عبد الرحمن أبو زهرة


جورج سيدهم


جميل راتب

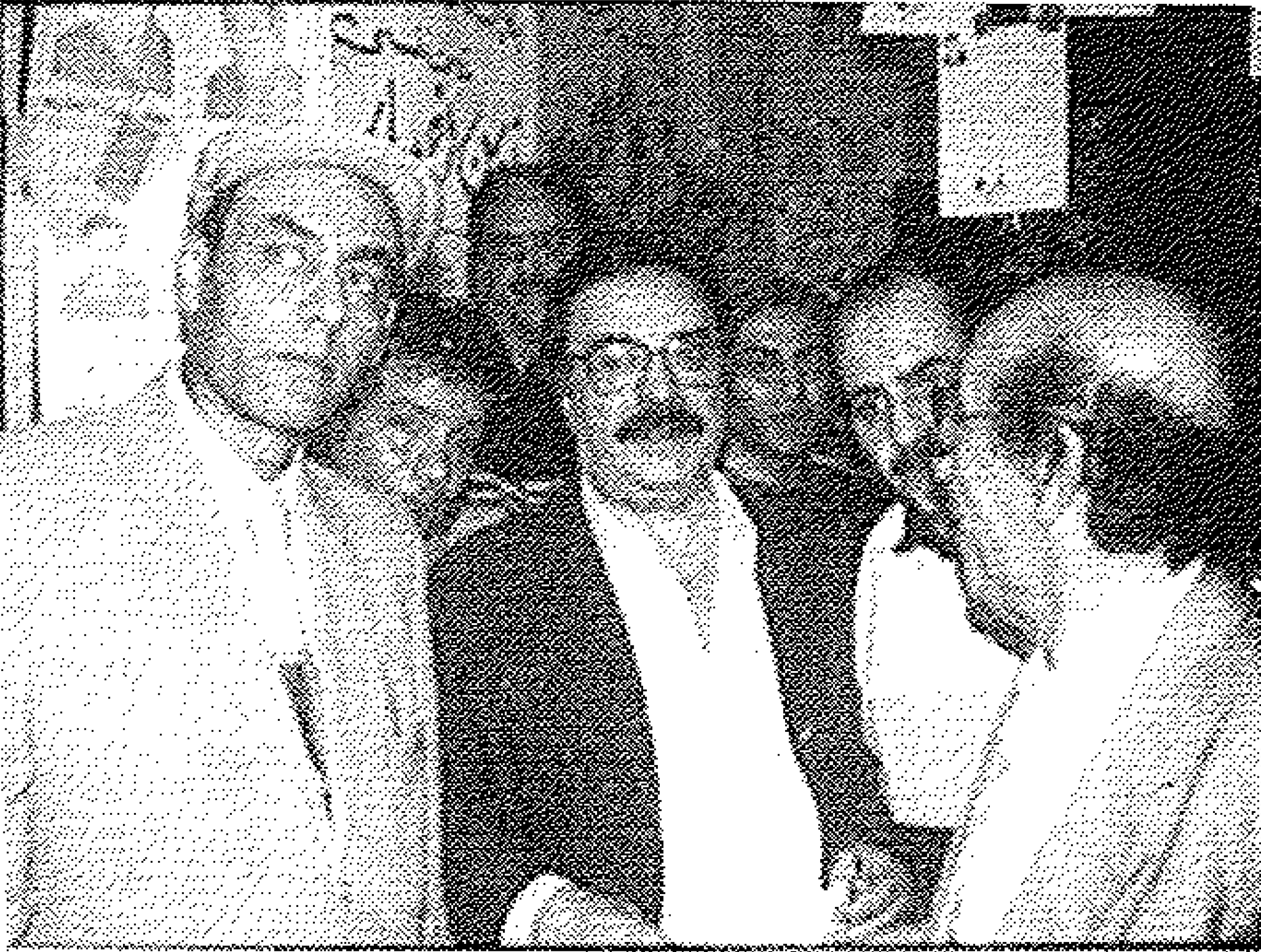

رشوان توفيق

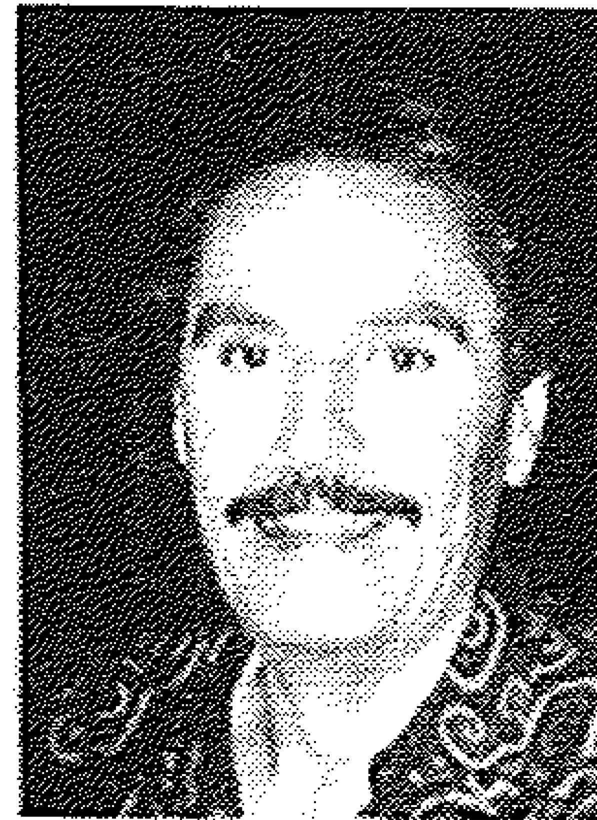

حسن عابدين فى مشهد من « ع الرصيف »

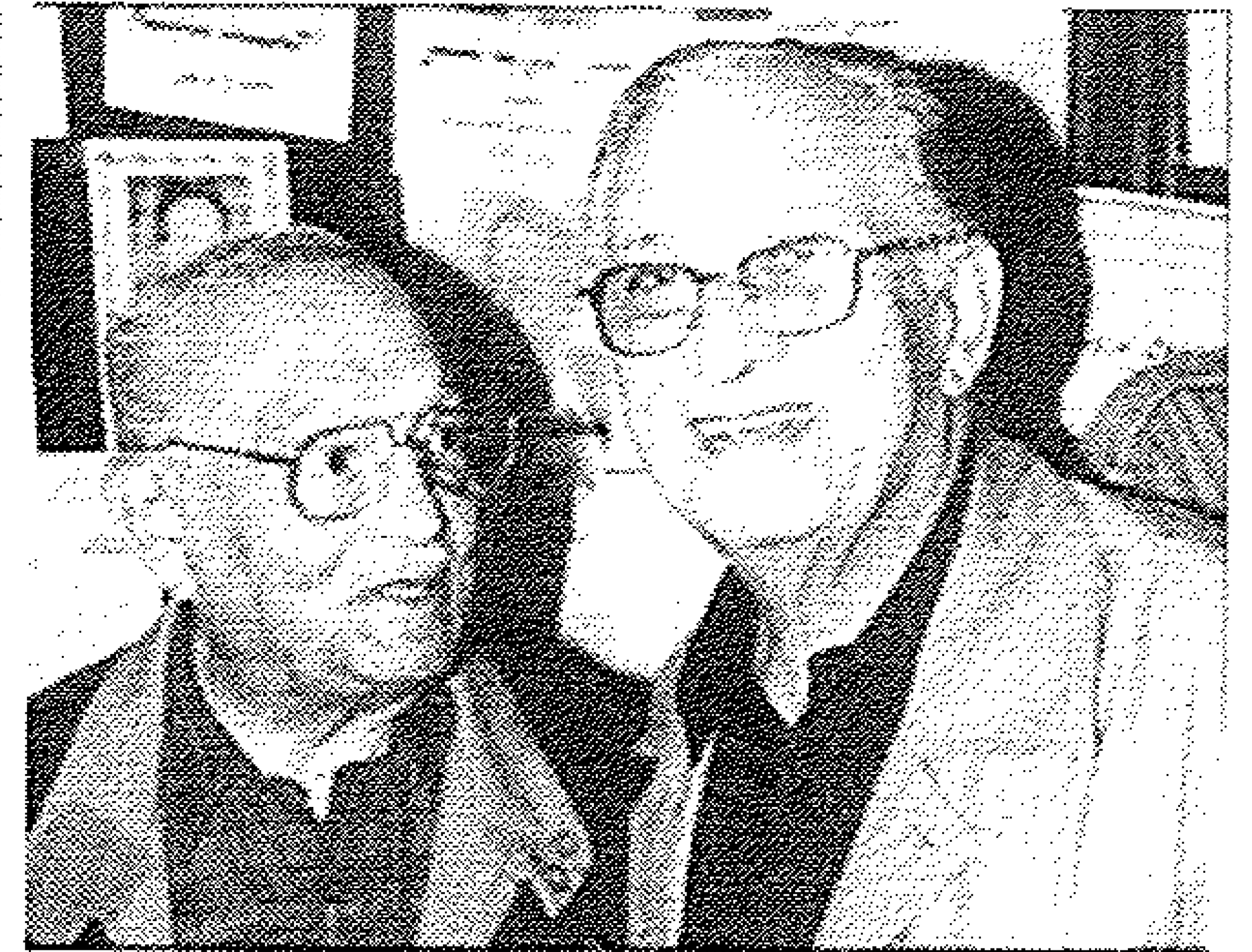

على الحجار


محمد نوح


صلاح السعدنى


يوسف شعبان والسيد راضى وأحمد بدير وبهيج إسماعيل


عزت العلايلى


عمر الحريرى ومدبولى

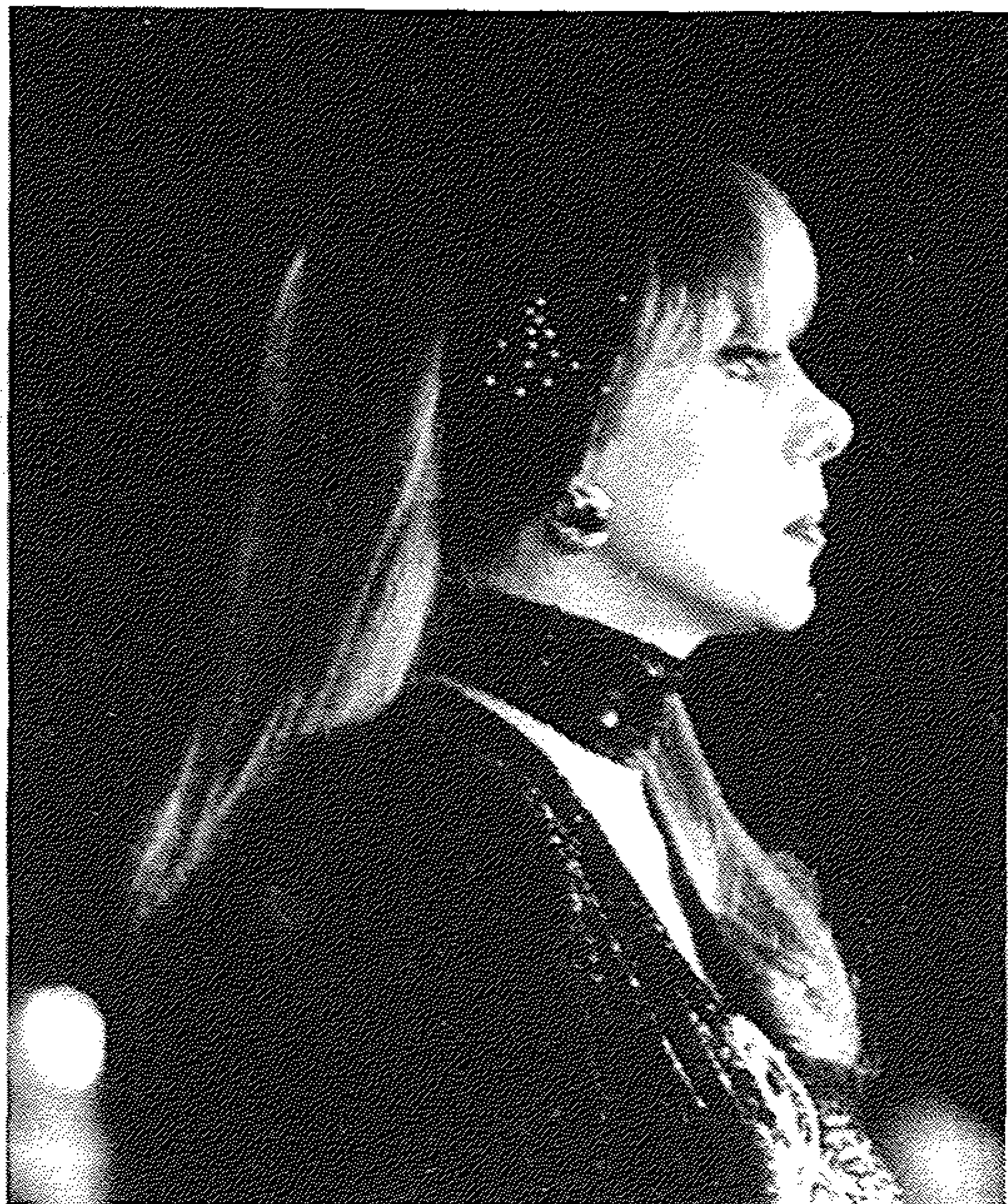

يونس شلبى


الفخرانى ودلال عبد العزيز ورجاء الجداوى


سعيد صالح

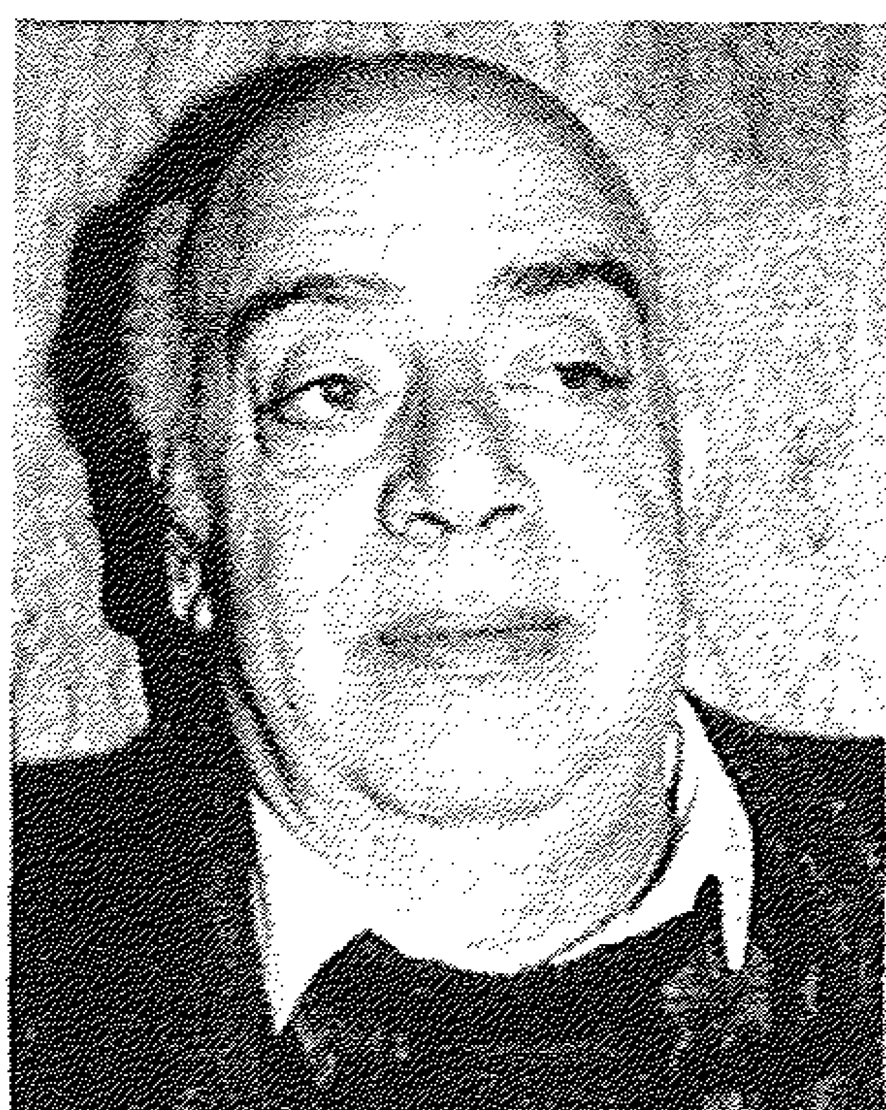

أبو بكر عزت


أحمد راتب


فيروز


أشرف عبد الغفور


توفيق الحكيم


على سالم


سعد الدين وهبة


سعد أردش


عبد الغفار عودة


سمير خفاجى


صلاح عبد الصبور

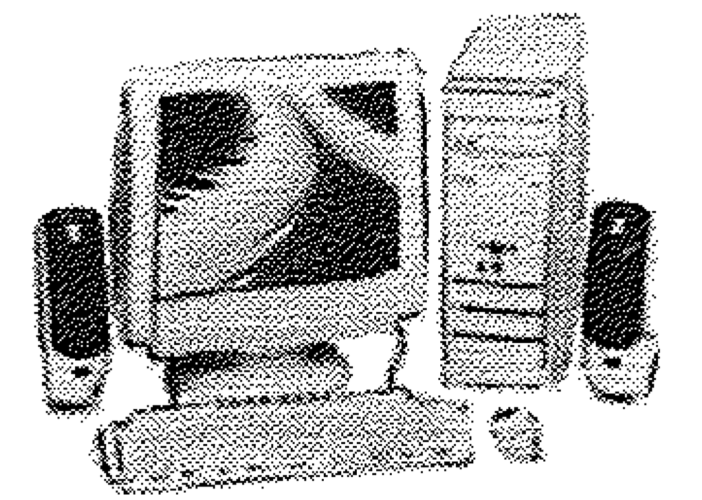

نعمان عاشور

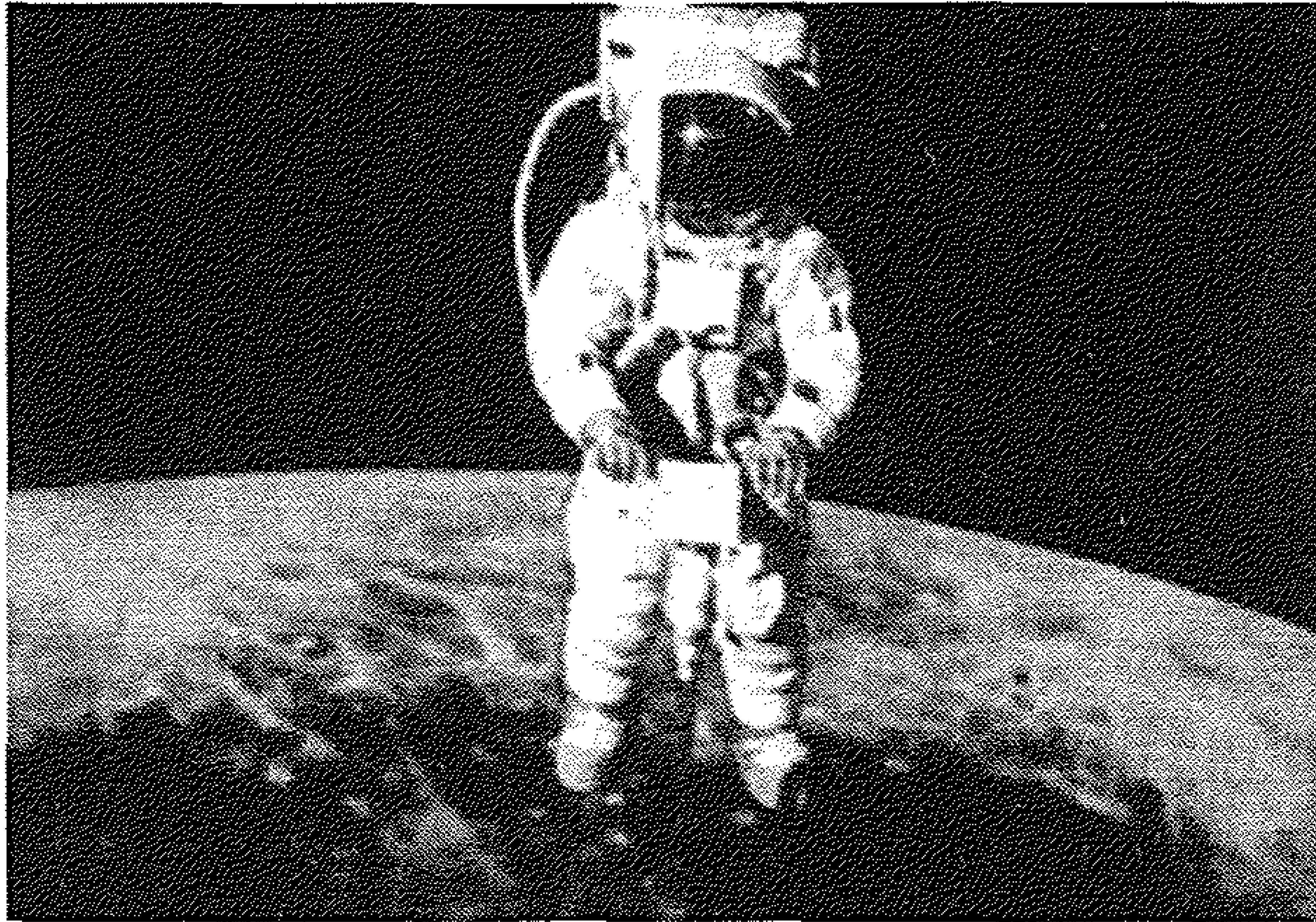
المثقفون ونهاية القرن



تغيرت كثيرا ملامح القرن العشرين فى نصفه الثانى ؛ وكان التغيير كثيفا ومتسارعا فى عقوده الثلاثة الأخيرة ، فى شتى المجالات : سياسية ، واقتصادية ، وعلمية ، وأدبية ، وفنية ، وإعلامية ، واجتماعية . . وأسباب ذلك بالعشرات وهى فى النهاية المتوقَّعة ، تؤثر فى البيئة الفكرية والثقافية ، وتنعكس آثارها ومؤثراتها على أعمال المبدعين من الأدباء والفنانين .

إن أجيال الخمسينيات وما بعدها شهدوا وعايشوا مالم يشهده أسلافهم أو يعرفوه ، وما كانوا يحلمون به ولكن لم يُدركوه . وهذه بعض الأمثلة ترتبط مباشرة بمجال الأدب والثقافة والمعرفة : التليفزيون وتوابعه (التسجيلات المرئية الصوتية بأنواعها المختلفة ، والبث عبر الأقمار الصناعية) / الشبكات الإذاعية (العامة والمتخصصة ، المحلية والعالمية) / تكنولوجيات رحلات الفضاء والوصول إلى القمر / الثورة المعرفية وفى الاتصالات ونقل المعلومات (بداية بالحاسبات الإلكترونية أو الكومبيوتر ، ووصولا إلى شبكة المعلومات الدولية أو الإنترنت) / اتساع مجالات التعليم والتثقيف والتدريب وتطور الوسائل المعينة على ذلك / تنوع وزيادة كميات وانتشار وتوزيع الصحف والمجلات والكتب والمطبوعات وأدوات الحفظ والتسجيل والتصوير / الإقبال على المعارض الفنية والندوات الثقافية ومراكزها ومكتباتها ، وعلى أسواق الكتب الموسمية محلية وإقليمية / التقاء الثقافات العالمية وثمار الحضارات ، والكشف عن كنوزها على نحو غير مسبوق فى التاريخ / تيسير الأسفار والرحلات السياحية النشطة محليا وعالميا ، أفرادا وأفواجا وجماعات / زيادة مستويات الوعى العام وحُب





التليفـــــزيـون ..
وثورة المعلومات ..
وإنسان فوق القمر !

المعرفة (على الرغم من شواغل الحياة اليومية والضغوط المادية نُضوبا أو نَهَما) / توفُّر أوقات فراغ أكبر وفرص اطلاع واستمتاع ومشاهدة (تليفزيونية وسينيمائية) وترويح صيفى ، أشمل من ذى قَبل وأفضل / . . .

إن كل عامل من تلك العوامل المؤثِّرة - وكثير غيرها - يحتاج إلى دراسة مستفيضة لمعرفة وتقويم مَدى إسهامه فى تدعيم أو تحطيم الإنجازات الإبداعية - الأدبية والفنية - التى شهدها النصف الثانى من القرن العشرين . فلما أوشك القرن على الرحيل أو كاد ، طَرَحَت دور النشر العالمية عددا كبيرا من مؤلفات أعلام الكُتاب والفلاسفة والأدباء ، من الشرق الأوسط والشرق الأقصى ، ومن أوروبا والأمريكتين ، تناولت رؤية كل منهم وتقديراته وآراءه وتحليلاته لما مضَى وما يتوقع أو يرجو أن يتحقق فى القرن الوليد الحادى والعشرين . وتسابقت كبرى المجلات العالمية الأدبية والثقافية المتخصصة تنشر مقالات وموضوعات لمشاهير من بين هؤلاء الأعلام الأفذاذ ،أو تُجرى حوارات معهم ، تُفصح عن أفكار قَيِّمة وآراء ، وتلفت الأذهان والأنظار إلى جوانب فى الحياة الأدبية والاجتماعية – قائمة أو قادمة – جديرة بالتأمل والبحث والاهتمام . ومن بين الكثير الذى جاءنا به البريد من دور النشر العالمية ، هذه المؤلفات الثلاثة التى تصلح الإشارة الموجزة إلى بعض ما جاء بها ، أن تكون ختاما لفصول الكتاب .

● « **الإنسانية الجديدة المحارِبة** »

هذا هو عنوان آخر كتاب صدر فى ديسمبر سنة ٢٠٠٠ للكاتب الناقد الفيلسوف الأمريكى « نُوام تشومْسكى[١] » . وهو كتاب جدير بالمطالعة

---

(١) Noam Chomsky : ولد سنة ١٩٢٨ ، أمريكى الجنسية . وهو أحد الفلاسفة المعروفين فى الغرب ، ومن كبار علماء اللغة المشهورين فى النصف الثانى من القرن العشرين . كتابه الأول (١٩٥٧) بعنوان : تكوينات الإعراب - Syntatic Structures » كان من المؤلفات اللغوية الحديثة الرائدة، وأدى كتابه الثانى (١٩٥٩) بعنوان : « السلوك اللفظى - Verbal Behaviour » إلى إطلاق ثورة معرفية فى علم اللغة ، وفى تفسير السلوك الموروث ، وفى التاثير النفسى .

يرى تشومسكى أن دراسة اللغة لا تكتمل إلا بالتعمق فى دراسة بناء وتكوين اللغات الإنسانية المختلفة إذ إن كل لغة تتحدد وتتميز شخصيتها بمقدار وأسلوب بنائها . وهو يقيم نظرية لغوية جديدة من خلال المعرفة اللغوية عند المتكلم أو المتحدث ، تلك المعرفة المستقرة فى عقله ، وفى عقل المستمع ، ومدى الترابط والتوافق أو التخالف والتنافر بينهما ، وليس فقط من خلال المراجع والمعاجم والكتب . ومن هنا تكون العلوم اللغوية فرعا من علم النفس الإدراكى . =

ـ والمناقشة أيضا ـ من بين حصاد الفكر العالمى ـ شرقا وغربا ـ فى خواتيم القرن العشرين .

قد يلفت النظر ـ والكتاب كما يقال يُقرأ من عنوانه ـ اختياره لكلمة «الحرب» وصفا للإنسانية الجديدة القادمة . فلماذا هى محارِبة ، أو تميل إلى الحرب ؟ وما دور المثقفين أو صلتهم بذلك ؟ يقول : إنه استعار هذا اللفظ من المفكر الألمانى : « أُلْرِيش بِك ـ Ulrich Beck » ، وقد رآه ـ تشومسكى ـ لفظامُخيفا وفى الوقت ذاته يلخِّص « الأيدلوجية (٢) » السائدة الآن فى العالم . فما هى ؟ يجيب :

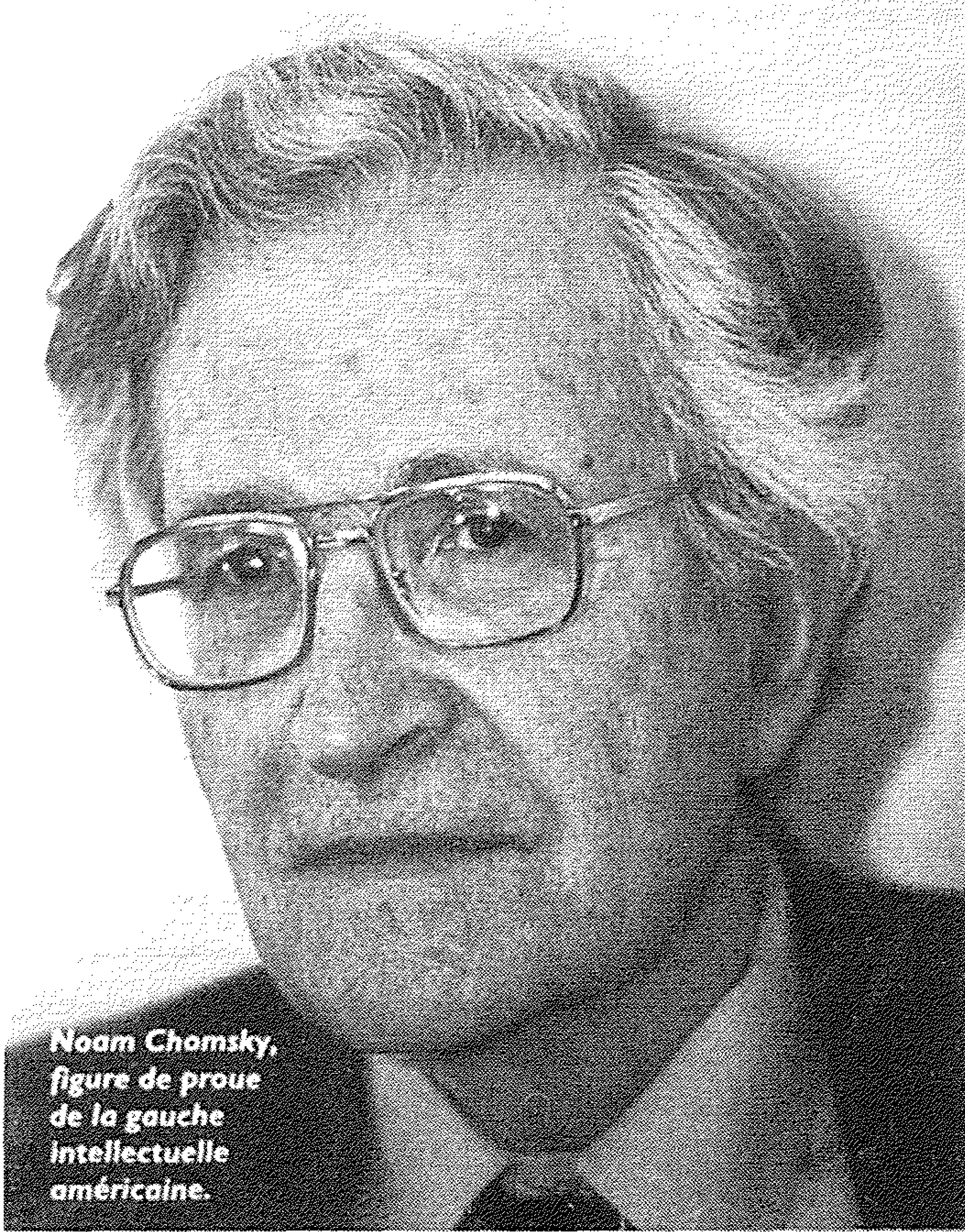
« إنها أيدلوجية سوف تقودنا إلى مرحلة غير مسبوقة ولا نظير لها فى التاريخ . إنها مرحلة سيكون من أبرز معالمها أن القُوَى الكبرى وقادتها (أو زعماءها) سيصبحون لأول مرة خاضعين جميعا للمبادئ الإنسانية : إنه عصر جديد عظيم مدهش ، تسود فيه القِيم الجميلة ، بما فيها ـ أخيرا ـ القوة الحربية . ولقد أسهم المثقفون بلا أدنى شك ، وبنصيب لا يُنكر ، فى تهيئة وإنماء هذا الاتجاه وتلك الأيدلوجية . وكانوا متعجلين وتوَّاقين إلى إطراء

= ويوجه تشومسكى اهتماما خاصا كبيرا إلى الأطفال من كل الأجناس الذين هم فى سن الرابعة أو حولها ، ويرى أنهم يملكون بالفطرة مقدرة مدهشة على تكوين جُمل وتعبيرات كثيرة جدا لم يسمعوا بها من قبل ، ويستطيعون ببراعة تلقائية إعادة ترتيب كلمات وألفاظ مألوفة متداوَلَة، فى صياغات جديدة مقبولة أو على الأقل مفهومة المعنى . إن هذه الظاهرة المنتشرة بين أطفال العالم تؤكد أنهم بطبيعتهم حائزون على نظام أو أسلوب للمعرفة اللغوية . وفى مجال آخر : يستخلص تشومسكى من دراسات مستفيضة عن أطفال فى سن واحدة ومن بيئات ثقافية متنوعة ، يستخلص أنهم يتعلمون لغاتهم الوطنية بسهولة ـ على الرغم من تفاوت الذكاء والخبرة وبدون تدريب منهجى مفروض أو موحَّد ـ ويُرجع السبب الأكبر فى ذلك إلى عامل الفطرة أو الغريزة ، وإلى عامل بيولوجى يختص به الكائن البشرى ، وبفضله يترقى لغويا .

إلى جانب دراساته المتقدمة فى اللغة والسلوك ، فإن تشومسكى يُعتبر من كبار النقاد النشطين المؤثرين ، ومن أعلام السياسيين اليساريين الأمريكيين ، وله مؤلفات كثيرة فى نقد سياسة الولايات المتحدة الداخلية والخارجية ، ومنها كتابه : « ديموقراطية معوقة Deterring- Democracy » ـ١٩٩٢ .

(٢) عند استخدام هذا المصطلح فى البداية « Ideology » سنة ١٨١٣ ، كان يُقصد به « علم الأفكار » بوجه عام ، من حيث عناصرها وعلاقاتها . ثم اتسع نطاق استخدام الكلمة ليشمل عدة دلالات ، ومن أهمها وأكثرها شيوعا فى مجال الفلسفة المعاصرة والعلوم السياسية ، فهى تَعنى : مجموعة المعتقدات والقيم التى يعتنقها فرد أو مجموعة من الأفراد ويمثل تأثيراتها أبعد من مجرد كونها أفكارا أو مذاهب ونظريات ؛ مثلا : الأيديولوجية البورجوازية ، الأيديولوجية القومية ، الأيدلوجية الماركسية ، الأيدلوجية الجنسية . . .

Noam Chomsky



نُوام تشومْسكى

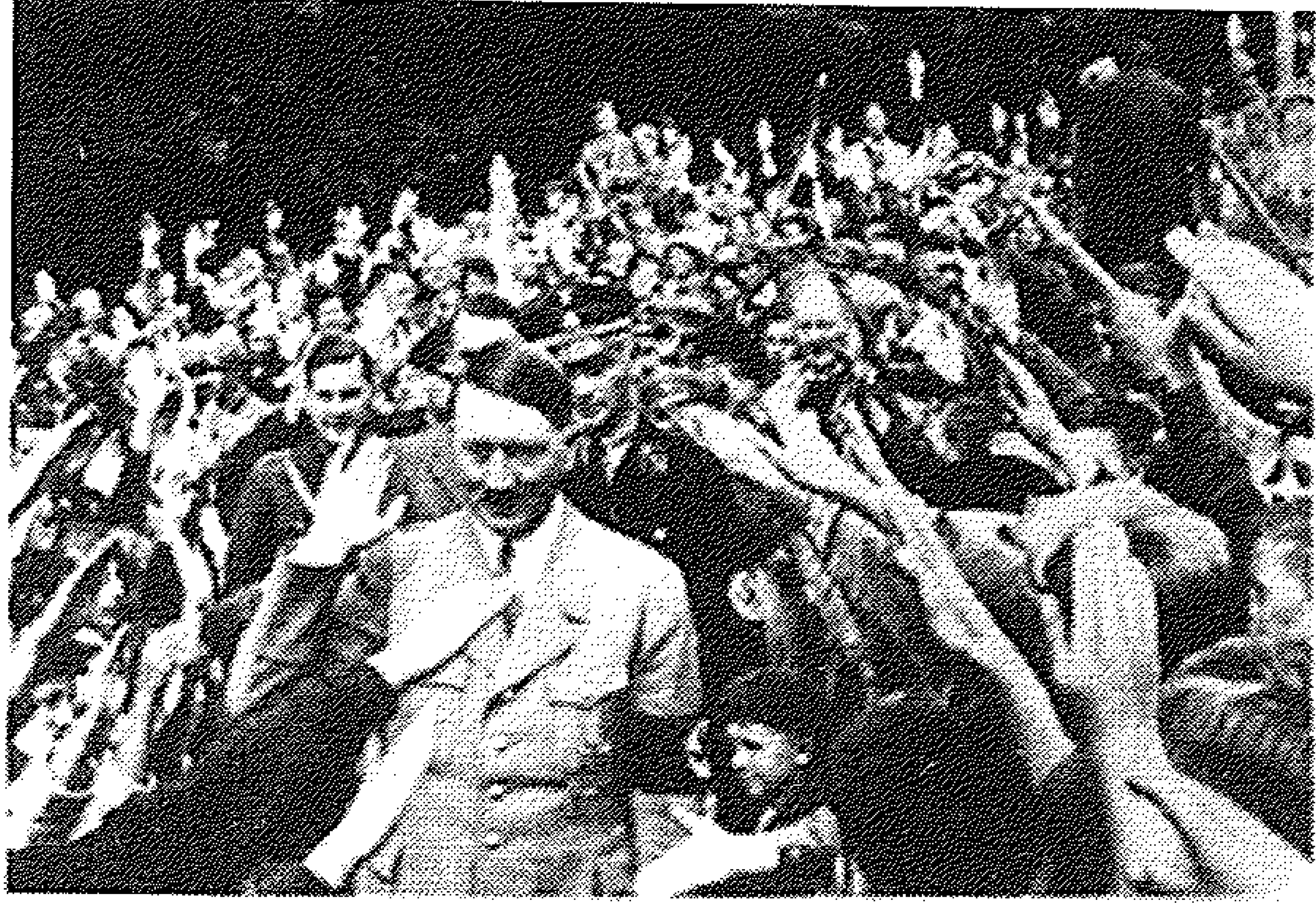
تَدَخُّلهم ومشاركتهم فى دفع هذا الاتجاه وتدعيمه . ولَكَم تَرَنَّموا وأفاضوا فى مديح « الدول المستنيرة » ، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا اللتين استخدمتا بحرية مطلقة مبدأ القوة ، بدون اعتبار « لمبادئ القانون الدولى الرادعة المحدَّدة » ، بادعاء أن « المفاهيم الحديثة للعدالة » تبيح لهم ذلك ، وهى مفاهيم وضعوها أو انتحلوها هم أنفسهم . وإنى لا أراها سوى شكل مستَحدث لَفرْض الإرادة ، لا جديد فيه غير الاسم »(*) .

(*) يلاحظ أن تشومسكى قال هذا مع إشراقة فجر سنة ٢٠٠٠ .

ويدلل تشومسكى على صحة رأيه أو يفسره فى قـوله بأن « ما يُسمع منذ أواخر القـرن ، هو ذاته ـ فى مضمونه ـ ما كـان يُسمع قبل مائـة سنة عندما أرادت أوروبا أن تتوسع بالاستعمار . والأقرب إلينا ما كان يردده هتلر عند غـزوه لتشيكوسلوفاكيـا فى صُحبة مقـالات وخُطب عَصْماء تزعم أنه يجب وضْع حـد أو نهاية للصراعـات العِـرْقيـة . ومن العسير حقـا أن يجد المرء نمـوذجـا للعـدوان أو العُنـف العسكرى غير مصحـوب بخُطَب وادعـاءات وأحـاديث عن أنْبل القيم وأفضل المبـادئ الإنسـانيـة ». ثم يُضيف عن دور المثقفين الغـربيين فى هذا الشأن : « إن المثقفين عـادة لديهم اشتهـاء وشَغف شديد فَجٌّ بممارسـة السلطة . بالأمس ، أَطْنبوا فى الثناء على الحرب العـالمية الأولى عندما نشَبَتْ ؛ واليوم يفعلون الشيء نفسه عن الحرب فى كوزوفو».

إن المعتديـن المغتَّصِبين الدمويين لا يَعْدَمـون أبدا زَعْما بَرَّاقا – ولـو كان باطلا – لتبرير عـدوانهم وجـرائمهم وتعصبهم . يقـول تشـومسكى : « إن القُوَى العالميـة الكبرى المستنيرة تتدخل بروح نبيلة ، لا تثير الشكوك حولها فى البـداية ، وكأنها تشق طريقـا لإنسـانيـة جـديدة وعصر زاهر بالعـدالة . وتكفى نظرة متأنيـة فـاحصـة إلى الأسلوب الذى اتَّبعتْـه تلك الدول الكبرى ذاتها من قَبل فى مناطق من العالم ، لاكتشـافنا حقيقة هذه المزاعم والمبررات الجليلة ، وعندئـذٍ تثير فينا السخـرية . وكثير من المثقفين الغـربيين على تلك الشـاكلة . مثلا : سـادت فترة بعد الحرب العالمية الثانيـة ، تعاظم فيها المديح لأمـريكا ، وكـان حماس المثقفين لها متـزايدا مثلما هو اليـوم ، فى حين كـان «جان بول سـارتر » مؤيدا لموسكو . وفى فرنسا وأوروبا ، كـان هناك فريق من المثقفين متهـافت على الاتحاد السـوفييتـى ، وآخـر معضِّـد للدول الاستعمارية . وعلى عكس ما يُظَن أحيـانا ، لم يكن المثقفون أبدا مستقلين فى أفكارهم ، إلا النادر من بينهم . فأولئك الذين التفُّوا حـول الحزب الشيوعى ، كانوا جميعـا منحازين مخْلصين لقـوة عظمى خارجية . والـذين يقابلونهم داخـل الاتحاد السوفييتى ـ الذين يسمونهم المنشقين ـ كانوا فى معظمهم


سارتر



هتلر فى قمـة شعبيتــه قبيل غزوه تشيكوسلوفاكيا



كما أشــار « تشــومسكـى » ، فإن آثار الادعاءات والمزاعم التى تسبق العدوان العسكرى للقوى الكبرى تجسدها عندنا الاعتـداءات الصهيـونيـة على الشعب الفلسطينى ..





.. وعلى القطاعات الفقيرة فى دول كثيرة بالعالم ، وهذا مثـال فى الصـورة العليـا من نيجيريـا ـ وهى دولة بترولية – حيث يبحث الأطفال فى القمامة سنة ١٩٩٥ عن شىء يـؤكل ، ومثلهم – إلى اليســار – أطفـال فى البرازيل وهى أيضا بترولية كثيرة الخيرات .

يميلون بشدة إلى أمريكا ، أى : كانوا إذن مثل الشيوعيين الغربيين وإنما بالعكس . فهؤلاء كانوا يمجدون قوة البطش السوفييتية ومعاركها ، وأولئك قوات الردع الغربية وساحات قتالها .

« وأعجب من ذلك وأوضح : فى نوفمبر ١٩٨٩ ارتكب الجيش السلفادورى مذابح كبيرة بشعة فى السلفادور بإيعاز مباشر من الولايات المتحدة الأمريكية ، راح ضحيتها عدد هائل من المواطنين من بينهم ستة من كبار المفكرين المثقفين فى أمريكا اللاتينية بأجمعها يضاهى كل واحد منهم «فاكلاف هافل »[٣] . بعد وقوع تلك المجزرة بقليل ، زار « هافل » رسميا الولايات المتحدة وألقى كلمة أمام الكونجرس الأمريكى (البرلمان) أعلن فيها أن الولايات المتحدة هى المدافع الحقيقى الوحيد فى العالم عن الحرية وعن حقوق الإنسان ! هذا مجردمثال ، لكنه مثال نموذجى . وقد ذهب إلى حد القول بأنه لا يوجد - فى عصرنا - فكر ثقافى مستقل تماما ، باستثناء آحاد من أفراد قلائل ، على شاكلة « برتراندرَسِلْ »[٤] .


برتراند رَسِل

« إن أصحاب الشخصيات الشريفة المستقلة بحق ، دائما ما يُغَضُّ من شأنهم ، إن لم يُحَقَّروا أو يُصَغَّروا وتُشَوَّه مآثرهم ، مثلما قالوا عن « رَسِل » إنه كان مأجورا من موسكو . لقد كانت « حقوق الإنسان » قضية تشغله حقا، وكان صادقا فى دعوة السلطات التنفيذية إلى الالتزام بها . . .

« وكما زعم هتلر فى غزوه تشيكوسلوفاكيا باسم حقوق الانسان ، فعلتْ

---

(٣) Václav Havel أديب وكاتب مسرحى تشيكى ، وأشهر المعارضين لنظم الحكم الشمولية الديكتاتورية التى كانت قائمة فى بلده وفى دول الكتلة الشرقية السابقة التى كانت فى فلك الاتحاد السوفييتى ، ولذلك اعتقل وسُجن كثيرا . وفى نوفمبر ١٩٨٩ خرجت مظاهرات طلابية فى العاصمة براج انضم إليها آلاف من العمال والمواطنين ، واهتز النظام الشيوعى الحاكم ، وتولى فاكلاف هافل قيادة مجموعة من المفكرين والمثقفين والمنشقين السابقين ضمت إليها الزعيم الوطنى المنبوذ من الشيوعيين من قبل «الكسندردُوبْشك » ، فكانت ثورة شعبية أطاحت بنظام الحكم القاهر بعد مصادمات مع قوات الشرطة المسلحة . وانتخب«هافل» رئيسا لجمهورية جديدة على الفور . وفى سنة ١٩٩٢ انقسمت الدولة إلى جمهوريتين : التشيك / وسلوفاكيا . واستعذب هافل السلطة والرياسة .

(٤) B. Russell : فيلسوف ، اجتماعى ، وعالم رياضيات بريطانى (١٨٧٢ - ١٩٧٠) وأحد كبار المفكرين ورواد علم المنطق الحديث .



١٩٦٨

● القوات الأمريكية تغزو فيتنام فتدمر وتقتل عشرات الآلاف ..

● والقوات السوفييتية تغزو براج (التشيك) والطلاب يواجهون طلائعها بالسخط .



دول الاستعمار الشىء نفسه بادعاء حماية حقوق الإنسان ونشر التقدم . وكان غزو موسولينى واستعماره إثيوبيا (الحبشة) بالإعلان رسمياعن تحرير العبيد . وظننتُ أنا قديما أنه حَرَّرهم حقا مثلما حرر البيض الأفارقة السود بذهابهم إلى هناك للقضاء على تجارة الرقيق ؛ ثم ظهر أن استعمارهم كان أشد فتكا وأشد تنكيلا . إن الدعاية الضخمة المُغْرقة فى الكذب لاتخلو حينا من بعض الصدق . وإن شعار « حقوق الإنسان » استُخدم فى الماضى بكثير من الدهاء والنفاق على غرار ما يحدث اليوم » .

وفى ضوء هذه الدوافع والميول والمطامع ، هل ما زال للمثقفين دَوْر مرموق يؤدَّى ورسالة مبشِّرة تُبَثُّ وتُنشر ؟ يقول :

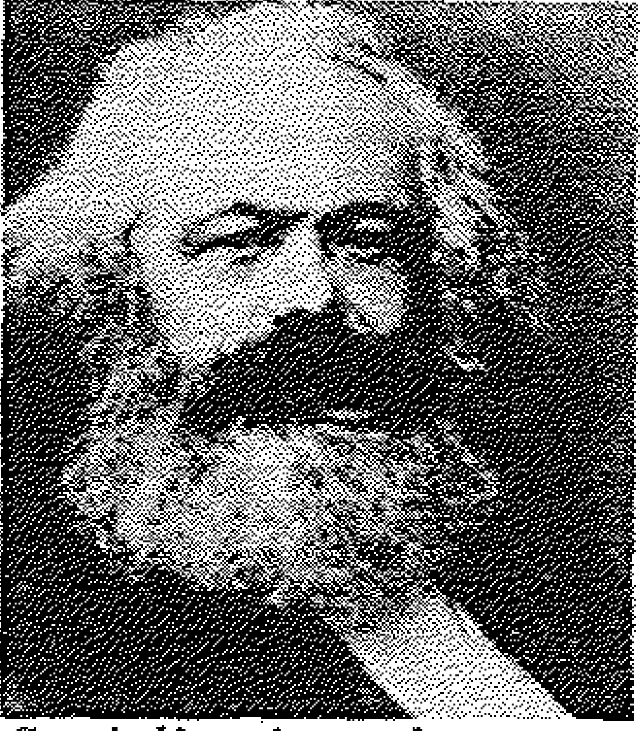
« الغالب السائد فى عالم اليوم نوعان أو مستَوَيان من المثقفين : أولئك الذين يميلون كل الميْل نحو الاقتراب من السلطة ؛ وأولئك الذين يضعون فى أولويات اهتماماتهم بعض القيم مثل : الخير ، والعدالة ، والحرية ، والحق ، واحترام الآخرين . . إلخ . وتوضح النظرة العالمية ، أن الفريق الأول من هؤلاء المثقفين فى الاتحاد السوفييتى مثلا ، كانوا فى معظمهم إما مفوَّضين سياسيين بالحزب الشيوعى ، وإما شاغلى مناصب ومستشارين بالمراكز العليا للسلطة؛[٦] والفريق الثانى من المثقفين كان يمثِّل المعارضة . وبعد انهيار الاتحاد السوفييتى وكتلته الشرقية ، أخذ هذا التميُّز فى الاستقطاب صورة عكسية : أصبح أعضاء الفريق الأول (الذين يميلون فى اشتهاءٍ إلى القيم الإنسانية النبيلة) صاروا أشرارا سيئين . فهؤلاء المجترِئون على معارضةجبروت وفتْك القُوَى الكبرى بادعائها المحافظة على القانون وحماية حقوق الإنسان واحترام حقوق الآخَرين ، أولئك هم المضْجِرون المهدِّدون للاستقرار والأمن ؛ فى حين أن أولئك الذين يكيلون المديح ويتغنَّون بتمجيد كل الفِعال ، أولئك هم المقَربون ، المدلَّلون ، الموعودن . . .

(٦) المفوَّض (بفتح الواو المشددة) أو « القوميسِر ـ commissar » لفظ ظهر لأول مرة سنة ١٩١٨ فى روسيا للدلالة على شخص (ذكر أو أنثى) مسئول فى الحزب الشيوعى يتولى مهمة «تثقيف » أو نشر المبادئ الحزبية فى وحدة عسكرية ومراقبة صدق الولاء للحزب وقياداته . أو يَعْهد إليه الحزب بالتاثير على الرأى العام واستمالته نحو سياسات الحزب وإقناعه بها . أما شاغلو المناصب بالمراكز العليا من المثقفين والأدباء والكتاب فكان يُطلق عليهم لفظ « apparatchiks » الذى استخدم لأول مرة سنة ١٩٤١ فى الاتحاد السوفييتى .



الدوتشى : موسولينى يخطب مزهُوا فى كبرياء القيصر الرومانى ..
ثم كانت نهايته الإعدام شبه عارٍ رميا بالرصاص !

« ولربما كانت الإنسانية الجديدة الحربية أو المحارِبة ، شكلا لنظام عالمى قادم . ولكن فى الحقيقة لا جديد فى الأمر . لقد تحدَّث كارل ماركس منذ مائة وخمسين سنة عن العالمية (أو بالعامية : العَوْلمة) فى بيانه عن الحزب الشيوعى . والشىء الجديد الذى حدث اليوم ، هو أن العالم أصبح أُحادىَّ القُطب . لقد كان من المحال أن تَنْشب حرب الخليج بالشرق الأوسط أو حرب كوزوفو فى أوروبا منذ خمس عشرة سنة مضت . ولكن حدث ما هو أخطر : أن دول العالم لم تَعُد قادرة على الترابط فى تشكيل أو نظام . لم يَعُد متسع لمكان فى عالم ذى قطب واحد لكى تشْغله دول عدم الانحياز . وأحوال معظم دول الأرض تزداد فى كل يوم بسبب ذلك صعوبة مأساوية . وقلَّما يُذْكر هذا أو يُكتب عنه ؛ وحتى المساعدات الدولية أيضا تلاشت أو كادت .

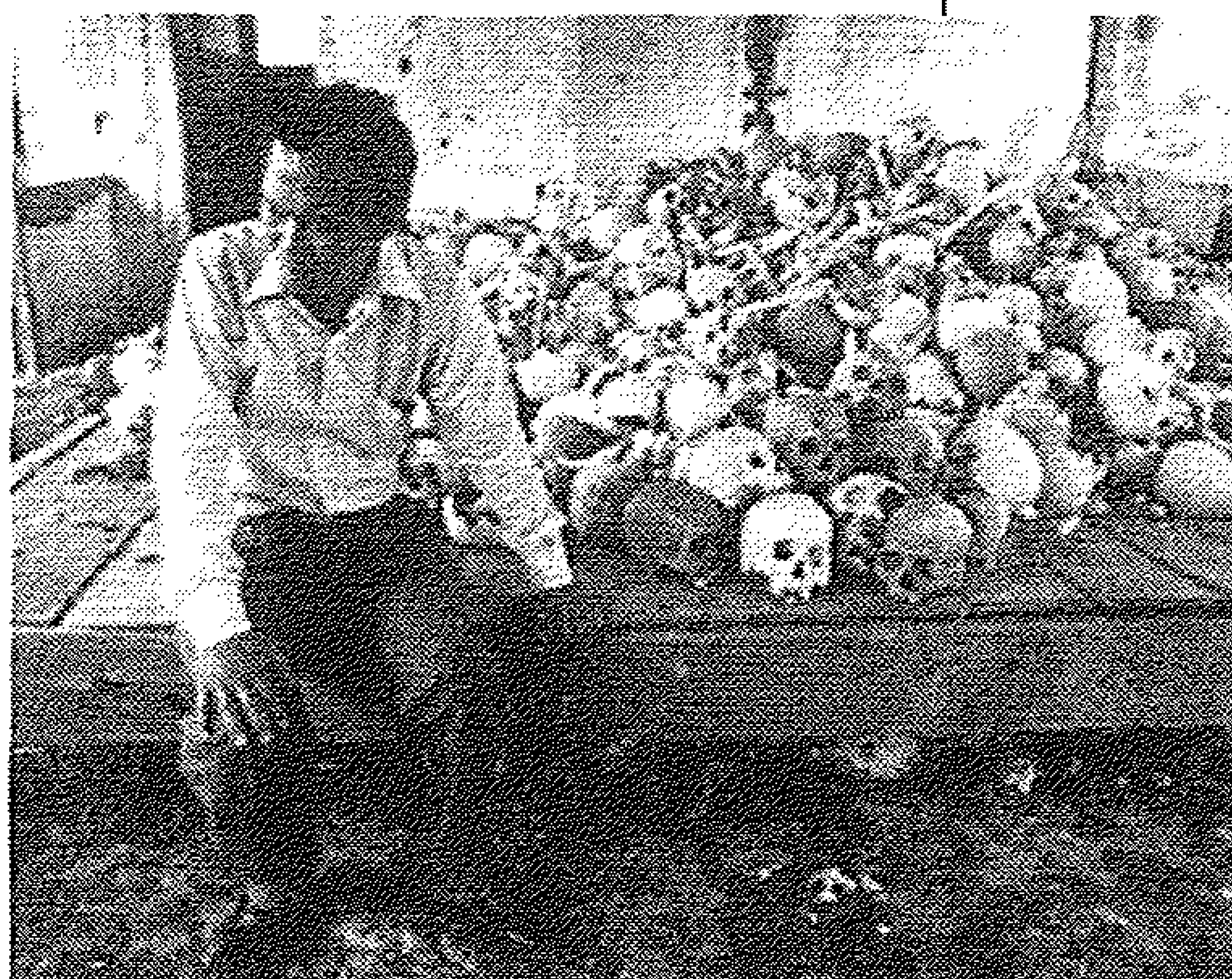

Socialism's archetype, KarlMarx

كارل ماركس

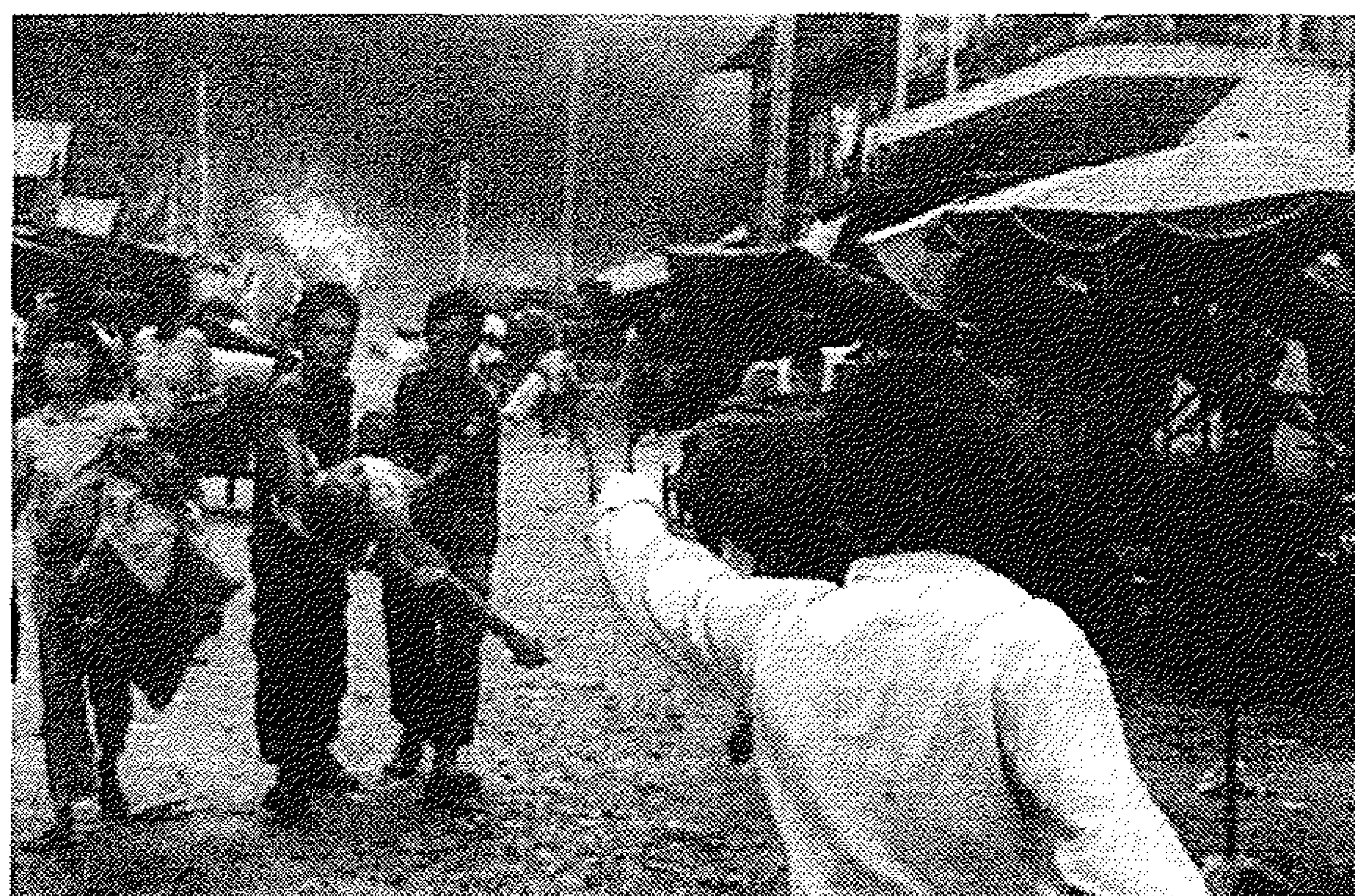
« وعلى الرغم من أن تلك المساعدات كثيرا ما كان يُساء استخدامها ، إلا أنها كانت ضرورية . إن العالم يغوص فى كل يوم أكثر وأكثر نحو قاع محيط من البؤس والفقر لا يَرْحم ، ولسوف يستدير حتْما نحونا (نحو الدول الصناعية الثرية فى أوروبا وأمريكا) . منذ بضعة أشهر ، عُقد مؤتمر سُمِّى من باب السخرية : « ٧٧ ك ـ G77 » الدول الـ ٧٧ الكبار (وهى دول فقيرة من العالم الثالث) مقابل تَجَمع أو « نادى السبع الكبار ـ G7 » الذى يضم أغنى سبع دول صناعية مالية إنتاجية فى العالم . اجتمع فى هذا المؤتمر رؤساء نحو ٨٠٪ من سكان المعمورة . فكانت وثيقة هذا المؤتمر الختامية تحديا لإرادة الدول الكبرى الصناعية الثرية ، وتُدين بقوة التدخُّل العسكرى « الإنسانى » لتلك الدول الكبرى التى تزهو به وتُفاخر . إن غالبية دول العالم ترى فى هذا التدخل « الإنسانى » سلاحا موجَّها ضدها هى . ولقد وقَّعت على تلك الوثيقة الختامية للمؤتمر دول مثل مصر والهند وإسرائيل ، وهى وثيقة تنذر بالانفجار والدمار . فماذا كان رد الفعل عند المثقفين الغربيين الذين يزعمون أنهم يحسنون الإصغاء إلى أحاديث الآخَرين ؟ ما بَرِحوا يرددون المدائح والإطراء لأيدلوجية (أيدلوجيتهم) يعتبرها معظم سكان العالم عدائية ، خطرة ، فاسدة مُفْسِدة . ولذا فإن ارتياب تلك الغالبية السكانية من الشعوب فى نظام « العالمية » – أو : العولمة – ليس بسبب الجهل به كما يريد



« إن العالم يغـوص فى كل يوم أكثر نحـو قاع محيط من البؤس والقهر وفقر لا يرحم ... » - تشومسكى .



كمبوديا



فيتنام

أن يحملنا البعض على اعتقاد ذلك ، وما هو بصحيح ؛ لأن هذه الشعوب تعلم يقينا أن الهدف الأعظم لذاك النظام هو إحكام السيادة والسيطرة على العالم، عن طريق الشركات والمؤسسات المتعددة الجنسيات » .

ثم يضيف « نُوام تشومْسكى » قوله : « إننى بصراحة لا أدرى ما هو الأفضل بحق بالنسبة لأمريكا ، والأفضل بالنسبة لبقية دول العالم . إنه قلق يشاركنى فيه محللون أمريكيون على مستوى رفيع ، ومن بينهم أصدقاء قد يختلفون عنى فى الفكر السياسى والاختيارات الأدبية والمنهجية . إنه لأمر يدعو إلى النظر وتوقُّع الخَطَر ، أنَّ غالبية دول العالم تعتقد أن الولايات المتحدة الأمريكية ليست فقط تهديدا مفزعا لمجتمعات وشعوب وثقافات تلك الدول ، وإنما هى أيضا : أعظم دولة للأوغاد على سطح الكرة الأرضية . وما لم تنتبه المؤسسة الأمريكية جيدًا إلى هذا القلق الساخط المتزايد ضدها فى كل أرجاء الدنيا ، فإن تدخُّلها المستمر فى شئون العالم سوف يجعلها عاجلاً العدو العالمى رقم : واحدا! » .



تشومسكى

● وهْم سنة « ٢٠٠٠ »

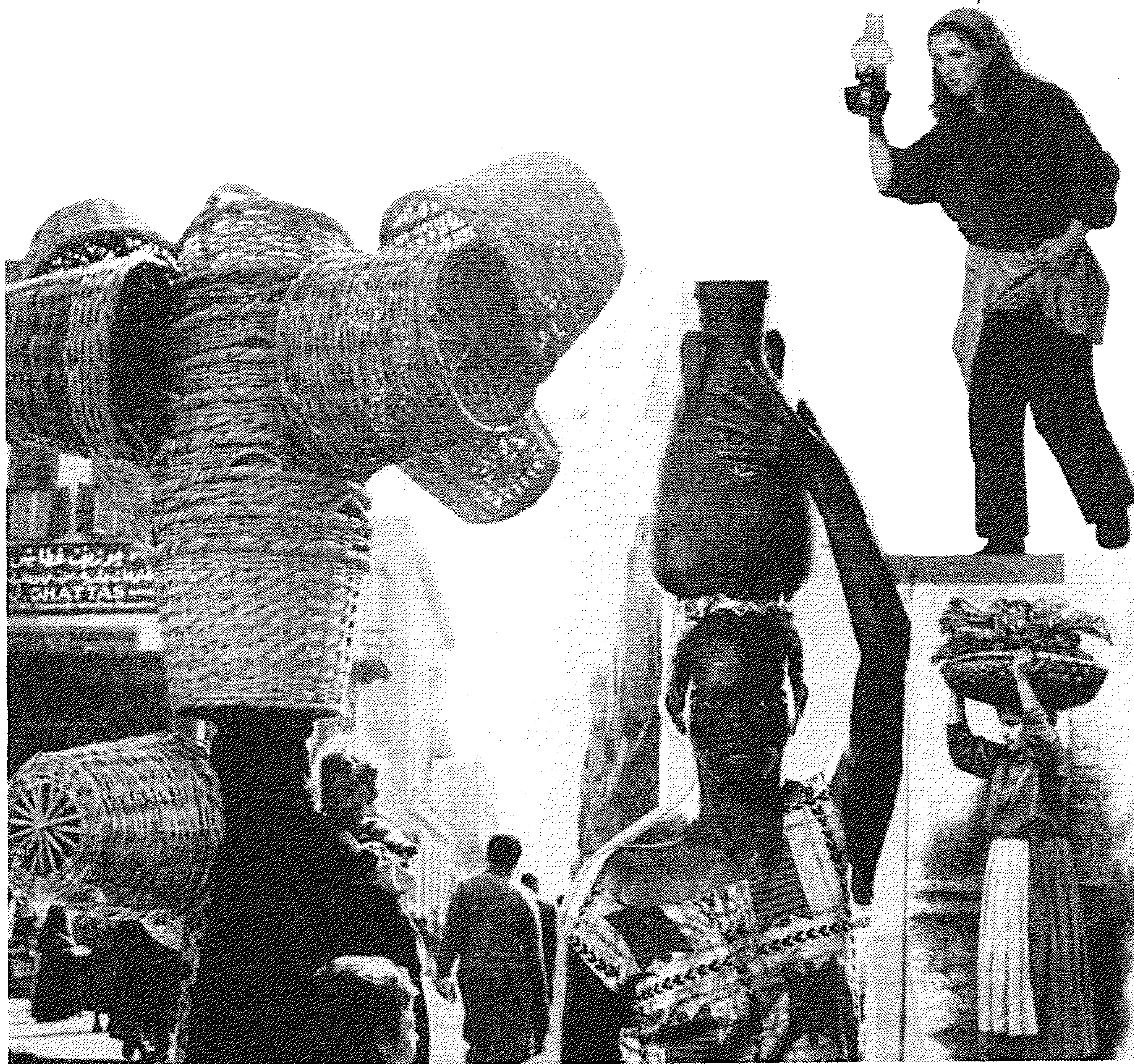
بهذا العنوان ، صَدَر فى فرنسا قرب نهاية القرن العشرين كتاب أدبى علمىّ نقدى للكاتب الروائى « جان - كلود بارو » (٧) . وهو كتاب قيم يحمل أفكارا جادة نقدية ومنطقية ، جديرة بالمطالعة والمناقشة والتقدير . فى الباب الثامن من الكتاب وعنوانه : « التحديث لم يغيِّر قلب الإنسان » كتب يقول :

على العكس مما يتخيله المبشرون بالألفية الثالثة الجديدة ، فإن المدنيَّة الحديثة لم تُغَيِّر ، ولن تستطيع أن تغيِّر قلب أحد من البَشَر . « الإنسانية » وحدها هى التى تستطيع . والمقصد من « الإنسانية » هاهنا : هو تحرر المرء

(٧) Jean- Claude Barreau : أصدر بين سنتى ١٩٦٢ و ١٩٩٩ أكثر من عشرين كتابا حاز بعضها على جوائز قيمة ، إضافة إلى مجموعة من الروايات والقصص التى تحول بعضها إلى أفلام سينيمائية وتمثيليات تليفزيونية . من كتبه الفائزة : « إيمان وثنى» ، « أين الشر » ، «أفضل استخدام للدين » ، «الإيمان يَبْقَى » ، « عن الإسلام والعصر الحديث » ، « هل ستختفى فرنسا؟»، « الحكومة الصالحة » . .

من إسار العوامل الوراثية . إن الإنسان هو الكائن الوحيد على هذه الأرض الذى لا يخضع خضوعا كاملاً لنطاق النظام الجينى المبثوث فى خلاياه . وانتزاع الإنسان من ضغوط هذا النظام ، يدفعه إلى ابتكار صيغة لحياته الاجتماعية والتنظيمية ، التى هى مُبرمجة تماما لَدى الكائنات الحية الأخرى. فيبتكر الإنسان نُظُما مُصْطَنعة تُسمى « ثقافة » أو «حضارة » . . .

وفى الإنسان شىء خاص به لايوجد عند غيره من الكائنات على سطح الأرض ، وهو : « الضمير » وعادة ما يقصد به و يُعَبَّر عنه « بالقلب » . ولا يختلط الذكاء بالضمير ، وإن أخطأ التصورُ الحديث فى إدراك ذلك ، مثلما تخيل أن الآلة ، أو الحاسب الإلكترونى (الكومبيوتر) يمكن أن يحل محل

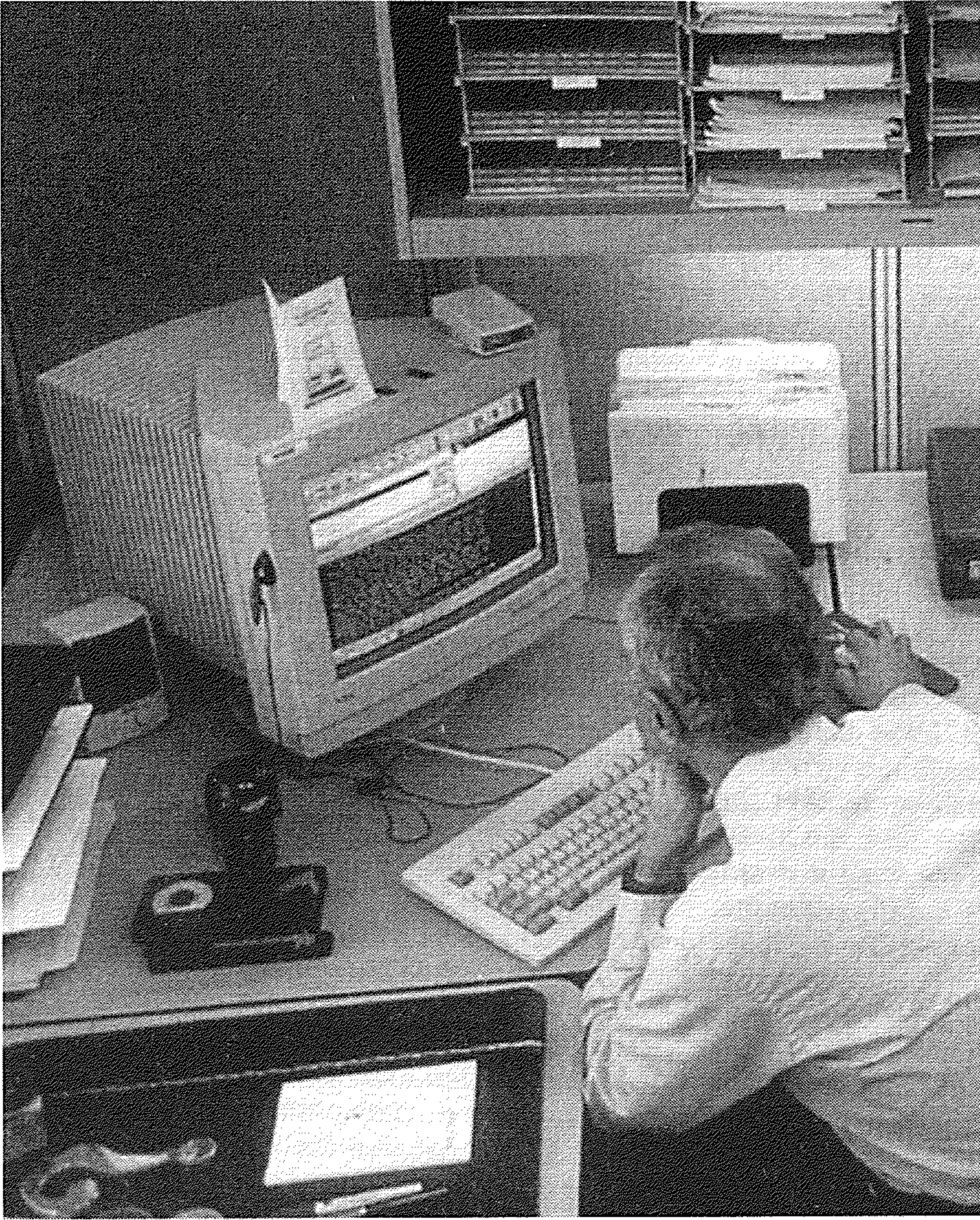


إن المدنية الحديثة لم تغير قلب أحد من البشر . « الإنسانية» وحدها تستطيع .

الإنسان . هذا وهْم غـامض . مهما تطورت الآلة أو تعقدت ، فإنها لن تصبح مطلقا « إنسانيـة » . فى فيلمه المشهور « أوديسا الفضـاء ـ ٢٠٠١ » للمخرج الأمـريكى « كوبريك » ، يُرَى الكومبيـوتر وقد أصبح مُـدْرِكا ، فيتمـرد على المهندسين والفنيين الذين يخططون لتقطيع أوصاله وفصل التيار الكهربائى عنه . إنها قصـة أو حكاية فلسفيـة جيدة صيغَتْ فى فيلم ممتـاز ، لكنهـا من صُنع الخيال . إننى على يقين من أن الكومبيوتر الأكثرذكاء ، والأكثر تعقيدا ، لن يصير مطلقا واعيـا ذا ضمير . سيظل أبدا آلة ، و « ثورة الآلات » لا وجود لها، ولن تكون . إن « الإنسـان » يختبر « قلبـه » مـن داخله هو . تلك حقيقـة جليَّة يستحيل على أى نظرية علمية – عصبيـة ، أو هورمونية ، أو بنائية ، أو مـاركسيـة ، أو فـرويْدية . . –أن تجد لها تفسيرا كـامـلا ، وإن تعـددت الافتراضات وتنوعت . وليس عسيرا على «الإنسان » أن يتعرف خارج نفسه على ما يدركـه أناس آخرون ، أو مـا تُضمره قلوبهم . عندمـا يضحك إنسان مثـلا ، فإن وجهـه – المستغلق عادة – يُفصح عما فى قلبـه . فيصبح الوجـه مُشِفا نفاذا بعد أن كان حاجزا مـانعا . ولكن ما قيمة الوجه إذا لم يكن سوى تكوين من أجـزاء آليـة (ميكانـو) تترابط وتتفكك ؟ يجيب على هذا السـؤال شعرا « كـورْنليوس كاستروياديس» بقوله : « إن كـلاً منا بئر بلا قاع، وهو بكل تأكيدمنفتح على اللاقاع العالمى ».

وتحطيم العقل البشرى يمحـو الإدراك والضمير ، وهو الموت ذاته . . إن قلب الإنسان ، وضميره ، لم يتغيَّرا منذ فَجـر الإنسانيـة . وإن إنسان العصر الحديث لشبيه تماما بإنسان عصر الكهوف . . .

استطاع إنسـان العصر الحديث أن يضاعـف قُوَّته ، وسرعتـه فى التنقل ، ومعارفه ، ومقدرته على الحساب ، كل ذلك بشكل مُبهر مدهش ، لكن « قلبه » ظل كما هو . إنه دائما يخاف الموت ، توَّاق إلى الحُب ، لا يكُف عن بناء وإعـادة بناء وتصحيح النُّظم وتـرتيبـات ضروريات المعيشـة . ومـن هنا ، لن تكون للتاريخ نهاية ، لأن « التاريخ » يمكن تفسيره بأنه قصـة العلاقات المأساوية



مَهْما تطــورت الآلـــة والحاسبات الإلكترونية، فلـن تصبح مطلقـــا إنسانية .

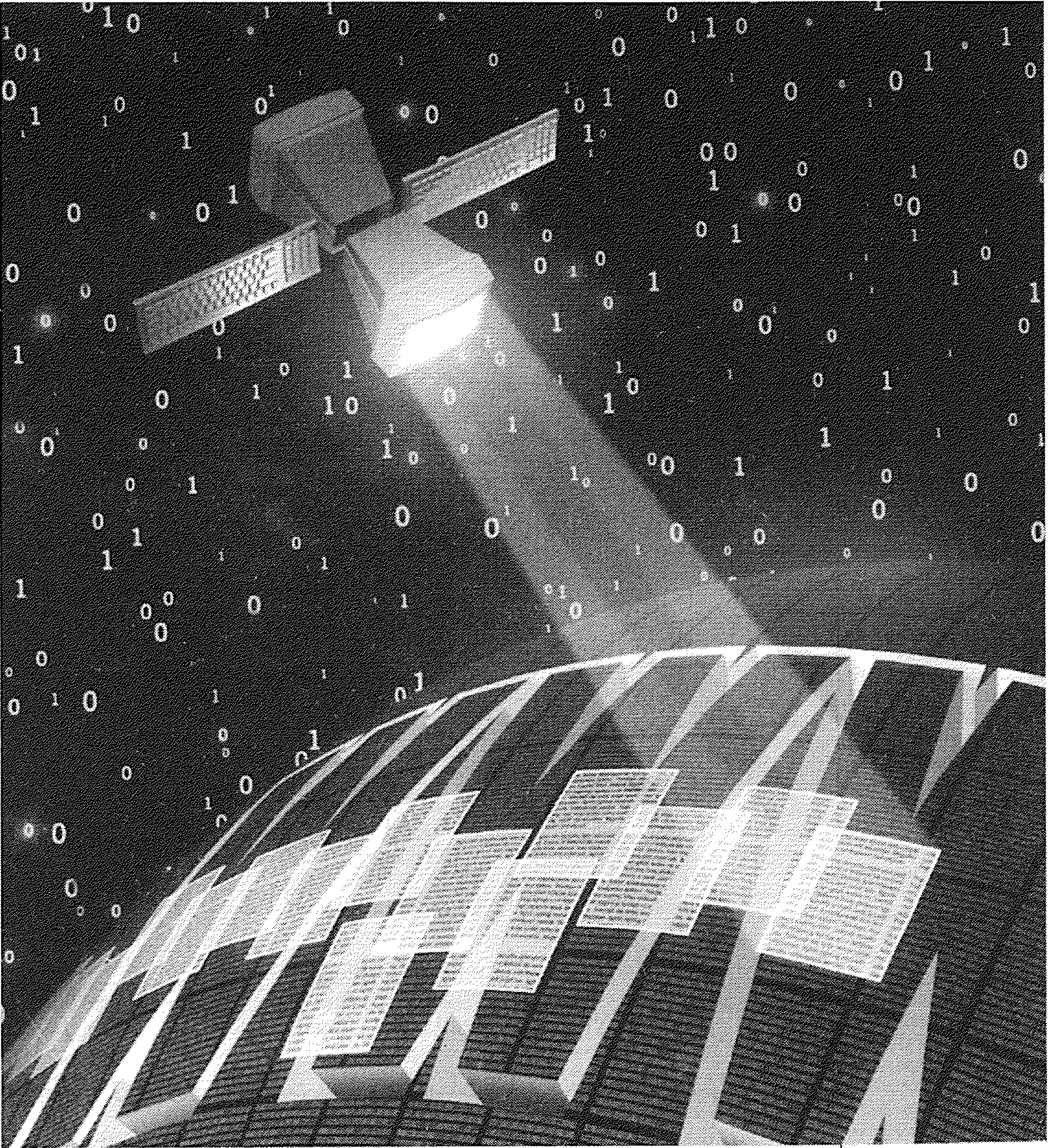
والقـوية بين الكائنـات المدْرِكـة ذوات الضمائـر . ولذا ، ليس يوجـد تاريخ حيوانى . وستبقَى القرون التالية عصورا تاريخية ، سيُمارِس فيها الإنسان السياســة والآداب والفنون على نحو قـريب مما كانت تُمارَس بـه فى عصور قياصرة الرومان وحُكم أباطرة وملوك القرون الغابرة . . .

● والإنترنت . .

أتاحت أجهزة « الإنترنت » (شبكة المعلومات الدوليـة أو العالمية المترابطة ـ Internet) مجالا واسعـا بغير حدود لتقـديم المعرفـة والمعلومات بوفـرة

هائلة، بجميع فـروعهـا وتخصصاتها . وكل مصـدر للمعلومـات يخصص لنفســه مَـدْخَـلا بشفـرة أو رمـز معيَّن يسمى « web » . إنه لشئ رائع مدهش حقـا أن تتيسر للإنسان القدرة على مطالعة أو مـراجعة أو استشارة المعلومات من مصادرها بسرعة الضوء ، وأن يُلقى نظرة وهو فى مكانه حيثما يكون فوق الأرض أو فى الفضاء أو تحت الماء ، على محتـويات كبرى المكتبات العالمية ، أو على آخر مستحدثات العلـوم والبحوث والدراسات والاكتشافات والآداب والفنون ، فى مـواقع كان من العسير ، وربما من المستحيل عليـه أن يصل إليها، وإن استطاع الوصول كان عليه أن يُنفق من وقته – أو من عُمْره – أياما وشهورا وقد تطول إلى سنـوات . لكن الاستخدامـات الجادة المكثفة للإنترنت لا تخلو مـن مشكلات ومضـايقـات : التغيير المستمـر فى البرامج المتقادمة ، والعناوين ، والأشكال ، والصِّيغ ، والوثائق ، والانتظار ، ويتطلب الاتصال ببنوك المعلومات صبرا ونقودا ، وفتْح حساب بالمصرف والحصول على بطاقة نقدية وكلمة سر للجهـاز . إضافة إلى سخافات المراهقين والحمقَى المشغـوفـة بالصـور والكلمات التى تحتاج إلى رقـابة حـازمـة ، ودعـايات المتطرفين والمتعصبين ، وأنصار حماية البيئة ، وغيرهم كثيرون . . .

يَخضع الإنترنت لنظام اقتصادى متحرر تماما ولا يُعطى أو يقدم ضمانا لمستوى المعلومات التى يحصل عليهـا المرء من خلاله . من الجائز أن نحصل منه على الأفضل . ولكن من الجائز أيضا الحصول على الأسوأ . ومن المحتمل الوصول إلى مواقع بالإنترنت تبث معلومـات خاطئة ، أو مضللة ، أو تُغالى فى التعصب السيئ والتطرف العنصرى . ولذا يصبح من الضرورى الواجب أن يكون لدى مستَخْدم الإنترنت ثقافة عامة جيدة ناضجة ، ومَلَكة نقدية نشطة تستطيع التمييـز بين الغث والسمين ، بين المعلومـات الصحيحة والمعيبـة أو الدعـائيـة أو المزيفـة . كما يجب الانتبـاه إلى أن نظامـا فَـوْريا للاتصـالات والمعلومات ليس فى ذاته نظاما للتفكير ، مثلما أن أدق وأكبر جهاز للكومبيوتر ليس فى ذاته قادرا على الإدراك وصحوة الضمير .



أتاحت الأقمار الصناعية لشبكة « الإنترنت » مجالا واسعا للاتصالات وتقديم المعرفة والمعلومات بوفرة هائلة .
كما أتاحت لدول التحكم وحُب السيطرة ولو بالحرب والقهر أداة للتشويش والتدمير والإبادة والفتْك .

بفضل الإنترنت نعرف كل شىء عن أى شىء ، فورا وفى الحال . ولكن ما لم تكن لدينا ثقافة عامة جيدة ، فإننا لن نعرف شيئا أو نتحقق من شىء . لا يكفى فى الواقع تلقِّى المعرفة والحصول على المعلومات وحَسْب . لا بد من استيعابها وتفسيرها وهضمها ، ووضْعها فى مكانها الصحيح ، وفَهْم

مقاصدها وما تَعْنيه . لقد أصبح اليوم تفسير المعلومات وفَك رموزها أكثر صعوبة مما كان بالأمس ، وهذا شيء غريب فى عصر ازدهار الإعلام والاتصالات المتطورة .

كما أن سرعة تدفق المعلومات ليس فى ذاته مدعاة إلى فَهْم أفضل واستيعاب أسرع وأعمق . ومعرفة كل شيء فى التَّوِّ واللحظة ، لا يعطِى مطلقا ضمانا بفَهْم صحيح مؤكد . وعندما تكون ثقافة المرء سطحية أو ضحلة ، فإن مهارته فى استخدام الإنترنت مهما كانت جيدة أو متفوقة ، لا تُغْنى عنه شيئا فيظل سطحيا ضَحلا تافها ، ولن تُغَيِّره إلى الأحسن كل رموز (webs) المُدْخَلات العالمية . وإذنْ فالمبالغة الدعائية عن الإنترنت تحتاج إلى تريُّث ومراجعة لإزالة وهْم سائد . وملاحظة أخرى . .

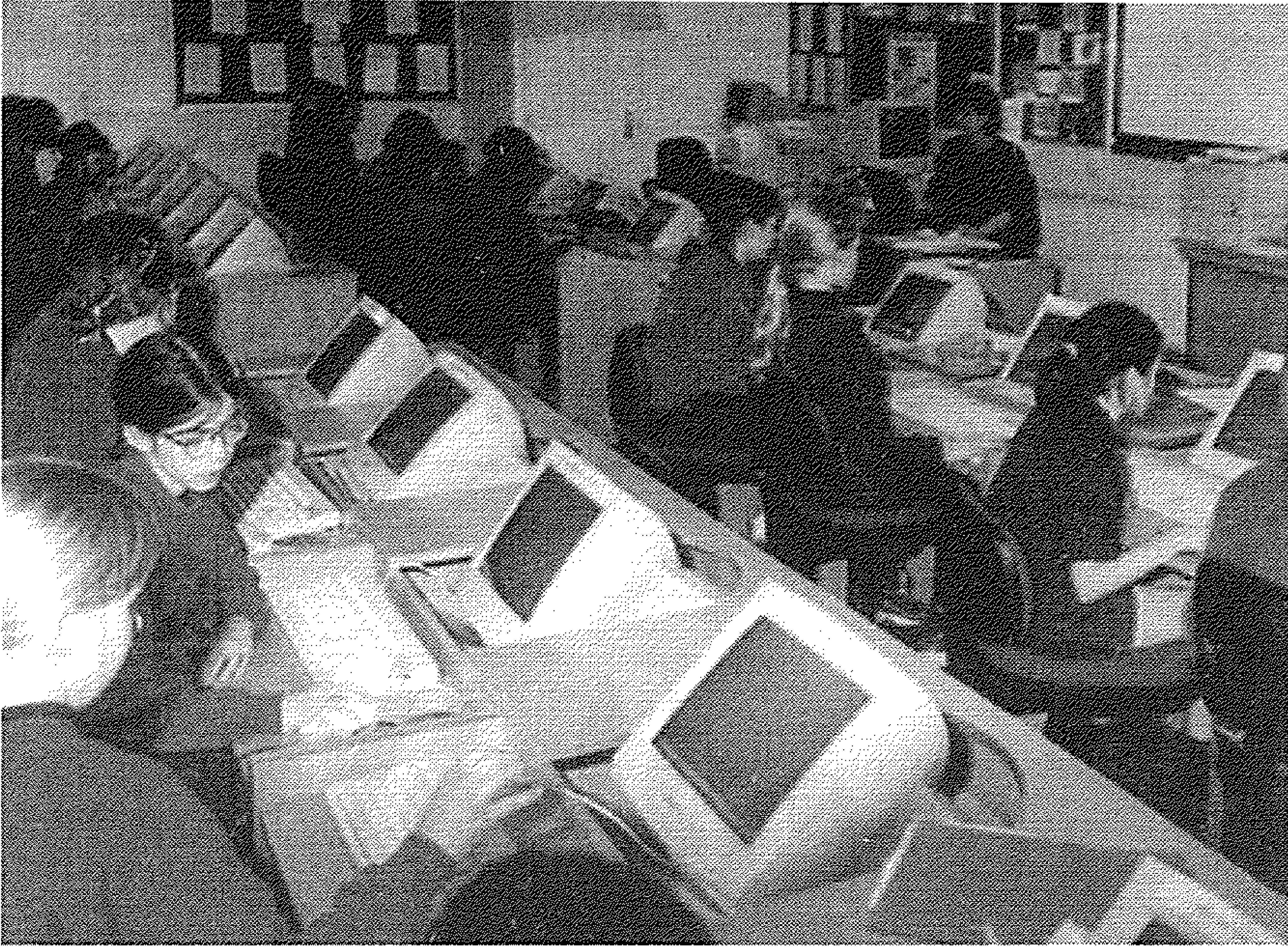
ليس « الإنترنت » هو الثورة الكبرى فى مجال الإعلام ونقل المعرفة ، وإنما الثورة العُظمى كانت فى ابتكار الكتابة ، وبدقة أكثر : كانت فى اختراع حروف الأبجدية .

إن « الكتابة » فى ذاتها علامة بارزة وحدٌّ فاصل بين « ما قبل التاريخ » و«التاريخ » . ما قبل التاريخ : هو العصور التى كان الإنسان لا يملك فيها سوى التعبير الشفوى ، ونحن لا نملك دليلا عليها سوى ما نعثر عليه من الآثار والحفريات . أما التاريخ : فهو العصور التى يتعرف فيها المعاصرون على أنفسهم من الداخل بفضل الكتابة ، ثم يدركها من يأتى بعدهم ويعرف ما كَتَبوا .

والكتابة الأبجدية كانت تحسينا رائعا للتدوين . فقد حررتْنا رموز الأبجدية من اللجوء إلى تفسير الصور المنسَّقة للأَيْديوجرام(٨) والهيروغليفية الفرعونية . وكان اختراع نظام الأبجدية فى القرن السابع قبل الميلاد لأسباب تجارية عند الفينيقيين ، فكان وسيلة مبهرة عظيمة النفع

---

(٨) Idéo gramme (بالإنجليزية ideogram أو ideograph) : صور أو رسوم تستخدم للتعبير عن شيء أو فكرة وليس عن كلمة محددة غالبا أو لفظ بذاته ، كما فى الصينية القديمة أو المصرية الفرعونية ، وهى لا تخلو من إبهام وصعوبة فى تحديد مقاصدها وقد يستحيل ذلك .



أصبح الكومبيوتر والاتصال بشبكة المعلومات الدولية من مناهج الدراسة المبكرة .



كانت الثورة الكبرى الحقيقية فى ابتكار الكتابة وحروف الأبجدية ثم الإبداع الخطى .

والقـدرة على تسجيل الأفكار والحقائق والـوقائع والأحـداث التى تجرى فى العـــالم ، بكل اللغات ، باستخدام نحو عشرين أو ثلاثين رمزا فقط . ومعظم الكتـابات اليـوم تتبع النظام الأبجــدى: اللاتينيـة ، والعـربيـة ، والعبرية ، والروسية . . . إلخ . فظلتْ الأبجدية حتى اليوم ، أعظم ابتكار ثورى إعلامى، وإلى أبعــد مَــدًى. أمــا فيما يتعلق بنقل الأفكار والمعــرفــة ، فإن اختراع «جوتنبرج» للمطبعة يأتى فى مرتبة أقل من ابتكار الإنترنت . . .

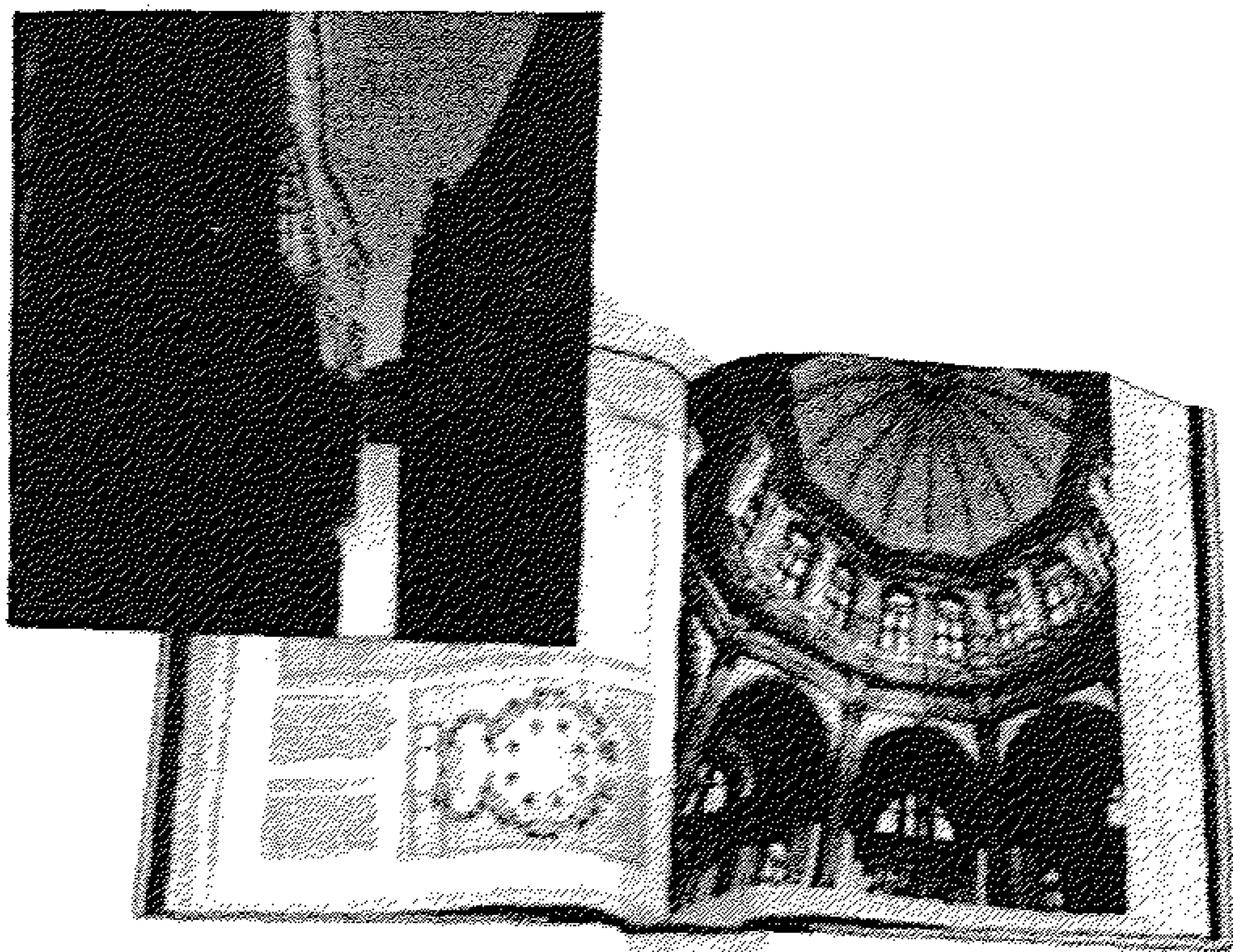

كتابة هيروغليفية

وفى تعلُّم القراءة مشقة وتدريب يحتــاج إلى صبر طويل وجهد لاستيعاب دلالات الرموز المجـرَّدة وتركيبات وصيغ التعبيرات والجُمل . وإن نظرة إلى كراسات التلاميذ الصغار توضح ذلك . ويصبح الأمر أكثر صعوبة وضجرا عند تعليم الكبـار القراءة والكتـابة وربما تَراجع بعضهم مفضلا البقـاء على الأُمية .


جوهان جوتنبرج

إن قـراءة كتاب مــا – ولو كــان فجًّا تافهــا – ينشط الذكــاء . وفى عصرنا الحاضر يبدو أن الصور المطبوعة ، والفيلميــة ، والتليفزيونية ، والإنترنتية ، تحاول أن تحتل مكان الكتاب ، ولكن مــن الصعب أن يحدث ذلك ، وإن حدث فهو نكوص وتراجع تاريخى . لأن التخلى عن الكتابة الأبجدية معناه العودة إلى الرسوم والصور الغامضة للأيْديوجرام والهيروغليفية القديمة . . .

ولو أن أطفال اليوم قضوا ساعتين أو ثلاث فى مطالعة كتب مطبوعة مثلما يقضــون من أوقــات أمام شــاشــات التليفــزيون أو الإنترنت والألعـاب الإلكترونية، عنـدئذٍ سيـزدادون ذكاء وتَفَهُّما . إن أجهـزة نقل الصور والمعلـومات لا تقدم فى واقع الأمــر ثقافــة حقيقية متطورة محسَّنة ، بقـدر مــا توفـر سرعـة هائلة فى الحســابات . ومهما قضَى المرء من ســاعـــات فى المطالعـــة وعكف على القراءة، فإنه لن يتأذى أو يُضار، لكنه قد يصير أبْلها معتوها إذا استمر قابعا أمام شاشات البث المتنوعة .


إن قراءة كتاب ما ينشط الذكاء

ولذا فإننــى (يقــول المؤلف «جـــان – كلود بارو ») أختلف تمامـــا مع المتحمسين لفكرة إدخال أطفالنا الصغـار إلى قاعات الإنترنت لمدة ساعتين فى اليـوم واستغـراقهم فى مشـاهدة مُـدْخَــلاته . إن هذا يكلف إنفـاقـا كثيرا ،

ومحصِّلتــه : إضعــاف مستــوى ذكائهم ، وحرمانهم من القدرة على النقد والتصــويب . وفى رأيى (ولا يزال الكلام للمـؤلف) أنه بسبب الشــاشــات (التليفزيونية والإنترنتيــة . . . إلخ) فإن الفرنسيين فى نهاية القرن العشرين كانوا أقل ثقافــة من أسلافهم الذين عاشوا فى القــرن التاسع عشر حيث كان المفكرون والأدباء أوفــر تقــديرا وتــوقيرا وإجــلالا . عندمــا بَلَغ «فيكتــور هوجو» ســن الثمانين ، خرج الفرنسيــون بمئات الآلاف وعلى رأسهم رئيس الدولة وأعضاء الحكومة يتجمهــرون أمام بيته تحية وتعظيما . فأى أديب أو كاتب اليوم يحظى بمثل هذا التكريم والتقدير ؟

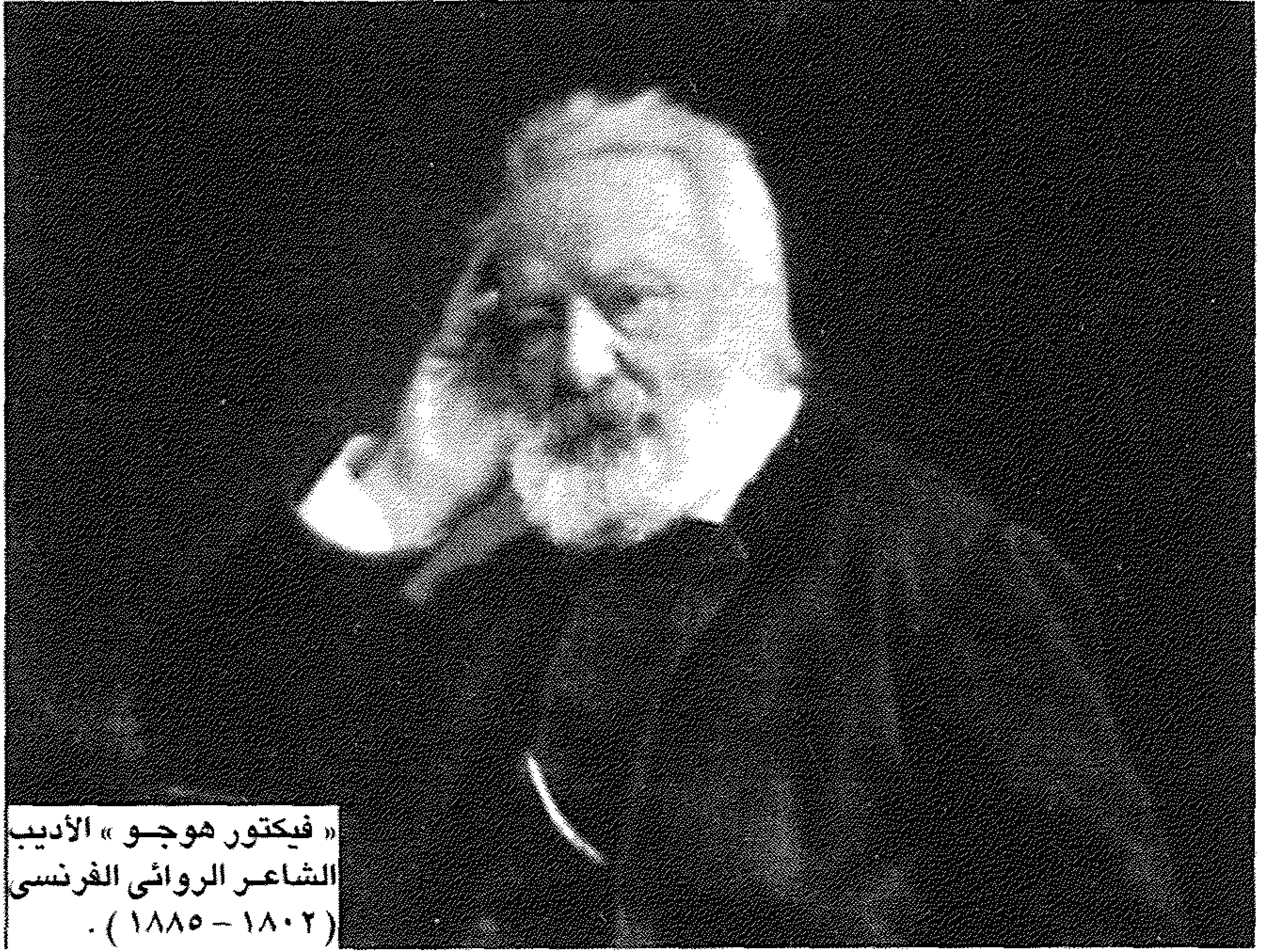
إن التراجع فى المطالعة والكتابة ـ بسبب الوقت الطويل الذى يُسْتَهلك أمام الشاشــات ـ وعلى الرغم من تضاعف مستمر لأعداد ومستــويات الدراسات والبحوث ، هذا التراجع يهدد الثقافة العالمية . ومع ذلك ، يستمر الصحافيون فى تكرار أناشيــد المديح اليــوميــة التى تُغــالى فى إطراء الإنترنت . إنه تزييف وتضليل مشين . إن « الإنترنت » ترابط نافع ومفيــد مثمر عند ذوى الثقــافة العاليــة والعقول المستنيرة ؛ عند أولئك الذين يعــرفون جيــدا كيف يطالعون ويمارسون القــراءة الجادة . فالإنترنت لــن يجعل الأغبياء أذكيــاء . والبلهاء الحمقَى المستغرقــون فى تشغيل جهاز الإنترنت سيــزدادون بلاهة وحماقة . وسيظلون يسبحون فى نطاق حجراتهم أو مكــاتبهم . ولم تتحقق « العالمية » بفضل الإنترنت ، وإنما تحققت سنــة ١٤٩٢ عندمــا وضــع « كــريستــوف كولومبس » قدميه على الأرض الأمريكية . . .


كولمبوس

إن الإنترنت ، وشاشات بث المعلومات أدوات ووسائل نافعة ، وضرورية، ولكنهــا تظــل وســائل وأدوات . إنها لا تفتح باباً إلى عــالم مختلف ، ولا إلى الجنة. وهى تفــرِّق الناس أكثــر ممــا تُجَمِّع ، وتجذبهم إلى التهــافت عليهــا ، تهافت الفَراش على مصدر الضوء ، وهو قد يلسع أو يحرق .

● كتب القرن

وبمناسبة انتهاء القرن العشرين أصدرت « مكتبة نيويورك العامة » كتابا يضم أسماء مائة مؤلف اختارتها لجنــة من كبار الكُتاب والنقاد والأســاتذة المتخصصين من بين خمسين مليــون مــؤلَّف تحتفظ بها المكتبة فى مــركــزها الرئيسى بمدينة نيويورك التى تزوِّد فــروعها الأربعة كل عام بمئات الآلاف


« فيكتور هوجـو » الأديب الشاعـر الروائي الفرنسي (١٨٠٢ - ١٨٨٥) .

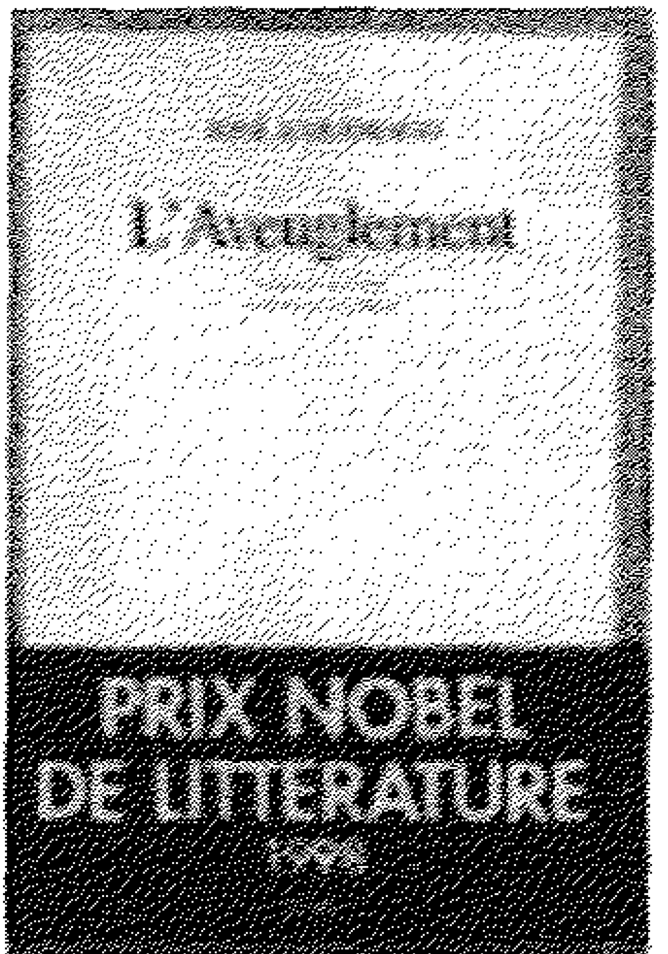
من المؤلفـات الصادرة فى بلاد العـالم المختلفة ، حتى تتمكن تلك الفـروع من إعارة القراء نحو اثنى عشر مليون كتاب فى السنة الواحدة .

والكتب المائة التى اختارتها لجنة الانتقاء تتنوع موضوعاتها بين القصة، والروايـة ، والمسرحيـة ، والعلـوم ، والفنون ، والاجتماع ، والفلسفـة ، والسياسة ، وأدب الشباب ، وأدب الأطفال ، والطهى . . . وكُتَّابها أو مؤلفوها من دول شتى ؛ فهى إذن تجمع بين إبداعـات أبناء ثقافـات متنوعة . وكـان المعيـار الأسـاسى فى الاختيار (بين سنة ١٨٩٥ و ١٩٩٦) : مَـدَى انتشـار الكتاب ، وتأثيره على الملايين من جماهير القراء فى بلده وخارج موطن مؤلِّفه، أو على الثقافـة العالميـة والتيارات الفكرية والإبداعيـة . ومما لا شك فيه ، أن هذا الاختيـار ليس هو الأصوب ، أو الأقـوم ، ولا النهـائى بالنسبة لمؤلَّفـات قرن بأكمله فى دول العالم كله . ولكنه على أية حـال جهد لا بأس به ، وانتقاء جديـر بالنظر والتقدير . ولن يجتمع الناس - كل الناس فى مجتمع واحـد أو عصر واحد - على كتاب بعينه أو مؤلِّف بذاته . فما بالنا إذا كان هؤلاء الناس هم جميع سكان الأرض أو المثقفون ومحبو القراءة منهم . وقد اخترنا قرابة خمسين من هذه المائـة تناسب مـادة هذا الجزء من سلسلة «حصـاد القـرن العشرين » ، مع إضافـة تعريف مـوجَز بالكتاب والمؤلِّـف وبعض المعلومات الضرورية عنهما .


ألفريد نوبل
(١٨٣٣-١٨٩٦)



إحـدى روايـات نجيب محفوظ الحائز (١٩٨٨) على جـائـزة نـوبل (مترجمة إلى الفرنسية)



روايـة « الضريـر » للبرتغـالى « خـوزيه سـاراماجـو » الفائـز بجائـزة نوبل (١٩٩٨)

The wonderful Wizard of Oz- (1900)

● « **ساحر أُوز المدهش** » - **إصدار : سنة ١٩٠٠ .**

● **المؤلف : ليمان فرانك بوم .**

Lyman Frank Baum (1856-1919)

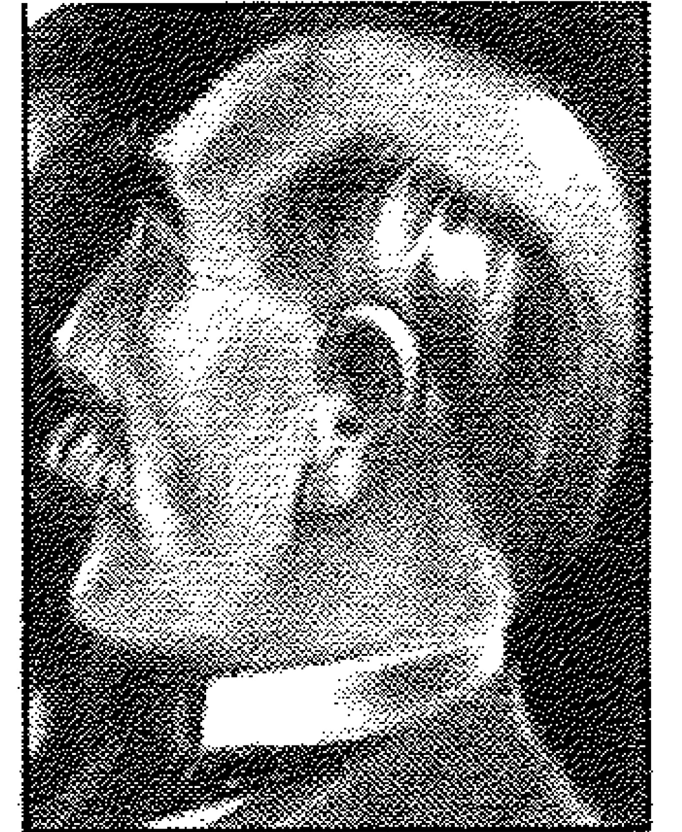
قصة خيالية تدور حول عاصفة حملتْ « دوروثى » إلى أرض « أوز » الساحرة حيث تجرى مغامرات طريفة غريبة عند مدينة الزمرد ، وأصبح الساحر المدهش واقعا ثابتا فى خيال أجيال وأجيال قرأت القصة على مدى مائة عام ، وخاصة بعد تحويلها إلى فيلم سينيمائى سنة ١٩٣٩ أُسند دور البطولة فيه إلى « جورى جارلاند » أو«دورثى » فى القصة التى تُبرز عددا من القيم الاجتماعية النبيلة ، وتُعتبر نقطة تحوُّل فى الأدب الأمريكى والغربى الحديث .

Kim - (1901)

● « **كِيم** » - **١٩٠١ .**

Joseph Rudyard Kipling (1865-1936) .

● **جوزيف رُودْيارد كيبْلينْج .**



RUDYARD KIPLING

كيبلينج

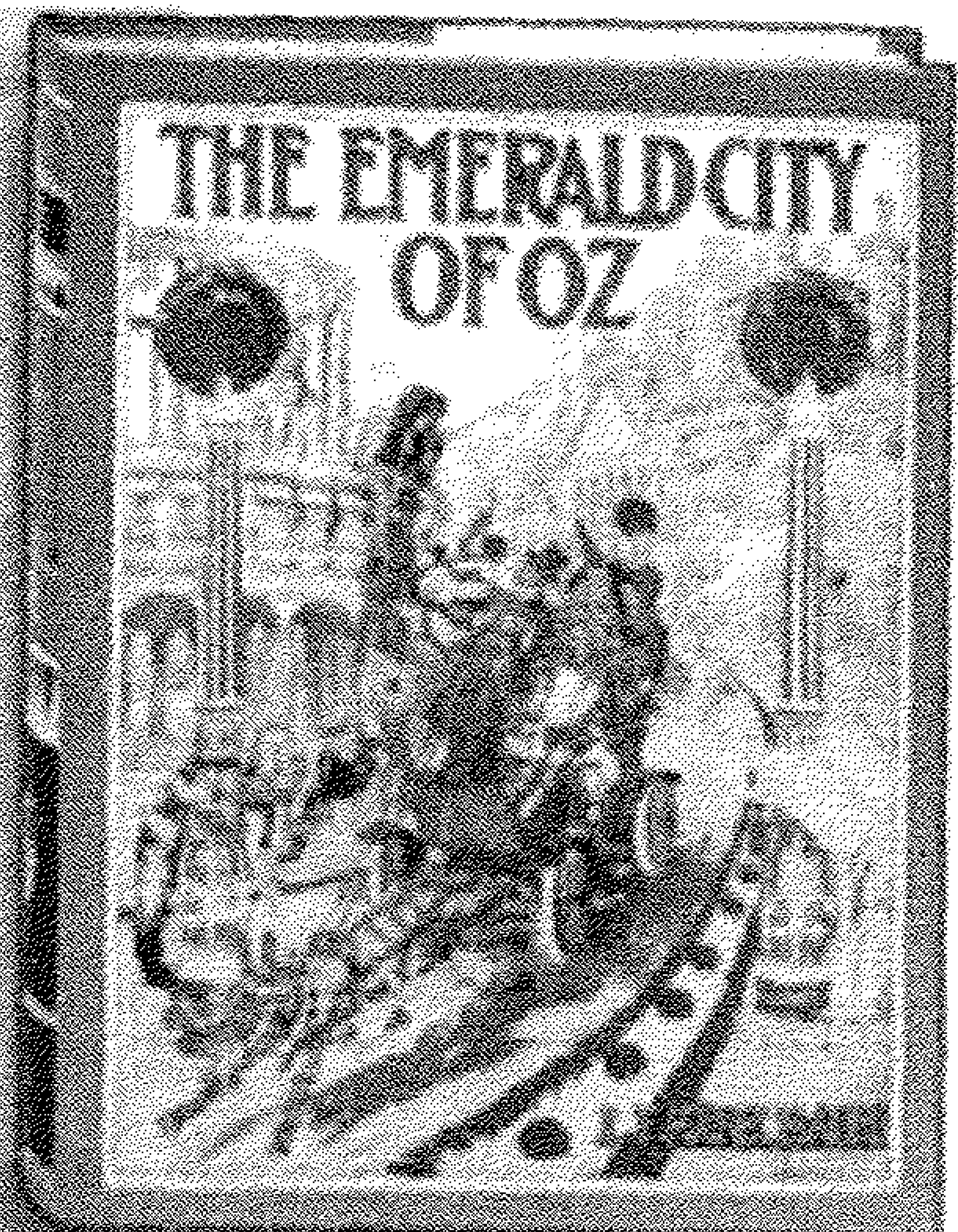
تنوعت مؤلفات « كيبلينج » التى أبدعها للأطفال بين القصة ، والرواية ، والشعر ، والرسائل ، مما جعله من أشهر كُتاب أدب الأطفال فى عصره . وقد ولد بالهند لأبوين بريطانيين . وهذه القصة من أفضل أعماله التى تجمع بين بساطة اللغة الإنجليزية البليغة ، وطابع الهند ومعتقداتها ، وإن كان بعض النقاد أخذ على المؤلف تحبيذه للتمييز العنصرى بطريق غير مباشر . حصل «كيبلينج » على جائزة نوبل فى الأدب سنة ١٩٠٧ ، وهو أول بريطانى يفوز بها .

The Tale of Peter Rabbit - 1902

● « **حكاية الأرنب بيتَر** » - **١٩٠٢ .**

● **المؤلفة : هِلِن بياتريكْس بوتر .**





« ساحر أوز المدهش »

Helen Beatrix Potter (1866-1943) .

قصة للأطفال ثرية بالخيال والجمال والجاذبية ، تهدف إلى تجسيد الحقيقة الخالدة الممثّلة فى براءة الأطفال من بنى البشَر . وفى الكتابة عن تاريخ أدب الأطفال العالمى ، تحتل هذه القصة مكانا بارزا .

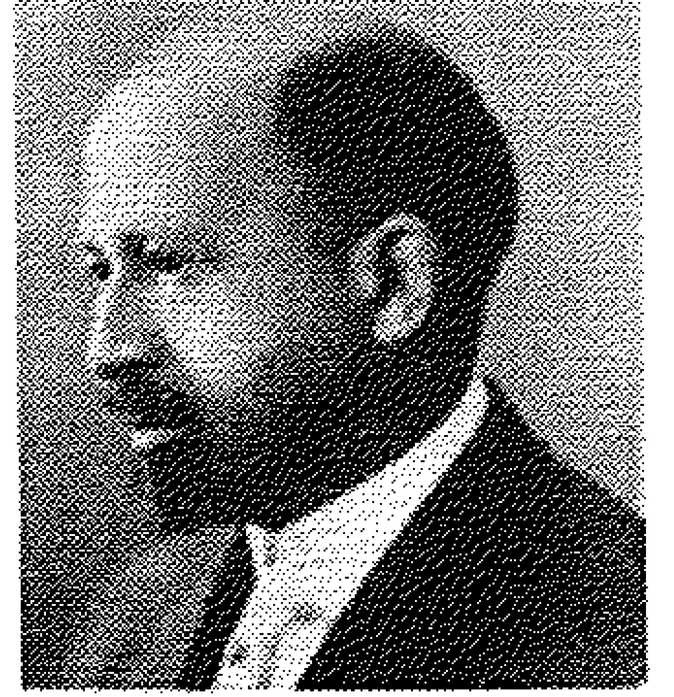
● « **أرواح القوم السُّود** » - ١٩٠٣

The Souls of Black Folk- 1903.

● **المؤلف : ويليام إدوارد دو بوا .**

William Edward Du Bois (1868 - 1963) .

يُنظر إلى « دو بوا » على أنه روائى ، ومؤرخ ، ورائد فى نقد الأساليب والنظُم العنصرية التى تُقر السُّخرة والعبودية وازدراء السود أو الملَّونين . وهو أحد الدعاة النشطين ضد « شيطان » التفرقة بين الأجناس ، مخاطبا - بكل الوسائل - ضمائر المتعصبين والمتطرفين والمعادين للمساواة بين الناس .



« ويليام دو بوا »

● « **قصة حياتى** » - ١٩٠٣

the Story of My Life - 1903

● **المؤلفة : هِلِن كِلَر .**

Helen Keller - (1880 - 1968) .

كتاب عجيب يحكى قصة حياة مؤلفته التى وصَفَها «مارك توين » بقوله: « إنها إحدى أغرب شخصيتين أنجبهما القرن التاسع عشر : هى ، ونابوليون بونابرت». فقدت « هِلن كِلر » السمع ، والبصر ، والنطق ، وهىَ فى سن تسعة عشر شهرا . واكتشفت الكلمات والألفاظ وهى فى سن السابعة. فانبهرت ، وتفجر فى باطنها عالم من الرؤَى والملكات والمهارات ، دفعها ـ وهى بكماء خرساء عمياء ـ إلى الكتابة ، وإلقاء المحاضرات ، والدفاع عن قضايا المرأة وحقوق المعاقين ، وذلك بعد تخرجها من الجامعة . وقابلت بالتتابع رؤساء الولايات المتحدة ابتداء من كليفلاند إلى جون كنيدى .



« هِلن كِلر » تتحدث بلمسات أصابعها مع الممثلة الشابة « باتى ديوك » التى مثلت شخصيتها فى فيلم : «صانعة المعجزة »

● « الغابة » ـ ١٩٠٦ The Jungle - 1906

● المؤلف : أوبتون سينكلير . Upton Sinclair - (1878 - 1968).

عندما ظهرت تلك الرواية لقيت إقبالا شديدا من الجمهور لأنها لمَسَتْ جانب الغش التجارى الفاضح فى صناعة اللحوم المعلَّبة بمدينة شيكاغو ، وعندما قرأها تيودور روزفلت – الرئيس الأمريكى آنذاك ـ أمر بتشكيل لجنة لفحص منتجات هذه الصناعة ، فظهرت حقائق مُزْرية ومنها أن تلك المعلَّبات لا تحتوى على أية لحوم مطْلقا ، فكان ذلك سببا فى حفز الكونجرس على إنشاء هيئة رقابية فيدرالية للأغذية والأدوية .

● « عشرون سنة فى بيت هُول » ـ ١٩١٠ . Twenty Years at Hull - House - 1910 .

● المؤلفة : جين آدامز . Jane Addams - (1860 - 1935).

يجمع الكتاب بين السيرة الذاتية للمؤلفة والتغيرات الاجتماعية التى بدأت تظهر مع طلائع القرن . وقد عاشت المؤلفة بالفعل عشرين سنة بين الفقراء والمُعْدَمين، وحظيت بشعبية كبيرة متزايدة ، وكانت من أشد المعارضين لدخول أمريكا الحرب العظمى (١٩١٤)، ومن أنشط دعاة السلام فنالت جائزة نوبل للسلام سنة ١٩٣١ .

● « فى البحث عن الزمن الضائع » ـ ١٩١٣ . A la Recherch du Temps Perdu - (1913)

● المؤلف : مارسِل بروسْت . Marcel Proust - (1871 - 1922).

إنها واحدة من روائع قصص « بروست » التى تغوص فى بحار الزمن والذاكرة لإعادة اكتشاف أحاسيس الطفولة ، من خلال النظرة المتفحصة فى قدح من الشاى. وفحوى القصة : أنه من وراء السنين ، تبقى رائحة


بروست

ومذاق الماضى بلا تغيير لفترة طـويلة . إنها إحدى روائع القرن الأدبية الكبرى .

Tarazan of the Apes - 1914

Edgar Rice Burroughs - (1875 - 1950).

● « **طرزان القِرَدَة** » ـ ١٩١٤ .

● **إدجار رَيس بورُوف** .

بعد نشر القصـة فى سلسلة من الأجزاء بمجلة أسبـوعية ابتـداء من سنة ١٩١٢ ، صـدرتْ كـاملة سنة ١٩١٤ ، فلقيتْ رواجـا عالميـا سريعا ، وأُعجب الناس بشخصيـة الإنجليزى اليتيم المنحدر من أسرة ثرية عريقة ، لكنه فُقد فى الغـابة ، فتولت القـردة الأفريقيـة رعايتـه حتى كبر ، فـاكتشفت أنـه من الإنس ، ثم علَّم نفسـه بنفسـه حتى أصبح « اللورد سيـد الغـابة » . ودفع النجـاح السـابغ مؤلـف القصـة الخياليـة إلى استكمالها فى ثلاث وعشرين قصـة تاليـة . وصارت شخصيـة « طرزان » من أشهـر الشخصيـات الروائيـة العالميـة ، وتناولتهـا السينيما فى

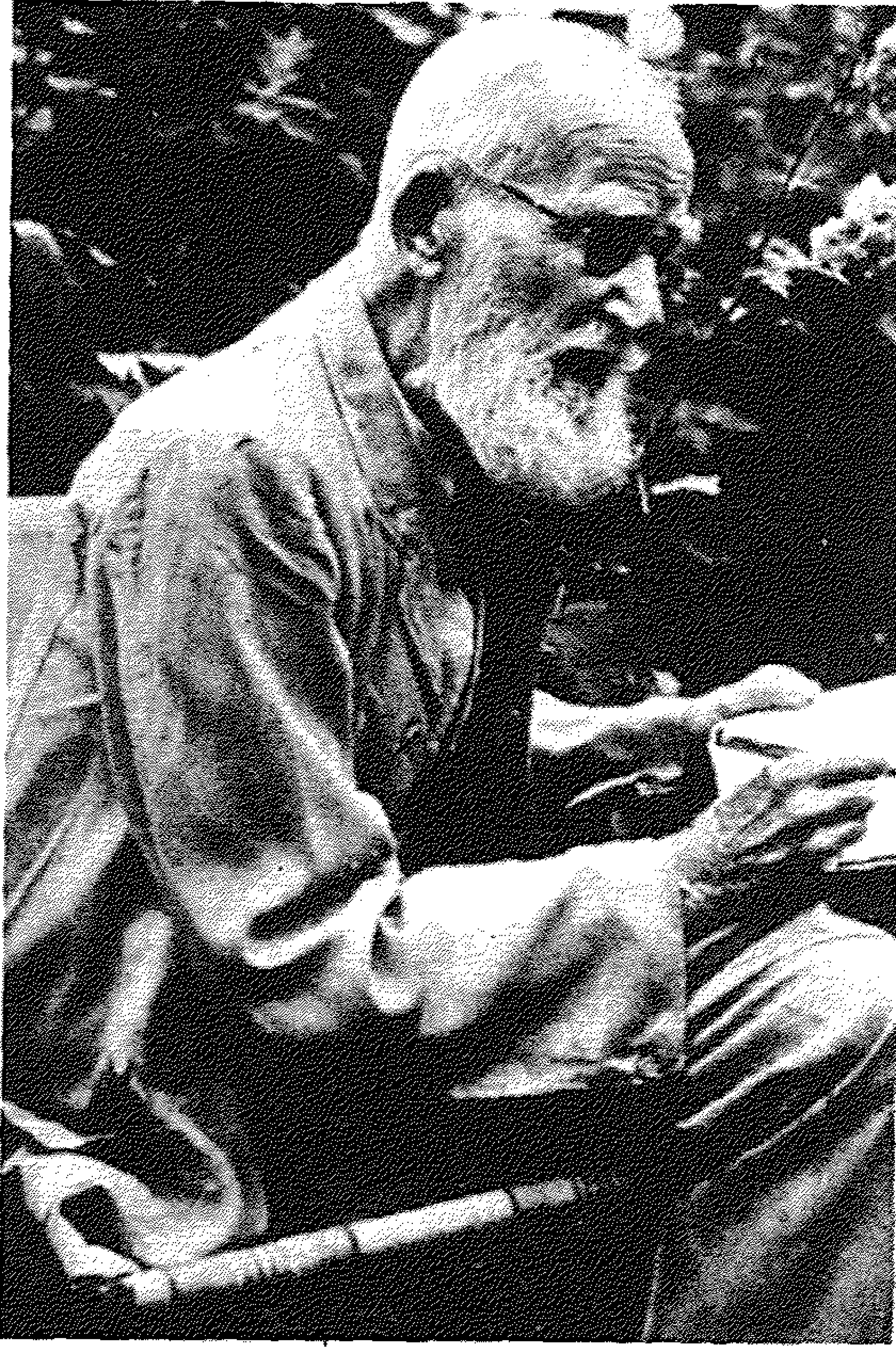
عشرات الأفلام ، وكذلك التليفزيون ، والصحف ، والمجلات القصصية ، ومجلات وكتب الأطفال .

Pygmalion - 1914

● « **بيجميليون** » - ١٩١٤ .

● **المؤلف : جورج برنارد شو .**

George Bernard Shaw - (1856 - 1920).


جورج برنارد شو

من أشهر أعمال برناردشو المسرحية الشعبية . قُدمت فى أشكال فنية كثيرة : مسرح ، سينما ، تليفزيون ، مسرح غنائى ، مسرح استعراضى . . . وهى رواية ترتكز على القصة الأسطورية القديمة عن «بيجميليون » الذى وقع فى غرام التمثال الأنثوى الذى صنعه بيديه . لكن «شو » أكسب كل شخصية فى الرواية سماتها المميزة ، وحرَّكها فى جَو رومانسى أخَّاذ ، ووضع النهاية غير المتوقعة التى جمعت بين الرقة ، والعذوبة ، والاستقامة .

Die Verwandlung - 1915

● « **المسْخ** » - ١٩١٥ .

● **المؤلف : فرانز كافكا .**

Franz Kafka (1883 - 1924)


كافكا : ١٨٨٣ - ١٩٢٤

تدور الرواية حول شخصية « جريجور سامْسا » الذى استيقظ من نومه فى الصباح ليجد نفسه قد تحوَّل إلى

حشرة ضخمة . وقد رجَّح بعض النقاد أن كافكا عَبَّر بهذه الرواية عن حالة الشعور باليأس فى عالم بلا معنى؛ أو عن توصيف رد الفعل إزاء السيطرة والسلْطة الدستورية المطْلقة ؛ أو هى مظهر لتصوير الأزمة التى نشأت بين المؤلف وأبيه . ويكمن جانب من قوة هذا العمل الروائى فى أنه سيظل غامضا بعض الشىء ، عَصِيا على التفسير الكامل .

The Wild Swans at Coole - 1917

● « **طيور التّم البرّية** » (**أو طيور الإوز العراقى**) - ١٩١٧ .

● **المؤلف : ويليام بَتلر بيتْس .**

William Butler Yeats - (1865 - 1939) .



بيتس : ١٨٦٥ - ١٩٣٩

فى هذا العمل الإبداعى المتميز خطَا « بيتْس » خطوة متقدمة فى مساره الأدبى الشعرى الفنى ، إذ جمع بين الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) والرمزية، فى نضج واضح المعالم والتأثير . وفيه تتجلى شخصية الفنان المؤلف وهى مزيج من الأخلاقيات والعقلانيات الممتازة . فاستحق الفوز بجائزة نوبل فى الأدب سنة ١٩٢٣ .

the Mysterious Affair at Styles - 1920

● « **المهمَّة الخفيّة** » - ١٩٢٠ .

● **المؤلفة : أجاثا كريستى .**

Agatha Christie - (1890 - 1976)



« أجاثا كريستى »

قدمتْ هذه الرواية إلى العالم بطليْن معا سيظل يذكرهما بإعجاب لعشرات من السنين ؛ أولهما : المؤلفة الجديدة «أجاثا كريستى » ؛ وثانيهما : بطل القصة : المخبر السرى الهُمام « هرقْل بُوَارو » ، المنحدر من سلالة « شرلوك هولْمز » ووريثه فى الانتباه المتيقظ والتدقيق فى أقل التفاصيل ولكن بأسلوب حديث . وظهر من البداية أن «أجاثا كريستى » مُولَعَة بالتحديث الغامض المتوافق مع

تيار الموجة الجديدة السائدة ، فأبدعت فى استخدام جريمة القتل كأداة للتسلية فى إتاحة فرصة لإظهار الذكاء وحل اللغز أو المعضلة ، ومضت على هذا المنوال تجذب إليها ملايين القراء .

● « **ست شخصيات تبحث عن مؤلف** » - ١٩٢١ .

Sei Personaggi Cerca d'aurore - 1921

● **المؤلف : لويجى بيراندِللو .**

Luigi Pirandello - (1867 - 1936)

فى أول عرض لهذه الرواية المسرحية فى روما سنة ١٩٢٢ ثار الجمهور غاضبا ساخطا بسبب مقدمتها الطويلة القاسية المستفِزَّة : فالشخصيات الست الذين ظهروا على المسرح دخلوا فى جدال صاخب تحوَّل إلى عراك مع الممثلين الذين كانوا سيؤدون أدوارهم . لكن نجاح الرواية المسرحية يكمن فى هجومها الذكى على تضليل وخداع الواقعية ، وفى تجسيدها الدرامى للأفكار المتعلقة بطبيعة الصدق ، والوهم الذى يفضح كثيرين ممن يترددون على المسرح المعاصر ، فسرعان ما قفزتْ شهرة بيراندللو عالميا . ولقد كان لهذه الرواية المسرحية تأثير كبير على كل جيل الروائيين المسرحيين الناشئين ، ومن بينهم « صمويل بِكِتْ » و « أُوجين أيونِسْكو » . ونال بيراندللو بجدارة جائزة نوبل فى الأدب سنة ١٩٣٤ «لإحيائه بعبقرية فذة فن التمثيل والمسرح» .

● « **أُولِيس** » - ١٩٢٢ .

Ulysses - 1922

● **المؤلف : جيمس جويس .**

James Joyce - (1882 - 1941)



جيمس جويس

عندما ظهرت رواية « أوليس » فى سنوات العشرينيات اعتبرها كثير من الناس جديدة مبتكَرة ، بينما كانت فى نظر القانون آنذاك فاحشة فاضحة ، فمنع تداولها .

وعندما قرر القاضى « جون وُولْزِىْ » رفع الحظْر عنها ، كـانت صيغــة قـراره ذاته نقـدا أدبيـا للـرواية . قـال يصفها:«إنها متألقة ومتقلقلة ، واضحــة جليَّة وغامضة غبية. وكان « جويس » أمينا صـادقا فى بذْل الجهد الذى أظهر بدقة كيف تعمل عقول شخوصه . . . » .


جبران خليل جبران

The Prophet - 1923

● « **النبى** » - ١٩٢٣ .

Khalil Gibran - (1883 - 1931)

● **خليل جبران .**

لبنانى النشأة والموطن ، وإن عـاش سنين طويلة فى بلاد الغـرب ، فـأتقن اللغـة الإنجليـزيـة وكتَبَ بها من أوائل العشرينيـات . وذاعت شهـرته عـالميـا مع صـدور هذا الكتـاب الذى رسم صُـوره بنفسه ، وضَمَّنه مجمـوعـة جيدة رقيقـة من القصائد والأشعـار فياضـة بالتصوف والروحـانيـة ، دافقـة بـالحب والزهد ، تَنْشـد الحرية ، وتناقش فى رفق قضايا الخير والشر ، العقيدة والموت .

لم يكن للكتـاب صـدى كبير فى البـداية ، ولكن فى سنوات الستينيات أصبح من روائع التراث الكلاسيكى العالمى . وفى أوائل السبعينيـات كان قـد بيع منه أكثر من خمسـة مـلايين نسخـة وتُرجم إلى أكثـر من عشرين لغـة ، فكان مصـدر إلهام جماهيرى ، وتُنْشَـد بعض قصـائـده فى حفلات الزواج ببلاد مختلفة .


« توماس مان »

Der Zauberberg - 1924

● « **الجبل السحرى** » - ١٩٢٤ .

Thomas Mann - (1875 - 1955)

● **توماس مان**

رواية نقـدية سـاخـرة من روائع أعمال المؤلف زاخـرة بالأفكار الناضجة المستوحاة من مصحة للدرن (السل) بأعـالى جبـال الألب السـويسرية . ومـن هذا الموقع ،

استطاع « توماس مان » أن يسجل رؤاه فى قضايا كبرى تدور كلها بسموّ واقتدار فى حلقـات شعورية ، أخلاقية ، عقلانيـة ثقافيـة ، ما كـان له أن يحلم بها من قبل ، لولا مقامه بهذا الجبل الساحـر ، الآسر ، الكتوم ، فى معزل عن تأثيرات العالم الخارجى . وقـد لمس برفق وصدق المعنى البـاطنى لفترة مـا قبل الحرب : غـوايات الفـوضى ، وجنايات الطيش ، وأطيـاف الموت ، وكلها تمهـد الطريق بعد ذلك إلى اكتساب المعرفة ، والصحة ، والحياة . وكان « مان » يرى أن روايته هذه تشبـه السيمفونية ، ونصح القارئ أن يطالعها مرتين متتـاليتين ليتذوق موسيقاها . وفاز بجائزة نوبل فى الأدب سنة ١٩٢٩ .

A Passage to India - 1924

● « مَعْبَر إلى الهند » - ١٩٢٤.

● إدوارد مورجان فورستر .

E . Morgan Forster - (1879 -1970)

يحاول المؤلف من خـلال هذه الرواية تصـوير الاختـلافـات النفسيـة والثقـافيـة الأبدية بين الأفـراد ، والجماعات الدينية والعِرْقية . من خلال مشاهداته فى الهند إبان العصر الاستعمارى فى أوائل القـرن العشرين . والرواية من جانب آخر تبرز بشفافية أنيقة حقيقة الهُوة السحيقـة التى كانت تفصل بين الإنجليـز والهنود ، على الرغم من الاستعمار البريطانى للهند عـدة قرون ، وهو ما يؤكـد فشل السياسـات الاستعمارية البريطانية التى كانت تعتبر الهند « دُرة التاج البريطانى » .

To The Lighthouse - 1927

● « إلى المنارة » - ١٩٢٧ .

● فيرجينيا وولف .

أرادت المؤلفـة الإيهام بهذه الرواية وجـذْب الانتبـاه إلى



« إدوارد فـورستر » (فى الصورة العليـا) ولقطة من الفيلم الذى أُنتج سنة ١٩٨٤ من روايتـــه – وبالاسم نفسه : « طريق إلى الهنـد » وحصـل على جائزة الأوسكار .

Virginia Woolf - (1882 - 1941)

قـدرتها على حيـازة الحرية الكاملة مع الحيـاة النفسيـة المتغايرة التى قالت عنهـا : « هى الروح الحقيقية التى بها نعيش » . فـاستخـدمت كثيرا من المشـاعـر والمدْرَكـات والأخلاقيات التى تمتلكها والمواقـف العاطفية المتناقضة ظاهرا وباطنا باختلاف الزمن ، مع بعض العناصر الفنية المستحـدثة فى فن الرواية ، وذلـك كله من أجل النفـاذ إلى تصـوير عـلاقـات بين الـرجـال والنسـاء ، وبين الزمن والموت . ومع ذلك تعرضتْ لنقد متزايد .



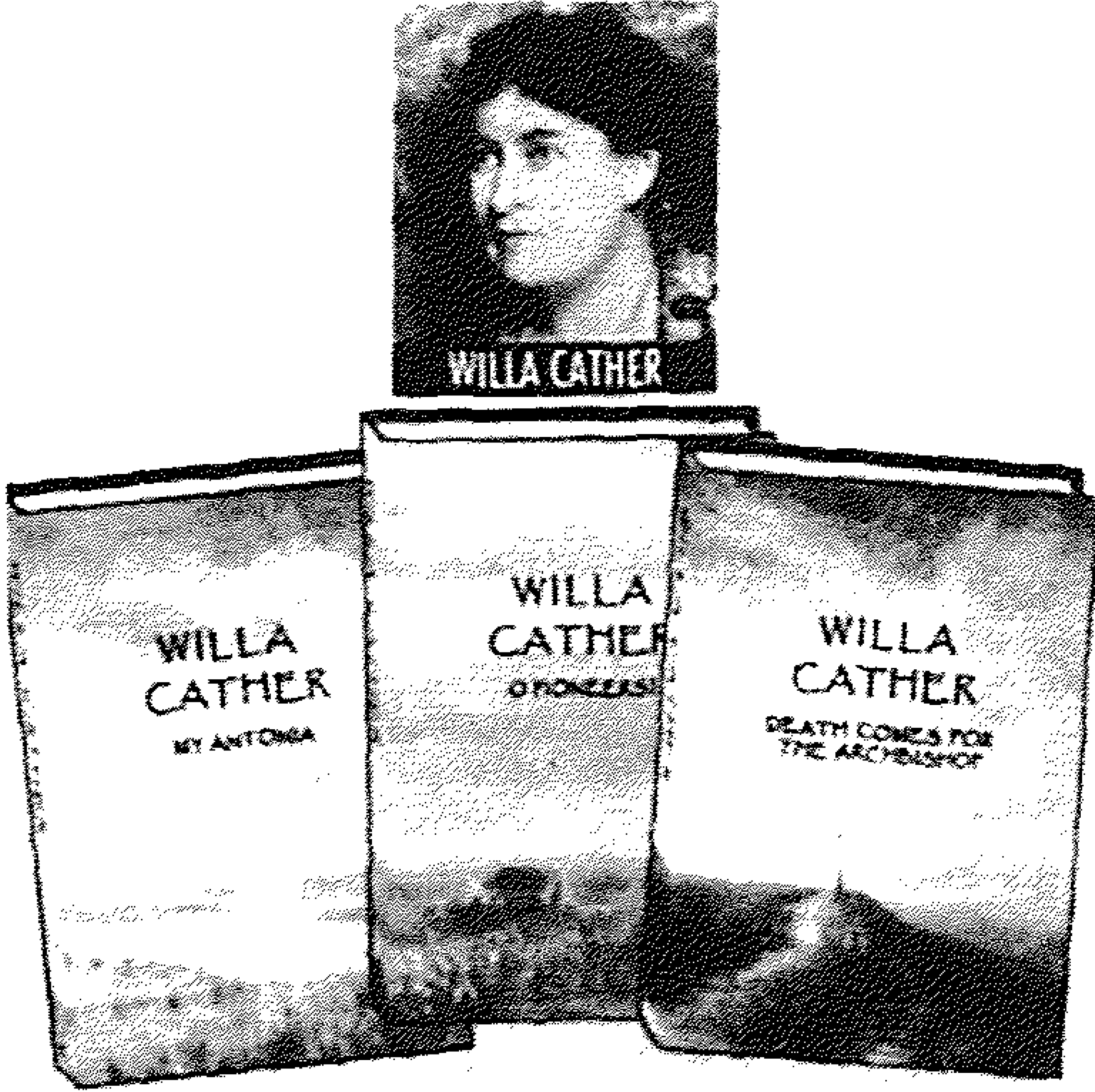
فيرجينيا وولف
(١٨٨٢ – ١٩٤١)

● « **ظلال على الصخرة** » ـ ١٩٣١

Shadows on the Rock - 1931

● **ويللا كاثر**

Willa Cather - (1875 - 1947)



قصـة قصيرة رقيقـة عن فتـاة صغيرة فى الثـانيـة عشرة من عمـرها تحافظ على بيت أبيهـا الصيـدلى الأرمل فى برارى كندا الفسيحـة بمسـاعـدة من المؤسسـات الدينيـة والمدنيـة فى مقاطعة « كِبك » . والقصة تحكى وتصف مـا حـدث فى هذا البيت المنسَّـق المملـوء بـالحب ، على امتداد عام بأكمله .

فى سنة ١٩٣١ عقب الأزمـة الاقتصادية العـالمية وانهيـار الأسـواق والصناعـات والأعمال ، وجـد نحـو خمسـة ملايين عامل ومـوظف عاطلين عن العمل ، وجدوا فى هذه الرواية بعض السلوى والعـزاء ، والاستمتـاع بأسلوبها الجميل ووصفهـا الشيِّق . فكـانت هـذه أولى روايات وقصص المؤلفـة فاتحة خير لها ، وصـارت أعمالها كلها بعد ذلك فى مقدمة المبيعات .

Gone with the Wind - 1936.

● « **ذهب مع الريح** » ـ ١٩٣٦ .

● **مارجَريت ميتْشل .**

Margaret Mitchell - (1900 - 1947).

الرواية الوحيدة التى كتبتْها « م . ميتشل » بعد أن تركت عملها بالصحافة ، واستغرقت فى تأليفها عشر سنوات ، وتدور أحداثها حول الحرب الأهلية الأمريكية من وجهة نظر أهالى الجنوب ، وبالتحديد : من خلال حكاية عن «سكارليت أُوهارا » حسناء الجنوب ذات الشخصية القوية والإرادة النافذة التى عاشت قسوة وآلام سنوات الحرب ، وبعدها عزمتْ على الإسهام ماديا وعاطفيا فى النضال من أجل إعمار ما خرَّبته الحرب . وبعد ثلاثة أعوام من إصدار الرواية ، أنتجتها هوليوود فيلما حمل الاسم نفسه ، فكان ومازال أكثر الأفلام الأمريكية أرباحا ورواجا حتى نهاية القرن . وكذلك طَبْع ونشْر القصة : فقد بيع منها فى الأشهر الست الأولى مليون نسخة . وعند وفاة مؤلفتها كان قد بيع منها ثمانية ملايين فى ٤٠ دولة ، وفى نهاية القرن بلغت النسخ المباعة الصحيحة أكثر من مائة مليون ، وتأتى على رأس قائمة الكتب المباعة اليوم فى أمريكا ، وثانى الكتب المطبوعة بعد الإنجيل .

How to Win Friends and Infleuence people - 1936.

● « **كيف تَكْسب أصدقاء وتؤثِّر فى الناس** » ـ ١٩٣٦.

● **ديل كارْنِيجى .**

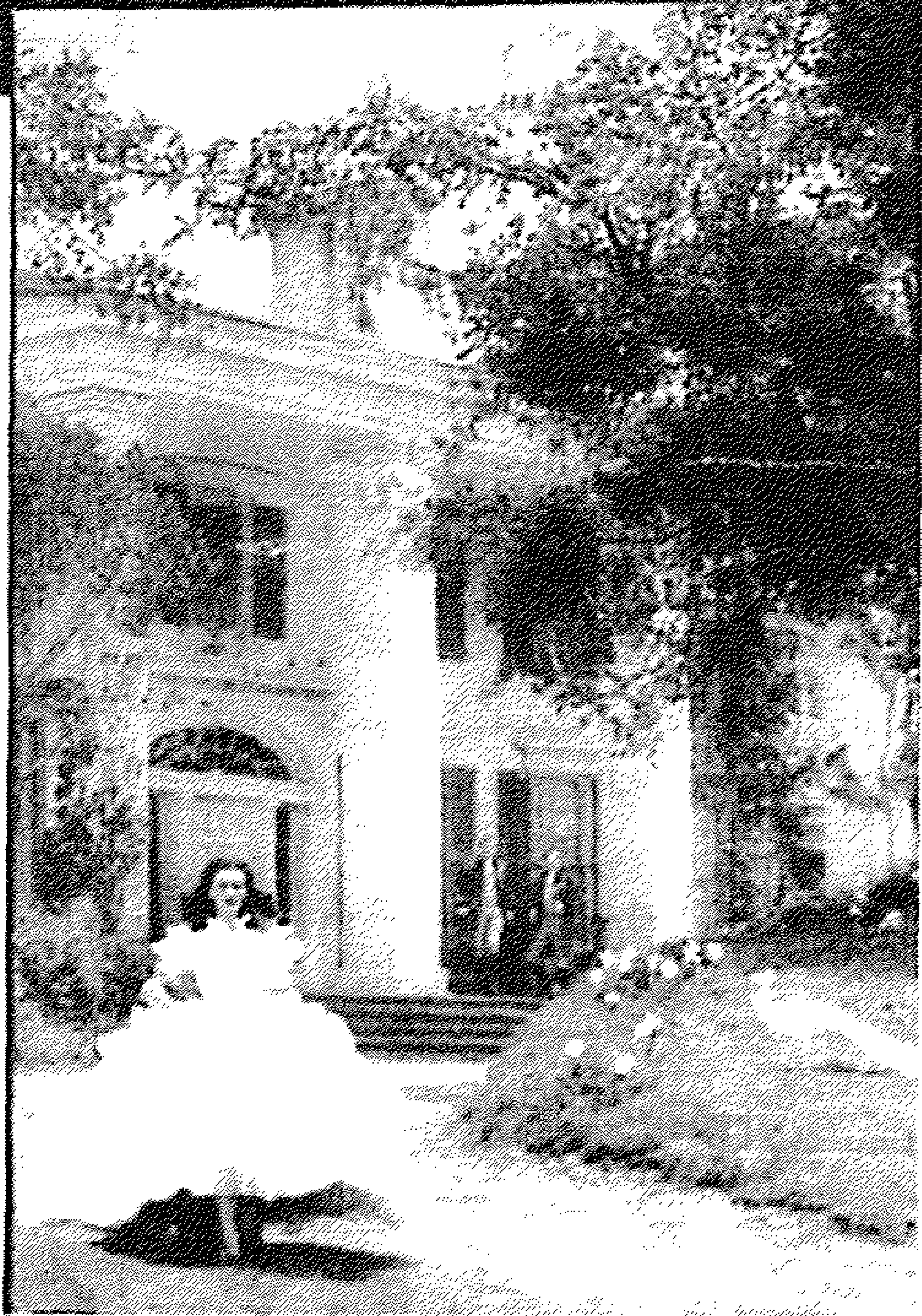
Dale Carnegie - (1888 - 1955).

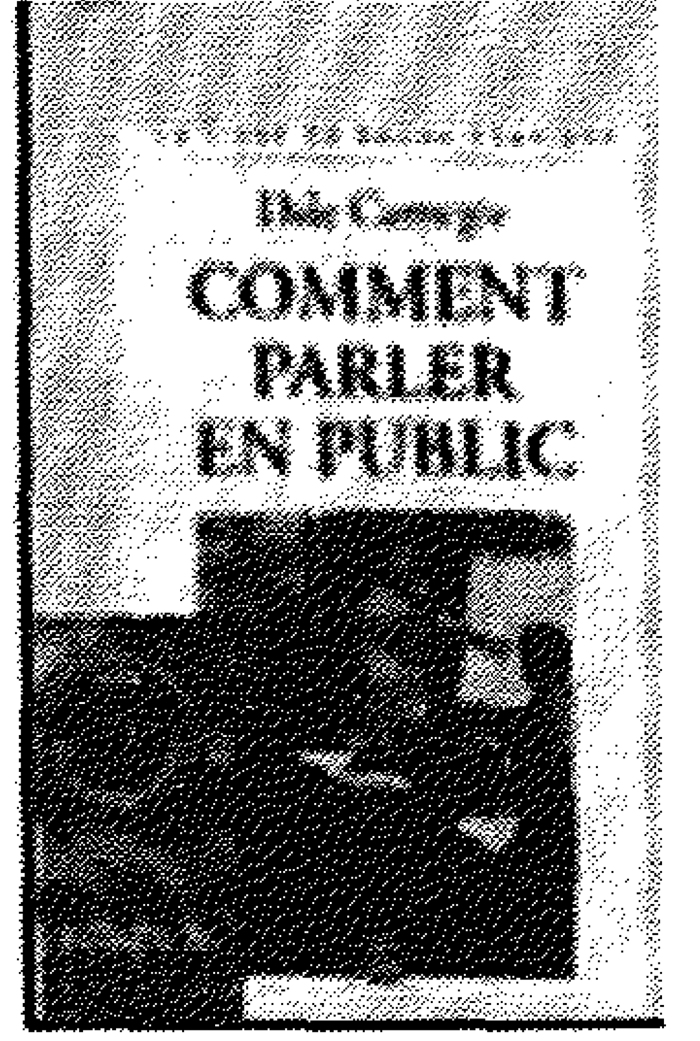
من أكثر الكتب المباعة والمترجمة فى العالم كله منذ إصداره . أراد به المؤلف ـ فى فترة ضغوط واكتئاب الأزمة الاقتصادية العالمية ـ أن يشيع البهجة والأمل فى نفوس الناس ، وقد نجح فى ذلك وما زال الكتاب مؤثرا .



لم تكن « مارجريت ميتشل » مؤلفة قصص أو روايات ، ولم تفكر فى ذلك . ولكن عندما تركت العمل الصحافى ، قرأت عشرات الكتب والروايات عن الحرب الأهلية الأمريكية . فنصحها زوجها أن تشغل وقت فراغها بكتابة «شىء » من قريحتها هى عن فترة تلك الحرب التاريخية . فكانت هذه الرواية التى أصبحت «تاريخية » فى بلد بلا تاريخ.

فقد أقاموا - بعد الانتشار المذهل للرواية - متحفا يضم مخطوطاتها التى كتبتها «مارجريت » بيدها على آلة كاتبة قديمة (فى الصورة العليا) ومعها صورتها الشخصية وبعض مقتنياتها فى مراحل حياتها المختلفة . وكذلك مقتنيات من ملابس وأدوات وصور الممثلين الرئيسيين فى الفيلم الذى يحمل اسم الرواية ، وحصل على إحدى عشرة جائزة أوسكار وحقق أكبر إيراد لفيلم عالمى على الإطلاق ومازال يعرض بنجاح حتى اليوم ، ومن أبطاله : « فيفيان لى » - فى الصورة إلى اليمين - و« كلارك جيبل » و« أوليفيا دو هافيلاند » ، وأخرجه فى هوليوود « فيكتور فلمينج » سنة ١٩٣٩ مع « ديفيد سلزنيك » . الغريب بعد ذلك : أن المؤلفة « مارجريت ميتشل» لم تكتب سوى هذه الرواية ورفضت بإصرار عروضا سخية من الناشرين والإعلاميين أن تضيف جديدا .





« ديل كارنيجى »

وهو يرى أن العلاقات الإنسانية هى مفتاح النجاح فى الحياة الفردية والأسرية والعملية . وصحة هذه العلاقات تحتاج إلى مهارات ، وهى موجودة عند كل إنسان وعليه أن يفطن إليها ويحسن استخدامها فى مكانها المناسب ووقتها المناسب ، فيكتسب ثقة فى نفسه ، وثقة الآخرين به ، ويسعد بالحياة ويسعد به الأحياء . ويرى مؤرخو الثقافة أن « كارنيجى » بكتابه هذا (وما تبعه) نقل جانبا من علم الاجتماع من السلوك القائم على السمات والصفات إلى السلوك الصادر عن « الشخصية» الفردية الفعالة .

● « **عناقيد الغيظ (الغضب) ـ ١٩٣٩.** The Grapes of Wrath - 1939 .

● **جون شتاينبك** John Steinbeck - (1902 - 1968)


« جون شتاينبك » : مشهد من روايته «عناقيد الغضب » .

تخاطب هذه الرواية العمالية أولئك الرجال الذين كانوا يعملون ويكدحون فى سنوات الستينيات ، وأولئك الذين يعملون ويكدون اليوم ، فى أسلوب واقعى ولغة بليغة . بيع منها أكثر من ثلاثة ملايين نسخة فى بضعة أعوام ، وجلبت على مؤلفها عددا من الجوائز العالمية من أبرزها جائزة نوبل فى الأدب سنة ١٩٦٢ .

● « لمن يَدُق الجَرَس » - ١٩٤٠ .

For Whom the Bell Tolls-1940

● إرنست همينْجواى .

Ernest Hlemingway - (1899 - 1961) .

رواية عن الحرب الأهلية الأسبانية بلغ همينجواى فى تأليفها ذروة مهارته الإبداعية الفنية ، وحققتْ له نجاحا جماهيريا مدهشا ، وشهرة عالمية كبيرة . وتمتاز أيضا بأسلوبها النثرى المشحون بالعواطف والانفعالات . فاز بجائزة نوبل فى الأدب سنة ١٩٥٤ .





همينجواى

● « ظُلْمة فى الظهيرة » - ١٩٤١ .

Darkness at Noon - 1941

● أرتور كُويِسْتلر .

Arture Koestler - (1905 - 1983)

اكتسب كويستلر خبرة جيدة بعمله كمراسل إعلامى خارجى فى أسبانيا وفى الاتحاد السوفييتى ، ومن عضويته بالحزب الشيوعى الألمانى . وقد انعكس ذلك على روايته هذه التى قدَّم لها بقوله : « إن شخصيات هذا الكتاب من وحى الخيال . أما الظروف والوقائع التاريخية التى تدور فيها أحداثهم فهى حقيقية . إن حياة الرجل الذى يُدْعى (فى الرواية) ن . س . روباشوف هى توليفة أو مزيج من حَيَوَات (جمع : حياة) عدد من الرجال كانوا ضحايا لما سُمِّى « محاكمات موسكو » . وإن كثيرين منهم كانوا على معرفة شخصية بالمؤلف . وهذا الكتاب مُهْدًى إلى ذكراهم . - باريس ، أكتوبر ١٩٣٨ - أبريل ١٩٤٠ » .

● « **الغريب** » - ١٩٤٢ L'Etranger - 1942 .

● **ألبير كامو** . Albert Camus - (1913 - 1960).



« كامو »

تتسم هذه الرواية بالجو العام الذى أحاط بالمؤلف إبان طفولته ، واكتسب منه خبرات كغلام فقير يعيش فى بيئة بدائية لكنها بالنشاط ثرية ، وفى بلد غير محدد المعالم السياسية . فقد كانت الجزائر فى الثلاثينيات من القرن العشرين جزءا أو ضاحية فرنسية مستعْمَرَة . وعلى الرغم من ضمها إلى فرنسا فى سنة ١٨٤٢ ، إلا أن طابعها ظل عربيا إسلاميا ، والغالبية السكانية العظمى فيها للعرب ، ثم كانت الثورة الناهضة للاستقلال سنة ١٩٥٤ . لقد نشأ « ألبير كامو » فى رعاية أم فى « بلكور » : محافِظة غير مبالية ، وغير متعلمة ، بالحى العمالى بمدينة الجزائر . لكنه كان ذكيا وعلى بصيرة . وقبل نشوب الحرب الجزائرية بسنين طويلة تنبأ وأجاد وصف مقتل عربى جزائرى بيد مستوطن فرنسى . فلما حدث ذلك بالفعل (فى الحرب) أصيب باكتئاب شديد وعجز عن الكتابة . نال جائزة نوبل فى ١٩٥٧ .

● « **الكينونة (أو الوجود) والعَدَم** » - ١٩٤٣ . L'Etre et le Néant - 1943

● **جان - بول سارتر** . Jean - Paul Sartre - (1905 - 1980)


« سارتر »

الإنسان انفعال أو عاطفة بلا جَدْوَى L'homme est une passion inutile » . هذا هو محور فلسفة سارتر ، وكانت الأكثر تأثيرا فى القرن العشرين وقد بدأ نشر بحوثه الفلسفية فى سنة ١٩٤٣ ، وكان الرائد المستنير آنذاك فى اليسار الفرنسى . لكن شهرة سارتر الأدبية العالمية اكتسبها من مؤلفاته الأخرى مثل : « الكلمات ـ Les

Mots/ ١٩٦٣ » عن سيرته الذاتيــة ؛ وبعض مسرحياته مثـل « الـذبـاب ـ Les Mouches / ١٩٤٣ » . وفى سنــة ١٩٦٤ ، مُنح سارتر جائزة نوبل فى الأدب لكنه رفَضها .

Strange Fruit - 1944

● « **فاكهة غريبة** » ـ ١٩٤٤

● **ليليان سميث**

Lillian Smith - (1897 - 1966).

مـوضوع القصــة : مــا يحدث من ازدراء ومهانة عندمـا تسرى أساليب التفرقــة العنصرية . إنها قصة حب عفيف نشأ بين فتاة سوداء متعلمــة ورجل أبيض – فى أمريكا – جرؤَ على فعل ذلك ، فكان جزاؤه الاتهام بالقتل وتقديمه لمحــاكمــة علنية غير مقيـدة بقــانون . وفى الواقع العملى : دارت المؤلفة بقصتها على سبعــة ناشرين ، أَبَوْا بغطرسة نشرها ، ثم ظهرت بعد عناء ولقيت على الفــور نجاحا بين السود فى الجنوب من الولايات المتحــدة لأنها فى تقديرهم تحمل رســالــة ، وبين البيض فى الشمال لأنها فى زعمهم تشفى غليــلا . ولم تَسْلم « ليليــان » من المســاءلة والمطاردة طـوال حيــاتها بـادعــاء أنها تستثير الفتن والنزعــات الطائفيــة ، وأُحــرق بيتهــا بأيدى المتعصبين البيض مرتين : سنة ١٩٥٥ ، ١٩٥٨ ، وضـاع فى الحريق عــدد من مخطـوطات روايات وكتـب لها لم تُنشر ، مع تسعة آلاف رسالة كانت قد تلقتها من أدباء ونُقَّاد وقراء مُعْجَبين أو متطرفين إرهابيين ، طلبت مكتبــة الكونجرس منها جَمْعَها وترتيبها لتُحفظ بتلك المكتبة القومية .

Hiroshima 1946

● « **هيروشيما** » ـ ١٩٤٦

● **جون هِرسِى**

بعـد عام واحـد من إلقاء أول قنبلة ذرية فى التــاريخ على



صورة تـاريخية وثائقية نـادرة لم « يُفرج » عنها إلا بعـد خمسين سنة من إلقـاء القنبلة الـذرية الأولى على هيروشيما ، وفيهـا يظهـر بعـض الأحيـاء كالأشبـاح يحـاولون الفرار من جحيم الانفجـار لحظة وقوعه ، وقـد أحرق ودمر كل شيء وجميع الصور والأفلام .

John Hersy _
(1914 - 1993)

مـدينة هيروشيما اليـابانيـة ثم على مـدينة ناجـازاكى ، نشرت هذه الأقـاصيص الست فى كتـاب واحـد بعنوان : «هيروشيما » ، وهى واقعيـة تمامـا ، تصـوِّر مـا حـدث لستـة أفـراد من سكان تلك المدينة المنكوبة الذين نجـوْا مؤقتـا من الهلاك . وكان القصـد من الكتـاب كما جاء فى التقديم له : « . . أن يدرك الناس حقيقة الطاقة الهائلة غير المتصـوَّرة لهذا السـلاح الفتـاك ، وأن يتـاح لكل قـارئ

فسحة من الوقت لكى يتأمل ويفكر على مهل فى مدى الدمار الذى ينتج عن استخدام هذا السلاح العصرى . . ».

Goodnight Moon - 1947

● « طِبْتَ مساء ياقَمر » ـ ١٩٤٧ .

● مارجَريت وايز براون .

Margaret Wise Brown - (1910 - 1952)

كتاب للأطفال من أدب الأطفال ، يحوى حكايات للأطفال، يتنقْل بين الخيال والحقيقة ، ومن الشعر إلى النثر ، يسلى الآباء ويبهج صغار الأبناء ، قُبيل النوم وفى صحبة النوم ، فإن كانت صُحبته فى الصباح ، فهو أكثر إبهاجا وإمتاعا وتسلية : برسومه الجميلة وألوانها الزاهية الوضَّاحة . تقول مارجريت : « إن كِتَابا قد يجعل الطفل ضاحكا ، أو صافيا سعيدا متشوقا إلى تَتَبُّع إيقاعه حتى النهاية . وقد يلفت انتباهه إلى ما لا يتوقعه ، أو يدفعه إلى التآلف مع ما يرتاح إليه ، ويُبعده للحظات عن مضايقات تُضجره ، أو غضبه لانشغال الأبوين عنه . . ». وبالرغم من عمرها القصير ، فقد كتبت مارجريت أكثر من مائة كتاب للأطفال .

Cry, The Beloved Country - 1948

● « فَلْتَصْرُخ ، أيها البلد المحبوب » ـ ١٩٤٨

● ألان باتون .

Alan Baton - (1903 - 1988)

فى هذه القصة ، يصف المؤلف هجرة العجوز «كومالو» من قبيلة الزولو بجنوب أفريقيا بعد صدور قانون التمييز العنصرى الجائر (سنة ١٩٤٨) إلى أرض مدينة جوهانسبرج حيث يتجمع النازحون السود الوطنيون ، باحثا عن ابنه المفقود « أبْسالوم » .

حَشْد من أهالى مدينة «فيتنهاج» بجنوب أفريقيا يشيعون بعض ضحايا يوم واحد من مواطنيهم السود الذين قتلهم عمدا رجال السلطة البيضاء الحاكمة بالرعب والقهر والإذلال والعنف المدمر . وتكرر المشهد فى مدن أخرى بالدولة العنصرية حتى استقلت وانتهى التمييز العنصرى .





مشهد من « فى انتظار جودو »
وإلى أعلى : صامويل بِكت .

● « فى انتظار جودو » ـ ١٩٥٢ .

En Attendant Godot- 1952

● صامويل بِكِتْ .

Samuel Beckett- (1906- 1989).

مسرحيـة ذات فصلين كتبهـا المؤلـف الذى وُلد فى دبلن (أيرلندا) وعاش حياته فى باريس نازحا شغوفا بها ، فـالتقى بزُمـرة من المثقفين الفـرنسيين والأيرلنديين المهاجرين ، وكـان من بينهم « جيمس جويس » وزوجته «نورا » التى اعتبرت « بِكِت » نصْف ابن لها، وفى المقـابل رد الجميل إلى تلك الأسرة المرمـوقـة فى عـالم الأدب بأن تولى القراءة على سَمْع « جيمس جـويس » بعد أن ضعف بصره. فكانت الصـداقة والعـلاقة الوثيقـة بين الأديبين الكبيرين، وكل منهما أستـاذ ورائـد قـدير فى ميـدانه وتجاربه . قُدِّمت هذه المسرحية لأول مرة فى باريس سنة ١٩٥٢، تـرتكز على شخصيتين اثنتين صعلـوكتين (مـن طراز شارلى شـابلن) فى مساحـة من الأرض خلاء ، لكن حـديثهما وحـوارهما المتقطع غير المكتمل العبـارات ، وإخلاصهما الصـادق المعالم ، ونقـاشهما مع « بوتزو » الطاغية المستبد ، كل ذلك وضع علامات محددة واضحة لما عُرف باسم « مسرح اللامعقول » أو العَبَث ، فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية . ولقد أوجز فأحسن «بروكْس أتْكينسـون » حين قـال عن تلك المسرحية عند عـرضهـا الأول : « إنها تعطى انطبـاعـا مـروِّعـا عن الاقتراب من حقيقة الجنس البشرى عندما ينتظر مسترخيا قدوم إنقاذ لن يأتى أبدا » . مُنح « بِكت » جـائزة نوبل فى الأدب سنة ١٩٦٩ .



رالف إليسون
(١٩١٤ – ١٩٩٤)

Invisible Man - 1952

Ralph Elison - (1914 - 1994)

● « رجل خَفِىّ » - ١٩٥٢

● رالف إليسون .

بطل الرواية مجهول الاسم ، هكذا أراده المؤلف فى قصته الوحيدة هذه ، لكنها حظيتْ بشهرة كبيرة . يُسمع صوتالبطل فقط ينبعث من أعماق مخزن يكاد يشتعل من وَهَج حرارة ١٣٦٩ مصباحا كهربيا مُضاء ودوىّ أنغام موسيقار الجاز الشهير : لويس أرمسترونج . وهو صوت مؤثر متلون بين الدهشة والرغبة ، بين السخرية والتورية ، بين الرفض والزهد أو الطلب والعتاب : إن صاحب الصوت يبحث عن ذاته ، عن نفسه فى عالم عابث لاهٍ مُعادٍ . وهو يصف بمرارة وتهكم رحلته من الجنوب الأمريكى إلى الشمال ، بلا تجربة مُخْتَزنة أو خبث وضغينة ، مع تقَبُّله الساذج « لفقْدان » الشخصية كرجل أسود فى أمريكا البيضاء . ويؤكد للجميع : « لم أكن ، ولن أكون مهتمًا بالظلم وعدم المساواة ، إن ما يشغلنى فقط حب الفن » . فازت القصة بالجائزة القومية للكتاب سنة ١٩٥٢ .

Fahrenhiet 451- (1953) .

Ray Bradbury - (b . 1920)

● « ٤٥١ فهرنهيت » - ١٩٥٣

● راى برادبورى

الرواية الطويلة الوحيدة التى كتبها المؤلف ، وهى من النمط الكلاسيكى ، أخذ فكرتها من قصة قصيرة له بعنوان : « رجل الإطفاء أو الحريق – The Fireman» (١٩٥١) ، وهى فكرة طريفة عن الرقابة ، والإجازة

والمنْع فى المجتمع الشمولى الخاضع للرقابة الشديدة على حرية الفكر والرأى والتعبير ، فيكون من السهل إحراق الكتب والمؤلفات التى لا تروق للقائمين بالسلطة . وعنوان الرواية مشتق من درجة الحرارة (بمقياس فهرنهيت) التى يحترق عندها الورق . وتكمن عقدة الرواية فى رجل الحريق الذى يقضى وقته كله فى عمل واحد كالآتى : « الأشخاص الزنوج لا يحبون كذا . . اِحْرَق (الكتاب) . الأشخاص البيض لا يستريحون إلى .. اِحْرِقَ . هذا الكتاب عن التدخين والسرطان . . اِحرق . » وهكذا ، لكنه فى النهاية يتحول من حارق للكتب إلى مُنْقِذ لها ، محافظ عليها ، مدافع عنها ، وإن لم تعجبه .

استلهم السينيمائى الفرنسى « فرانسوا تروفّو » سنة ١٩٦٦ فيلما من تلك الرواية لقى نجاحا كبيرا ، وكذلك الفرقة الموسيقية للإذاعة البريطانية (BBC) استلهمت منها فكرة لسيمفونية جديدة . والرواية الأصلية تُقرر عادة على طلاب المدارس الثانوية والعالية فى الولايات المتحدة وغيرها .

Lolita - 1955

● **« لوليتا » - ١٩٥٥**

Vladimir Nabokov - (1899 - 1977)

● **فلاديمير نابوكوف**

عرض المؤلف هذه الرواية على الناشرين الأمريكيين فرفضوا جميعا . فلجأ إلى دار طباعة ونشر صغيرة فى باريس ، فقبِلت ، وأصدرتْها فى غلاف مبتكر : أخضر زيتونى اللون فصار شائعا بعد ذلك . واختلف النقاد فى

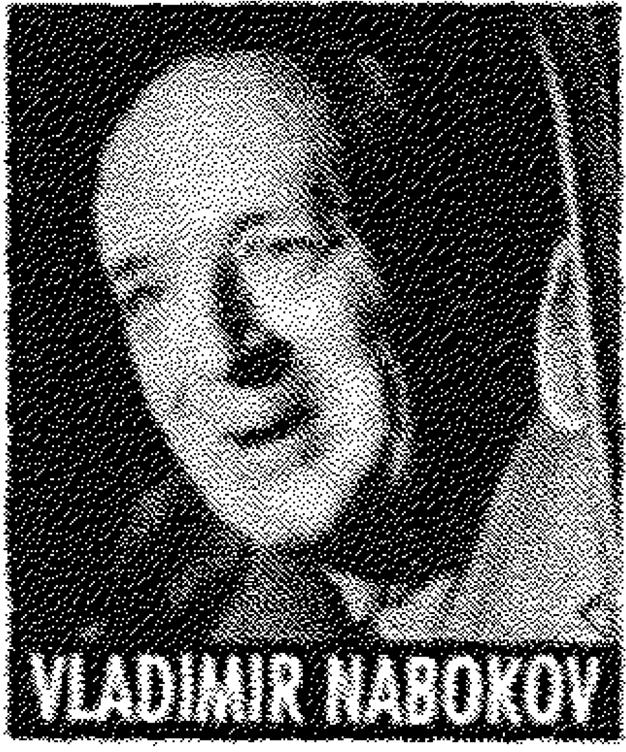
ماسـاة الرقابة الشـديدة على حـرية الفكر والرأى والتعبير فى رواية «برادبورى » : ٤٥١ فهرنهيت .

رأيهم عنها . قـال « جون جـوردون » فى صحيفة «صنداى إكسبرس » اللندنيـة : « إنها أقذر رواية قـرأتها » . وقال الروائى الناقـد الكبير « جـراهام جـرين » إنها جيـدة ومسلية . فلما صـدرت فى أمريكا سنة ١٩٥٨ ظلت لفترة طويلة على رأس قوائم المبيعات .

Vladimir Nabokov
Lolita



لوليتا – نابوكوف



ڤلاديمير نابوكوف

Ficciones - 1956

● « قصص خيالية ». ١٩٥٦

● جورج لويز بورْجس

Jorge Luis Borges - (1899-1986)

للمؤلف شهرة واسعة وتأثير أدبى فى أسبانيا وخارجها على امتداد القرن العشرين . وهذه المجموعة من القصص القصيرة كتبها عندما كان يعمل فى مكتبة صغيرة ، بعضها حكايات ميتافيزيقية تتحدى الواقع الضاغط المرهق ، وبعضها حالم أو مُغْرق فى الخيال . لكنها تتميز بجاذبية نحو تتبع اللغز أو المشكلة العارضة. تقاسم المؤلف فى سنة ١٩٦١ جائزة دولية فى الأدب مع «صامويل بِكت » .

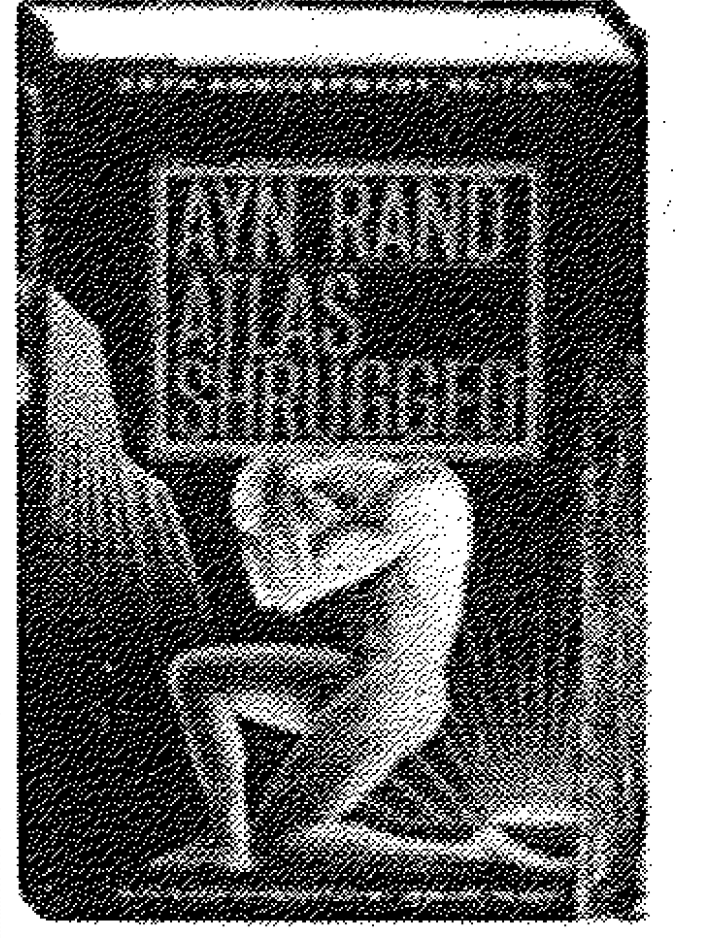
Atlas Shrugged 1957

● « أطلس اللامبالى ». ١٩٥٧

● آين راند .

Ayn Rand - (1905 - 1982)

وُلدت المؤلفة فى سان بطرسبورج بروسيا وعاصرت الثورة الروسية التى صادرت ممتلكات أسرتها ، فهاجرت إلى الولايات المتحدة سنة ١٩٢٦ ، ووجدت عملا فى صناعة أفلام الرسوم المتحركة . ثم بدأت تكتب بالإنجليزية . بعد أربع عشرة سنة من نشر روايتها الأولى « رأس النافورة » التى حققت لها بعض الشهرة ، أصدرت هذه الرواية (فى أكثر من ألف صفحة) وهى ذات رؤية قائمة عن الحياة فى الولايات المتحدة فى فترة تضافر فيها أباطرة الصناعة وتواطؤوا على إحراج الحكومة القائمة والضغط عليها حتى الاختناق حماية لمصالحهم ومكاسبهم الاستغلالية المتصاعدة . والرواية تصور أحوال وأفكار الفرد المواطن فى ظلال تلك الظروف المعقدة المعوِّقة المحطِّمة للإبداع والابتكار . وفى



غـلاف روايـة « أطلس اللامبـــالى » وهـى فى ١١٦٨ صفحة كبيرة من ثلاثة أبواب كل منهـا فى عشرة فصول .

استبيان أُجرى سنة ١٩٩١ قالت الأغلبية من الأمريكيين الذين تجاوزوا سن الشباب ، إن كتاب « أطلس اللامبالى» كان له تأثير مباشر عليهم بالدرجة الثانية بعد الإنجيل .

Things Fall Apart - (1958)

Chinua Achebe - (b . 1930)

● **« أشياء تسقط متناثرة » ـ ١٩٥٨**

● **شِينْوا أَشِبى .**

المؤلـف نيجـيرى المولـد والجنسيـة ، روائـى لـه تمـيز وشـهرة، وقصاص ، وشـاعر ، وباحث ، وتُرجم كثير من رواياته وكتبــه إلى لغـات عـديدة . عمـل فترة بالإذاعـة النيجيرية ، وفى عام ١٩٦٧ أنشأ شركـة للطباعة والنشر ، ثم طُلب زميــلا باحثـا بجــامعـة نيجيريا ثـم أستـاذا للإنجليزية حتى عام ١٩٨١ .

أول رواياتـه « أشيـاء تسقط متناثرة » ثم أعقبها برواية «سهـم الله » سنـة ١٩٦٤ ، ثـم « رجـل الشعب » سنـة ١٩٦٦ . وتحكى الروايـة الأولى قصــة « أُوكُــونْكُوو » الفـلاح الممتلئ عزة نفس ، وقـوة جسم ، وجَلَدَا فى العمل الذى يشعـر بالتمـزق بسبب تمسكه بمبـادئ أو قواعـد الإيمان والتقـوى وبعـــادات وشرائع القبيلة ، بينما هذه وتلك يراها من حوله تهوى وتتساقط واحدة بعد أخرى. فيكاد يتحطم، ونساؤه من حوله مستسلمات راضخات، وأبناؤه قلقـون ساخطون . صــدرت الرواية قبل عـامين من إعلان استقلال نيجيريا ، وأسلوبها بليغ وشائق يثير الشجن والمشـاعر ، وهى تصـور قطاعا كبيرا من حيـاة غرب أفـريقيا ، بفكر مستنير وعاطفـة صادقـة بقلم أحد الأدباء الأفارقة .

● « **الملعونون فى الأرض » ـ ١٩٦١**

Les Damnés de la Terre - 1961

● **فرنتز فانون .**

Frantz Fanon - (1925 - 1961)

كتاب أحدث ضجة فى شرق وغـرب ، وأثار أفكار وعاطفة مـلايين من الشبـاب والطـلاب المكافحين فى كل البـلاد ، وزنوج أمريكا المعذَّبين بالتطرف والعنصرية . مؤلفه من مواليـد جزيرة « مارتينيك » بـالبحر الكاريبى ، وحصل على نوط الشجاعة لقتاله البـاسل مع قوات جيش فرنسا الحرة بالحرب العالميـة الثانية . لكنه فى عـام ١٩٥٤ كان على رأس المعـارضـة للجيش الفـرنسى ومتحـدثا باسـم «جبهـة التحريـر الوطنية الجزائـرية » . وتلقى تدريبـا كطبيب نفسى ، وتولى إشرافا على المرضى نفسيا أو بدنيا بسبب أعمال قوات الاحتلال أو الاستعمار .

● « **الحريق فى المرَّة التالية » ـ ١٩٦٣**

The Fire Next Time - 1963

● **جيمس بالدوين .**

James Baldwin - (1924 - 1987)

وُلد المؤلف الأسـود فى نيـويورك ومات فى فـرنســا التى عـاش وأقـام بها معظم سنوات عمـــره هربا من إرهاب واضطهاد الأمريكيين البيض فى بلده . وهو أديب روائى ، مسرحى ، باحث ، خطيب بليـغ الأسلوب ، كـرَّس حيـاته وأعماله ومشاعره لموضــوع واحد : الاضطهاد الجنسى أو العنصرى فى أمريكا وغيرها .

نشــأ فقيرا فى حى « هـارلم » ، ومـن سـن ١٤ سنة بـدأ الالتحاق بالـوعظ الكنسى خارج أوقات الـدراسة ، وبدأ مبكرا فى كتابة أول قصة فى شبه سيرة ذاتية بعنوان :





صدِّق أو لا تصدق !..

هاتان الصورتان من الجزائر فى أوائل القرن العشرين : حسناوات فرنسيات مقيمات بقوة الاستعمار والسيطرة والقهر ، تتجولن بالملابس الأنيقة والزهور فى حديقة بمدينة الجزائر ، وسيدة فرنسية أخرى مدللة تصحب كلبها المنعَّم ، والمواطنون الجزائريون - إلى اليسار - ينظرون ويعجبون وكأنهم من فئة الدرجة الثانية أو الثالثة المتخلفة . لم يذهب إذن « فرنتز فانون » بعيدا فى روايته : « الملعونون فى الأرض » .. المستعمرون سُرَّاق الأرض ومن عليها !

«اِذْهَب وأَعْلن ذلك فــوق الجبل – ١٩٥٣ – وكــان فى سنة ١٩٤٨ رحل إلى باريس بعد أن ذاق مرارة الكدح المُضْنى من أجل الحصول على ضروريات المعيشــة وإشباع نهمه فى الأدب والثقــافــة . وفى سنة ١٩٥٨ انضم إلى حــركـة الكفــاح من أجل الحقــوق المدنيــة فى الولايات المتحــدة . وصدر له فى ١٩٦١ كتاب : « لا أحــد يعرف اسمى » عن حقيقــة العــلاقــة بين الســـود والبيض فى أمــريكا ، وهو الموضوع ذاته الـذى تدور حوله روايتــه : « بلد آخر » – ١٩٦٢ . أما كتاب : «الحريق فى المرة التــالية » فهو رواية تتناول مــوضــوع الأمـــريكيين الانفصــاليين المسلمين السود وحــركتهم المعروفـــة باسم : « أمـــة الإسـلام – Nation of Islam » مع غيرها من حــركات النضــال من أجل العــدالة والمســاواة فى الحقــوق المدنيــة . وفيــه تنبأ وحذَّر من وقوع كــارثة اجتماعية « ما لم يتحقق الأمل فى أن يتمكن عقـــلاء البيض وعقــلاء الســـود من إنهاء ليل التمييـــز العنصرى البغيض المظلم » . فإذا فشلوا ، فـــلا محيــد عن القتل ، والاغتيـــال ، والتخــريب ، والتــدمير ، والفــوضى التى تلُوح نُذُرها فى الآفــاق . وكــانت لأعماله الأدبية أصــداء واسعة وأنداء ، ولقيت إقبــالا متزايدا من نُصحاء كثيرين ونجباء .





« جيمس بالدوين »

● « **بحر سارجاسو الفسيح** » – ١٩٦٦ Wide Sargasso Sea - 1966

● **جين ريس** Jean Rhys -

وُلــدت « جين » فى « الدومينيكان » بجزر ليوارد . وهى

(1890 - 1979) أديبــة قصصية من أهالى الهند الغـربية . بدأت شهـرتهَا تلمع مع بواكير أعمالها عن الحياة البـوهيمية الأوروبية فى عَقْـدى العشرينيـات والثـلاثينيـات ، حيث سـافـرت وتنقلت بين باريس ولندن . ومن تلك الأعمال : المجموعة القصصيــة الأولى : « الجسر الشمالى » – سنة ١٩٢٧ ، ورواية : « الرعــاة » ـ ١٩٢٨ ، و« بعــد رحيل السيــد مــاكِنْـزى » – ١٩٣١ ، و « رحلة فى الظلام » – ١٩٣٤ ، و«صبـاح الخير يا منتصف الليل » – ١٩٣٩ . ثم عـادت إلى مـوطنهـا الأصلى فى الهند الغـربيـة ولاذت بالصمت محتجبةعن الناس نحـو سبع وعشرين سنة ، لتخرج من عزلتهـا بهذه الرواية : « بحر سارجـاسو الفسيح » التى حققت نجاحـا وانتشارا واسعا ، فأعـادتها إلى الأضواء (وهى رواية وثيقـة الصلة بقصـة « جين إير » للروائيـة الإنجليـزية « شـارلوت بونتـى ») وتحكى جـوانب من حيــاة المؤلفـة (على لســان بـرتا فى الرواية) الثـرية بالنضارة والتألق والوحـدة فى فترة طفولتها بجـامايكا وشبابها إلى أن قـدم فتى – روشستر – من إنجلترا فيقع فى غرام « كـريول » ويصمم على الزواج بها ، وهنا تظهر المواجهة والتضارب بين الثقافات فى سنوات قريبة العهد بتحـرير العبيـد ، وتدفع برتا راغمـة ثمن سيئات أبويها الاستعماريين .

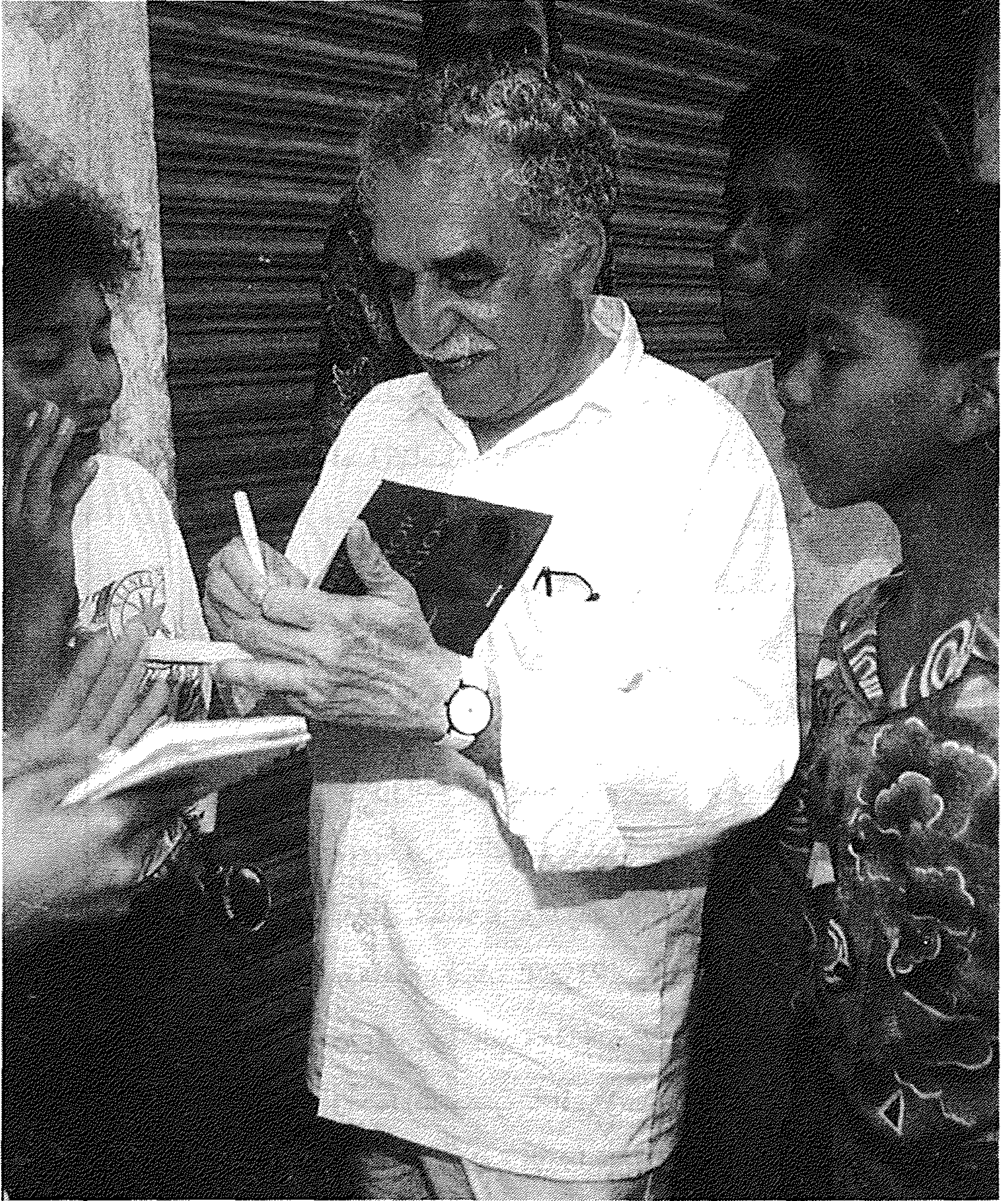
● **« مائة عام من العُزلة » ـ ١٩٦٧**

C ien años de Soledad - 1967

● **جابْرِيل جارسيا ماركيز**

Gabriel Garcia Marquez-(b. 1928) .

المؤلـف مـن أعلام الأدباء الروائيين فى أمريكا اللاتينية ، وأحد الرواد بها لحركـة « الواقعية الساحرة » ، وحـائز على جائزة نوبل فى الأدب سنـة ١٩٨٢ . وهو من مواليد



« جابريل جارسيا ماركيز » يوقع بإمضائه على بعض كتبه للشبـــاب (١٩٩٤) وينصح دائما : « اجعلـوا شعـــاركم فى الحياة : الصداقة والحب ، لا للكراهية والسخط » .

كولومبيا بمدينة « أراكاتاكا » . درس القانون والصحافة بجامعة كولومبيا فى العاصمة بوجوتا . وبدأ مسيرته الصحافية سنة ١٩٤٨ متنقلا لأكثر من عشر سنوات بين قرطاجنة ، وروما ، وباريس ، وكاراكاس ، وبوجوتا. وإلى جانب الصحافة كتب فى الستينيات للسينيما ، وناشرا فى مدينة مكسيكو ، ثم انتقل إلى برشلونة سنة ١٩٧٣ وبعد سنوات رجع إلى المكسيك . أما كتاباته القصصية فقد بدأها فى الأربعينيات .وهو غزير الإنتاج ، متجدد الفكر والخيال ، وصدرت له مجموعة قصصية فى منتصف التسعينيات ، وله تأثير كبير فى ميادين الأدب والسياسة فى كل أمريكا اللاتينية ، وقصصه ورواياته مترجمة إلى عدد من اللغات العالمية .

والرواية – « مائة عام من العزلة »– تصور الحياة فى مدينة قرب تلك التى نشأ بها تسمى : « ماكوندو » حيث تعيش عائلة « بوندياس » المنحدرة من سبعة أجيال متعاقبة ، فى شبه عزلة عن العالم ؛ لكنها فرضت طباعا وقوانين وتقاليد معقدة خاصة بها تمخضت عنها وقائع وأحداث جسيمة أفرزت خبرات إنسانية متلاحقة ومتميزة ، تشبه الأساطير أحيانا .

● **« موسم الهجرة إلى الشمال » ـ ١٩٦٩**

Mawsim al - Hijra ila al - Shamal - 1969

● **الطيب الصالح**

Tayeb EL- Salih - (b.1929)



الطيب صالح

المؤلف من أبناء المحافظة الشمالية بالسودان ، وهو روائى ومؤلف قصص قصيرة باللغة العربية . تخرج من جامعة الخرطوم ، ودرس فى لندن ، وعمل سنوات طويلة بالإذاعة ورأس قسم الدراما العربية بالإذاعة

البريطانية (BBC) . وهذه الرواية « موسم الهجرة .. » من أوائل أعماله ، لها جاذبية نثرية شعرية مَحَبَّبة ، وهى تعكس الأزمات والصراعات التى عاشتها أفريقيا المعاصرة : فى العلاقات ، والأفكار ، والمفاهيم ، وأساليب ومواد التعليم ، وتضارب الثقافة الريفية مع الثقافة الحَضَرية ، وما يترتب على ذلك مثل التعاملات بين الرجال والنساء ؛ وهى تنحو منحًى جديدا فى الأدب العربى الحديث . وتصلح أن تكون نموذجا لمحاولات المؤلف فى إيجاد ترابط وجسور بين التقاليد العربية والأفريقية والغربية .

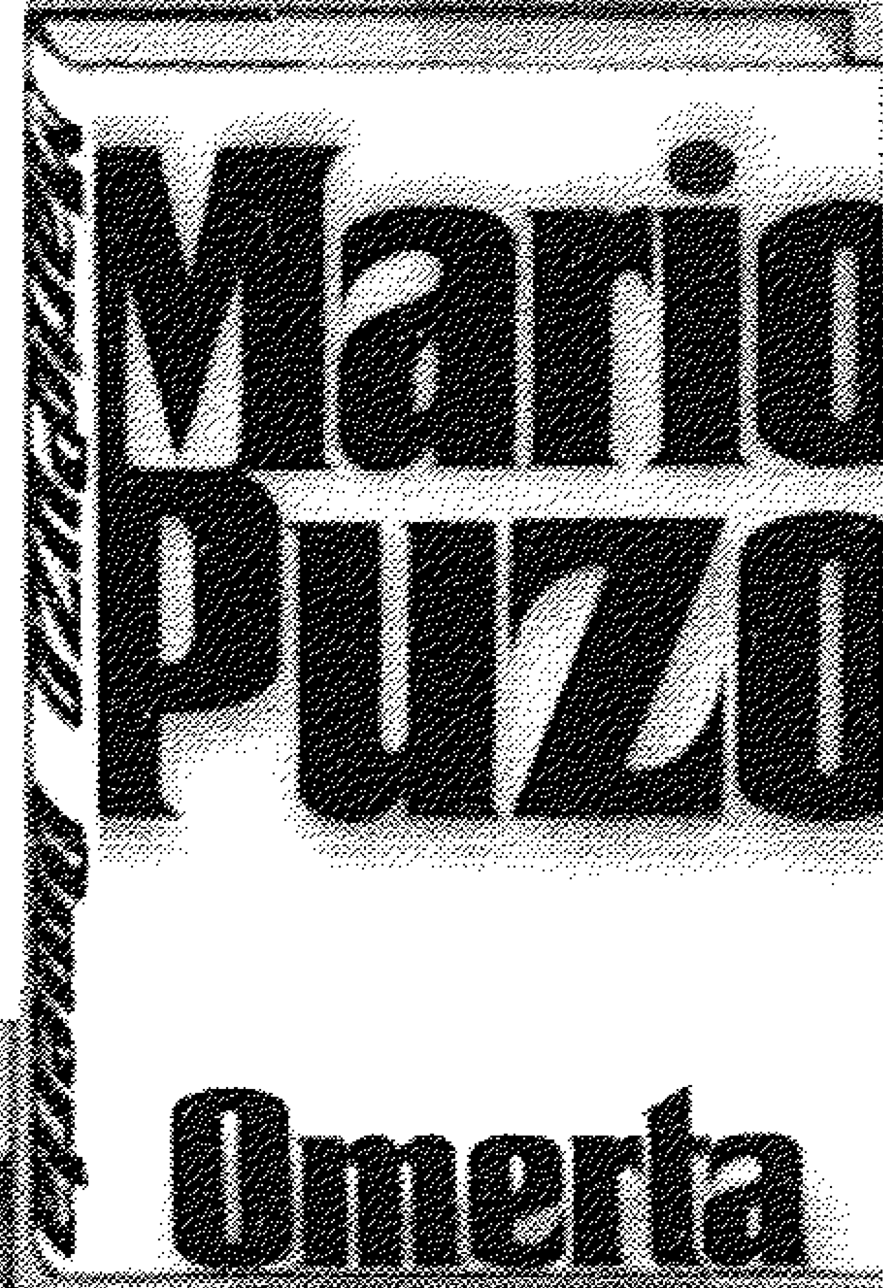
Good Father - 1969

● « **الأب الروحى** » - ١٩٦٩

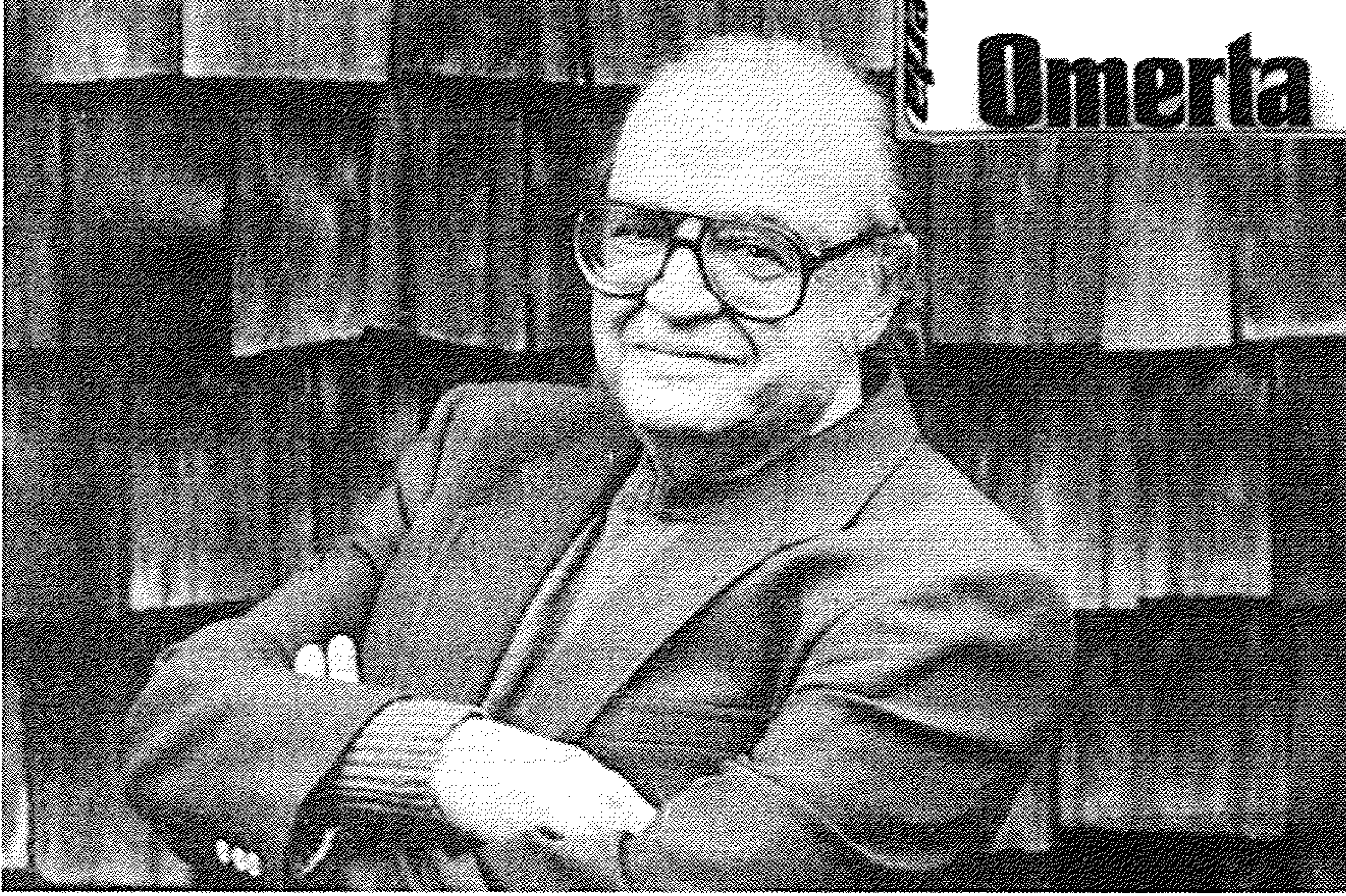
● **ماريو بوزو**

Mario Puzo - (1921 - 1999)

ذاعت شهرة المؤلف عالميا عندما أنتجت السينيما الأمريكية فى سنة ١٩٧٢ أولى ثلاثيته عن عائلة «كورليونى » المنحدرة من صقلية وتقيم بالولايات المتحدة كإحدى الأسر الكبيرة الممثلة لعصابات المافيا ولها تأثير كبير فى المجتمع وكلمة مسموعة ونفوذ فى ميادين السياسة والقضاء والشرطة والتجارة والصناعة والملاهى وأشياء أخرى . وعلى الرغم من بعض الجوانب السيئة فى حياة وأنشطة هذه العائلة ونظيراتها (القادمة من صقلية) إلا أن لها عادات وتقاليد صارمة موروثه ، ودون كورليونى ذاته (وهو مارلون براندو فى الفيلم) قدم إلى أمريكا مناديا للسيارات ثم تدرج فى الصعود حتى أصبح رب أسرة وزعيما قائدا من جماعات المافيا الكبرى ، ومن صفاته أنه « يحمل روح وقلب رجل المافيا الطموح المدبِّر الجسور ، الذى يكرم بسخاء قومه وذوى



ماريو بوزو



الحاجات ، وبكلمة منه تُحل المشكلات ، ويُسمع أمره فى الحال ويُطاع ، وهى صفات كادت تتلاشى فى عالم اليوم» . والرواية من أشهر أعمال « ماريو بوزو » الذى أتبعها بروايتين مكملتيْن ، وقد طُبع من الرواية الأولى : «الأب الطيب (أو الروحى) » ٣١ مليون نسخة بخلاف الروايتين التاليتين ، مما جعل « بوزو » أغنى كاتب فى القرن العشرين كله . وهو ذاته الذى كتب سيناريو الفيلم « الأب الروحى » الذى أخرجه «فرانسيس فدرد كوبولا» ولقى نجاحا عالميا ضخما وحقق لشركة بارامونت المنتجة أرباحا طائلة . فى الجزء الأخير من الثلاثية بعنوان : « أُمرْتا – Omerta » يعرض المؤلف للأزمة

المدمـرة لأخـلاقيات العـائلة الصقليـة المحـافظة ، حيث تنفـرط قيم « المجتمع المبجَّل » ويتراجـع قـانون الصمت الذى كـان يحافظ على تماسك العـــائلة وقـوّتها ، والكل يخون الكل ، فيكون الانحدار .

● « ثَمن العروس » - ١٩٧٦

The Bride Price - 1976

● بوتشى إمِتْشِتا

Buchi Emecheta- (b. 1944)

تعبيرا عن صـوت النساء النيجيريات اللاتى ظَلَلن لسنين طويلة خـاضعات لقهر مـزدوج : من الأقرباء الـرجال ، ومن المستعمرين الغـرباء ، كتبت « بوتشى » عددا كبيرا من القصص والروايات المدهشة ، منهـا هذه القصة التى تحمل فى ثناياها تسجيـلا واقعيا لحكاية شـديدة الإثارة تصلح أن تكون أنشودة شعبية .



فى نيجيريا وكثير من دول أفــريقيـا تتعرض بعض النســاء لمآسى الفقر والقهـر والسيطرة ، بـل إن حـوادث خطفهن مع أطفالهن تزداد وتنتشر، لبيعهن نقـدا فى سوق رائجـة ، حتى نهاية القـرن العشريـن ! والصـورة لنســـاء (مـــايـو ١٩٩٩) أمكن إرجاعهن بعد بيعهن .

والنساء فى قصص « بوتشى » كأنهن كائنات أقرب إلى الأشيـاء والممتلكات . إذ لم تُتح لهن فُـرص مناسبـة لاكتسـاب خبرات جـديدة أو قِيـم مستحـدثة . ومن أهم الأسبـاب المانعـة من تحقيق ذلـك : أن رجـالهن يستمسكون بحقـوقهم التقليـدية المتـوارثة فى السيـادة والسيطرة الكـاملة على الأسرة . وفى روايتهـا « ثمن العروس » تتلقـى الفتاة الذكية المهـذبة « أكُونّا » عقـابا مروِّعا لأنها أصرت على الارتباط – بالزواج – بزميل لها فى الدراسة لكنه من طبقة اجتماعيـة أقل مستوى ، وكان مـوقف زوج أمها الرافض سببـا فى إصدار قـرار الأسرة بقتلها . وقد حظيت قصص وروايات « بوتشى إِمتشتا » بشهـرة خـارج نيجيريا لمشـابهة أحـوال المرأة هناك بأحوال نساء كثيرات فى بلاد مختلفة من العالم .

Me Ilamo Rigoberta Menchú y asi me nacio Conciencia - 1983

● **« أنا ، ريجوبرتا مِنشو » - ١٩٨٣**

Rigoberta Menchu- (b . 1959)

● **ريجوبرتا مِنشو**

بعد مـا تلقت المؤلفة جـائزة نوبل للسـلام سنة ١٩٩٢ ، انهالت عليهـا الرسـائل وباقـات الورود من المُعْجبين والمعجبات ، لكن بعض هذه الباقـات حملْت معها عبارات مثل : « إنها زهور سـوف تـوضع على قبرك » . كـانت تسكن فى بيت متواضع بحـى فقير بمدينة مكسيكو حيث كـانـت تعيش بالمنفـى ، مطارَدَة مـن أطراف الصراع الدموى فى بلدها جـواتيمالا . كان لها دور بارز نشيط فى مجتمعها الهندى الوطنى ، وهذا الكتـاب الذى نال شهرة عالمية كبيرة أقرب إلى الاعتراف الشخصى منه إلى السيرة الروائيـة الذاتيـة ، أرادت به أن تلفت الأنظار إلى قضيـة مجتمعها الممزق ، وفيه تحكى عن طفولتها وتصف كيف

قُتل أبواها مع مائة وخمسين ألف مواطن من الهنود الأصليين بأيدى جنود الجيش الجواتيمالى الذى أعلن حرب الإبادة على هؤلاء المواطنين التعساء لحساب أصحاب الأراضى والممتلكات الشاسعة من طبقة الصفوة .



ريجوبرتا منشو : حفيدة بقايا الأحياء التعساء الذين نجوا – بمعجزة – من مذابح المستعمرين الأسبان فى جواتيمالا وقد أبادوا من قومها «الهنود» المواطنين الأصليين أكثر من مائة وخمسين ألفا ، مثلما فعل الأمريكيون مع «الهنود الحمر» ، والأوروبيون مع الأفارقة .

● « **الحبيب** » - ١٩٨٤ L'Amant - 1984.

● مارجريت دورا

Marguerit Duras - (b .1914)

بعد أن صفقت لها الجماهير عن قصتها لفيلم « هيروشيما حُبى - Hiroshima mon amour » ،

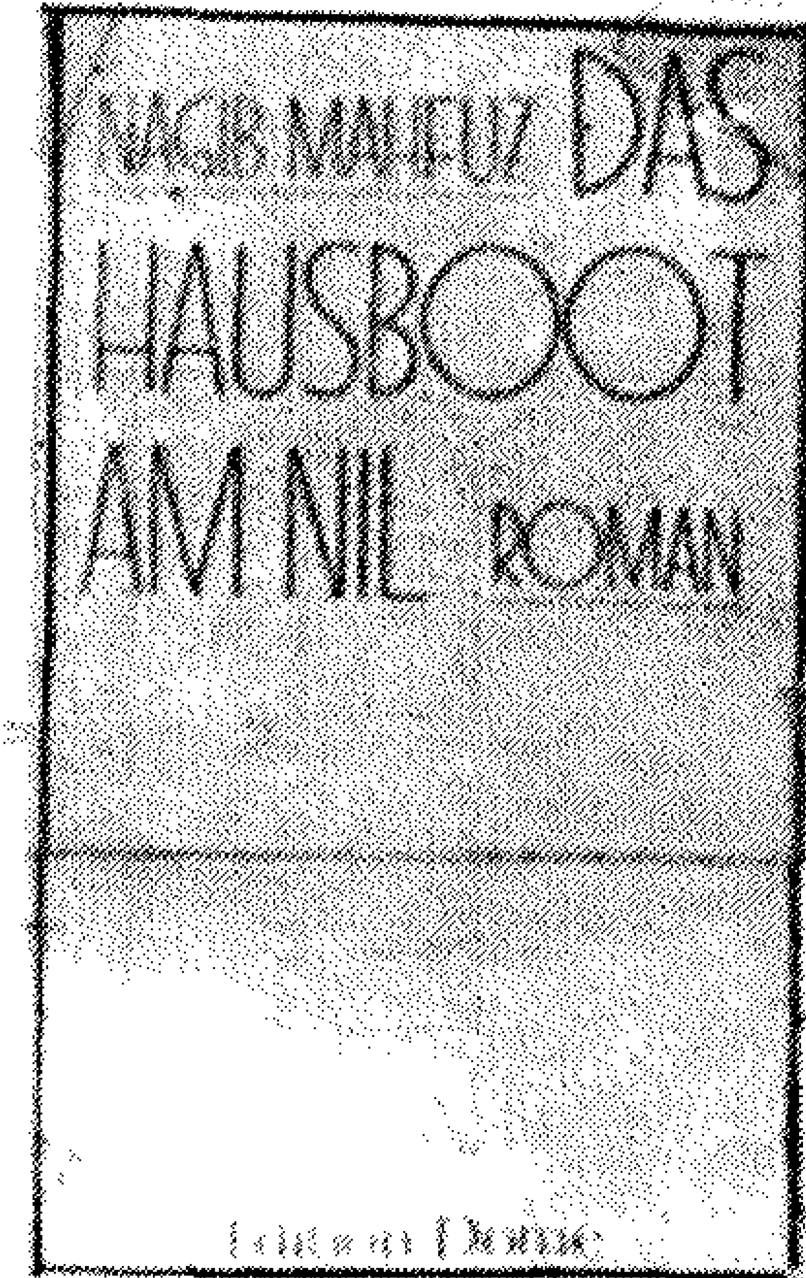
واصلت «مارجريت دورا» كتابتها القصصية فى موضوعات اختارتها للمعالجة الروائية ، مثل : الرغبة ، الحب ، التطرف الأحمق فى المشاعر ، الفشل السياسى . . تدور أحداث رواية «الحبيب» بالقرب من سايجون (فيتنام) حيث نشأت «مارجريت دورا» نفسها ، وهى تحكى عن رجل صينى ثرى وابنة مستعمر فرنسى أقرب إلى الفقر . وتعترض هذا الحب الفطرى الغامر مشكلات صعبة مثل الدوافع العِرْقية (اختلاف الجنس والثقافة والموطن) ، والعداء الكامن فى نفوس الأسر الصينية الفيتنامية ضد المستعمرين الفرنسيين ، وفى الوقت ذاته تؤدى الضغوط الحاكمة القائمة إلى صعوبات وسلوك يشبه الحماقة والجنون .

... ...

بعض اغلفة الكتب التى ترجمت عن روايات محفوظ .













سنة ١٩٨٨ : فاز نجيب محفوظ بجائزة نوبل فى الآداب .



تضم قائمة هذه الكتب المائة المختارة من أشهر مؤلفات القرن العشرين ، عددا من الكتب السياسية لزعماء من أمثال :

● المهاتما غاندى : « Satyagraha – المقاومة السلمية » .

● أدولف هتلر : « Mein Kampf – كفاحى » .

● وينستون تشرشل : « The Gathering Storm – العاصفة المجمِّعَة » .

● ماو تسى تونج : « Quotations from Chairman Mao – مقتبسات من الرئيس ماو » ، طبع منه مئات الملايين من النسخ .


Malcom
مالكوم إكس

● مالكوم إكس (الزعيم الأمريكى المسلم) : « The Autobigraphy of Malcom – السيرة الذاتية لمالكوم».

● وتضم أيضا كتبا علمية عظيمة القيمة مثل :

● مارى كورى : « Traité de Radioactivité – بحث عن النشاط الإشعاعى » .

(حازت على جائزة نوبل فى الفيزياء سنة ١٩٠٩ ، ثم على جائزة نوبل فى الكيمياء سنة ١٩١١ – وهى الوحيدة فى العالم التى حصلت على الجائزتين) .

● ألبرت أينشتين : The Meaning of Relativity – معنى النِّسْبية (حائز على جائزة نوبل فى الفيزياء سنة ١٩٢١) .

● موريس ميترلينْك : « La vie des Abeilles – حياة النحل » .

(فاز بجائزة نوبل فى الأدب سنة ١٩١١) .

قائمة بأسماء الحاصلين على جائزة نوبل فى الآداب منذ إنشائها سنة ١٩٠١ ، وموطن كل منهم باختصار .

Literature

1998 José Saramago, Por.
1997 Dario Fo, It.
1996 Wislawa Szymborska, Pol.
1995 Seamus Heaney, Ir.
1994 Kenzaburo Oe, Jpn.
1993 Toni Morrison, U.S.
1992 Derek Walcott, W. Ind.
1991 Nadine Gordimer, S. Afr.
1990 Octavio Paz, Mex.
1989 Camilo José Cela, Span.
1988 Naguib Mahfouz, Egy.
1987 Joseph Brodsky, USSR-U.S.
1986 Wole Soyinka, Nig.
1985 Claude Simon, Fr.
1984 Jaroslav Siefert, Czech.
1983 William Golding, Br.
1982 Gabriel Garcia Marquez, Colombian-Mex.
1981 Elias Canetti, Bulg.-Br.
1980 Czeslaw Milosz, Pol.-U.S.
1979 Odysseus Elytis, Gk.
1978 Isaac Bashevis Singer, U.S.
1977 Vicente Aleixandre, Span.
1976 Saul Bellow, U.S.
1975 Eugenio Montale, It.
1974 Eyvind Johnson, Harry Edmund Martinson, both Swed.
1973 Patrick White, Austral.
1972 Heinrich Böll, Ger.
1971 Pablo Neruda, Chil.
1970 Aleksandr I. Solzhenitsyn, USSR
1969 Samuel Beckett, Ir.
1968 Yasunari Kawabata, Jpn.
1967 Miguel Angel Asturias, Guat.
1966 Samuel Joseph Agnon, Isr.; Nelly Sachs, Swed.
1965 Mikhail Sholokhov, USSR
1964 Jean Paul Sartre, Fr. (declined)
1963 Giorgos Seferis, Gk.
1962 John Steinbeck, U.S.
1961 Ivo Andric, Yugo.
1960 Saint-John Perse, Fr.
1959 Salvatore Quasimodo, It.
1958 Boris L. Pasternak, USSR (declined)
1957 Albert Camus, Fr.
1956 Juan Ramon Jimenez, Span.
1955 Halldor K. Laxness, Ice.
1954 Ernest Hemingway, U.S.
1953 Sir Winston Churchill, Br.
1952 Francois Mauriac, Fr.
1951 Par F. Lagerkvist, Swed.
1950 Bertrand Russell, Br.
1949 William Faulkner, U.S.
1948 T.S. Eliot, Br.
1947 Andre Gide, Fr.
1946 Hermann Hesse, Ger.-Swiss
1945 Gabriela Mistral, Chil.
1944 Johannes V. Jensen, Dan.
1939 Frans E. Sillanpaa, Fin.
1938 Pearl S. Buck, U.S.
1937 Roger Martin du Gard, Fr.
1936 Eugene O'Neill, U.S.
1934 Luigi Pirandello, It.
1933 Ivan A. Bunin, USSR
1932 John Galsworthy, Br.
1931 Erik A. Karlfeldt, Swed.
1930 Sinclair Lewis, U.S.
1929 Thomas Mann, Ger.
1928 Sigrid Undset, Nor.
1927 Henri Bergson, Fr.
1926 Grazia Deledda, It.
1925 George Bernard Shaw, Ir.-Br.
1924 Wladyslaw S. Reymont, Pol.
1923 William Butler Yeats, Ir.
1922 Jacinto Benavente, Span.
1921 Anatole France, Fr.
1920 Knut Hamsun, Nor.
1919 Carl F. G. Spitteler, Swiss
1917 Karl A. Gjellerup, Henrik Pontoppidan, both Dan.
1916 Verner von Heidenstam, Swed.
1915 Romain Rolland, Fr.
1913 Rabindranath Tagore, Indian
1912 Gerhart Hauptmann, Ger.
1911 Maurice Maeterlinck, Belg.
1910 Paul J. L. Heyse, Ger.
1909 Selma Lagerlof, Swed.
1908 Rudolf C. Eucken, Ger.
1907 Rudyard Kipling, Br.
1906 Giosue Carducci, It.
1905 Henryk Sienkiewicz, Pol.
1904 Frederic Mistral, Fr.; Jose Echegaray, Span.
1903 Bjornsterne Bjornson, Nor.
1902 Theodor Mommsen, Ger.
1901 Rene F. A. Sully Prudhomme, Fr.

الفائزون بجوائز نوبل فى الآداب

١٩٠١ رينه سولى برودوم (فـرنسا) – René Sully Prudhomine
١٩٠٢ تيـودور مُـومْسِن (ألمانيـا) – Theodor Mommsen
١٩٠٣ بجورنسترن بجورنسن (النرويج) – Bjornsterne Bjornson
١٩٠٤ فـردريك ميسـترال (فـرنسـا) – Frederic Mistral
وجـوزيه إشنجـاراى (أسبـانيـا) – José Echengaray
١٩٠٥ هنريك سينكيـويـز (بولندا) – Henryk Sienkiewicz
١٩٠٦ جيـوزوى كـاردوتشـى (إيطاليـا) – Giosué Carducci
١٩٠٧ روديارد كيبلينج (بـريطانيـا) – Rudyard Kipling
١٩٠٨ رودولف إيوكن (ألمانيـا) – Rudolf Eucken
١٩٠٩ سِلْما لاجـرلوف (السـويد) – Selma Lagerlöf
١٩١٠ بول هِيْسـه (ألمانيـا) – Paul Heyse
١٩١١ مـوريـس ميترلينك (بلجيكا) Maurice Maeterlinck
١٩١٢ جـرهارت هويتمان (ألمانيـا) – Gerhart Hauptmann
١٩١٣ رابيندرانـات طاغـور (الهند) – Rabindranath Tagor

١٩١٤	(لم تُمنح)	
١٩١٥	رومـان رولان (فـرنسـا) -	Romain Rolland
١٩١٦	فرنر فون هيـدنستام (السويد)	Verner Von Heidenstam
١٩١٧	كـارل جـللروب (الدنمارك)	Karl Gjellerup
	وهنريك بونتـوبيـدان (الدانمارك)	Henrik Pontoppidan
١٩١٨	(لم تُمنح)	
١٩١٩	كـارل سبيتلر (سـويسرا) -	Carl Spitteler
١٩٢٠	كنوت هامســون (النرويج) -	Knut Hamsun
١٩٢١	أناتول فـرانس (فـرنسـا) -	Anatole France
١٩٢٢	خاسينتو بنافينتى (أسبانيا) -	Jacinto Benavente
١٩٢٣	ويليـام بتلـر بيتس (أيرلندا) -	William Butler Yeats
١٩٢٤	فـلاديـسـلاف ريمـونت (بولندا) -	Wladyslaw Reymont
١٩٢٥	جورج برناردشو (أيرلندى بريطانى)-	George Bernard Shaw
١٩٢٦	جـراتسيا دِلِدًا (إيطاليـا) -	Grazia Deledda
١٩٢٧	هنرى برجسـون (فـرنسـا) -	Henry Bergson
١٩٢٨	سيجـريـد أُنجست (النرويج) -	Sigrid Ungset
١٩٢٩	تومـاس مانّ (ألمانيـا) -	Thomas Mann
١٩٣٠	سينكلير لويس (الولايات المتحدة الأمريكية) -	Sinclair Lewis
١٩٣١	إريك كـارلفيد (السـويد) -	Erik Karlfeldt
١٩٣٢	جـون جالسـوورثى (بريطانيـا) -	John Galsworthy
١٩٣٣	إيفـان بونين (الاتحاد السـوفييتى) -	Ivan Bunin
١٩٣٤	لويجى بيراندللو (إيطـاليـا) -	Luigi Pirandello
١٩٣٥	(لم تُمنح)	

١٩٣٦ أُوجِن أُونيل (الولايات المتحدة الأمريكية) Eugene O'Neil

١٩٣٧ روجيه مارتان دو جار (فرنسا) – Roger Martin du Gard

١٩٣٨ بيرل بك (و. م. الأمريكية) – Pearl Buck

١٩٣٩ فرانز سيللا نْباآ (فنلندا) – Frans Sillanpää

١٩٤٠ إلى ١٩٤٣ لم تُمنح الجائزة بسبب الحرب العالمية الثانية

١٩٤٤ جوهانس جنسن (الدنمارك) – Johannes Jensen

١٩٤٥ جابريلا ميسترال (شيلى) – Gabriela Mistral

١٩٤٦ هرمان هِسّه (ألمانى سويسرى) – Hermann Hesse

١٩٤٧ أندريه جِيدْ (فرنسا) – André Gide

١٩٤٨ ت. س. إليوت (إنجلترا) – T. S. Eliot

١٩٤٩ ويليام فولكنر (و. م. الأمريكية) – William Faulkner

١٩٥٠ برتراند رسل (بريطانيا) – Bertand Russel

١٩٥١ بآر لاجركفيست (السويد) -- Pär Lagerkvist

١٩٥٢ فرانسوا مورياك (فرنسا) – François Mauriac

١٩٥٣ وينستون تشرشل (إنجلترا) – Winston Churchil

١٩٥٤ إرنست همينجواى (و. م. الأمريكية) –

Ernest Hemingway

١٩٥٥ هاللدور لاكسنس (أيسلندا) – Halldor Laxness

١٩٥٦ خوان رامون خيمنز (أسبانيا) – Juan Ramon Jimenez

١٩٥٧ ألبير كامو (فرنسا) – Albert Camus

١٩٥٨ بوريس باسترناك (الاتحاد السوفييتى) – Boris Pasternak

(رُفضت الجائزة) .

١٩٥٩ سالفاتورى كاسيمودو (إيطاليا) – Salvatore Quasimodo

١٩٦٠ سان – جون بيرز (فرنسا) – Sant - John Perse

١٩٦١ إيفو أندريك (يوغوسلافيا) – Ivo Andric

١٩٦٢ جـون شتاينبك (و. م. الأمريكيـة) – John Stienbeck

١٩٦٣ جيـورجيوس سفـريس (اليـونان) – Giorgios Seferis

١٩٦٤ جـان بول سارتـر (فرنسـا) – Jean Paul Sartre
(رفض الجائزة) .

١٩٦٥ ميخائيل شولوخوف (الاتحاد السوفييتى) –
Mikhail Sholokhov

١٩٦٦ صامويل جوزيف أجنون (إسرائيل) –
Samuel Joseph Agnon

و/ نللى ساش (السـويد) –/ Nelly Sachs

١٩٦٧ ميجويل أنجل أستورياس (جواتيمالا) –
Miguel Angel Asturias

١٩٦٨ ياسونارى كاواباتا (اليابان) – Ysunari Kawabata

١٩٦٩ صـامـويل بِكِت (أيرلندا) – Samuel Beckett

١٩٧٠ ألكسندر سولزنتسين (الاتحاد السوفييتى) –
Aleksandr Solzhenitsyn

١٩٧١ بابلو نِرودا (شيلى) – Pablo Neruda

١٩٧٢ هينريش بول (ألمانيا) – Herich Böll

١٩٧٣ باتريك وايت (أستراليا) – Patrick White

١٩٧٤ إيفيند جـونسـون (السـويد) – Eyvend Johson
وهارى إدموند مارتينسون (السويد) –
Harry Edmond Martinson

١٩٧٥ إيوجينو مونتالى (إيطاليا) – Eugenio Montale

١٩٧٦ سول بلّاو (و. م. الأمريكية) – Saul Bellow

١٩٧٧ فيسنت أليكسندر (أسبـــانيـا) – Vicente Aleixandre

١٩٧٨ إيزاك باشفيس سينجر (و. م. الأمريكية) –

Isaac Bashevis Singer

١٩٧٩ أوديسيـوس إليتيس (اليـــونان) – Odysseus Elytis

١٩٨٠ تشـــلاو ميلوســز (بـولندى أمـريكى) – Czeslaw Milosz

١٩٨١ إليـاس كـانتّى (بلغـارى بريطانى) – Elias Canetti

١٩٨٢ جابريل جارسيا ماركيز (كولومبى مكسيكى) –

Gabriel Garcia Marquez

١٩٨٣ ويليـام جـولدينج (بريطلنيـا) – William Golding

١٩٨٤ ياروسلاف سيفرت (تشيكوسلوفاكيا) –Jaroslav Siefert

١٩٨٥ كلود سيمـون (فرنســا) – Claude Simon

١٩٨٦ وول ســوينيكا (نيجيريا) – Wole Soyinika

١٩٨٧ جوزيف برودسكى (روسى – أمريكى) –

Joseph Brodsky

١٩٨٨ نجيب محفـوظ (مصر) – Naguib Mahfouz

١٩٨٩ كـاميلو خوزيه سِــلا (أسبانيـا) – Camilo José Cela

١٩٩٠ أوكتـافيـو باز (المكسيك) – Octavio Paz

١٩٩١ نادين جـورديمـر (جنوب أفريقيـا) – Nadine Gordimr

١٩٩٢ دِرك والكوت (ترينيـداد) – Derek Walcott

١٩٩٣ تونى مـوريســون (و. م. الأمريكيـة) – Toni Morrison

١٩٩٤ كنزابورو أُووِ (اليـابان) – Kenzaburo Oe

١٩٩٥ سيـامـوس هينى (أيرلندا) – Seamus Heaney

١٩٩٦ ويسلاوا شيمبـورسكا (بولندا) –Wislawa Szymborska

١٩٩٧ داريو فو (إيطـاليا) – Dario Fo

١٩٩٨ خـوزيه ساراما جو (البرتغـال) – José Saramago



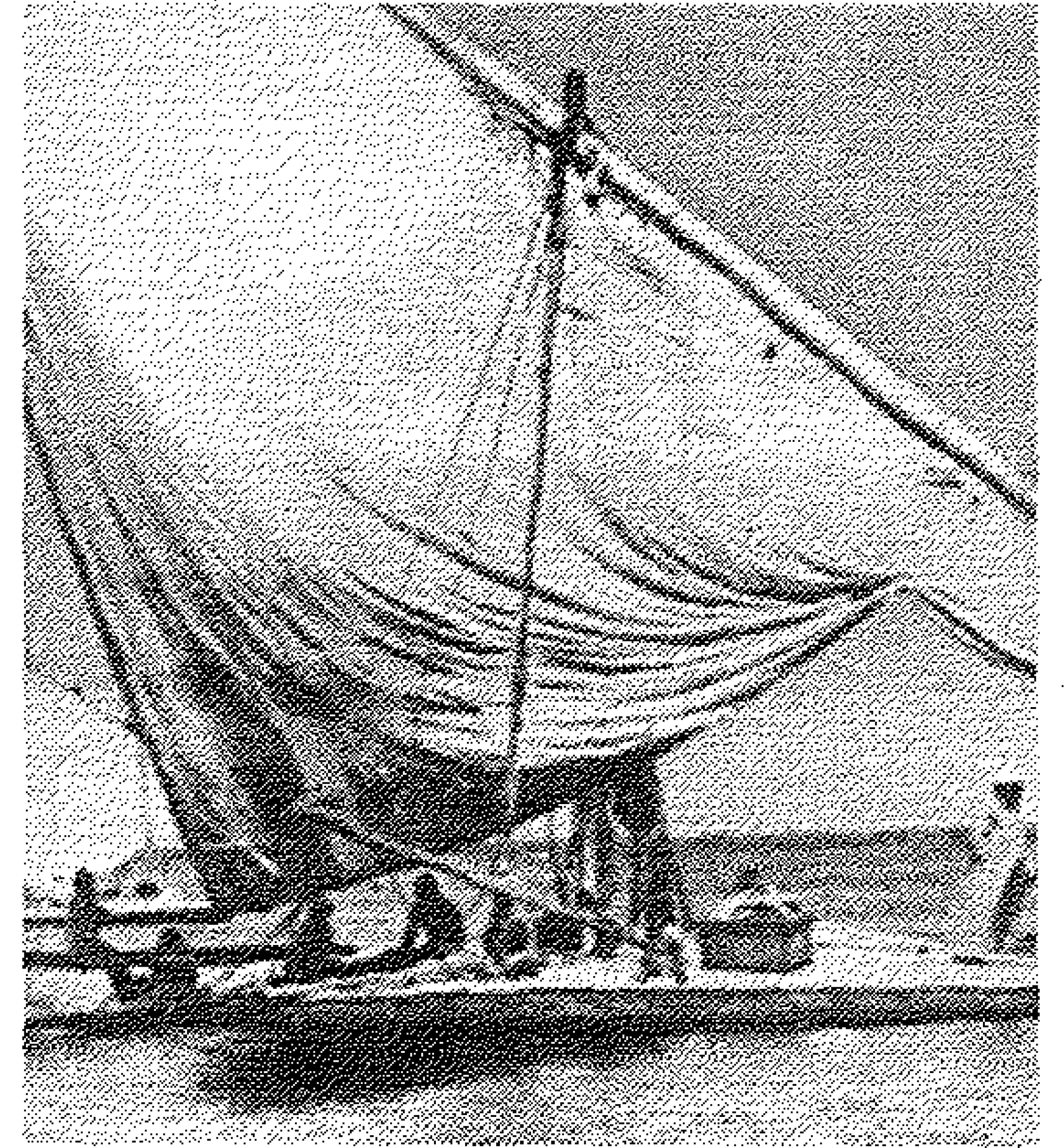
حوار مع نجيب محفوظ



نجيب محفوظ

[في ٢٢ ديسمبر سنة ٢٠٠٠ نشرت مجلة « Le Point » الفرنسية حوارا مع الأديب المصرى « نجيب محفوظ » ، وهو مُخْتَصر غير مُبْتَسَر ، وفيه يُلقى الروائى الكبير أضواء كاشفة على جوانب من حياته وشخصيته وطفولته وأساتذته ، ثم على تطوره مع القصة والأدب ، ونظراته في السياسة والفكر والعصر والمجتمع . لذا يَحْسن أن يكون هذا الحوار القيم - بما يحويه - خاتمة لموضوعات الكتاب . وهاك نص ما نُشر مترجما عن الأصل الفرنسى] .

على شاطئ النيل ، بالقاهرة الحديثة ، يعيش سيد عجوز فى سن التاسعة والثمانين ، لم يَعُد يكتب اليوم إلا بعض « الخواطر » . كلمة جميلة من معاناة كبيرة . لأن « نجيب محفوظ » - أب الرواية العربية الحديثة والحائز على جائزة « نوبل » فى الأدب ١٩٨٨ و« ثلاثيته » الملحمية فى ألف صفحة عن


شراع على النيل

أسرة قاهرية فى ثلاثة أجيال - لم يَعُد قادرا على الكتابة . فإن الطعنة التى أنفــذها متطرف فى أسفل رقبتـه - فى أكتـوبر ١٩٩٤ - أعـاقتْه عن استخـدام يده اليمنى ، فقضى ثمانيـة عشر شهـرا قبل أن يتمكن مـرة أخـرى بصعـوبة من خط حـروف مقروءة . وفـوق هذا ، لا يستطيع الإمسـاك بالقلم لأكثـر من ثلاثين دقيقة متصلة . إن الكـاتب الغزير الإنتـاج [مـؤلف ٥٣ رواية و٥ مسرحيـات] لم يكتب بعـد ذلك إلا حكايات قصيرة جدا ، من « لآلئ صغيرة » كما يقول صديقه الكاتب المسرحى « محمد سلماوى » ...

● المجلة : كيف جاءتك الرغبة فى الكتابة ؟

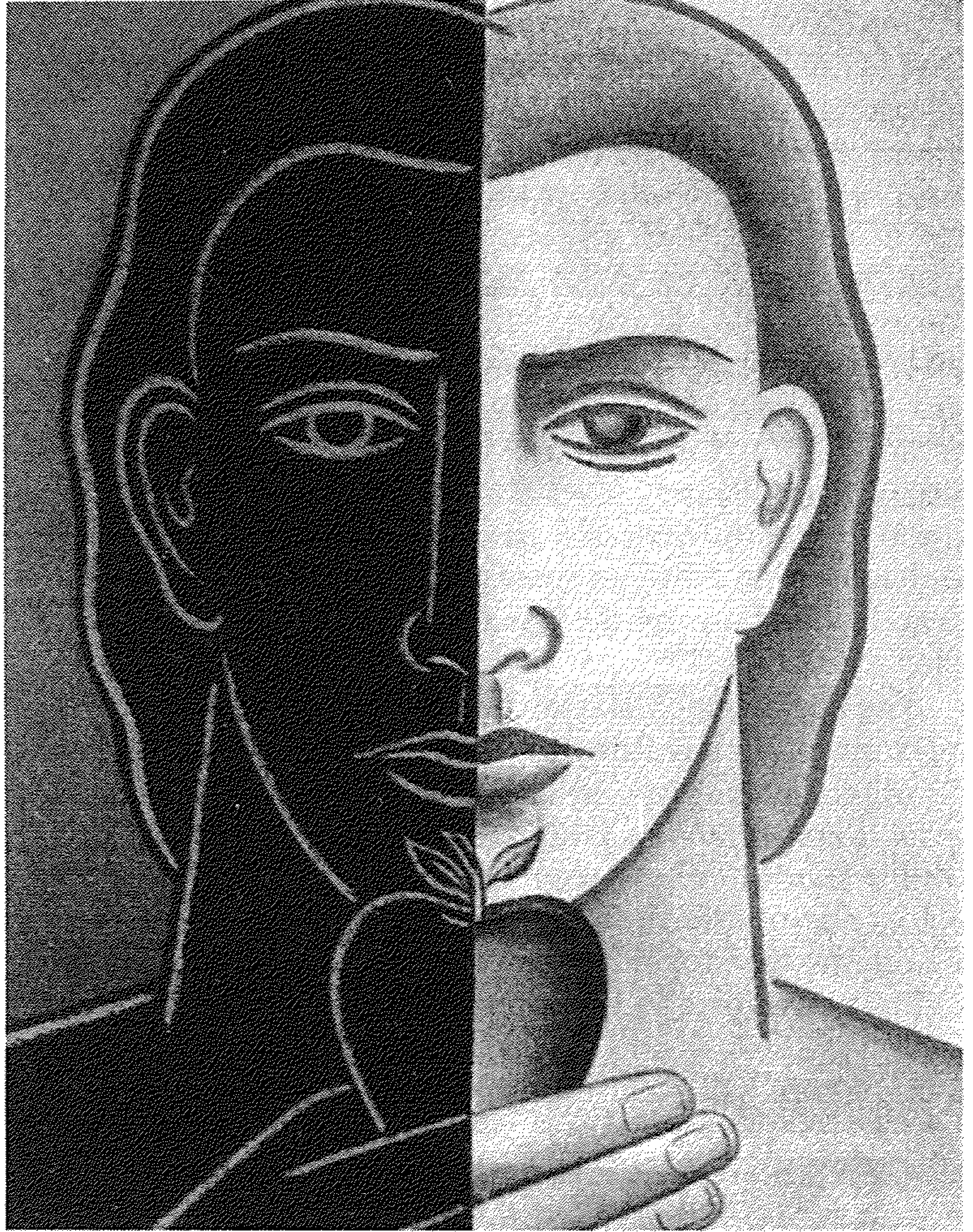

نجيب محفوظ طالب بالمدرسة

- نجيب محفـوظ : مصادفة . كنت فى سـن الثانية عشرة حينما شـاهدْتُ بيد زميل فى أثناء الفسحة المدرسية كتابا يختلف عن كتبنا المدرسية . فسألته (عنه) فأجـاب : « إنه رواية . سـأُعيره لك » . ومنذ لحظة قـراءته لم أتوقف عن القـراءة حتى وقت أن ضَعف بصرى . وفى صِغَـرى كنت أنسخ القصص وأضع اسمى مكان اسم المؤلف [يضحك] . فلما بلغْتُ سن التاسعة عشرة ، بدأت أكتب .

● عندمـا بدأت تكتب عن الناس البسطاء فى القـاهرة ، ماذا كـان يدور فى خلفية ذهنك ؟

- الكاتب ينظر حــوله ، ويَرى كثيرا من الأشيـاء أو الأمــور ، ثم يَرْوى بعض الوقــائـع . وأنا لا أضع هذا المســار وفْـق منهج معين : شيــوعى ، اشتراكى .. فأنا أَهْوَى العـدالة والحرية . ولقد تساءل زمـلائى - فى سنوات الستينيات - فقـالوا : « ماذا يجب علينا أن نختار : نُـؤْثر الحرية على العدالة التى نُضَحى بها أم العكس بـأن نطَبق عـدالة صـارمــة تمحق الحرية ؟ » . وأظهرَتْ الحياة صدق نظرتى . بعد عدة سنوات من القهر ، أصرتْ الشعوب على التمسك بالحرية . وليست الحرية أبدا مَدْعاة لغيبة العدالة .

كان السؤال :
هل تختار
الحرية أَمْ
العدالة؟



● يُسمونك « إميل زولا » اللغة العربية . فما رأيك ؟

– قرأتُ « زولا » ، و« بلزاك » ، و« ديكنز ». أنا تلميذهم . هؤلاء أساتذتى. لكن لا أدرى مَن ألهمنى منهم .

● بعد أن كتبتَ روايات واقعية ، بدأت كتابة روايات فلسفية . لماذا ؟

– تطوُّر الحياة . المرء يبدأ بتأمل الحياة ، ثم ينتقدها ويفكر فيها .

● تلعب السياسة دورا مُهما فى أعمالك ، ألم تحاول ممارستها ؟

– ليس لدىَّ ميل إلى لقاء الجمهور وكتابة خُطب . لستُ من خطباء المنابر . إن رسالتى هى الأدب ، وأَرْقب السياسة من بعيد .



شارلز ديكنز



إميل زولا


حسن البنا

● كيف كانت حياتك فى عهد (جمال) عبد الناصر ؟

– إننى مع الديمـوقـراطيـة وأرفض أى نظام يخالف هذا المبدأ . كـانت السلطة قاسية نحو أولئك الذين هاجموها : الشيوعيين والإخوان المسلمين . ولستُ أنتمى إلى تلك الحركـات . كـان النظام يعـرف أننى مخلص فى نقـدى وليست عندى مشكلـة . وأظن أن النظام كـــانت له سمات إيجابيــة ، لكنى أسفْتُ كثيرا أن « ناصر » حَصَر الـديمـــوقــراطيــة . ولهذا السبب وُئـــدت أيدلوجيته .

● وماذا تتبقَّى من الناصرية ؟

– [ضحك بشدة] الناصرية ؟ ما هى ؟

● هل كان من الممكن أن يختلف تاريخ مصر ؟

– هذا مـؤكد . لـو كان الملك فـاروق شخصيـة مختلفة ، لعـرفَتْ البـلاد مصيرا مغايرا . ولكانت السياسة أكثر حداثة . ولم نكن فى حاجة إلى مساعدة خارجية . ولكان نموُّنا بطريقة طبيعية ، بدون انقلاب عسكرى .

● إن « قاهرة » الثلاثينيات والأربعينيات كـانت فى عيون الغربيين رائعة متألقة ..


الملك فاروق


جمال عبد الناصر

– هذا صحيح . كانت القاهرة آنذاك مدينة صغيرة ، أنيقة ، مُسْتَحَبة ، فى مبانيها كثير من الجمال الساحر ، وحتى الأحياء الشعبية كانت تُكنس وتُنظف مرتين يوميا .



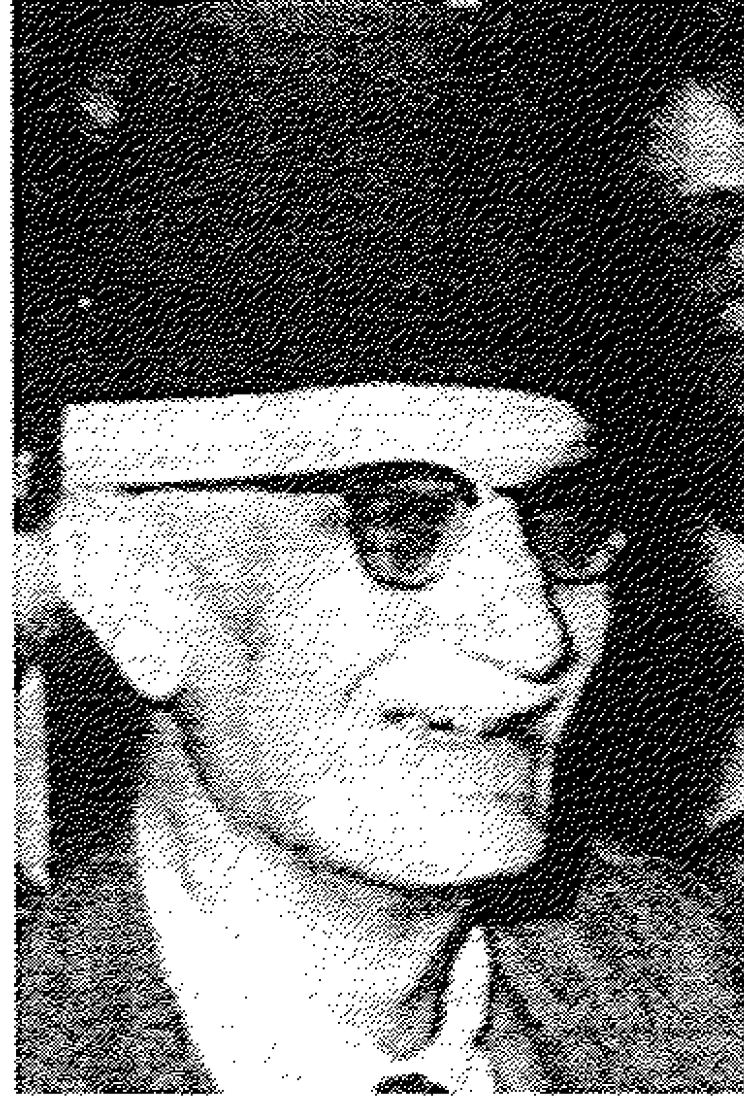
كانت القاهرة فى الثلاثينيات والأربعينيات متألقة ، نظيفة ، أنيقة – ميدان الأوبرا (التى احترقت) وتمثال إبراهيم باشا.

● فى سنوات الثلاثينيات أراد المثقفون الإسلاميون تحديث المجتمع . فهل كنت تشاطر هذا الرأى ؟

د. حسين هيكل



عباس العقاد



د. طه حسين



– بالتأكيد . فجميع الرواد الذين صاغونا ، الذين كانوا أساتذتنا فى الفكر [طه حسين ، عباس العقاد ، هيكل باشا ، سلامة موسى] نادوا بتحديث المجتمع ، بالتجديد ، بإمكانية تغيير مصر وتنميتها . وهذا ما حدث تقريبا منذ « محمد على (باشا) » . إن أكثر من نصف هؤلاء المثقفين كانوا معتدلين ورغبوا فى الاستلهام من الغرب أو النظرة نحوه مع الحرص على الاحتفاظ بالنافع من حضارتنا . ومن النصف الآخر كان المتطرفون . وانقسم هؤلاء إلى فريقين : فريق رفَضَ كل ما هو قادم من الشرق ، ومنهم مصطفى كمال أتاتورك ، والفريق الآخر رفض كل ما هو قادم من الغرب .



مصطفى كمال أتاتورك

● ولماذا لم يعش طويلا ذاك الطموح الإصلاحى ؟

– عندما ضَعف اتجاه المعتدلين المجددين لأسباب سياسية ، خاصة بعد

فساد المَلَكيــة ، فأخذ الاتجاه الإسلامى يكتسب أرضيــة ، وكان هذا محتَّما . فعندما يفشل الذين يُمسكون بزمام السلطة ، يتمهد الطريق لفوز أعدائهم .

● واليوم ، هل يجب السماح للإسلاميين بالمشاركة فى الحياة السياسية؟

– وهل أنا أُدْخِل وأُخرج الناس على هواى ؟ [يضحك] .

● ولكن ماذا تفعل العدالة ؟

– إذا ما دخل الإسلاميون فى الحياة السياسية ، فإن ذلك سيكون بقُوَّتهم وحدهم ، وإذا مــا أُبعدوا ، فإن ذلك سيكون بقــوة الآخَرين ، وخاصــة بقوة الدولة .

● لنَرجع إليك . كنتَ كــاتبا مشهــورا ، ومع ذلك كنتَ مضطرا إلى البقــاء موظفا لتكسب عيشك . فماذا فعلْتَ ؟

– كانت صحتى من حديد . كنت أعود من الوزارة فى نحــو الساعة الثانية ظهــرا . وبعد الغــداء أستريح فى قيلولة ثم أعمل حتى منتصف الليل . نِصْفُ قراءة ونصفُ كتابة .

● هل لــو أن كُتبك أدرَّت عليــك مـــــالاً كثيرا ، فهــل كنت ستكتــب شيئا مختلفا؟

– بالتأكيد .

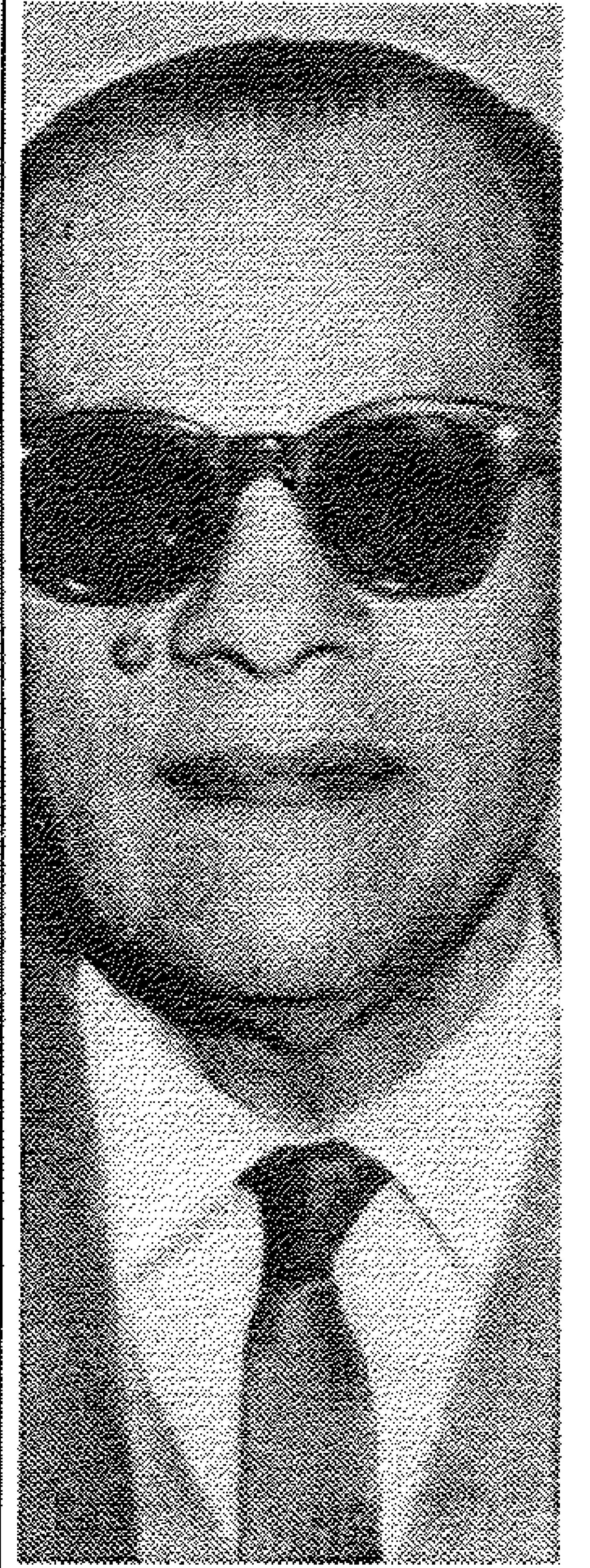
● ماذا ؟

– الله وحده يعلم ذلك [ثم انفجر ضاحكا طويلا وبصوت عالٍ] .

● فى فترة زمنية كنتَ مسئولا عن الرقــابة على الأفلام السينيمائية . ألم يكن ذلك أمرا جَد مضجرا ؟

– كنت أراقب الأفــلام والروايات المسرحيـــة . وليس القصص . ثم إننى كنت متفتحا إلى حد كبير ، ولست متسلطا .

● هل كنتَ تتوقع حصولك على جائزة نوبل ؟



نجيب محفوظ


توفيق الحكيم

– أبدا ، أبدا . وهناك حقا كُتاب كانوا جديرين أكثر بالحصول على تلك الجائزة : طه حسين ، العقاد ، توفيق الحكيم . لقد حصلت على جوائز مصرية. فكيف أرجو المزيد . لم أتوقع مطلقا الحصول على هذه الجائزة . لقد كنت قائلاً (أى نائما وقت القيلولة) ، فأيقظونى لإبلاغى بالنبأ .

● إنك لم تُبد اهتماما مُطْلقا بشهرتك العالمية . فأنت لم تخرج فى حياتك من بلدك سوى ثلاث مرات ، ولم تسافر قَط إلى صعيد مصر .

– سافرت إلى يوغوسلافيا لثلاثة أيام ، وإلى اليمن لثلاثة أيام ، وإلى انجلترا لإجراء عملية جراحية .

● وبالنسبة لفرنسا ؟

– لا ، مطلقا . وقد دعانى (الرئيس) « فرانسوا ميتران » للحضور إلى فرنسا عند عودتى من ستوكهولم ، لكننى لم أذهب بنفسى لتسلُّم جائزة نوبل .


نجيب محفوظ

● ولِمَ لم تذهب إلى ستوكهولم لتتسلم جائزتك ؟

– كنت مُتْعَبا آنذاك . ولم أكن أسمع جيدا . فكان الذى سيخاطبنى لن أجيبه فيحسبنى رجلا سيئ الخُلق (غير مهذب) .

● ما أصعب لحظة مرت بك فى حياتك ؟

– كان منها كثير .

● ربما كانت محاولة اغتيالك ؟

– نعم ، لقد حَرَمَتنى من المشى الذى كنت أُحب ممارسته . لم يَعُد باستطاعتى المشى لمسافة طويلة . وزاد هذا من سوء حالتى الصحية . كنت حينذاك ضعيف السمع والإبصار ، فزاد الأمر سوءا . أصبحت غير قادر على القراءة ، ولا مشاهدة التليفزيون ، ولا الذهاب إلى السينما ، ولا المسرح . وتقريبا لا أكتب . وبالتالى لا أستطيع تصوُّر وجودى بدون كتابة . إن هذا شقاء غاية فى القسوة .

sacrifier la justice, ou l'inverse, appliquer ...
rigoureuse et éliminer la liberté ...
l'exactitude de mon ...
nées d'opp...

... ies, en
... ie, l'is-
... vons
... able.
... eurs
... per
... à

Interview Naguib Mahfouz

prix Nobel de littérature en 1988

PAR MIREILLE DUTEIL

Sur un quai du Nil, dans Le Caire moderne, vit un vieux monsieur de 89 ans qui n'écrit plus aujourd'hui que des « rêves ». Joli mot pour une grande souffrance. Car Naguib Mahfouz, père du roman arabe moderne et prix Nobel de littérature 1988 pour sa « Trilogie », saga d'un millier de pages d'une famille cairote sur trois générations, ne peut plus écrire. Le poignard qu'un intégriste lui a plongé à la base du cou en octobre 1994 lui a enlevé l'usage de la main droite. Il a mis dix-huit mois avant de tracer de nouveau, maladroitement, des caractères lisibles. Et encore ne peut-il tenir une plume plus de trente minutes d'affilée. L'écrivain prolixe (auteur de 53 romans et de 5 pièces de théâtre) n'écrit plus que des contes très courts, de « petites perles », selon le mot de son ami, le dramaturge Mohamed Salmawy, qui reçut à Stockholm le prix Nobel à sa place.

nokta, ces mots d'esprit dont raffolent les Cairotes – et le rire qu'il laisse souvent éclater est magique.

Pour ses compatriotes, il n'est pas seulement un monument littéraire, le Maître, *Oustaz* Naguib, il est aussi un symbole de la tolérance face au fanatisme religieux. Faute de pouvoir écrire, le scribe du Caire continue chaque jeudi sa longue relation avec ses lecteurs d'*Al-Ahram*, le grand quotidien égyptien, via l'interview politico-littéraire qu'il donne à Mohamed Salmawy.

Vêtu d'une robe de chambre de soie bleu marine sur un pyjama rayé, celui qui aura été toute sa vie d'une ponctualité maladive ouvre soudain la porte à la minute précise où il avait fixé rendez-vous à ses visiteuses. « *Je vous attendais.* » ■

LE POINT : *Comment vous est venue l'envie d'écrire ?*

Naguib Mahfouz : Par accident. J'avais une douzaine d'années quand j'ai vu pendant la récréation un camarade lire un livre différent de nos manuels scolaires. Je l'ai interrogé. « C'est un roman. Je te le prêterai », m'a-t-il dit. Dès l'instant où je l'ai lu, je n'ai plus cessé de lire jusqu'au moment où ma vue a baissé. Enfant, je recopiais les contes et je mettais mon nom à la place de celui de l'auteur (*il rit*). Puis, à 19 ans, j'ai commencé à écrire.

LE POINT : *Quand vous avez choisi d'écrire sur les petites gens du Caire, quelle idée aviez-vous derrière la tête ?*

N. Mahfouz : Un écrivain regarde autour de lui, voit beaucoup de choses, puis il relate certains événements. Je ne placerai pas cette démarche sous une étiquette : le communisme, le socialisme… J'aime la justice et la liberté. Mes collègues, dans les années 60, s'interrogeaient : « Que faut-il choisir : opter pour la liberté et

... blème. Je pensais qu'il ... positifs, mais j'ai beaucoup regretté ... limite la démocratie. C'est la raison pour laquelle son idéologie n'a pas survécu.

LE POINT : *Que reste-t-il du nassérisme ?*

N. Mahfouz *(il rit très fort)* : Le nassérisme, qu'est-ce que c'est ?

LE POINT : *L'histoire de l'Egypte aurait-elle pu être autre ?*

N. Mahfouz : C'est sûr. Si le roi Farouk avait eu une personnalité différente, le pays aurait pu connaître un autre destin. La politique aurait été plus moderne. Nous n'aurions pas eu besoin de l'aide étrangère. Nous aurions évolué de façon naturelle, sans coup d'Etat.

LE POINT : *Le Caire des années 30-40 est, aux yeux des Occidentaux, une période fabuleuse, flamboyante…*

N. Mahfouz : C'est vrai. Le Caire était encore une petite ville, élégante, agréable, construite de bâtiments ayant beaucoup de charme. Même les quartiers populaires étaient balayés

LE P... N. Ma... LE PO... *de la confo...* N. Mah... théâtre n'étais ... LE POINT : N. Mahfou... vantage ... J'avais eu ... ne m'atte... sieste. On ...

« Zola, Balzac, Dickens sont mes maîtres »

... uvelle. ... *ne vous êtes jamais ... de votre réputation internationale. Vous êtes sorti trois fois du pays et n'êtes jamais allé en Haute-Egypte.*

N. Mahfouz : Je suis allé en Yougoslavie pour trois jours, au Yémen pour trois jours et en Angleterre pour une opération.

LE POINT : *Et en France ?*

N. Mahfouz : Non, jamais. François Mitterrand m'avait in-

جزء من النص الفرنسي للحوار مع « نجيب محفوظ »



ابنتا نجيب محفوظ : أم كلثوم وفاطمة تتسلمان الجائزة من
ملك السويد في حضور العلماء الفائزين و ١٨٢٠ ضيفا .

المحتوى

* * *

صدر منها :

١ - مطلع الفجر

٢ - السياسة والديبلوماسية جـ ١

٣ - السياسة والديبلوماسية جـ ٢

٤ - رجال صاغوا القرن جـ ١

٥ - رجال صاغوا القرن جـ ٢

٦ - صور وطرائف

٧ - فنون العصر

٨ - الألعاب الرياضية

تحت الطبع :

٩ - الإبداعات الأدبية

١٠ - نساء شهيرات جـ ١

١١ - نساء شهيرات جـ ٢

١٢ - الجرائم الكبرى

١٣ - الجاسوسية والإرهاب

١٤ - مسيرة العلم والتكنولوجيا

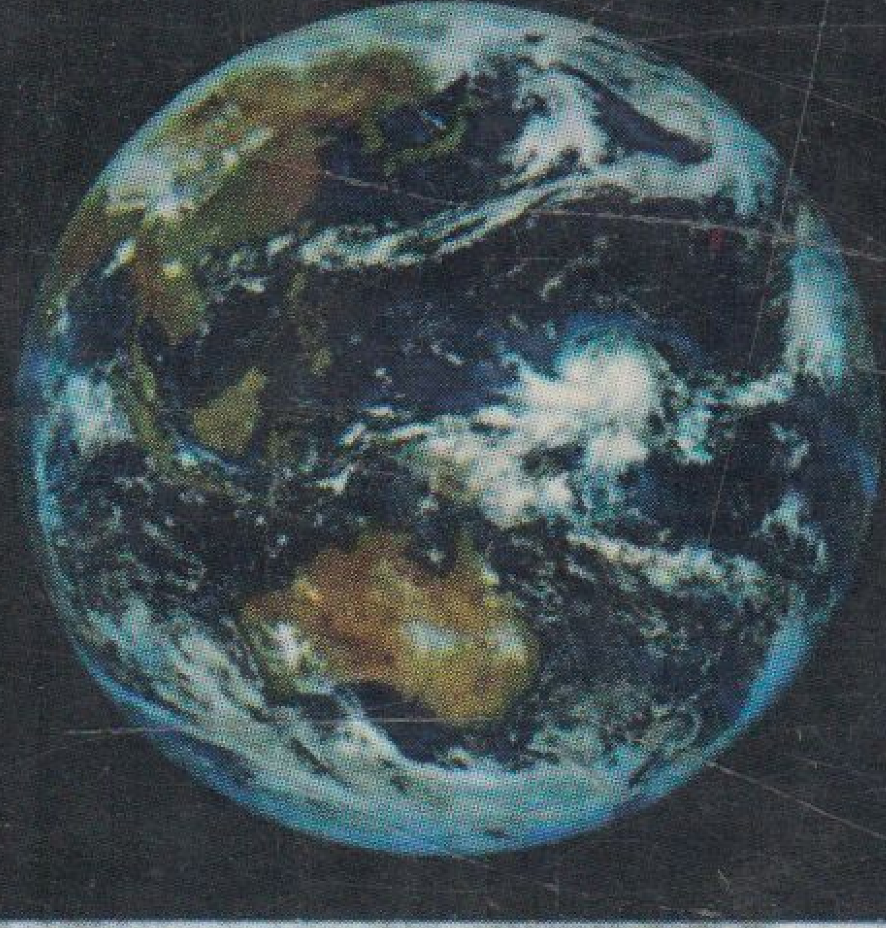
١٥ - الكوارث الكبرى

١٦ - السينيما العالمية : بدايات العصر الذهبى

عربية للطباعة والنشر
١٠٠٧ شارع السلام أرض اللواء المهندسين - تليفون : ٣٢٥٦٠٩٨ - ٣٢٥١٠٤٣

الإبداعات الأدبية

٩



يُلقى هذا الكتاب الضوء على ميادين إبداعية فى فنون القصة والرواية والمسرح، ويُعرِّف بنماذج من الرواد الكبار، الذين ابتكروا وطوّروا واجتهدوا فتألقوا، واقتفى آثارهم قادمون مبدعون فى مصر وبلاد المنطقة العربية. كما يعرض نماذج لأعلام وأعمال متميزة من دول مختلفة، تداخلت فيها الثقافات والابتكارات واختلطت مع نهاية القرن.

إن الأجيال دائما تذكر بالفضل والتبجيل أولئك، الذين أسهموا، أو يُسهمون فى ارتقاء تلك الآداب والفنون، التى أمتعت وأسعدت، وأيقظت ونبهّت، وسمت فهذبت، وكانت مرآة عصرها، ووثيقة قيّمة تعتز بها الأمم والشعوب!

إن مادة هذا الكتاب مفيدة وشهية، تجذب المرء وتجعله يُقبل عليها ليقرأها أكثر من مرة، فيجد مع كل قراءة تذوقا مختلفا، ومتعة جديدة!

الدار المصرية اللبنا

